

تَحْقِيقُ الْإِتِّبَاعِ
لِنَبِيِّنَا الْمَعْصُومِ
وَإِبْطَالِ التَّحَرُّبِ وَالتَّقْلِيدِ
الْأَعْمَى وَالتَّعَصُّبِ الْمَذْمُومِ

جمعه

د. أبو عبدالرحمن فاروق بوست الأمريكي

جمع مادة 1435، و راجعه 1444هـ

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنْتُمْ مُسْلِمُونَ} [آل عمران: 102].

{يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا} [النساء: 1]

{يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً} [الأحزاب: 70، 71].

أما بعد؛ فإن أصدق الحديث كتاب الله تعالى، وخير الهدي هدي محمد صلى الله عليه وسلم، وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار. (1)

فالمسلمون اليوم في حاجة ماسة إلى معرفة معنى الاتباع وتطبيقه في حياتهم ليتربوا على التمسك بالوحيين (الكتاب والسنة) مع الاستفادة من جميع أقوال أئمة أهل السنة دون التقليد الأعمى والتعصب والتحزب لأحد غير الرسول صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام. ومن دوافع جمع هذه المادة ما شاهده وسمعه في الغرب (أمريكا) من بعض المسلمين الذين يظنون أن الإسلام محصور في مذهب أو شخص معين، أو أنه يجب على جميع المسلمين أن يتمذهبوا أو يقلدوا أو يتبعوا شخصاً معيناً غير النبي صلى الله عليه وسلم.

فالمسلم الجديد يدخل في الإسلام ويفاجأ بوجود عدة مذاهب عقدياً وفقهياً وفكرياً ومنهجياً إلخ... فيقف متحيراً ومترددًا منها، ويجد أن كل مذهب وحزب وشيخ يدعي أنه على الحق. ففي بداية الأمر المسلم الجديد لا يملك حصيلة علمية كافية ليميز بين الحق والباطل، والراجح والمرجوح، ولا يعلم أن القرآن والسنة هما الميزان الذي توزن فيها جميع الأفعال والأقوال والعقائد (2)، فلقلة علمه معرفته يقلد من حوله في مجتمعه ومسجده فينشأ

1 - هذه خطبة الحاجة التي كان النبي صلى الله عليه وسلم يستفتح بها خطبه كلها رواها الإمام أحمد في المسند (1/392-293)، وأبو داود (2118)، والترمذي (1105)، وابن ماجه (1892) في

سننهم وهو صحيح

2 - و ذكر ابن القيم في مدارج السالكين 96/1: "وَقَالَ أَبُو حَفْصٍ رَجَمَهُ اللَّهُ: مَنْ لَمْ يَزِنْ أَفْعَالَهُ وَأَحْوَالَهُ فِي كُلِّ وَقْتٍ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ. وَلَمْ يَتَّهَمْ خَوَاطِرَهُ. فَلَا يُعَدُّ فِي دِيْوَانِ الرِّجَالِ."

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

في الإسلام معتقداً أنه لا بد له أن ينتمي إلى حزب أو يقلد مذهباً أو شخصاً غير الرسول -صلى الله عليه وسلم- ويستمر على ذلك إلى أن يتعلم كيف يتبع المسلم القرآن و السنة على فهم السلف الصالح. والأغلبية منهم لا يدوقون حلاوة شهادة أن محمد رسول الله الذي هو الاتباع الحقيقي- والإسلام الصحيح(1) - مبني على الوحيين وفهم السلف الصالح.

فلذلك أردت أن أذكر إخواني بأن الإسلام الصحيح هو الذي ليس فيه التعصب ولا الانتساب إلى أحد من البشر إلا إلى ورسول الله-صلى الله عليه وسلم- في ضوء فهم السلف الصالح.

وكذلك من دوافع جمع هذه المادة ما رأيتُ بعيني وسمعتُ بأذني من بعض طلبة العلم الذين ينتسبون إلى "السلفية" في أمريكا لكن قد وقعوا في التقليد المذموم(2) للمذاهب والأشخاص وطوائف، والذي أدى إلى التفرق والتنازع الشديد حتى وصل الأمر عند بعضهم إلى التبديع والتفسيق والتكفير لمن خالفهم من السلفيين في مسائل اجتهادية -بدون دليل و لا برهان- فبناءً على هذا أردتُ أن أوجه نصيحةً للجميع التي تشتمل على بيان حقيقة الاتباع، وأهميته، وفوائده، وأمثلة تطبيقاته من خير القرون، وأهم صفات أهل الاتباع، والآثار الطيبة المترتبة على تطبيقها والآثار السيئة المترتبة على ترك الاتباع، وبعض العوائق التي تصدّ الناس عن الاتباع مع بيان مساوئ هذه العوائق.

ولنستحضر ونتذكر ونذكر ما وقع فيما مضى من تاريخ المسلمين بسبب ترك الاتباع والوقوع في التقليد الأعمى والتعصب المذموم ذكرتُ تاريخ التعصب وآثارها المفسدة للفرد والمجتمع لنتعظ ولا نعود إلى ما وقع فيه السابقون.

وقد شاهدت في أمريكا بعض المنتسبين إلى السلفية من طلبة العلم ومقلديهم منهم يعاملون إخوانهم من أهل السنة معاملة أهل البدع- في التحذير والتجريح والهجر والتبديع والتفسيق، مع أن من أصول أهل السنة أن يبينوا أخطاء كل من خالف القرآن والسنة وفهم السلف، بدون محاباة لأحد، ولكن إذا تكلم أحدٌ في شخصٍ ينبغي أن يتكلم بالعلم والأدب والدليل ويلتزم ألفاظ الشرع وينقد الأقوال والأفكار الباطلة بالبراهين ولا يستعجل

1 -ذكر شيخنا الشيخ وصي الله عباس في "التقليد وحكمه في ضوء الكتاب والسنة و الآثار السلفية" (ص73): "وأمر واقع أن المسلم الجديد يختار فيما يختار حينما يتسابق إليه أصحاب المذاهب ويتجاذبونهم إلى مذهبهم ويذمون المذهب الآخر، وزيادة عليه هناك القادياني والشيعي والبابي والبهائي والبريلوي كل هؤلاء يهرعون إليه ليجعلوه فردا منهم والله المستعان." انتهى كلامه

2 -وهو التقليد الأعمى الذي يقلد الإنسان غيره في الحق والباطل سواء .والتقليد: هو العمل بقول من ليس قوله حجة في الشرع، و كذلك العمل بعمل من ليس عمله حجة في الشرع.

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

أو يتسرع في الكلام على الذوات إلا بعد اليقين التام والتثبت مع مراعاة المصالح والمفاسد في ذلك كله.

وكما هو معروف أن أهل السنة أرحم الناس بالخلق (1) في دعوتهم وتعاملهم و نصيحتهم، فينبغي أن يكون تعامل أهل السنة فيما بينهم بالرفق والأدب والعلم والورع. لكن للأسف بعض طلبة العلم ومقلديهم يوافقون ويقلدون كل رأي صدر من مشايخهم بدون سؤال عن الأدلة أو العلة، وجعلوا آراء واجتهادات ونصائح مشايخهم كأنها وحى منزل من الله، لا يجوز مخالفته البتة، فكانهم فقدوا ما أنعم الله عليهم من العقل و التفكير و التأمل- والله المستعان.

وهذه النعمة، نعمة العقل (2) مما أختص الله تعالى بها الإنسان و ميزه بها عن سائر المخلوقات لو لا العقل لما عرف الإنسان دين الإسلام والذي به يميز بين الحق و

1 - يقول ابن تيمية رحمه الله في الرد على البكري 490/2: "وأئمة السنة والجماعة و أهل العلم والإيمان فيهم العلم و العدل و الرحمة فيعلمون الحق الذي يكونون به موافقين للسنة سالمين من البدعة و يعدلون على من خرج منها ولو ظلمهم كما قال تعالى (كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَا نَقَوْمَ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى) المائدة: 8 و يرحمون الخلق فيريدون لهم الخير و الهدى و العلم لا يقصدون الشر لهم ابتداء بل إذا عاقبوه و بينوا خطأهم و جهلهم و ظلمهم كان قصدهم بذلك بيان الحق و رحمة الخلق و الأمر بالمعروف و النهي عن المنكر و أن يكون الدين كله لله و أن تكون كلمة الله هي العليا." انتهى كلامه. و أقول: "و تطبيق هذا عمليا يكون وفق قوله تعالى: (ادْعُ إِلَى سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحُكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُمْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ) النحل: 125

2 - وذكر الدارمي في سننه في كتاب العلم باب رسال عباد بن عباد الخواص الشامي 506/1 رقم 675 (عَنْ عِبَادِ بْنِ عِبَادٍ الْخَوَّاصِ الشَّامِيِّ أَبِي عُثْبَةَ، قَالَ: أَمَّا بَعْدُ، " اعْقُلُوا، وَالْعَقْلُ نِعْمَةٌ، فَرُبَّ ذِي عَقْلٍ، قَدْ شُغِلَ قَلْبُهُ، بِالتَّعَمُّقِ فِيمَا هُوَ عَلَيْهِ ضَرَرٌ، عَنْ الْإِنْتِفَاعِ بِمَا يَحْتَاجُ إِلَيْهِ حَتَّى صَارَ عَنْ ذَلِكَ سَاهِيًا، وَمِنْ فَضْلِ عَقْلِ الْمَرْءِ، تَرْكُ النَّظَرِ فِيمَا لَا نَظَرَ فِيهِ، حَتَّى لَا يَكُونَ فَضْلُ عَقْلِهِ، وَبِالْأَعْلَى عَلَيْهِ فِي تَرْكِ مُنَافَسَةِ مَنْ هُوَ دُونَهُ فِي الْأَعْمَالِ الصَّالِحَةِ، أَوْ رَجُلٍ شُغِلَ قَلْبُهُ بِبِدْعَةٍ، قَلَّدَ فِيهَا دِينَهُ، رَجَالًا دُونَ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. أَوْ اكْتَفَى بِرَأْيِهِ فِيمَا لَا يَرَى الْهُدَى إِلَّا فِيهَا، وَلَا يَرَى الضَّلَالَةَ إِلَّا بِتَرْكِهَا، يَزْعُمُ أَنَّهُ أَخَذَهَا مِنَ الْقُرْآنِ، وَهُوَ يَدْعُو إِلَى فِرَاقِ الْقُرْآنِ. أَفَمَا كَانَ لِلْقُرْآنِ حَمَلَةٌ قَبْلَهُ، وَقَبْلَ أَصْحَابِهِ يَعْمَلُونَ بِمُحْكَمِهِ، [ص: 507] وَيُؤْمِنُونَ بِمُتَشَابِهِهِ؟ وَكَانُوا مِنْهُ عَلَى مَنَارٍ لَوْضَحِ الطَّرِيقِ، وَكَانَ الْقُرْآنُ إِمَامَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِمَامًا لِأَصْحَابِهِ، وَكَانَ أَصْحَابُهُ أَيْمَةً، لِمَنْ بَعْدَهُمْ رَجَالٌ مَعْرُوفُونَ مَنُوسُوبُونَ فِي الْبُلْدَانِ، مُتَّفِقُونَ فِي الرِّدِّ عَلَى أَصْحَابِ الْأَهْوَاءِ، مَعَ مَا كَانَ بَيْنَهُمْ مِنَ الْإِخْتِلَافِ، وَتَسَكَّعَ أَصْحَابُ الْأَهْوَاءِ بِرَأْيِهِمْ فِي سُبُلٍ مُخْتَلِفَةٍ جَانِزَةٍ عَنِ الْقَصْدِ، مُفَارِقَةٍ لِلصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ، فَتَوَهَّتْ بِهِمْ أَدِلَالُهُمْ فِي مَهَامَةٍ مُضِلَّةٍ، فَأَمْعَنُوا فِيهَا مُتَعَسِّقِينَ فِي تَيْبِهِمْ. كُلَّمَا أَحْدَثَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ بِدْعَةً فِي ضَلَالَتِهِمْ، انْتَقَلُوا مِنْهَا إِلَى غَيْرِهَا، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَطْلُبُوا أَثَرِ السَّابِقِينَ، وَلَمْ يَقْتَدُوا بِالْمُهَاجِرِينَ. وَقَدْ ذُكِرَ عَنْ عُمَرَ أَنَّهُ قَالَ لِزِيَادٍ: هَلْ تَدْرِي مَا يَهْدُمُ الْإِسْلَامَ؟ زَلَّةُ عَالِمٍ، وَجِدَالُ مُنَافِقٍ بِالْقُرْآنِ، وَأَيْمَةُ مُضِلُونَ) وإسناده ضعيف لأجل جهالة عبد الملك الأنطاكي

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الباطل، وبين الخبيث و الطيب، و بين المعروف والمنكر، فقد جعل الله الإنسان بالعقل يدرك حقائق الأشياء ويميز بينها و بالعقل يهتدي إلى تحقيق المصالح و اتقاء المضار و به يتواصل مع بني جنسه و لو لا العقل لظل الإنسان مثل بقية السوائم.

قال تعالى: {وَلَقَدْ كَرَّمْنَا بَنِي آدَمَ وَحَمَلْنَاهُمْ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَرَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ وَفَضَّلْنَاهُمْ عَلَى كَثِيرٍ مِمَّنْ خَلَقْنَا تَفْضِيلًا} الإسراء: 70

وفضّل الله بني آدم على غيرهم من المخلوقات –الجمادات والحيوانات والنباتات بهذا العقل.

وقد مدح الله تعالى عباده أصحاب العقول السليمة وحثهم على التعقل في آيات كثيرة فمن هذه الآيات:

قال تعالى: {اتَّامِرُوا النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ وَأَنْتُمْ تَتْلُونَ الْكِتَابَ أَفَلَا تَعْقِلُونَ} البقرة: 44

و قال تعالى : {كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} البقرة: 242

قال تعالى: {قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبِّيَ عَلَيْهِمْ عَلَيْهِمْ أَلَّا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَلَا تَقْتُلُوا أَوْلَادَكُمْ مِنْ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ وَلَا تَقْرَبُوا الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطْنٌ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ ذَلِكَمْ وَصَاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ} الأنعام: 151

و قال تعالى: {قَالَ رَبُّ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَمَا بَيْنَهُمَا إِنْ كُنْتُمْ تَعْقِلُونَ} الشعراء: 28
و قال تعالى: {وَلَقَدْ أَضَلَّ مِنْكُمْ جِبِلًّا كَثِيرًا أَفَلَمْ تَكُونُوا تَعْقِلُونَ} يس: 62

والله تعالى لم يذكر في القرآن كلمة العقل بصيغة الاسم إنما ذكر التعقل بصيغة الفعل و قد ذكر هذه الوظيفة للإنسان في القرآن في تسعة وأربعين موضعاً (1) وعزا التعقل والتفقه إلى القلب فيها فقال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} الحج: 46

و قال تعالى: {وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْجِنَّ وَالْإِنْسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ} الأعراف: 179

¹ -انظر إلى بعض منها: البقرة: 76,73, آل عمران: 65,118, الأنعام: 32, الأعراف: 169, يونس: 16, هود: 51, يوسف: 2,109, الأنبياء: 10,67, المؤمنون: 80, النور: 61, القصص: 60, الصافات: 138, غافر: 67, الزخرف: 3, الحديد: 17 و غيرها

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و كذلك ذكر في القرآن وظائف العقل مثل: التذكر و التفكير و النظر و الفقه و التدبر لتدل كلها على التعقل الذي ميز الله به الإنسان عن سائر المخلوقات و كما ذكر الله في القرآن القلب ذكره بألفاظ أخرى كالقواد و الحجر, و مدح أولى الألباب و أولى النهي(1). و ذكر الله تعالى من صفات أصحاب العقول السليمة المستقيمة أنهم كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} الزمر:18

و قد بين الله تعالى بأن العلاقة بين العقل و الحواس علاقة وثيقة فقال تعالى:

و قال تعالى: {أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ} الحج:46

و قال تعالى: {وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُونَ إِلَيْكَ أَفَأَنْتَ تَسْمَعُ الصَّمَّ وَلَوْ كَانُوا لَا يَعْقِلُونَ} يونس:42

وقال تعالى {وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُحْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ} البقرة: 171

وقد ذم الله أصحاب العقول الفاسدة والغافلة كما قال تعالى:

{وَمِنْهُمْ مَنْ يَسْتَمِعُ إِلَيْكَ وَجَعَلْنَا عَلَى قُلُوبِهِمْ أَكِنَّةً أَنْ يَفْقَهُوهُ وَفِي آذَانِهِمْ وَقْرًا وَإِنْ يَرَوْا كَلَّ آيَةٍ لَا يُؤْمِنُوا بِهَا حَتَّى إِذَا جَاءُوكَ يُجَادِلُونَكَ يَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا إِنْ هَذَا إِلَّا أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ} الأنعام: 25

وقال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الصَّمُّ الْبُكْمُ الَّذِينَ لَا يَعْقِلُونَ} الأنفال:22

وقال تعالى: {إِنَّ شَرَّ الدَّوَابِّ عِنْدَ اللَّهِ الَّذِينَ كَفَرُوا فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ} الأنفال:55

قال تعالى: {رَضُوا بِأَنْ يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} التوبة:87

قال تعالى: {وَإِذَا مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ نَظَرَ بَعْضُهُمْ إِلَى بَعْضٍ هَلْ يَرَاهُمْ مِنْ أَحَدٍ ثُمَّ انْصَرَفُوا صَرَفَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَفْقَهُونَ} التوبة:127

و قال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ آمَنُوا ثُمَّ كَفَرُوا فَطُبِعَ عَلَى قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ} المنافقون:3

1 -ذكر أولى الألباب: في عدة مواضع منها: البقرة: 179, 197, 269, آل عمران:7, 190, المائدة:100, يوسف:111, الرعد:19, إبراهيم:52, ص:29, 43, الزمر:9, 18, 21, غافر:54, الطلاق:10. و أولى النهى: طه: 54, 128. الحجر: الفجر:5... هذا من مقالة د. راجح الكردي

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ﴾ الأعراف: 179

و قال تعالى: ﴿أَمْ تَحْسَبُ أَنَّ أَكْثَرَهُمْ يَسْمَعُونَ أَوْ يَعْقِلُونَ إِنْ هُمْ إِلَّا كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ سَبِيلًا﴾ الفرقان: 44

فإذا فقد الإنسان عقله أو لم ينتفع به (بعقله السليم-التابع للوحيين الذي يقوده إلى تدبر الوحي والفقه فيه و يبعده عن الشر فوجوده كعدمه؛ لأنه لم يستعمله بصورة صحيحة، وقد تشبه بالبهيمة التي تأكل و تشرب و لا تعقل شيئاً، بل إن البهيمة خير منه كما في الآية السابقة؛ لأنها لا تخرج بطوعها عن فطرة الله تعالى.

فمن فسد عقله سيجد أن فهمه للنصوص والدين و منهج السلف وأقوال العلماء ناقص؛ لأن العقل السليم لا يعارض النقل الصريح، فمن لا يستعمل عقله بصورة صحيحة و لم ينتفع به ليعينه على اتباع الحق واجتناب الباطل أصبح كمن لا عقل له وصار أضل سبيلاً من الأنعام و من شر دواب على وجه الارض. فنسأل الله أن يوفقنا لاتباع هذا الدين على فهم السلف الصالح ويطهر عقولنا وقلوبنا من أسباب الغفلة ويعيننا على منع تسليم قيادة عقولنا و تفكيرنا و عقيدتنا لغير المعصومين.

و قال عبدالله بن المعتز (1): "لا فرق بين بهيمة تُفَادُ و إنسانٌ يَقْلُدُ." (2)

و قد نظم ابن عبد البر في التقليد أبياتاً:

يَا سَائِلِي عَنْ مَوْضِعِ التَّقْلِيدِ خُذْ عَنِّي الْجَوَابَ بِفَهْمٍ لَبِّ حَاضِرِ
وَاصْنِ إِلَى قَوْلِي وَدِنْ بِنَصِيحَتِي وَاحْفَظْ عَلَيَّ بَوَادِرِي وَنَوَادِرِي
لَا فَرْقَ بَيْنَ مُقَلِّدٍ وَبَهِيمَةٍ تَتَّقَا بَيْنَ جَنَائِلٍ وَدَعَاثِرِ (3)

1 - هو عبدُ الله ابنُ المُعْتَزِّ بالله مُحَمَّدُ الهَاشِمِيُّ ولد 249 هـ و توفي 296 هـ انظر ترجمته: تاريخ الطبري: 10 / 140 - 141، أشعار أولاد الخلفاء: 107 - 296، مروج الذهب: 2 / 501 - 503، الاغانى: 10 / 286 - 296، فهرست ابن النديم: 168 - 169، تاريخ بغداد: 10 / 95 - 101، نزهة الالباء: 233 - 234، المنتظم: 6 / 84 - 88، الكامل في التاريخ: 8 / 16 14، وفيات الأعيان: 3 / 76 80، العبر: 2 / 104 - 105، ديوان لاسلام: 1 / 179 - 180، فوات الوفيات: 2 / 239 - 246، مرآة الجنان: 2 / 225 - 227، البداية والنهاية: 11 / 108 110، النجوم الزاهرة: 3 / 165 - 167، معاهد التنصيص: 2 / 38، مفتاح السعادة: 1 / 199 - 200، شذرات الذهب: 2 / 221 - 224.

2 - جامع بيان العلم و فضله 169/2 رقم: 1887

3 - المصدر السابق 170/2 رقم: 1888

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

ذكر شيخ الإسلام ابن تيمية - وَلِهَذَا التَّرْتِيبُ وَجْهٌ مَعْقُولٌ وَهُوَ أَنَّ قُوَى الْإِنْسَانِ ثَلَاثٌ: قُوَّةُ الْعَقْلِ وَقُوَّةُ الْغَضَبِ وَقُوَّةُ الشَّهْوَةِ. فَأَعْلَاهَا الْقُوَّةُ الْعَقْلِيَّةُ - الَّتِي يَخْتَصُّ بِهَا الْإِنْسَانُ دُونَ سَائِرِ الدَّوَابِّ وَتُشْرِكُهُ فِيهَا الْمَلَائِكَةُ كَمَا قَالَ أَبُو بَكْرٍ عَبْدُ الْعَزِيزِ مِنْ أَصْحَابِنَا وَغَيْرُهُ: خُلِقَ لِلْمَلَائِكَةِ عُقُولٌ بِلَا شَهْوَةٍ، وَخُلِقَ لِلْبَهَائِمِ شَهْوَةٌ بِلَا عَقْلِ وَخُلِقَ لِلْإِنْسَانِ عَقْلٌ وَشَهْوَةٌ فَمَنْ غَلَبَ عَقْلُهُ شَهْوَتُهُ فَهُوَ خَيْرٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ وَمَنْ غَلَبَتْ شَهْوَتُهُ عَقْلُهُ فَالْبَهَائِمُ خَيْرٌ مِنْهُ....(1)

و ذكر ابن القيم مثله في الفوائد: ...جمع فيك عقل الملك وشهوة البهيمة وهوى الشيطان وأنت للغالب عليك من الثلاثة إن غلبت شهوتك وهواك زدت على مرتبة ملك وإن غلبك هواك وشهوتك نقصت عن مرتبة كلب... (2)

وذكر ابن الجوزي في تلبيس إبليس: " وفي التقليد إبطال منفعة العقل، لأنه إنما خلق للتأمل والتدبر وقبيح بمن أعطي شمعة يستضيء بها أن يطفئها ويمشي في الظلمة"(3)

قال الشيخ العلامة ناصر الدين الألباني تنبيهها على هذا:

"على المسلم البصير في دينه، الرحيم بنفسه أن لا يسلم قيادة عقله، و تفكيره و عقيدته لغير المعصوم، مهما كان شأنه في العلم و التقوى و الصلاح، بل عليه أن يأخذ من حيث أخذوا من الكتاب و السنة إن كان أهلاً لذلك و إلا سأل المتأهلين لذلك و الله تعالى يقول: {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} النحل: 34 (4)

و ذكر ابن القيم في زاد المعاد في فقه قصة فُذُومَ وَفِدِ دَوْسَ عَلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَبْلَ ذَلِكَ بِخَيْرٍ قَالَ: " لَا يَنْبَغِي لِلْعَاقِلِ أَنْ يُقَلِّدَ النَّاسَ فِي الْمَدْحِ وَالذَّمِّ، وَلَا سِيَّما تَقْلِيدَ مَنْ يَمْدَحُ بِهِوًى وَيَذُمُّ بِهِوًى، فَكَمْ حَالٌ هَذَا التَّقْلِيدُ بَيْنَ الْقُلُوبِ وَبَيْنَ الْهُدَى، وَلَمْ يَنْجُ مِنْهُ إِلَّا مَنْ سَبَقَتْ لَهُ مِنَ اللَّهِ الْحُسْنَى"(5)

و من عوامل انحطاط كثير من المسلمين وتأخرهم: التقليد والتعصب للمذاهب والأشخاص و قد أدت هذه الأشياء إلى مسخ العقول وتسلب الأعداء وفتنة وشر وأصبحوا لا يفكرون إلا بعقول غيرهم.

1 -مجموع الفتاوى 428/15

2 -الفوائد ص 79 ط دار الكتب العلمية

3 -تلبيس إبليس 74/1

4 -السلسلة الصحيحة 190/1

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

عَنْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: ((جُعِلَتْ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ خَمْسُ فِتَنٍ: فِتْنَةُ عَامَّةٍ، ثُمَّ فِتْنَةُ خَاصَّةٍ، ثُمَّ فِتْنَةُ عَامَّةٍ، ثُمَّ فِتْنَةُ خَاصَّةٍ، ثُمَّ تَأْتِي الْفِتْنَةُ الْعَمِيَاءُ الصَّمَاءُ الْمُطِيقَةُ الَّتِي تَصِيرُ النَّاسُ فِيهَا كَالْأَنْعَامِ)) (1)

و للتقليد الأعمى والتحزب والتعصب المذهبي في الدين مساوي عظام وعظائم سيئة، ولها دور كبير في إيقاع الناس في الغفلة وترك استعمال عقولهم، فما خرجت القدرة والشيعية والخوارج إلا بالتقليد، وتركهم للاتّباع، وما وجدت مذاهب عقديّة أخرى من الاعتزال والأشعرية والماتريدية والنقشبندية والبريلوية والزيدية والأحزاب العصرية وغيرها إلا بترك الاتّباع والتزام الناس بما لا يلزمهم، بل لا يجوز، وإيجاب ما لم يوجبه الله، بل بمخالفة أمر الله.

واعلموا رحمكم الله أن العوائق التي صدت الناس عن الاتّباع كثيرة وهي منتشرة كثيرة اليوم. وبسبب عدم تثقيف الناس في فهم الاتّباع الحقيقي وقع كثير من المسلمين في التقليد الأعمى والتعصب والتحزب المذموم والبدع والشبهات والشهوات وكذلك عملوا بالأحاديث الضعيفة والموضوعة والله المستعان.

والواقع في هذه العوائق أدّت إلى تشتيت شمل المسلمين عامة و ربما سببت التفرق و التنازع بين أهل السنة خاصة. وللأسف نرى في عصرنا الحاضر أن التحزب والتعصب والتقليد الأعمى للمذاهب وللأشخاص أظهر من الاتّباع والتمسك بالكتاب و السنة على فهم السلف الصالح في كثير من الدول الإسلامية.

و من العجب كما نرى في الواقع و كما ذكر شيخنا الشيخ وصي الله عباس حفظه الله: " أمرُ أصحاب المذاهب، يتعصبون للأئمة في المسائل الفرعية وهم قد نهوهم عن تقليدهم و تقليد غيرهم. وأما الفقه في العقيدة الذي هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، فهم مخالفون لهم (الأئمة الأربعة) فيه، فأكثرهم خالفوا الأئمة الذين انتسبوا إليهم واتبعوا المذهب الأشعري(2) سوى الإمام أحمد فكانوا رمزاً للعقيدة الصحيحة السلفية على مر القرون إلا قليلاً منهم. و أما المذاهب الثلاثة الأخرى فأكثر أتباعها كانوا على غير مذهب السلف (في العقيدة)...(3) وفيهم قلة كانوا على العقيدة السلفية بعد انتشار المذاهب في

1 - ذكره الحاكم في المستدرک 4/484، برقم 8350 و قال الحاكم: «هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، وَلَمْ يُخَرِّجَاهُ» و صححه الذهبي، و في رواية: " ثم تكون فتنة سوداء مظلمة ، يكون الناس فيها كالبهائم " في المستدرک 4/550 برقم 8540 و حكم عليه الحاكم بالصحة و وافقه الذهبي

2 أو جهمي، أو معتزلي، أو صوفي ماتريدي، أو خارجي، أو شيعي و يختلفون في "الطريقة" نقشبدي، بريلوي، تجاني، جيلاني إلخ... فما أعجب من هذا!!

3 - الاتباع للشيخ وصي الله عباس ص80

القرن الرابع، وأما قبله فأتباع الأئمة كلهم فيما يظهر كانوا على عقيدة الصحابة سلفنا الصالح.(1)

و كما ذكر لي شخصية في مكة مباركة-أدام الله خيرها و خير أهلها-الشيخ سعد الحصين رحمه الله : "أما اليوم فالعلماء المقلدون يصفون أنفسهم بأنهم "حنفي أو مالكي أو شافعي في المذهب أشاعرة في الاعتقاد وصوفية في الطريقة والسلوك."

كما ذكر ابن تيمية: " وَهَذَا لِأَنَّ الْأَئِمَّةَ قَدْ انْتَسَبَ إِلَيْهِمْ فِي الْفُرُوعِ طَوَائِفٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُخَالَفِينَ لَهُمْ فِي الْأَصُولِ مَعَ بَرَاءَةِ الْأَئِمَّةِ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَتْبَاعِ، وَهَذَا مَشْهُورٌ فَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتُ قَدْ انْتَسَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ، وَغَيْرِهِمْ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي الْفُرُوعِ مَعَ أَنَّهُ وَأَصْحَابُهُ كَانُوا مِنْ أَبْرَارِ النَّاسِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُعْتَزَلَةِ وَكَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ، حَتَّى قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَعَنَ اللَّهُ عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ هُوَ فَتَحَ عَلَى النَّاسِ الْكَلَامَ فِي هَذَا(2)... وَمَا زَالَ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِهِ يُنَادُونَ الْمُعْتَزَلَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَقَدْ كَانَ بِشَرِّ بْنِ غِيَاثٍ الْمُرَيْسِيِّ رَأْسُ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَاضِي الْقَضَاةِ، وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ الْمُعْتَزَلَةِ وَغَيْرِهِمْ قَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ يَنْتَسِبُونَ فِي الْفُرُوعِ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَوْقَدُوا نَارَ الْحَرْبِ حَتَّى جَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ الْمِحْنَةُ الْمَشْهُورَةُ عَلَى تَعْطِيلِ الصِّفَاتِ وَالْقَوْلِ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ.(3)

وقال الشيخ الدكتور وصي الله عباس -حفظه الله- "حتى جاءت قرون كان أصحاب الحديث و أصحاب العقيدة السلفية في قلة و ذلة من إخوانهم المسلمين...و وصل الحال في التعصب المذهبي في العقيدة و الفقه إلى حد كان يُمنع أصحاب العقيدة السلفية من الجهر بها، و كذلك يؤدي من كان يدرس و يُدرّس كتب السنة غير كتب الفقه التي تبنتها الدولة و علماؤها. و ما أودى الإمام أحمد بن حنبل-رحمه الله- و من معه إلا من المخالفين لعقيدة السلف، و المتعصبين للمذاهب. ثم ما أودى ابن تيمية و تلاميذه إلا من المتعصبين. و (لو رجعنا) إلى عهد الصحابة و التابعين لم نجد مذاهب منسوبة إلى أحد من الصحابة أو التابعين فلم نجد أحد يقول: أنا بكري (أبو بكر الصديق) أو أنا عمري (عمر بن الخطاب) أو عثمانى أو علوي أو عباسي أو مسعودي في الانتساب إلى فقههم، و حتى الأئمة الأربعة أنفسهم لم نجدهم على ذلك. و حتى تلاميذ الأئمة الأربعة لم يكونوا يتعصبون(يلتزمون) لرأي شيوخهم إلا إذا رأوه موافقا للدليل، و قد كانوا يخالفون أئمتهم،

1 -المصدر السابق ص86

2 -ذم الكلام للهروي 28-31

3 -الفتوى الكبرى لابن تيمية 6/86

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و الشيخ الكريم كان لا يجد في نفسه حرجاً من مخالفة تلميذه، بل ربما رجع إلى قول تلميذه، و أثنى على مخالفته له." (1)

و كما انتشر التقليد في الفقه انتشر التقليد الأعمى للأشخاص و جعلوا الجمهورية و الأكثرية علامة صدق و حق لا يجوز رده، و جعلوا كثرة التزكيات دليل على صدق وقوة علم المادح أو الجارح و صار الاتباع يوافقون كل ما قال شيخهم، و إن يسألوا شيخهم عن دليله يرد قائلاً: "أترى أني أتكلم من هواي؟ أو "ألست ثقةً عندك، فإن لم أكن ثقةً عندك فقم و اخرج من مجلسنا." فبعض طلبة العلم يرفعون كل من وافقه في اجتهاده و رأيه، و إن خرج ذلك الشخص عن قيد الطاعة أو الموافقة، ينزلونهم أحط وأخس منزلة من الناس . و لا شك أن هذا ناتج من أحد الشئيين: إما نقص في التصور، أو التسرع في المدح و الذم. فأصبح بعض المنتسبين إلى أهل السنة قد وقعوا في التشبه بالصوفية والإخوان المسلمين(2) في هذه المسألة.

وقد قال الشيخ سعد الحصين -رحمه الله تعالى-: "أما المريد الصوفي أو الحزبي فإنه (اختياراً للعبودية البشرية وبئس الاختيار) لا يستغني عن قيد الحمار في رجله ومقود البغل في رقبته يحكمه بهما شيخ الطريقة أو مرشد الحزب أو أمير الجماعة في الدين والدعوة، (الدعوة بخاصة)، ومن وراء هذه الرموز يحكمه الشيطان باسم الشيخ والمرشد وبدعهم الفكرية الموصوفة زوراً بالإسلامية. ولم يسلم السلفيون المعاصرون من كيد الشيطان ومكره فاستقلَّ أعداد منهم كلُّ بشيخه من السلفيين يوالون فيهم ويعادون فيهم بذواتهم، وليس بما منَّ الله به عليهم من الالتزام بنصوص الوحي كما فقهها الصحابة والتابعون وتابعوهم في القرون الخيرة؛ فصاروا بذلك مقلِّدين، لا متبعين سلفيين، وإن ظنوا غير ذلك.

وليت الأمر توقف عند مجرد التقليد مع الاحتفاظ بدعوى الاتباع، ولكنه تحوّل إلى غلو في الشيخ إلى درجة تبديع وتفسيق (إن لم يكن تكفير) من يخالف الشيخ (في مسألة أو

1 -الاتباع للشيخ وصي الله عباس مقدمة بحثه و ص 88 بتصرف . انظر في هذه المسألة في كتب المذاهب كحاشية ابن عابدين 62/1، النافع الكبير ص93، خطبة المؤمل ص 112، و انظر ما ذكره الألباني في صفة صلاة النبي ص55

2 -الإخوان المسلمين يغلون غلوا فاحشاً في طروحات الجماعة ورموزها إلى حد التقديس المقرون بالتشنيع على من خالفها أو خالفهم أو رد عليها أو عليهم. و من أبرز سمات الحزبيين بعامة والإخوان المسلمين بخاصة غلوهم في مدحهم لموافقهم و من ثم انقلاب هذا المدح إلى غلو في الذم عند المفارقة و المخالفة و هذا هو نفسه خلق اليهود الذين أسسوا الحزبيات المذمومة فعن أنس رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لليهودي: "أي رجل عبد الله فيكم؟ قالوا: خيرنا وابن خيرنا وسيدنا وابن سيدنا، قال: "أرايتم إن أسلم عبد الله بن سلام؟ قالوا: أعاده الله من ذلك فخرج عبد الله فقال: أشهد أن لا إله إلا الله و أن محمداً رسول الله، فقالوا: شرنا وابن شرنا وانتقصوه.

صحيح البخاري 3329, 3938, 4480

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

أكثر) من علماء ودعاة وطلاب علم المنهاج السلفي الذي كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه رضي الله عنهم وأرضاهم، فتحول السلفي إلى مريد! وهذه مصيبة على السلفية والسلفيين لا تبرأ الذمة إلا بإنكارها باللسان والقلم، حفظاً لنعمة الله بمنهاج النبوة على من اصطفاه الله من المسلمين لمعرفة معرفته والتزامه والثبات عليه، جعلنا الله منهم... لما أحبه لنفسه ولإخواني السلفيين: تجنّب مشابهة المريد الصوفي والحزبي الذي يكون مع شيخه ومرشده كالميت بين يدي غاسله.(1)

و في المقابل أعتقد أن من أهم عوامل الوحدة والقوة والتمكين هو تعليم الناس وتثقيفهم معنى الاتباع الحقيقي -علما و عملا-، مع الاستفادة من جميع أقوال أئمة(2) أهل السنة في الفقه والعقيدة و سائر أمور الدين بدون تعصب ولا تقليد لشخص معين غير الرسول. فنسأل الله أن يهدي الجميع إلى الحق واتباع النبي على فهم السلف الصالح و صلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

1 -انظر مقالة الشيخ <http://www.saad-alhusayen.com> باسم الفرق بين السلفي وبين

المريد الصوفي والحزبي

2 الإمام أبو حنيفة و مالك و الشافعي و أحمد بن حنبل وبقية أئمة الفقه والحديث في كل زمان ومكان

الباب الأول الاتباع والمنتبِعون

الفصل الأول في تعريف الاتباع

الاتّباع لغة: مصدر من باب افتعال من تبع الشيء، تبعاً و تبعاً في الأفعال و تبعته الشيء تُتبعاً: سرت في أثره، والاتّباع أن يسير الرجل و أنت تسير وراءه و اتبع القرآن: اتّمت به و عمل بما فيه (1)

وقال الراغب الأصفهاني: "يقال: تَبِعَهُ وَاتَّبَعَهُ: قفا أثره، وذلك تارة بالجسم، وتارة بالارتسام والانتصار، وعلى ذلك قوله تعالى: {فَمَنْ تَبَعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} [البقرة/ 38] ، قَالَ يَا قَوْمِ اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ اتَّبِعُوا مَنْ لَا يَسْئَلُكُمْ أَجْرًا} يس: 20-21

قال الإمام أحمد: "هو أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي وعن أصحابه ثم هو من بعد في التابعين مخير." (2)

والاتباع في اصطلاح الشريعة هو كالاتباع في اللغة: السير وراء ما جاء به النبي و الانتظام به و العمل بما فيه.

وهو مقابل التقليد، والتقليد: هو في اللغة التعليق والجعل في العنق شيئاً. وفي القاموس: "قلدتها قلادة جعلتها في عنقها..." (3)

و في اصطلاح العلماء: العمل بقول من ليس قوله حجة في الشرع، و كذلك العمل بعمل من ليس عمله حجة في الشرع. (4)

وقال الشيخ وصي الله عباس -حفظه الله-: "والذي نؤمن به أن التقليد بالمعنى المصطلح الآن لم يكن معروفاً منتشراً في عهد النبي ولا في عهد الصحابة ولا مقبولاً فيهم ولم نجد لفظ التقليد بالمعنى المصطلح في الكتاب والسنة مطلقاً إنما كان هذا المعنى معروفاً في الآيات والأحاديث في صورة الذم لا في المدح.

1 - لسان العرب 27/8-28 مادة تبع

2 - مسائل أبي داود ص113 و إعلام الموقعين 469/3

3 - القاموس المحيط 342/1 و لسان العرب 365/3

4 - وَقَالَ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حُوزَارٍ مِنْ أَهْلِ الْبَصَرِ الْمَالِكِيُّ: «التَّقْلِيدُ مَعْنَاهُ فِي الشَّرْعِ الرُّجُوعُ إِلَى قَوْلِ لَا حُجَّةَ لِقَائِهِ عَلَيْهِ، وَهَذَا مَمْنُوعٌ مِنْهُ فِي الشَّرِيعَةِ، وَالِاتِّبَاعُ مَا تَبَيَّنَ عَلَيْهِ حُجَّةٌ» وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ مِنْ كِتَابِهِ: «كُلُّ مَنْ اتَّبَعَ قَوْلَهُ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَجِبَ عَلَيْهِ قَبُولُهُ لِذَلِكَ يُوجِبُ ذَلِكَ فَأَنْتَ مُقْلِدُهُ، وَالتَّقْلِيدُ فِي دِينِ اللَّهِ غَيْرُ صَحِيحٍ وَكُلُّ مَنْ أُوجِبَ عَلَيْهِ الدَّلِيلُ اتِّبَاعَ قَوْلِهِ فَأَنْتَ مُتَّبِعُهُ وَالِاتِّبَاعُ فِي الدِّينِ مَسْرُوعٌ وَالتَّقْلِيدُ مَمْنُوعٌ» انظر: جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر 992/2

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

ولم نسمع لفظ التقليد الذي يوجبُه الناس بأن يقلد شخص شخصاً بعينه في الدين في جميع الأمور إلا في زمن الصحابة قال ابن مسعود رضي الله عنه: "ألا لا يقلدن أحدكم دينه رجلاً فإن آمن آمن وإن كفر كفر فإنه لا أسوة في الشر"(1)

فنعني بالاتباع في هذا البحث: اتّباع كتاب الله و سنة رسوله اللّدين وجبا اتباعهما لكل من بلغه. فاتباعه بالتزام الكتاب والسنة في جميع الأحكام قال عطاء: "طاعة الرسول: اتّباع الكتاب والسنة"(2)

1 جامع بيان العلم وفضله 988/2, انظر كتاب التقليد وحكمه لشيخنا وصي الله عباس و الاتباع و أصول فقه السلف له أيضا
2-رواه الدارمي في المقدمة من سننه، باب الاقتداء بالعلماء رقم 225 وإسناده صحيح

الفصل الثاني أقسام الاتباع

قد ورد لفظ (تَبَعَ) وما تفرع منه في القرآن الكريم أكثر من مائة مرة (1) وأغلبها بالمعنى اقتفاء الأثر وانقياد الإنسان لغيره انقياداً تاماً. فالله تعالى في القرآن الكريم تحدّث عن الاتباع ومقاصدها المتعددة وأحوالها المختلفة وبالنظر في القرآن يمكننا أن نقسم الاتباع إلى نوعين:

1- الاتباع المحمود: وهي التي يكون الاتباع فيها لأمر الله تعالى وكتبه ورسله والصالحين من عباده ولذلك أمر الله تعالى بها وحثّ عليها ومدح التابع والمتبوع من أهلها.

2- الاتباع المذموم: وهي التي يكون الاتباع فيها لغير الحق كاتّباع الهوى والشيطان و مناهج الجاهلية الضالة أو الشرائع التي ابتدعوها طواغيتها أو تقاليد الآباء الضالين... إلخ. وهذا النوع قد ذمه القرآن ذمّاً بالغاً وحرّمه تحريماً وتناولته أصحابه بالتهديد والتنديد في كل موطن. وقد جمع القرآن الكريم بين هذين النوعين في آيات كثيرة منها قوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئاً وَلَا يَهْتَدُونَ} البقرة: 170 وقال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَهُكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} الأعراف: 3

وقال تعالى: {ثُمَّ جَعَلْنَاكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ الْأَمْرِ فَاتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} الجاثية: 18

وقال تعالى: {ذَلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِنْ رَبِّهِمْ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ} محمد: 3

والله تعالى في القرآن قد ذكر كلا منهما بالتفصيل والبيان الشامل على ما نوجزه فيما يلي:

1- الاتباع المحمود:

ذكر الله تعالى هذا نوع من الاتباع وفصّل أنواعه وعدد أساليبه في طلبها والحث عليه بين: الأمر به، والثناء على أهلها، وبيان تفردّها بالأحقية والصحة و تنحصر هذا الاتباع في ثلاثة أقسام:

1 وردت هذه اللفظة بمعنى اقتفاء الأثر 173 مرة و بمعنى انقياد الإنسان لغيره 140 مرة

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

أ- القسم الأول - اتباع الوحي: وهذا واجب على الناس جميعا وعلى رأسهم الأنبياء والرسل لأنهم جميعا عبيد الله وأولاهم بالاتباع أعلمهم وأتقاهم. وقال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أُنْزِلَ إِلَيْكُمْ مِنْ رَبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَا تَذَكَّرُونَ} الأعراف: 3

سواء كان هذا الاتباع لدين الله تعالى جملة كما قال تعالى:

{وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الأنعام: 153

و قوله تعالى: {فَمَنْ تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ} البقرة: 38

أو كان هذا الاتباع لشيء من وحي الله تعالى كالكتب التي أنزلها كما قال تعالى: {وَهَذَا كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ مُبَارَكٌ فَاتَّبِعُوهُ وَاتَّقُوا لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} الأنعام: 155

أو كان هذا الاتباع لشيء مما تبين له أنه أفضل كما قال تعالى: {الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُو الْأَلْبَابِ} الزمر: 18

وقد قرر الله تعالى في القرآن الكريم أن هذا الوحي - قرآنا وسنة - هو وحده الحقيقي بالاتباع لأنه هو وحده الحق وما عداه باطل وما عداه ضلال وظنون قال تعالى: {قُلْ هَلْ مِنْ شُرَكَائِكُمْ مَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ قُلِ اللَّهُ يَهْدِي لِلْحَقِّ أَفَمَنْ يَهْدِي إِلَى الْحَقِّ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ مَنْ لَا يَهْدِي إِلَّا أَنْ يُهْدَىٰ فَمَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ} (35) وَمَا يَتَّبِعْ أَكْثَرُهُمْ إِلَّا ظَنًّا إِنَّ الظَّنَّ لَا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ} يونس: 35-36. ولذلك يعلن الرسل دائما عجزهم عن الإتيان بهذا الحق من عند أنفسهم وينسبونه إلى الله تعالى ويقررون اتباعهم له قبل غيرهم

قال تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا إِنَّتِ بِقُرْآنٍ غَيْرِ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبْدِلَهُ مِنْ تِلْقَاءِ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} يونس: 15

وقال الله تعالى: {قُلْ لَا أَقُولُ لَكُمْ عِنْدِي خَزَائِنُ اللَّهِ وَلَا أَعْلَمُ الْغَيْبَ وَلَا أَقُولُ لَكُمْ إِنِّي مَلَكٌ إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَىٰ إِلَيَّ قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ} الأنعام: 50

ب- القسم الثاني-اتباع الرسل عليهم السلام:

وهو اتباع مطلق غير مشروط ولا محدود (إلا ما خصص بدليل)¹ لأن الأنبياء والرسل متبعون لوحي الله تعالى ومبلغون عن الله تعالى وداعون إلى الله تعالى ولا ينطقون عن الهوى. فمن صفات المؤمنين أنهم يتبعون أنبيائهم ورسولهم وهذا وصف ثابت مع كل دعوة جاء بها جميع الرسل والأنبياء عليهم السلام.

فيذكر الله تعالى في القرآن اتباع الرسل لرسول الله تعالى على سبيل العموم والاطلاق من غير تحديد لاسم الرسول فيفهم منه أن اتباع الرسل جميعا من صفات المؤمنين حقا في جميع العصور لأنهم جميعا ملة واحدة وأمة واحدة وعقيدة ثابتة عبر التاريخ. ومن أمثلة قال تعالى: ﴿وَأَنْذِرِ النَّاسَ يَوْمَ يَأْتِيهِمُ الْعَذَابُ فَيَقُولُ الَّذِينَ ظَلَمُوا رَبَّنَا أَخْرِنا إِلَى أَجَلٍ قَرِيبٍ نَحْبُ دَعْوَتِكَ وَنَتَّبِعِ الرَّسُولَ أَوَّلَمَ تَكُونُوا أَقْسَمْتُمْ مِنْ قَبْلِ مَا لَكُمُ مِنْ زَوَالٍ﴾ إبراهيم: 44 وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَا أَهْلُكُمْ أَهْلُكُمْ بِعَذَابٍ مِنْ قَبْلِهِ لَقَالُوا رَبَّنَا لَوْلَا أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ آيَاتِكَ مِنْ قَبْلِ أَنْ نَذِلَّ وَنَخْزَى﴾ طه: 134.

وهكذا نرى التلازم بين تعاليم الله وبين الرسل كلهم-عليهم السلام-، لأن حكمة الله تعالى اقتضت أن يبلغ تعاليمه للناس عن طريق الرسل فكل اتباع لهم هي في الحقيقة اتباع لكلمات الله، وكل اتباع لدعوة الله هي من البدء اتباع للرسل- عليهم السلام-، لأنهم هم طريقها ومبلغوها للعالمين.(2)

¹ والأصل في أفعال النبي صلى الله عليه وسلم أنها تشريع لجميع الأمة وليست خاصة به حتى يقوم الدليل على أنها خاصة به لا مجرد الاحتمال لقوله تعالى: (لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ) الأحزاب: 21.

قال ابن القيم في زاد المعاد ص307: "الأصل مشاركة أمته له في الأحكام إلا ما خصه الدليل." وقال ابن حزم في الإحكام 469/1: "لا يحل لأحد أن يقول في شيء فعله صلى الله عليه وسلم إنه خصوص له إلا بنص."

2 - هذا الفصل مأخوذ من كتاب المدخل إلى تفسير الموضوعي ص161-185 بتصرف واختصار

الفصل الثالث

الاتّباع- منهج الأنبياء والرّسل-عليهم السلام- والمؤمنين جميعا

نجد في بعض المواضع من القرآن الكريم أن الله تعالى يذكر فيه الاتّباع مقرونة باسم رسول بعينه فتكون نموذجاً تطبيقياً لجميع المؤمنين عبر تاريخ الأمم الإسلامية .

والأمثلة على ذلك كثيرة:

1-اتباع نوح عليه السلام: أثبت الله في القرآن الاتّباع لنوح -عليه السلام- على لسان الكفار وأنهم كانوا يعلمون العلاقة بين نوح والمؤمنون به وأنها علاقة انقياد وطاعة تامة ولذلك استكبر الكفار عنها ظلماً وعلواً بغير الحق. فقد قال تعالى: ﴿فَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلَّا بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلَّا الَّذِينَ هُمْ أَرَادُوا بِآدِي الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ هود:27

وقال تعالى: ﴿قَالُوا أَنْتُمْ لَكُمْ وَاتَّبَعَكَ الْأَرْذَلُونَ﴾ الشعراء: 111

فإذا لم يتّبع في الحق فلا بدّ أن يتّبع في الباطل وقد سجل الله تعالى على لسان نوح هذا الاتّباع الباطل حين رفضوا اتباعه في الحق.

قال تعالى:﴿قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا﴾ نوح:21

2-اتباع هود عليه السلام: يذكر الله تعالى في القرآن أن "عادا" قوم هود استحقوا العذاب لأنهم عصوا الله ورسله ورفضوا اتّباع الحق على حين اتّبعوا أمر الجبابرة المعاندين من زعمائهم قال تعالى:

﴿وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ﴾ هود:59

3-اتباع صالح عليه السلام:

قال تعالى:﴿كَذَّبَتْ ثَمُودُ بِالنُّذُرِ (23) فَقَالُوا أَبَشَرًا مِثْلَنَا وَاحِدًا نَتَّبِعُهُ إِنَّا إِذَا لَفِيَ ضَلَالٍ وَسُعُرٍ﴾ القمر:23-24

فقوم صالح يستنكرون ويستكبرون أن يكونوا أتباعاً لصالح- عليه السلام- وهذا تقرير لمعرفتهم هذه الحقيقة البديهة ولذلك كانت ثمود مجادلة بالباطل حين زعمت أنه بشر مجرد وإنما هو بشر يوحى إليه من الله فاتّباعه في الحقيقة هي لله تعالى فقط.

4-اتباع شعيب عليه السلام:

قال تعالى: {وَقَالَ الْمَلَأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ لَنِ اتَّبَعْتُمْ شُعَيْبًا إِنَّكُمْ إِذَا لَخَاسِرُونَ} الأعراف:90

فقوم شعيب رفضوا اتّباعه واستكبروا فكما هو واضح الاستكبار والعناد والاستنكار من سمات أهل الجاهلية و كل مَنْ رفضوا أن يتّبعوا رسلهم.

5-إبراهيم عليه السلام: وقد فصل الله تعالى في القرآن طريقة اتباع إبراهيم-عليه السلام- لإقامة الحجة على اليهود والنصارى ومشركي العرب كما قال تعالى: {وَإِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّ اجْعَلْ هَذَا الْبَلَدَ آمِنًا وَاجْنُبْنِي وَبَنِيَّ أَنْ نَعْبُدَ الْأَصْنَامَ (35) رَبِّ إِنَّهُمْ أَضَلُّنَّ كَثِيرًا مِنْ النَّاسِ فَمَنْ تَبِعْنِي فَإِنَّهُ مِنِّي وَمَنْ عَصَانِي فَإِنَّكَ غَفُورٌ رَحِيمٌ} إبراهيم:35-36

فالله تعالى على لسان إبراهيم قسم الناس إلى قسمين:

1-من تبعه: فهو منه وأولى الناس به وله ولايته ومحبته.

2-من عصاه: فأمره إلى الله.

وأولى الناس به في الدنيا والآخرة هم الذين اتبعوه في دينه وملته قال تعالى: {إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} آل عمران:68

بل يقر الله تعالى في القرآن أمرًا دقيقًا وجديرًا بغاية التأمل حين قصّ علينا أنه طالب أباه أن يتبعه في دعوته:

قال تعالى: {يَا أَبَتِ إِنِّي قَدْ جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ فَاتَّبِعْنِي أَهْدِكَ صِرَاطًا سَوِيًّا} مريم:43

إن العادة الجارية أن يتبع الابن أباه ولكن الابن هنا هو الرسول، والرسول ينبغي أن يطاع ويتبع بإطلاق لأنه يوحى إليه {جَاءَنِي مِنَ الْعِلْمِ مَا لَمْ يَأْتِكَ}

بل أراد الله تعالى في القرآن الكريم ان يلزم الناس جميعًا اتّباع الحق الذي جاء به إبراهيم -عليه السلام- على لسان محمد صلى الله عليه وسلم فواجههم بالأمر المباشر: {قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} آل عمران:95

بل أمر نبيينا محمد -صلى الله عليه وسلم- باتّباع ملة إبراهيم مع أنه رسول يوحى إليه مثله بل هو خاتم النبيين و في ذلك حجة على الناس أجمعين: {ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنْ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ} النحل:123

6-اتباع موسى وهارون عليهما السلام:

يقرر الله تعالى اتباع لهما من أول الطريق فيقول: {قَالَ سَنَشُدُّ عَضُدَكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعُكُمَا الْعَالِيُونَ} القصص:35

ويندد أشد التنديد بمن رفض هذا الاتباع الصحيح، ورضى باتباع الطغيان الباطل: {وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مُوسَى بِآيَاتِنَا وَسُلْطَانٍ مُبِينٍ (96) إِلَى فِرْعَوْنَ وَمَلَأْنَاهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} هود:96-97

وحين سقط بنو إسرائيل في عبادة العجل طالبهم هارون باتباعه في الحق والتوحيد: {وَلَقَدْ قَالَ لَهُمْ هَارُونُ مِنْ قَبْلُ يَا قَوْمِ إِنَّمَا فُتِنْتُمْ بِهِ وَإِنَّ رَبَّكُمُ الرَّحْمَنُ فَاتَّبِعُونِي وَأَطِيعُوا أَمْرِي} طه:90

وحتى يتقرر أن اتباع الرسل إنما وجبت لهم باعتبارهم مبلغين عن الله تعالى، فأمر الله تعالى بالاستقامة على أمره ونهاهما عن اتباع سبيل غير سبيله سبحانه وتعالى فقال عز وجل: {قَالَ قَدْ أُجِيبَتْ دَعْوَتُكُمَا فَاسْتَقِيمَا وَلَا تَتَّبِعَانِ سَبِيلَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ} يونس:89

7-اتباع عيسى عليه السلام: يقرر القرآن الكريم اتباع أصحاب عيسى له على لسان الحواريين فقال تعالى: {رَبَّنَا آمَنَّا بِمَا أَنْزَلْتَ وَاتَّبَعْنَا الرَّسُولَ فَاكْتُبْنَا مَعَ الشَّاهِدِينَ} آل عمران:53

وعد الله تعالى اتباع عيسى: {وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ} آل عمران:55

8-اتباع محمد صلى الله عليه وسلم خاتم النبيين:

قال تعالى: {الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الْأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ يَأْمُرُهُمْ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَاهُمْ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُحِلُّ لَهُمُ الطَّيِّبَاتِ وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ وَيَضَعُ عَنْهُمْ إِصْرَهُمْ وَالْأَغْلَالَ الَّتِي كَانَتْ عَلَيْهِمْ فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف:157

وقد ذكرت الاتباع مرتين في الآية في أولها وآخرها دلالة على تأكيد أمره وأنه أصل أصيل في علاقة الناس بالرسول-صلى الله عليه وسلم.

وقال تعالى: {وَاخْفِضْ جَنَاحَكَ لِمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الشعراء:215

وهذه الآية تبين أن علاقة بين الرسول أتباعه (أصحابه) علاقة مودة ورأفة ورحمة.

وقال الله تعالى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ} الأنفال:64

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و هذا يبين أن الله تعالى هو الكافي والناصر لك (نبيينا محمد -صلى الله عليه وسلم) وللمؤمنين الذين اتبعوك و في هذا بيان رعاية الله تعالى للتابع والمتبوع جميعاً إذا كان على الحق والهدى الذي كان عليه رسول الله وأصحابه.

وقال تعالى: ﴿فَإِنْ حَاجُّوكَ فَقُلْ أَسْلَمْتُ وَجْهِيَ لِلَّهِ وَمَنِ اتَّبَعَنِ وَقُلْ لِلَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ وَالْأُمِّيِّينَ أَسْلَمْتُمْ فَإِنْ أَسْلَمُوا فَقَدِ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَاللَّهُ بَصِيرٌ بِالْعِبَادِ﴾
آل عمران:20

وفي هذا إيذان بأن المؤمنين أمة واحدة، لأن المؤمنين جميعاً قد أسلموا وجوههم لله رب العالمين التي تدل دلالة صادقة على حب الله ورسوله كما قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ آل عمران:31

وقال تعالى مخاطباً رسوله بصيغة الأمر: ﴿قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَى بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾ يوسف:108

فجاء في القرآن الكريم البيان الأوفى في شأن النبي-صلى الله عليه وسلم- ومن كان معه واتبعه تعليماً للمؤمنين وإلزاماً لهم حتى يسلكوا مسلك نبيهم- صلى الله عليه وسلم- وبذلك يكون الدليل أظهر وأوضح والحجة أقطع وألزم والقوة أقوى وأقرب قال تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِمَنْ كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا﴾ الأحزاب:21

يتلخص لنا أن جميع الأنبياء والمرسلين اتبعوا ما أنزل الله عليهم من الوحي ودعوا أقوامهم إلى اتباعهم، لأنهم ما ينطقون عن الهوى وهم مبلغون عن الله تعالى فمن تبعهم فاز في الدنيا والآخرة ومن رفض خسر خسراً مبيئاً. وقصص الأنبياء والرسل مع أقوامهم الموجودة في القرآن تبين لنا بالوضوح الآثار الطيبة المترتبة على الاتباع وكذلك الآثار السيئة المترتبة على ترك الاتباع. فعلى كل مسلم أن يقرأ ويتدبر ويتأمل هذه القصص ليعرف كيف يتبع نبيينا محمد-صلى الله عليه وسلم- ويتعظ ويخاف على نفسه وإخوانه من العقاب المترتب على اتباع غير المعصومين- كما حصل مع الأمم السابقة الذين تركوا اتباع أنبيائهم ورسولهم -عليهم السلام- واتبعوا آباءهم وأهواءهم وشياطينهم و نعوذ بالله من ذلك.

فالاتباع كما أسلفنا قسمان: الاتباع المحمود والاتباع المذموم. فالاتباع المحمود يتمثل في اتباع النبي-صلى الله عليه وسلم- على فهم صحابته الكرام- رضي الله عنهم أجمعين- والاتباع المذموم يكون:

أ- إما اتباع الذات وانقياد الإنسان لأهواء نفسه قال تعالى: ﴿وَمَا أُبْرِئُ نَفْسِي إِنَّ النَّفْسَ لَأَمَّارَةٌ بِالسُّوءِ إِلَّا مَا رَحِمَ رَبِّي إِنَّ رَبِّي غَفُورٌ رَحِيمٌ﴾ يوسف:53

ومن هذا اللون اتّباع الظنون الفاسدة في العقائد كما قال تعالى: ﴿إِنَّ هِيَ إِلَّا أَسْمَاءُ سَمَّيْتُمُوهَا أَنْتُمْ وَأَبَاؤُكُمْ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ بِهَا مِنْ سُلْطَانٍ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الْأَنْفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُمْ مِنْ رَبِّهِمُ الْهُدَى﴾ النجم: 23

واتّباع "ما تهوى الأنفس" هو أثقل غشاوة يصاب بها الإنسان ولا تزال تنحدر به في أودية الضلال حتى يجعل هذا الهوى إلهاً يعبد من دون الله تعالى: ﴿أَفَرَأَيْتَ مَنْ اتَّخَذَ إِلَهَهُ هَوَاهُ وَأَضَلَّهُ اللَّهُ عَلَى عِلْمٍ وَخَتَمَ عَلَى سَمْعِهِ وَقَلْبِهِ وَجَعَلَ عَلَى بَصَرِهِ غِشَاوَةً فَمَنْ يَهْدِيهِ مِنْ بَعْدِ اللَّهِ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ﴾ الجاثية: 23

ب- اتّباع الإنسان غيره في الباطل: يكون المتبوع ذاتاً أخرى تزين للناس الضلالة وتحملهم عليها بالحيلة والخديعة تارة أو بالعسف والطغيان تارة أخرى وقد حذر الله تعالى منه في القرآن وهي ثلاثة أصناف:

1- اتّباع الشيطان:

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا ادْخُلُوا فِي السِّلْمِ كَافَّةً وَلَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ لَكُمْ عَدُوٌّ مُبِينٌ﴾ البقرة: 208

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّبِعُوا خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ وَمَنْ يَتَّبِعْ خُطَوَاتِ الشَّيْطَانِ فَإِنَّهُ يَأْمُرُ بِالْفَحْشَاءِ وَالْمُنْكَرِ وَلَوْلَا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ مَا زَكَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَكِنَّ اللَّهَ يُزَكِّي مَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ النور: 21

2- اتّباع الآباء في الباطل:

فقد أخذها كثير من الأمم السابقة وسيلة للتصلب والجمود بحجة المحافظة على تراث الأولين ويجعلون من مجرد التراث دليلاً على صحة ما هم عليه ولو قامت على نقضه الحجج والبراهين.

قال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِنْ قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ (23) قَالَ أُولُو جُنُودٍ بَاهْدَى مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ الزخرف: 23-24

والأمة هنا بمعنى "الطريقة" التي تؤمّ وتتبع، ولذلك أبطل القرآن هذا الاتّباع إبطالا وندد أهلها تابعين ومتبوعين تنديداً بالغا وكشف ضلالهم وجهلهم أجمعين.

وعلى حين يعتزون بهذا الاتّباع يذكر الله تعالى في القرآن موضعاً لهم الحقيقة في عبارات قارعة تصمهم بأنهم شر خلف لأحق السلف وتواصلت بهم سلسلة الضلال عبر القرون:

﴿إِنَّهُمْ أَفْوَا آبَاءَهُمْ ضَالِّينَ (69) فَهُمْ عَلَى آثَارِهِمْ يُهْرَعُونَ﴾ الصافات: 69-70

وقال تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } البقرة: 170

وقال تعالى: { إِذْ قَالَ لِأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا هَذِهِ التَّمَاثِيلُ الَّتِي أَنْتُمْ لَهَا عَاكِفُونَ (52) قَالُوا وَجَدْنَا آبَاءَنَا لَهَا عَابِدِينَ (53) قَالَ لَقَدْ كُنْتُمْ أَنْتُمْ وَآبَاؤُكُمْ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ } الأنبياء: 52-54

ثم إن هذا المثل أيضاً قد يراد منه ذم التقليد، واتباع الآباء الضالين؛ وذلك أن هذا المثل سبق بقوله تعالى: { وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ } (البقرة: 170)، ومن ثم يكون هذا المثل جاء ليرسم صورة مزرية للمقلدين، تليق بهذا التقليد وهذا الجمود، إنها صورة البهيمة السارحة التي لا تفقه ما يقال لها، بل إذا صاح بها راعيتها، سمعت مجرد صوت، لا تفقه ماذا يعني!... ويُستفاد من هذا المثل أن المقلدين الذين ألغوا مداركهم وأفهامهم، فلم يتفكروا (إلا بعقول غيرهم)... والذين صَمَّوا عن سماع دعوة الحق آذانهم، هؤلاء هم السليبيون، مسلوبو الإرادة والتصرف.

الذين كلما دعاهم داعي الله إلى الحق والهدى، كان قصاراهم أن يقولوا: لنا في آبائنا و مشايخنا قدوة وأسوة، فلن نحيد عن معتقداتهم، ولن نخرج عن سننهم . (وعن آرائهم و اجتهداتهم)

هؤلاء المقلدين مثلهم الله في القرآن بالبهايم، التي تطيع صيحات راعيها من غير تفكير في مدلولاتها، لا تفهم أوامره، ولا تفقه نواهيها، ولا تعقل صيحاته وندائه، بل تسمع أصواتاً منه اعتادت عليها، تدعى بصوت، فتأتي وتقبل، وتُصرف بآخر، فتُدبر وتعود. والله يقول الحق وهو يهدي السبيل.(1)

3-اتباع الطواغيت من سادتهم وكبرائهم:

وقد بالغ الله تعالى في القرآن في ذم هذا الجانب لأثره الفاحش على الأفراد والمجتمعات ولنتائجه المريعة الخطيرة في صرف الناس عن دعوة الحق.

نجد أن الله تعالى في القرآن الكريم يسجل على الأمم في كل العصور أنهم بلغتهم دعوة الرسل وأنهم علموا تماماً ما دعوا إليه من اتباع الهدى الإلهي الذي جاءهم على السنة الرسل -عليهم السلام.

ولكن الكفار دائماً كانوا يسلكون سبيل الغي والضلal واتبعوا طواغيتهم ورؤساءهم الضالين ولذلك جاء القرآن بالنهي عن اتباعهم.

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

قال تعالى: {قَالَ نُوحٌ رَبِّ إِنَّهُمْ عَصَوْنِي وَاتَّبَعُوا مَنْ لَمْ يَزِدْهُ مَالُهُ وَوَلَدَهُ إِلَّا خَسَارًا} نوح: 21

وقال تعالى: {وَتِلْكَ عَادٌ جَحَدُوا بِآيَاتِ رَبِّهِمْ وَعَصَوْا رُسُلَهُ وَاتَّبَعُوا أَمْرَ كُلِّ جَبَّارٍ عَنِيدٍ} هود: 59

وقال تعالى: {إِلَىٰ فِرْعَوْنَ وَمَلَأَتْهُ فَاتَّبَعُوا أَمْرَ فِرْعَوْنَ وَمَا أَمْرُ فِرْعَوْنَ بِرَشِيدٍ} هود: 97
*جزاء التابع والمتبوع بالباطل:

-في الدنيا: كان جزاؤهم البوار والخسار والدمار كما قص الله علينا في قصص الأنبياء مع أممهم

-في الآخرة: أخبر الله تعالى أنهم تتقطع بينهم فيها الصلات ويتناذبون بالعداوة والبغضاء ولعن بعضهم بعضاً ويتبرأ كل من صاحبه ويتخاصمون في النار قال تعالى: {وَإِذْ يَتَحَاوُونَ فِي النَّارِ فَيَقُولُ الضُّعَفَاءُ لِلَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (47) قَالَ الَّذِينَ اسْتَكْبَرُوا إِنَّا كُلٌّ فِيهَا إِنَّ اللَّهَ قَدْ حَكَمَ بَيْنَ الْعِبَادِ} غافر: 47-48

وقال تعالى في نذير صارم للتابع والمتبوع: {إِذْ تَبَرَّأَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا مِنَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا وَرَأَوْا الْعَذَابَ وَتَقَطَّعَتْ بِهِمُ الْأَسْبَابُ (166) وَقَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا لَوْ أَنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنْتُمْ مُغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِنَ النَّارِ (167) قَالَ الَّذِينَ اتَّبَعُوا إِنَّهُمْ عَلَىٰ شَرِّ مَا نَسُوهُ وَكَانُوا مُجِزِينَ} البقرة: 166-167

*أما أتباع الحق والهدى فجزاؤهم :

-في الدنيا: توفيق من الله ورحمة ومعونة ونصره وسكينه وطمأنينة قال تعالى: {لَقَدْ تَابَ اللَّهُ عَلَى النَّبِيِّ وَالْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ الْعُسْرَةِ مِنْ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبَ فَرِيقٍ مِنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ إِنَّهُ بِهِمْ رَءُوفٌ رَحِيمٌ} التوبة: 117

وقال تعالى: {فَمَنِ اتَّبَعَ هُدَايَ فَلَا يَضِلُّ وَلَا يَشْقَى} طه: 123

و في الآخرة: رضوان الله تعالى وجنته وفوزه العظيم: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ} الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضي الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجري تحتها الأنهار خالدين فيها أبداً ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} التوبة: 100(1)

الفصل الرابع

أمر الله تعالى باتباع النبي- صلى الله عليه وسلم

أمر الله تعالى جميع المسلمين بالاتباع الكامل لما جاء به النبي من غير أن يتخذوا من دون الله ولا رسوله ولا المؤمنين وليجة.

قال تعالى {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران: 31

الذين يقولون أنهم يحبون الله تعالى ويحبون الرسول هم كثر لا يُحصون، لكن الذين تصدق أفعالهم أقوالهم قلة في الناس وأهم أدلة المحبة هي متابعة الرسول يدل على ذلك قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31

فيؤخذ من هذه الآيات أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله هي اتباعه- صلى الله عليه وسلم- فالذي يخالفه ويدعي أنه يحبه كاذب مفتر، إذ لو كان محباً له لأطاعه، ومن المعلوم عند العامة أن المحبة تستلج الطاعة ومنه قول الشاعر:

لَوْ كَانَ حُبُّكَ صَادِقًا لَأَطَعْتَهُ فَإِنَّ الْمُحِبَّ لِمَنْ يُحِبُّ مُطِيعٌ

و قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

و من لو نهاني عن حبه عن الماء عطشان لم أشرب

وقال ابن تيمية: "وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّفَقُّنُ لَهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ ادَّعَى قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} الْآيَةَ. فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَحَبَّتَهُ تُوجِبُ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ وَأَنَّ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ يُوجِبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ وَهَذِهِ مَحَبَّةٌ امْتَحَنَ اللَّهُ بِهَا أَهْلَ دَعْوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا الْبَابَ تَكَثَّرَ فِيهِ الدَّعَاوَى وَالِاشْتِبَاهُ..."(1)

وقال ابن كثير: "هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالِدِينَ النَّبَوِيِّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ..."(2)

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

ويقول ابن القيم: "تَبَاتُّهَا (أي محبة الله) إِنَّمَا يَكُونُ بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقْوَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ. فَحَسَبَ هَذَا الْإِتِّبَاعَ يَكُونُ مَنَشَأُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَتَبَاتِهَا وَقُوَّتُهَا. وَبِحَسَبِ نُقْصَانِهِ يَكُونُ نُقْصَانُهَا" (1)

و من أطاع الرسول فقد أطاع الله عز وجل: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا} النساء: 80

فطاعة الرسول من طاعة الله، إذ الله أمر بطاعته، فطاعته امتثال لما أمر الله به، وطاعة له. وقد حكي الله عن الكفار في دركات جهنم: {يَوْمَ ثَقُلَتْ وُجُوهُهُمْ فِي النَّارِ يَقُولُونَ يَا لَيْتَنَا أَطَعْنَا اللَّهَ وَأَطَعْنَا الرَّسُولَ} الأحزاب : 66

و الله سبحانه وتعالى ذكر أنه لم يرسل الرسول إلا ليطاع قال تعالى: {وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذْ ظَلَمُوا أَنْفُسَهُمْ جَاءُوكَ فَاسْتَغْفَرُوا اللَّهَ وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا} النساء: 64

وكما يعلم كل مسلم أن النبي بشرٌ -و أفضلهم على الإطلاق-ولا يتكلم أو يفعل شيئاً من عند نفسه بل هو وحي من الله تعالى:

{قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} الكهف: 110

قال تعالى: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى (3) إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} النجم 3: 4

قال تعالى: {بِالْبَيِّنَاتِ وَالزُّبُرِ وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ} النحل: 44

و ليس للنبي أن يغير أي شيء من عند نفسه قال تعالى: {وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُنَا بَيِّنَاتٍ قَالَ الَّذِينَ لَا يَرْجُونَ لِقَاءَنَا أَنْتَ بَقْرَانٌ غَيْرٌ هَذَا أَوْ بَدَّلَهُ قُلْ مَا يَكُونُ لِي أَنْ أَبَدِّلَهُ مِنْ تَلَقَّاءٍ نَفْسِي إِنْ أَتَّبِعْ إِلَّا مَا يُوحَى إِلَيَّ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابٌ يَوْمٍ عَظِيمٍ} يونس: 15

و على النبي أن يبلغ ما أنزل الله عليه من الوحي قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ وَإِنْ لَمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ} المائدة: 67

قال تعالى: {وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ} الحشر: 7

وقال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} آل عمران: 32

وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} آل عمران: 132

وقال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} النور: 56

قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة: 71 هذه الآيات تدل على أن رحمة الله نائلة لمن أطاع الله ورسوله.

وقال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء: 59 في هذه الآية أمر الله تعالى بأن كل شيء تنازع الناس فيه أن يرد عند التنازع في ذلك إلى الكتاب والسنة كما قال تعالى {وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِنْ شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكَمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ} الشورى: 10

قال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} الأنفال: 1 في هذه الآية أمر الله تعالى بطاعته وطاعة رسوله وعلقهما بالإيمان فمن لم يطع الله ورسوله فهو ليس بمؤمن.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَوَلَّوْا عَنْهُ وَأَنْتُمْ تَسْمَعُونَ} الأنفال: 20

وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} الأنفال: 46

هذه الآية تدل على أن طاعة الله ورسوله سبب للألفة والوحدة والاختلاف والتنازع وترك الطاعة من أسباب الفشل والضعف وذهاب القوة.

قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} النور: 54 هذه الآية تدل على أن طاعة الرسول فيها الهداية وفي غيرها الغواية.

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} محمد: 33 هذه الآية نص على أن الأعمال باطلة إذا لم تكن على طاعة الله ورسوله

وقال تعالى: {أَشْفَقْتُمْ أَنْ تُقَدِّمُوا بَيْنَ يَدَيْ نَجْوَاكُمْ صَدَقَاتٍ فَإِذْ لَمْ تَفْعَلُوا وَتَابَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ فَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ} المجادلة: 13

وقال تعالى: { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّيْتُمْ فَإِنَّمَا عَلَى رَسُولِنَا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ }
التغابن: 12

وقال تعالى: { يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا
أَنَّ اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرْءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ } الأنفال: 24

وقال تعالى: { تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ
خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ (13) وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا
خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ } النساء: 13-14

وقال تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ
وَالصَّادِقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا } النساء: 69

وقال تعالى: { وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ } النور: 52
وقال تعالى: { يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا
عَظِيمًا } الأحزاب: 71

وقال تعالى: { لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ
وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يَْعَذِّبْهُ عَذَابًا
أَلِيمًا } الفتح: 17

هذه الآيات وعد الله تعالى من أطاعه (سبحانه وتعالى) وأطاع رسوله (صلى الله عليه
وسلم) بالفوز العظيم والجنة وهو ممن أنعم الله عليهم:

وقال تعالى: { قَالَتِ الْأَعْرَابُ آمَنَّا قُلْ لَمْ تُؤْمِنُوا وَلَكِنْ قُولُوا أَسْلَمْنَا وَلَمَّا يَدْخُلِ الْإِيمَانُ
فِي قُلُوبِكُمْ وَإِنْ تُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ لَا يَلِتْكُمْ مِنْ أَعْمَالِكُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ }
الحجرات: 14

وقد حذر الله المسلمين من مخالفة أمر الرسول قال تعالى: { لَا تَجْعَلُوا دُعَاءَ الرَّسُولِ بَيْنَكُمْ
كَدُعَاءِ بَعْضِكُمْ بَعْضًا قَدْ يَعْلَمُ اللَّهُ الَّذِينَ يَتَسَلَّلُونَ مِنْكُمْ لِوَاذًا فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ
أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ } النور: 63

هذه الآيات الكريمات من القرآن الكريم تدل دليل واضح على أن الله تعالى أمر المسلمين
باتباع النبي و أن ما يترتب على طاعته هو الخير والفوز في الدنيا والآخرة و الذي
يترتب على ترك اتباع النبي ومعصيته هو الشر والاختلاف والتنازع والفتنة في الدنيا
وعذاب أليم في الآخرة.

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «مَنْ أَطَاعَنِي فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ عَصَى
اللَّهَ، وَمَنْ يُطِعِ الْأَمِيرَ فَقَدْ أَطَاعَنِي، وَمَنْ يَعِصِ الْأَمِيرَ فَقَدْ عَصَانِي، وَإِنَّمَا الْإِمَامُ جُنَّةٌ

يُقَاتِلُ مِنْ وَرَائِهِ وَيُنْقَى بِهِ، فَإِنْ أَمَرَ بِتَقْوَى اللَّهِ وَعَدَلَ، فَإِنَّ لَهُ بِذَلِكَ أَجْرًا وَإِنْ قَالَ بِغَيْرِهِ فَإِنَّ عَلَيْهِ مِنْهُ» (1)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، قَالَ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي»، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَنْ أَبِي؟ قَالَ: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي» (2)

عَنْ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ، يَقُولُ: "جَاءَتْ مَلَائِكَةٌ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ نَائِمٌ، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: إِنَّ لِمُصَاحِبِكُمْ هَذَا مَثَلًا، فَاضْرِبُوا لَهُ مَثَلًا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: مَثَلُهُ كَمَثَلِ رَجُلٍ بَنَى دَارًا، وَجَعَلَ فِيهَا مَادِبَةً وَبَعَثَ دَاعِيًا، فَمَنْ أَجَابَ الدَّاعِيَ دَخَلَ الدَّارَ وَأَكَلَ مِنَ الْمَادِبَةِ، وَمَنْ لَمْ يُجِبِ الدَّاعِيَ لَمْ يَدْخُلِ الدَّارَ وَلَمْ يَأْكُلْ مِنَ الْمَادِبَةِ، فَقَالُوا: أَوَلَوْهَا لَهُ يَفْقَهُهَا، فَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّهُ نَائِمٌ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: إِنَّ الْعَيْنَ نَائِمَةٌ، وَالْقَلْبَ يَقْظَانُ، فَقَالُوا: فَالِدَارُ الْجَنَّةُ، وَالدَّاعِيَ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَمَنْ أَطَاعَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ، وَمَنْ عَصَى مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَدْ عَصَى اللَّهَ، وَمُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَرَّقَ بَيْنَ النَّاسِ" (3)

وقال النبي «مَا نَهَيْتُكُمْ عَنْهُ، فَاجْتَنِبُوهُ وَمَا أَمَرْتُكُمْ بِهِ فَافْعَلُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِكُمْ كَثْرَةُ مَسَائِلِهِمْ، وَاخْتِلَافُهُمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ» (4)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا مِنَ الْأَنْبِيَاءِ نَبِيٍّ إِلَّا أُعْطِيَ مَا مَثَلُهُ أَمِنْ عَلَيْهِ الْبَشَرُ، وَإِنَّمَا كَانَ الَّذِي أُوتِيَتْ وَحْيًا أَوْحَاهُ اللَّهُ إِلَيَّ، فَأَرْجُو أَنْ أَكُونَ أَكْثَرَهُمْ تَابِعًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ» (5)

عَنْ أَبِي مُوسَى، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ، كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمًا فَقَالَ: رَأَيْتُ الْجَيْشَ بِعَيْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعَرِيَانُ، فَالْتَجَا النَّجَاءَ، فَأَطَاعَنِي طَائِفَةٌ فَأَدْلَجُوا عَلَى مَهْلِهِمْ فَنَجَّوْا، وَكَذَّبَتْهُ طَائِفَةٌ فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ فَاجْتَاَحَهُمْ" (6)

1 - البخاري (2957)

2 - البخاري (7280)

3 - البخاري (7281)

4 مسلم (1337)

5 - البخاري (4981)

6 البخاري (6482)

فلم يترك الله للمؤمنين خيرة في الأخذ والترك إذا قضى الله ورسوله أمراً فوجب عليهم قبوله والعمل به قال تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا﴾ الأحزاب: 36

واعلموا أن السنة الصحيحة وحي من الله كما أن القرآن وحي من الله تعالى، فيجب على المسلم اتباعها كما يجب اتباع القرآن عَنِ الْمَقْدَامِ بْنِ مَعْدِي كَرَبَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «أَلَا إِنِّي أُوتِيتُ الْكِتَابَ، وَمِثْلُهُ مَعَهُ أَلَا يُوشِكُ رَجُلٌ شَبَعَانُ عَلَيَّ أَرِيكَتَهُ يَقُولُ عَلَيْكُمْ بِهَذَا الْقُرْآنَ فَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَلَالٍ فَأَحِلُّوهُ، وَمَا وَجَدْتُمْ فِيهِ مِنْ حَرَامٍ فَحَرِّمُوهُ، أَلَا لَا يَحِلُّ لَكُمْ لَحْمُ الْحِمَارِ الْأَهْلِيِّ، وَلَا كُلُّ ذِي نَابٍ مِنَ السَّبْعِ، وَلَا لُقْطَةٌ مُعَاهِدٌ، إِلَّا أَنْ يَسْتَعْنِيَ عَنْهَا صَاحِبُهَا، وَمَنْ نَزَلَ بِقَوْمٍ فَعَلَيْهِمْ أَنْ يَقْرُوهُ فَإِنْ لَمْ يَقْرُوهُ فَلَهُ أَنْ يُعْقِبَهُمْ بِمِثْلِ قِرَاهُ» (1)

قال "الشافعي": "ففرض الله على الناس اتباع وحيه وسنن رسوله. فقال في كتابه: ﴿رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُزَكِّيهِمْ. إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ البقرة: 129

وقال جل ثناؤه: ﴿كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولًا مِنْكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا، وَيُزَكِّيكُمْ، وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ﴾ البقرة: 151

وقال: ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ آل عمران: 164.

وقال جل ثناؤه: ﴿هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الْأُمِّيِّينَ رَسُولًا مِنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ، وَيُزَكِّيهِمْ، وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ﴾ الجمعة: 2

وقال: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ، وَمَا أَنْزَلَ عَلَيْكُمْ مِنَ الْكِتَابِ وَالْحِكْمَةِ يَعِظُكُمْ بِهِ﴾ البقرة: 231

وقال: ﴿وَأَنْزَلَ اللَّهُ عَلَيْكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ، وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ، وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا﴾ النساء: 113

وقال: ﴿وَاذْكُرْنَ مَا يُتْلَى فِي بُيُوتِكُنَّ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ وَالْحِكْمَةِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ لَطِيفًا خَبِيرًا﴾ الأحزاب: 34. (2)

1 - سنن أبي داود (4604) وصححه الألباني

2 - كما أن القرآن يتلى و يتعبد بتلاوته كذلك السنة (لكن ليس في الصلاة) فكلما يقرأ الإنسان السنة يزداده علما وفقها وفهما و معرفة بنبيه صلى الله عليه وسلم

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

ثم يقول الإمام الشافعي-رحمه الله-: "فذكر الله الكتاب، وهو القرآن، وذكر الحكمة، فسمعتُ مَنْ أَرْضَى مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ بِالْقُرْآنِ يَقُولُ: الْحِكْمَةُ هِيَ سُنَّةُ رَسُولِ اللَّهِ.

وهذا يشبه ما قال، والله أعلم. لأن القرآن ذكر وأُتْبِعَتْهُ الْحِكْمَةُ، وذكرَ اللهُ مَنْهُ عَلَى خَلْقِهِ بتعليمهم الكتاب والحكمة، فلم يَجُزْ - والله أعلم - أن يقال الحكمة هاهنا إلا سنة رسول الله. وذلك أنها مقرونة مع كتاب الله، وأن الله افترض طاعة رسوله، وحَتَّمَ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعَ أَمْرِهِ، فلا يجوز أن يقال لقول: فرضٌ، إلا لكتاب الله، ثم سنة رسوله." (1)

فهذه بعض النصوص تدل على وجوب اتباع الرسول وتحريم مخالفته.

الفصل الخامس

ذكر من أحق الناس بالاتباع بعد نبينا محمد صلى الله عليه وسلم

قد أوجب الله تعالى في القرآن والسنة اتباع النبي، وكذلك أوجب علينا اتباع من كان معه من المؤمنين و هم الصحابة- رضوان الله عليهم- ولزوم طريقتهم، وتوعد من يخالف سبيلهم بالعذاب الأليم.

1- قال الله تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} النساء: 117

2- وقال تعالى: {فَإِنْ آمَنُوا بِمِثْلِ مَا آمَنْتُمْ بِهِ فَقَدْ اهْتَدَوْا وَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا هُمْ فِي شِقَاقٍ فَسَيَكْفِيكَهُمُ اللَّهُ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ} البقرة: 137.
هذا دليل صريح في أن الذي كان عليه الصحابة رضوان الله عليهم هو الهدى والحق، ومن اهتدى به فإنه على هدى وعلى صراط مستقيم. فالصحابة هم المعنيون بما في الآية أولاً، ثم من سار على دربهم واقتدى بهم من بعدهم ثانياً.

3- وقوله تعالى: {قُلْ هَذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ} يوسف: 108
والصحابة رضي الله عنهم هم أول أتباع النبي صلى الله عليه وسلم، فهم على سبيل النبي صلى الله عليه وسلم يدعون إلى الله على بصيرة.

4- ثناء الله عز وجل عليهم ورضاه عنهم، قال الله عز وجل: {مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِمْ مِنْ أَثَرِ السُّجُودِ ذَلِكَ مَثَلُهُمْ فِي التَّوْرَةِ وَمَثَلُهُمْ فِي الْإِنْجِيلِ كَزَرْعٍ أَخْرَجَ شَطْأَهُ فَآزَرَهُ فَاسْتَغْلَظَ فَاسْتَوَىٰ عَلَىٰ سُوقِهِ يُعْجِبُ الزُّرَّاعَ لِيُغَيِّظَ بِهِمُ الْكُفَّارَ وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ مِنْهُمْ مَغْفِرَةً وَأَجْرًا عَظِيمًا} الفتح: 29

وقوله تعالى: {وَالسَّابِقُونَ السَّابِقُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} التوبة: 100
وقوله تعالى: {فَأَنْزَلَ اللَّهُ سَكِينَتَهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَعَلَى الْمُؤْمِنِينَ وَأَلْزَمَهُمْ كَلِمَةَ التَّقْوَىٰ وَكَانُوا أَحَقَّ بِهَا وَأَهْلَهَا وَكَانَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا} الفتح: 26

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

وقد أثنى الله تعالى على الصحابة كما في الآيات السابقة، و كذلك أثنى النبي على أصحابه وأمرنا باتّباعهم -رضي الله عنهم- ونهى عن سبهم:

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "خَيْرُ النَّاسِ قُرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةَ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ" (1)

و قال : "أَوْصِيَكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بَدْعَةٌ، وَكُلُّ بَدْعَةٍ ضَلَالَةٌ" (2)

وقال: "افْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ" (3)

و عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لِبَاتَيْنِ عَلَى أُمَّتِي مَا أَتَى عَلَى بَنِي إِسْرَائِيلَ حَدْوُ النَّعْلِ بِالنَّعْلِ، حَتَّى إِنْ كَانَ مِنْهُمْ مَنْ أَتَى أُمَّهُ عِلَانِيَةً لَكَانَ فِي أُمَّتِي مَنْ يَصْنَعُ ذَلِكَ، وَإِنْ بَنِي إِسْرَائِيلَ تَفَرَّقَتْ عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، وَتَفْتَرِقُ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ مِلَّةً، كُلُّهُمْ فِي النَّارِ إِلَّا مِلَّةً وَاحِدَةً» ، قَالُوا: وَمَنْ هِيَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: «مَا أَنَا عَلَيْهِ وَأَصْحَابِي» (4)

وقال الشاطبي: "فَقَرَنَ -عليه السلام- كما ترى سنة الخلفاء الراشدين بسنته وأن من اتبع سنته اتبع سنتهم، وإن المحدثات خلاف ذلك ليست منها في شيء" (5)

لذا فلا طريق لمن أراد أن يستمسك بدينه ويتبع رسول الله اتباعاً نقياً صحيحاً إلا أن يضبط فهمه للنصوص الصحيحة واستيعابه لها وعمله على تنفيذها بالطريقة التي كان عليها الصحابة ومن جاء من بعدهم ممن سار على نهجهم، وما أحسن نصيحة عبدالله بن مسعود حين قال: "مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًّا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا وَأَقْلَهَا تَكَلُّفًا وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا وَأَحْسَنَهَا حَالًا،

1 البخاري (2652, 3651, 6429, 6658) ومسلم (84/16, 86)

2 رواه أبو داود (4607) والترمذي (2676) وقال حسن صحيح

3 -رواه أحمد في مسنده برقم (23245) وقال محققو المسند: حديث حسن بطرقه وشواهده، و الترمذي وقال: هذا حديث حسن برقم (3662, 3663) و لفظه: "عَنْ حُدَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ، فَافْتَدُوا بِالَّذِينَ مِنْ بَعْدِي» وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ" و صححه الألباني

4 رواه الترمذي (2641) وحسنه الألباني

5 الاعتصام 88/1

قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ" (1)

وقد نهى النبي عن سب أصحابه:

عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا تَسُبُّوا أَصْحَابِي، فَلَوْ أَنَّ أَحَدَكُمْ أَنْفَقَ مِثْلَ أُحُدٍ، ذَهَبًا مَا بَلَغَ مُدَّ أَحَدِهِمْ، وَلَا نَصِيفَهُ» (2)

وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: "لَا تُؤْذُونِي فِي صَاحِبِي، فَإِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ بَعَثَنِي بِالْهُدَى، وَدِينِ الْحَقِّ فَقُلْتُمْ: كَذَبْتَ، وَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: صَدَقْتَ، وَلَوْلَا أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ سَمَّاهُ صَاحِبًا لَاتَّخَذْتُهُ خَلِيلًا، وَلَكِنْ أَخُوهُ اللَّهِ أَلَا فَسُدُّوا كُلَّ خَوْخَةٍ إِلَّا خَوْخَةَ ابْنِ أَبِي قُحَافَةَ" (3)

ومن الأدلة العقلية على صحة اتباع الصحابة رضي الله عنهم:

- 1- لو نظرنا في أقوال وأعمال الصحابة -رضي الله عنهم- سنجد أنهم كانوا متفقين في الأصول، فلم يحصل بينهم اختلاف في أصول الاعتقاد وأصول العبادات وأصول النظر والاستدلال. ومن ذلك: إجماع الصحابة على إثبات الصفات كما جاءت، وإجماعهم على وجوب قبول السنة واتباع ما صح منها وعدم رد شيء منها، وإجماعهم على عدم تكفير مرتكب الكبيرة، وغير ذلك. 2- وكذلك أن الصحابة قد عرفوا حقيقة الجاهلية التي جاء الإسلام للقضاء عليها، لأن بعضهم عاشوها بأنفسهم، والآخرين كانوا حديثي عهد بها، نقلها إليهم أهلهم وأقاربهم، فلما جاء الإسلام ميزوا بينه وبين الجاهلية. 3- أن السلف الصالح تلقوا الإسلام وتعاليمه صافية نقيّة، لم يخلطوها بثقافات وافدة من أديان وثنية أو كتابية محرفة، أو فلسفات وضعية، أو علوم كلامية أو غير ذلك. 4- أنهم تلقوا القرآن غصًا طريًا، وهو ينزل على قلب محمد -صلى الله عليه وسلم-، وعايخوا الأحداث التي مرت بهم وكانت سببًا لنزول كثير من آياته وسوره، فأدركوا مناسبات الآيات، وسياقها ووجهتها، وتفاعلوها معها، وفهموها حق فهمها، وهذا أيضًا جانب آخر مما امتازوا به على من جاء بعدهم. 5- أنهم سمعوا من النبي صلى الله عليه وسلم مباشرة دون واسطة، فغالب ما نقلوه عنه أخذه من فيه، وسمعوه، وأدركوا مقصده ووجهته، وعرفوا مناسبة وروده.

1 جامع بيان العلم وفضله رقم (1810) إسناده ضعيف؛ لأجل سنيد هو ابن داود المصيصي، وقتاده مدلس ولم يثبت له سماع من أحد من الصحابة غير أنس بن مالك وعبدالله بن سرجس وأخرج نحوه أبو نعيم في الحلية 305/1-306 من طريق عمر بن نبهان عن الحسن البصري عنه هو الحسن كذلك مدلس ولم يصرح بالسماع في هذه الرواية و عمر بن نبهان ضعيف.

2 البخاري (3673)

3 -ذكره الطبراني في المعجم الكبير 372/13 رقم 13383 و قال الهيثمي في مجمع الزوائد 45/9 "رجاله رجال الصحيح" رقم 14320

الفصل السادس

منهج الصحابة ومن تبعهم بإحسان في فهم الوحيين

قال ابن القيم في إعلام الموقعين:

" وَلَمَّا كَانَ التَّلَقِّي عَنْهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَلَى نَوْعَيْنِ: نَوْعٌ بِوَاسِطَةٍ، وَنَوْعٌ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، وَكَانَ التَّلَقِّي بِلاَ وَاسِطَةٍ حَظَّ أَصْحَابِهِ الَّذِينَ حَازُوا قِصَبَاتِ السَّبَاقِ، وَاسْتَوَلُوا عَلَى الْأَمَدِ فَلَا طَمَعَ لِأَحَدٍ مِنَ الْأُمَّةِ بَعْدَهُمْ فِي اللَّحَاقِ، وَلَكِنَّ الْمُبْرِرُ مَنْ اتَّبَعَ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، وَافْتَقَى مِنْهَا جَهْمُ الْقَوِيمِ وَالْمُتَخَلِّفُ مَنْ عَدَلَ عَنْ طَرِيقِهِمْ ذَاتَ الْيَمِينِ وَذَاتَ الشِّمَالِ، فَذَلِكَ الْمُنْقَطِعُ الثَّانِي فِي بِنْدَاءِ الْمَهَالِكِ وَالضَّلَالِ، فَأَيُّ خَصْلَةٍ خَيْرٌ لَمْ يَسْبِقُوا إِلَيْهَا؟ وَأَيُّ خُطَّةٍ رُشِدٌ لَمْ يُسْتَوَلُوا عَلَيْهَا؟ تَأَلَّاهُ لَقَدْ وَرَدُوا رَأْسَ الْمَاءِ مِنْ عَيْنِ الْحَيَاةِ عَذْبًا صَافِيًا رُؤَالًا، وَابْتَدَأُوا قَوَاعِدَ الْإِسْلَامِ فَلَمْ يَدْعُوا لِأَحَدٍ بَعْدَهُمْ مَقَالًا، فَتَحَوُّوا الْقُلُوبَ بِعَدْلِهِمْ بِالْقُرْآنِ وَالْإِيمَانِ، وَالْفَرَى بِالْجِهَادِ بِالسَّيْفِ وَالسِّنَانِ، وَأَلْفَوْا إِلَى التَّابِعِينَ مَا تَلَقَّوْهُ مِنْ مِشْكَاتِ النَّبُوَّةِ خَالِصًا صَافِيًا، وَكَانَ سَنَدُهُمْ فِيهِ عَنْ نَبِيِّهِمْ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ وَسَلَّمَ - عَنْ جَبْرِيلَ عَنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ سَنَدًا صَحِيحًا عَالِيًا، وَقَالُوا: هَذَا عَهْدُ نَبِيِّنَا إِلَيْنَا وَقَدْ عَاهَدْنَا إِلَيْكُمْ، وَهَذِهِ وَصِيَّتُهُ رَبَّنَا وَفَرَضُهُ عَلَيْنَا وَهِيَ وَصِيَّتُهُ وَفَرَضُهُ عَلَيْكُمْ، فَجَرَى التَّابِعُونَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ عَلَى مِنْهَا جَهْمُ الْقَوِيمِ، وَافْتَقُوا عَلَى آثَارِهِمْ صِرَاطَهُمُ الْمُسْتَقِيمَ، ثُمَّ سَلَكَ تَابِعُو التَّابِعِينَ هَذَا الْمَسْلَكَ الرَّشِيدَ، {وَهَدُوا إِلَى الطَّيِّبِ مِنَ الْقَوْلِ وَهَدُوا إِلَى صِرَاطِ الْحَمِيدِ} [الحج: 24] ، وَكَانُوا بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَنْ قَبْلَهُمْ كَمَا قَالَ أَصَدَقُ الْقَائِلِينَ: {ثَلَاثَةٌ مِنَ الْأَوَّلِينَ} [الواقعة: 13] {وَقَلِيلٌ مِنَ الْآخِرِينَ} [الواقعة: 14]...

وَلَمَّا كَانَ التَّلَبُّغُ عَنْ اللَّهِ سُبْحَانَهُ يَعْتَمِدُ الْعِلْمُ بِمَا يُبْلَغُ، وَالصِّدْقُ فِيهِ، لَمْ تَصْلُحْ مَرْتَبَةُ التَّلَبُّغِ بِالرَّوَايَةِ وَالْفَتْوَا إِلَّا لِمَنْ اتَّصَفَ بِالْعِلْمِ وَالصِّدْقِ؛ فَيَكُونُ عَالِمًا بِمَا يُبْلَغُ صَادِقًا فِيهِ، وَيَكُونُ مَعَ ذَلِكَ حَسَنَ الطَّرِيقَةِ، مَرْضِيَّ السَّيَرَةِ، عَدْلًا فِي أَقْوَالِهِ وَأَفْعَالِهِ، مُتَشَابِهَ السِّرِّ وَالْعِلَاقَةِ فِي مَدْخَلِهِ وَمَخْرَجِهِ وَأَحْوَالِهِ؛ وَإِذَا كَانَ مَنْصِبُ التَّوْقِيعِ عَنِ الْمُلُوكِ بِالْمَجْلَلِ الَّذِي لَا يُنْكَرُ فَضْلُهُ، وَلَا يُجْهَلُ قَدْرُهُ، وَهُوَ مِنْ أَعْلَى الْمَرَاتِبِ السَّنِّيَّاتِ، فَكَيْفَ بِمَنْصِبِ التَّوْقِيعِ عَنْ رَبِّ الْأَرْضِ وَالسَّمَوَاتِ؟ فَحَقِيقٌ بِمَنْ أُقِيمَ فِي هَذَا الْمَنْصِبِ أَنْ يَعِدَّ لَهُ عِدَّتَهُ، وَأَنْ يَتَأَهَّبَ لَهُ أَهْبَتَهُ، وَأَنْ يَعْلَمَ قَدْرَ الْمَقَامِ الَّذِي أُقِيمَ فِيهِ، وَلَا يَكُونُ فِي صَدْرِهِ حَرَجٌ مِنْ قَوْلِ الْحَقِّ وَالصِّدْقِ بِهِ؛ فَإِنَّ اللَّهَ نَاصِرُهُ وَهَادِيهِ، وَكَيْفَ هُوَ الْمَنْصِبُ الَّذِي تَوَلَّاهُ بِنَفْسِهِ رَبُّ الْأَرْبَابِ فَقَالَ تَعَالَى: {وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَى عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ} [النساء: 127] وَكَفَى بِمَا تَوَلَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى بِنَفْسِهِ شَرَفًا وَجَلَالَةً؛ إِذْ يَقُولُ فِي كِتَابِهِ: {يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِي الْكَلَالَةِ} [النساء: 176] ، وَلِيَعْلَمَ الْمُفْتِي عَمَّنْ يَتَوَبُّ فِي فِتْوَاهُ، وَلِيُوقِنَ أَنَّهُ مَسْئُولٌ عَدَا وَمَوْفُوفٌ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ هُوَ الرَّسُولُ، وَأَوَّلُ مَنْ قَامَ بِهَذَا الْمَنْصِبِ الشَّرِيفِ سَيِّدُ الْمُرْسَلِينَ، وَإِمَامُ الْمُتَّقِينَ، وَخَاتَمُ النَّبِيِّينَ، عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، وَأَمِينُهُ عَلَى وَحْيِهِ، وَسَوِيرُهُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ عِبَادِهِ؛ فَكَانَ يُفْتِي عَنْ اللَّهِ بِوَحْيِهِ الْمُبِينِ، وَكَانَ كَمَا قَالَ لَهُ أَحْكُمُ الْحَاكِمِينَ: {قُلْ مَا أَسْأَلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُتَكَلِّفِينَ} [ص: 86] فَكَانَتْ فِتَاوَاهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - جَوَامِعَ الْأَحْكَامِ، وَمُشْتَمَلَةً عَلَى فَصْلِ الْخُطَابِ، وَهِيَ فِي

وَجُوبِ اتِّبَاعِهَا وَتَحْكِيمِهَا وَالتَّحَاكُمِ إِلَيْهَا ثَانِيَةً الْكِتَابُ، وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ الْعُدُولُ عَنْهَا مَا وَجَدَ إِلَيْهَا سَبِيلًا، وَقَدْ أَمَرَ اللَّهُ عِبَادَهُ بِالرَّيِّ إِلَيْهَا حَيْثُ يَقُولُ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} [النساء: 59] ...

ثُمَّ قَامَ بِالْفَتْوَى بَعْدَهُ بَرُّكَ الْإِسْلَامِ وَعَصَابَةُ الْإِيمَانِ، وَعَسْكَرُ الْقُرْآنِ، وَجُنْدُ الرَّحْمَنِ، أُولَئِكَ أَصْحَابُهُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، أَلَيْنُ الْأُمَّةَ قُلُوبًا، وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا، وَأَقْلَهَا تَكَلُّفًا، وَأَحْسَنَهَا بَيَانًا، وَأَصْدَقَهَا إِمَانًا، وَأَعَمَّهَا نَصِيحَةً، وَأَقْرَبَهَا إِلَى اللَّهِ وَسِيلَةً، وَكَانُوا بَيْنَ مُكْثَرٍ مِنْهَا وَمُقَلٍّ وَمُتَوَسِّطٍ.

وَالَّذِينَ حَفِظَتْ عَنْهُمْ الْفَتْوَى مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - مِائَةٌ وَنِيفَ وَثَلَاثُونَ نَفْسًا، مَا بَيْنَ رَجُلٍ وَامْرَأَةٍ، وَكَانَ الْمُكْثَرُونَ مِنْهُمْ سَبْعَةً: عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ، وَعَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ، وَعَائِشَةُ أُمُّ الْمُؤْمِنِينَ، وَزَيْدُ بْنُ ثَابِتٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَبَّاسٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ...

وَقَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ بْنُ حَزْمٍ: وَيُمْكِنُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْ فِتْوَى كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ سِفْرٌ ضَخْمٌ قَالَ: وَقَدْ جَمَعَ أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ مُوسَى بْنُ يَعْقُوبَ بْنِ أَمِيرِ الْمُؤْمِنِينَ الْمَأْمُونُ فُتْيَا عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا - فِي عِشْرِينَ كِتَابًا وَأَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ الْمَذْكُورُ أَحَدُ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ فِي الْعِلْمِ وَالْحَدِيثِ.

قَالَ أَبُو مُحَمَّدٍ: وَالْمُتَوَسِّطُونَ مِنْهُمْ فِيمَا رُوِيَ عَنْهُمْ مِنَ الْفُتْيَا: أَبُو بَكْرٍ الصِّدِّيقُ، وَأُمُّ سَلَمَةَ، وَأَنَسُ بْنُ مَالِكٍ، وَأَبُو سَعِيدٍ الْخُدْرِيُّ، وَأَبُو هُرَيْرَةَ، وَعُثْمَانُ بْنُ عَفَّانٍ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو بْنِ الْعَاصِ، وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ الزُّبَيْرِ، وَأَبُو مُوسَى الْأَشْعَرِيُّ، وَسَعْدُ بْنُ أَبِي وَقَّاصٍ، وَسَلْمَانُ الْفَارِسِيُّ، وَجَابِرُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ، وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ؛ فَهَؤُلَاءِ ثَلَاثَةٌ عَشَرَ يُمَكِّنُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْ فُتْيَا كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ جُزْءٌ صَغِيرٌ جَدًّا، وَيُضَافُ إِلَيْهِمْ: طَلْحَةُ، وَالزُّبَيْرُ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ، وَعُمَرَانُ بْنُ حُصَيْنٍ، وَأَبُو بَكْرَةَ، وَعَبَادَةُ بْنُ الصَّامِتِ، وَمُعَاوِيَةُ بْنُ أَبِي سُفْيَانَ. وَالْبَاقُونَ مِنْهُمْ مُقْلُونَ فِي الْفُتْيَا، لَا يُرَوَى عَنْ الْوَاحِدِ مِنْهُمْ إِلَّا الْمَسْأَلَةُ وَالْمَسْأَلَتَانِ، وَالرَّيَادَةُ الْيَسِيرَةُ عَلَى ذَلِكَ يُمَكِّنُ أَنْ يُجْمَعَ مِنْ فُتْيَا جَمِيعِهِمْ جُزْءٌ صَغِيرٌ فَقَطْ بَعْدَ التَّقْصِي وَالْبَحْثِ... (1)

وَكَمَا أَنَّ الصَّحَابَةَ سَادَةُ الْأُمَّةِ وَأَيْمُنُهَا وَقَادَتُهَا فَهُمْ سَادَاتُ الْمُفْتِينَ وَالْعُلَمَاءِ. قَالَ اللَّيْثُ عَنْ مُجَاهِدٍ: الْعُلَمَاءُ أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -، وَقَالَ سَعِيدٌ عَنْ قَتَادَةَ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى: {وَيَرَى الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ الَّذِي أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ هُوَ الْحَقُّ} [سبأ: 6] قَالَ: أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ (2) - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ...

1 - راجع إعلام الموقعين لأسمائهم
2 - قول مجاهد رواه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله رقم 1424 وفيه ليث ابن أبي سليم وهو ضعيف، وقول قتادة رواه الطبراني 62/22 وابن أبي حاتم 3161/10 رقم 17869 وابن عبد البر رقم 1422 وإسناده صحيح

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

...وَالِدَيْنِ وَالْفَقْهُ وَالْعِلْمُ انْتَشَرَ فِي الْأُمَّةِ عَنْ أَصْحَابِ ابْنِ مَسْعُودٍ، وَأَصْحَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ، وَأَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ؛ فَعَلِمَ النَّاسُ عَامَّتُهُ عَنْ أَصْحَابِ هَؤُلَاءِ الْأَرْبَعَةِ؛ فَأَمَّا أَهْلُ الْمَدِينَةِ فَعَلِمُوهُمْ عَنْ أَصْحَابِ زَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، وَأَمَّا أَهْلُ مَكَّةَ فَعَلِمُوهُمْ عَنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، وَأَمَّا أَهْلُ الْعِرَاقِ فَعَلِمُوهُمْ عَنْ أَصْحَابِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ...

ومصادر الدين في عهد الصحابة والتابعين ومن تبعهم كان القرآن والسنة والإجماع والقياس، وبقية العلوم والفنون الدينية كانت مستخرجة من القرآن والسنة-(فقه والعقيدة والأصول والسيرة والسلوك والآداب). ولا شك أن فهم الصحابة والسلف الصالح للدين أقوم وأفضل وأعلم من غيرهم ممن جاء من بعدهم، فينبغي على المسلم الاقتداء بهم في جميع أمور دينهم. فإنهم أدركوا بذلك لما شاهدوه من القرآن، والأحوال التي اختصوا بها، ولما لهم من الفهم التام، والعلم الصحيح، والعمل الصالح، لا سيما علماءهم وكبرائهم، كالأئمة الأربعة الخلفاء الراشدين، والأئمة المهديين؛ مثل عبد الله بن مسعود، ومنهم الحبر البحر عبد الله بن عباس، ابن عم رسول الله صلى الله عليه وسلم وترجمان القرآن. فلذلك رأيت من المناسب أن أذكر منهجهم في فهم القرآن وتفسيره لتأسى بهم في ذلك. **منهج الصحابة رضي الله عنهم في التفسير:** التزم أصحاب النبي أحسن الطرق في تفسير القرآن الكريم ونجد ذلك واضحاً فيما يلي

أولاً: فسروا القرآن بالقرآن وجعلوا القرآن الكريم مصدرهم الأول في التفسير.

ثانياً: تفسير القرآن الكريم بالسنة النبوية فإنهم التزموا في تفسيرهم ما فسره النبي فرووه كما سمعوه في تفسير الآية كما ذكر.

ثالثاً: تفسير القرآن بالرجوع إلى بعضهم كما سأل ابن عباس عمر بن الخطاب عن المرأتين اللتين تظاهرتا على النبي فأخبره أنهما حفصة وعائشة، وكرجوع عروة بن الزبير إلى خالته عائشة -رضي الله عنها- في مسألة نفي الجناح: (البقرة:158).

رابعاً: تفسير القرآن وفق الاجتهاد كما فعل عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- في تفسير سورة النصر، وهم أولى الناس في الاجتهاد؛ وذلك لمعرفتهم بلغة القرآن الكريم وأحوال نزوله، ومعرفتهم الواسعة بعادات العرب وأخلاقهم وأحوال غيرهم، وهذا يُعين دون شك على فهم ما يتعلق بما جاء في إصلاح عاداتهم وتهذيب سلوكهم ونحو ذلك مما لا يفهم المراد منه اجتهاداً إلا من كان عارفاً بعادات العرب وتقاليدهم في الجاهلية.

خامساً : فسر بعض الصحابة بعض الآيات بالرجوع إلى أهل الكتاب من اليهود والنصارى ؛ وذلك لأن القرآن يتفق مع التوراة والإنجيل في بعض المسائل، والأخص في قصص الأنبياء وما يتعلق بالأمم الغابرة ، غير أن القرآن يخالفهما في منهج العرض فلا يتعرض لتفاصيل جزئيات المسائل ولم يستوفي القصة من جميع نواحيها ، بل اقتصر من ذلك على موضع العبر فقط.

ولما كانت العقول دائماً تميل إلى التفاصيل والاستقصاء رجع بعض الصحابة إلى من دخل في الإسلام من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام، وكعب الأحبار وغيرهما لأنهم كانوا من علماء اليهود والنصارى قبل إسلامهم(1).

قيمة فهم القرآن والسنة بالمأثور عن الصحابة:

فهم أصحاب النبي للقرآن الكريم وسنة النبي له أهمية ومنزلة خاصة ، ومما يؤكد أهميته، وأهمية الاعتناء بأقوالهم في فهم القرآن والسنة ما يلي:

1- لأنهم تعلموا على يد معلم القرآن الأول الرسول، فنالوا بركة الصحبة، وفضل التعلم بين يديه على أفضل طريقة في التعلم والبيان، وأقوم منهج في الرعاية والاهتمام، وقد فتح لهم المجال واسعاً ليرجعوا إليه في كل ما أشكل عليهم، أو خفي معناه عندهم، وطبق لهم ما أنزله الله عليه سلوكاً ومنهجاً في حياته وحياتهم.

2- أنهم تمسكوا بمنهج النبي علماً وعملاً ، ولم يغيروا أو يبدلوا أو يحدثوا.

3- إن الله أمرنا أن نقفدي بهم من خلال الأخذ من علمهم الصافي، والاهتداء بعملهم الصادق بعد أن زكاهم ومدحهم في القرآن الكريم في آيات متعددة، فكل هذه الأدلة وغيرها كثير تؤكد منزلة ومكانة منهج وقول أصحاب النبي.

4- لأنهم عايشوا التنزيل، وعاصروا الوحي، وعرفوا زمان نزول الآيات ومكانها، وأسباب نزول الآيات والسور، ولذا صار قولهم حجة في بيان أسباب النزول وزمانه.

5 - لأنهم تمتعوا بعروبة خالصة جعلتهم يدركون من معاني القرآن الكريم ومقاصده ما لا يمكن لغيرهم أن يدركه ؛ وذلك لأن القرآن نزل بلغتهم ، فهم أعرف الناس بالقرآن الكريم ، على كل من جاء بعدهم.

6- سلامة مقصدهم ، مما جعل علمهم ينبوعاً من الحكمة ، وما تمتعوا به من قوة الحافظة والتعلم هو معنى التقوى التي كانوا هم أحق الناس بها وأهلها فلهذه الأسباب وغيرها اعتنى العلماء بتفسير الصحابة للقرآن الكريم ، وجعلوا أقوالهم في التفسير بعد أقوال النبي.

¹ التفسير والمفسرون ج1/ 43

تفاوت فهم الصحابة لمعاني القرآن الكريم و السنة:

لم يكن الصحابة على درجة واحدة في فهم معاني القرآن الكريم و السنة النبوية ، بل كانوا على درجات متفاوتة ، فمنهم الملمّ بفهم ألفاظهما عارف لأسباب نزولهما ، خبير بناسخهما ومنسوخهما ، ومحكمهما ومتشابههما ونحو ذلك ، كعبد الله بن مسعود وعبد الله بن عباس رضي الله عنهما ومنهم من عرف الكثير منهما وخفيت عليه جوانب من معانيهما ، فقد خفي على عمر رضي الله عنه مع علمه معنى الأب في قوله تعالى (وفاكهة وأباً) ، كما خفي عليه معنى التخوف في سورة النحل ، حتى قال له رجل من هذيل التخوف عندنا التنقص .

كما خفي على عبد الله بن عباس -رضي الله عنهما- مع علمه وقدره معنى كلمة "فاطر" كما ورد عنه أنه قال " كنت لا أدري ما فاطر السموات حتى أتاني أعرابيان يختصمان في بئر فقال أحدهما : أنا فطرتها يقول أنا ابتدأتها ."¹ ومنهم من كانت تخفى عليه معاني لا تخفى على غيره كما خفي على عدي بن حاتم فهم المراد بالخيط الأسود من الخيط الأبيض في قوله تعالى {وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ} (البقرة: 187) ، وكما خفي على عروة بن الزبير دلالة وجوب السعي بين الصفا والمروة مع نفي الجناح في قوله تعالى : {إِنَّ الصَّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ فَمَنْ حَجَّ الْبَيْتَ أَوْ اعْتَمَرَ فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِ أَنْ يَطَّوَّفَ بِهِمَا وَمَنْ تَطَوَّعَ خَيْرًا فَإِنَّ اللَّهَ شَاكِرٌ عَلِيمٌ} (البقرة: 158) ، حتى رجع إلى خالته عائشة رضي الله عنها فأزالت له ما أشكل عليه كما جاء ذلك ؛ ولذا فقد كان فهم الصحابة ومن بعدهم في القرآن متفاوت ، وقد كان يشكل على بعضهم ما لا يشكل على الآخر ولو تساوت العقول في فهم معانيه لبطل التنافس وضعفت الهمم.

أسباب تفاوت فهم الصحابي لمعاني القرآن الكريم :

1-تفاوتهم في ملازمة الرسول وحضور مجالسه :

فمن الصحابة من كان ملازماً للنبي -صلى الله عليه وسلم- لا يكاد يفارقه مثل أبي هريرة رضي الله عنه، حيث قال : "إنكم تقولون : إن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله وتقولون ما بال المهاجرين والأنصار لا يحدثون عن رسول الله ' بمثل حديث أبي هريرة ، وإن إخواني من المهاجرين كان يشغلهم صفق بالأسواق ، وكنت ألزم رسول الله على ملء بطني ، فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ، وكان يشغل إخواني من الأنصار عمل أموالهم ، وكنت امرأ مسكينا من مساكين الصفة ، أعي حين ينسون ، وقد قال : رسول الله ' في حديث يحدثه : " إنه لن يبسط أحد ثوبه حتى أقضي مقالتي هذه، ثم يجمع إليه ثوبه، إلا وعى ما أقول " ، فبسطت نمرة علي ، حتى إذا قضى رسول الله مقالته جمعتها إلى صدري، فما نسيت من مقالة رسول الله تلك من شيء" . (2) ومنهم من كان يلازمه

¹ ذكره ابن كثير في فضائل القرآن بإسناد جيد #125

² صحيح البخاري (1959)

يوم ويغيب يوم كعمر بن الخطاب رضي الله عنه، كما جاء عن عبد الله بن عباس عن عمر- رضي الله عنهم- قال : "كنت أنا وجار لي من الأنصار في بني أمية بن زيد وهي من عوالي المدينة وكنا نتناوب النزول على رسول الله، ينزل يوما وأنزل يوما ، فإذا نزلت جئته بخبر ذلك اليوم من الوحي وغيره ، وإذا نزل فعل مثل ذلك(1). ومنهم من لم يحظى إلا بالقليل من مجالسته، خاصة الذين أرسلهم النبي لبعض المهام المهمة، ومنهم الذين أسلموا متأخرين.

2-تفاوتهم في معرفة لغة العرب:

فقد كان الإمام الصحابة بلغة العرب متفاوت، حسب تفاوت الناس في البيئة التي عاشوا فيها، لأن اللغة العربية إن أحاط بها مجموع أهلها فإنها لا يمكن أن يحيط بها كل فرد من أهلها، ولذا كانت تخفى معاني على بعضهم أو تستشكل بما لا يخفى على غيرهم ، خاصة وأن لغات العرب كانت متباينة في بعض الكلمات تفاوت أدى إلى نزول القرآن على سبعة أحرف .

3-تفاوتهم في الإمام بأحوال نزول القرآن:

معرفة أسباب نزول الآيات والسور كان فيه تباين بينهم، ولذا كانت تشكل بعض المعاني لمن لا يعرف أسباب النزول بما لا تشكل على من ألم بحال نزول الآيات.

4-تفاوت مداركهم العقلية :

الصحابة كغيرهم من البشر كان بينهم تفاوت في مداركهم العقلية ، وقد يوجد عند الصغير أحياناً ما لا يوجد عند الكبير. روى البخاري في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : كان عمر يدخلني مع أشياخ بدر ، فقال بعضهم : لم تدخل هذا الفتى معنا ولنا أبناء مثله ؟ فقال : إنه ممن قد علمتم ، قال : فدعاهم ذات يوم ودعاني معهم ، قال : وما رأيته دعاني يومئذ إلا ليريهم مني ، فقال : ما تقولون في (النصر: 1- 2) حتى ختم السورة ، فقال بعضهم : أمرنا أن نحمد الله ونستغفره إذا نصرنا وفتح علينا ، وقال بعضهم ، لا ندري ، أو لم يقل بعضهم شيئاً ، فقال لي : يا ابن عباس أكذلك قولك ؟ قلت لا ، قال : فما تقول ؟ قلت : هو أجل رسول أعلمه الله له " إذا جاء نصر الله والفتح " فتح مكة ، فذاك علامة أجلك " فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان تواباً " قال عمر: ما أعلم منها إلا ما تعلم."2

1 صحيح البخاري (2468)

2 صحيح البخاري (9034)

5-تنوع اهتمامات الصحابة:

فقد تنوعت اهتمامات الصحابة فمنهم من عني بالجهاد كخالد بن الوليد ، ومنهم من اعتنى بالتفسير كابن مسعود ، وابن عباس ، ومنهم من اعتنى بالفرائض كزيد بن ثابت ، ومنهم من اعتنى بالحلال والحرام كمعاذ بن جبل، ومنهم من اعتنى برواية الحديث كأبي هريرة أجمعين ، كما جاء عن أنس بن مالك قال : قال رسول الله : "أرحم أمتي بأمتي أبو بكر ، وأشدهم في الله عمر ، وأصدقهم حياء عثمان ، وأقروهم لكتاب الله أبي بن كعب ، وأفرضهم زيد بن ثابت ، وأعلمهم بالحلال والحرام معاذ بن جبل ، ألا وإن لكل أمة أمينا وأمين هذه الأمة أبو عبيدة بن الجراح." (1)

6-تفاوتهم في درجات الإيمان: الصحابة كان بينهم تفاوت كبير في درجات الإيمان وإزكاء النفوس التي بسبب تقواها وصلاحها تزكوا الأرواح وتنتفتح العقول ويرى الإنسان بنور بصيرته من أسرار كتابه ودقائق حكمه ما لا يره أو يدركه غيره من الناس ، وتظل معاني القرآن تفعل في قلبه من الإيمان فعل الماء النازل من السماء على الأرض الطيبة.

فمن هم أشهر المفسرين من الصحابة؟ وما منهجهم في فهم و تفسير كتاب الله ؟
وقد قال النبي سَمِعْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: «خُذُوا الْقُرْآنَ مِنْ أَرْبَعَةٍ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ، وَسَالِمٍ، وَمُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ، وَأَبِي بَنٍ كَعْبٍ» (2)
قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «وَاللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ غَيْرُهُ، مَا أُنْزِلَتْ سُورَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ أَيْنَ أُنْزِلَتْ، وَلَا أُنْزِلَتْ آيَةٌ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ إِلَّا أَنَا أَعْلَمُ فِيمَ أُنْزِلَتْ، وَلَوْ أَعْلَمُ أَحَدًا أَعْلَمَ مِنِّي بِكِتَابِ اللَّهِ، تُبَلِّغُهُ الْإِبِلَ لَرَكِبْتُ إِلَيْهِ» (3)

أشهر المفسرين من أصحاب النبي :

أبو بكر ، وعمر ، وعثمان ، وعلي، وعبد الله بن مسعود ، وعبد الله بن عباس ، وعبد الله بن الزبير ، وأبي بن كعب ، وزيد بن ثابت ، وأبو موسى الأشعري ، وعائشة رضي الله عنهم أجمعين.

وهناك بعض الصحابة من نقل عنهم نقلاً قليلاً لم يصل بهم الأمر إلى درجة الشهرة ومنهم : أنس بن مالك ، وأبو هريرة ، وابن عمر ، وجابر بن عبد الله ، وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهم.

1 رواه الترمذي (3809) ، هذا حديث حسن صحيح ، وابن ماجه (153)، وابن حبان في صحيحه (7238) ، والحاكم في المستدرک (5776) ، وقال : صحيح على شرط الشيخين ، ولم يخرجاه

² صحيح البخاري (4999)

³ صحيح البخاري (5001)

وأكثر من نقل عنهم الرواية في التفسير أربعة وهم :
1- علي بن أبي طالب , 2- وعبد الله بن مسعود, 3 - وعبد الله بن عباس 4- وأبي بن كعب.

المكثرون من الصحابة في الرواية الحديث:

المكثرون في الرواية من بلغت مروياته ألف حديث فأكثر.
قال الأصبهاني في كتابه¹: " وَلَيْسَ الْعِلْمُ بِكَثْرَةِ الرِّوَايَةِ، وَإِنَّمَا هُوَ الْإِتِّبَاعُ، وَالِاسْتِعْمَالُ. يَفْتَدِي بِالصَّحَابَةِ، وَالتَّابِعِينَ وَإِنْ كَانَ قَلِيلَ الْعِلْمِ، وَمَنْ خَالَفَ الصَّحَابَةَ وَالتَّابِعِينَ فَهُوَ ضَالٌّ، وَإِنْ كَانَ كَثِيرَ الْعِلْمِ...إِلَى أَنْ قَالَ: وَذَلِكَ أَنَّهُ تَبَيَّنَ لِلنَّاسِ أَمْرُ دِينِهِمْ فَعَلِينَا الْإِتِّبَاعَ لِأَنَّ الدِّينَ إِنَّمَا جَاءَ مِنْ قَبْلِ اللَّهِ تَعَالَى لَمْ يَوْضَعْ عَلَى عَقُولِ الرِّجَالِ، وَأَرَاءَهُمْ قَدْ بَيَّنَّ الرِّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - السُّنَّةَ لِأُمَّتِهِ، وَأَوْضَحَهَا لِأَصْحَابِهِ، فَمَنْ خَالَفَ أَصْحَابَ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي شَيْءٍ مِنَ الدِّينِ فَقَدْ ضَلَّ."

والصحابه المكثرين في الرواية سبعة هم على النحو التالي:

- 1- أبو هريرة -رضي الله عنه-، روى عنه (5374) حسب مسند بقي من مخرده، وله في مسند أحمد (3848)، واتفق الشيخان له على (326) وانفرد البخاري برواية (93) ومسلم برواية (98) حديثاً.
- 2- عبدالله بن عمر بن الخطاب -رضي الله عنهما-، روى عنه (2630) وله في مسند أحمد (2019) واتفق الشيخان له على (168) وانفرد البخاري برواية (81) ومسلم برواية (31) حديثاً.
- 3- أنس بن مالك -رضي الله عنه-، روى عنه (2286) وله في مسند أحمد (2192)، واتفق الشيخان له على (180) وانفرد البخاري برواية (80) ومسلم برواية (90) حديثاً.
- 4- أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها، روى عنها (2210) ولها في مسند أحمد (1340) واتفق الشيخان لها على (174) وانفرد البخاري برواية (54) ومسلم برواية (69) حديثاً.
- 5- عبدالله بن العباس بن عبدالمطلب -رضي الله عنهما-، روى عنه (1660) وله في مسند أحمد (1696) واتفق الشيخان له على (75) وانفرد البخاري برواية (120) ومسلم برواية (9) أحاديث.
- 6- جابر بن عبدالله -رضي الله عنهما-، روى عنه (1540) وله في مسند أحمد (1206) واتفق الشيخان له على (58) وانفرد البخاري برواية (26) ومسلم برواية (126) حديثاً.
- 7- أبو سعيد سعد بن مالك بن سنان الخدري -رضي الله عنهما-، روى عنه (1170) ألف ومائة وسبعون حديثاً، وله في مسند أحمد (958) واتفق الشيخان له على (43) وانفرد البخاري برواية (16) ومسلم برواية (52) حديثاً.

¹ "المحجة في بيان المحجة" (472-469/2)

وقد نظم هؤلاء السبعة بعضهم بقوله:

سبع من الصحب فوق الألف قد نقلوا
أبو هريرة سعد جابر أنس
من الحديث عن المختار خير مضر
صديقة وابن عباس كذا ابن عمر

وقال السيوطي رحمه الله في ألفيته:

والمكثرون في رواية الأثر
وأنس والبحر كالخدي
أبو هريرة يليه ابن عمر
وأنس وزوجة النبي

وبين رحمه الله أكثرهم فتاوى فقال:

والبخر أوفاهم فتاوى وعمر
ثم ابن مسعود وزيد وعلي
ونجله وزوجة الهادي الأبر
وبعدهم عشرون لا تقل

وقال بعضهم :

والمكثرون من رواية الأثر---أبو هريرة يليه ابن عمر
فأنس، فزوجة المختار---فالبخر، ثم جابر الأنصاري
ثم الرضى ابن مالك سعد الأشم---أبو سعيد نجم خذرة العلم

وأما الذين لم تبلغ مروياتهم ألف حديث، فهم متفاوتون في ذلك، فمنهم من روى له مئات الأحاديث، ومن هؤلاء: 1- عبدالله بن مسعود -رضي الله عنه-، وله (848) حديث 2- عبدالله بن عمرو بن العاص -رضي الله عنهما-، له (700) حديث. 3- أم سلمة -رضي الله عنها-، ولها (378) حديث. 4- البراء بن عازب رضي الله عنهما، وله (305) حديث. 5- أبو ذر الغفاري -رضي الله عنه-، وله (281) حديث.

ومن الصحابة من روى له عشرات الأحاديث، منهم:

- زيد بن ثابت -رضي الله عنه-، له خمسة وتسعون حديثاً (95).
- وأم المؤمنين ميمونة -رضي الله عنها-، لها ستة وسبعون حديثاً (76).
- وزيد بن أرقم -رضي الله عنه-، له سبعون حديثاً (70).
- وأم المؤمنين حفصة -رضي الله عنها-، لها ستون حديثاً (60).
- وعمرو بن العاص -رضي الله عنها-، له تسعة وثلاثون حديثاً (39).

أفضل الكتب التي تجمع أقوال و فتاوى الصحابة:

- 1- الأوسط لابن المنذر .
- 2- مصنف ابن أبي شيبة.
- 3- مصنف عبدالرزاق.
- 4- السنن الكبرى للبيهقي .
- 5- شرح معاني الآثار.
- 6- مسند سعيد ابن منصور.
- 7- أحكام القرآن للطحاوي .
- 8- معرفة السنن والآثار للبيهقي
- 9- الغيلانيات والخلافيات للبيهقي

وكتب أخرى:

- موطأ الإمام مالك
- الأم للإمام لشافعي
- كتب الإمام محمد بن نصر المروزي
- كتب التراجم القديمة: كـ(طبقات ابن سعد) -وهو حافلٌ بالآثار- و(المعرفة والتاريخ) للفسوي؛ وغيرها
- كتب (معاجم الصحابة) لابن قانع ولأبي نعيم وللبلغوي ولغيرهم
- مسائل الإمام أحمد -سيما مسائل حرب-
- المحلى لابن حزم
- تهذيب الآثار للطبري
- التمهيد والاستذكار لابن عبد البر -وهو يعتمد على مصنف ابن أبي شيبة والأوسط لابن المنذر كثيراً-
- الكتب المفردة في باب كـ(الطهور) لأبي عبيد القاسم بن سلام و(الأموال) له؛ و(المناسك) لسعيد بن أبي عروبة؛ وهكذا..
- بعض الأجزاء الحديثية هي من مظان الموقوف كـ(الطيورات) و(جزء حنبل)
- معجم فقه السلف للعلامة الكتاني
- ما صح من آثار الصحابة في فقه لذكريا غلام الباكستاني

*فبعد أن تعرفنا على الكتب التي تحتوي على آثار السلف، فكيف نتعامل مع هذه الآثار؟ وهل يجب على المسلم الرجوع إلى أقوال السلف في فهم دينه؟ قال ابن القيم: "الرجوع إلى الصحابة في معاني الألفاظ متعين سواء كانت لغوية أو شرعية." (1)

وقال ابن رجب: "فالعلم النافع من هذه العلوم كلها ضبط نصوص الكتاب والسنة وفهم معانيها والتقيد في ذلك بالمأثور عن الصحابة والتابعين وتابعيهم في معاني القرآن والحديث. وفيما ورد عنهم من الكلام في مسائل الحلال والحرام، والزهد، والرقائق، والمعارف. وغير ذلك والاجتهاد على تمييز صحيحه من سقيم أولاً. ثم الاجتهاد على الوقوف في معانيه وتفهمه ثانياً. وفي ذلك كفاية لمن عقل." (2)

ما نتيجة الاعراض أو عدم الاهتمام بآثار السلف؟

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَقَدْ عَدَلْتُ " الْمُرْجِيَّةَ " فِي هَذَا الْأَصْلِ عَنْ بَيَانِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَأَقْوَالِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ وَاعْتَمَدُوا عَلَى رَأْيِهِمْ وَعَلَى مَا تَأَوَّلُوهُ بِفَهْمِهِمُ اللَّغَةَ، وَهَذِهِ طَرِيقَةُ أَهْلِ الْبِدْعِ؛ وَلِهَذَا كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ يَقُولُ: أَكْثَرُ مَا يُخْطِئُ النَّاسُ مِنْ جِهَةِ التَّأْوِيلِ وَالْفَيَاسِ. وَلِهَذَا تَجِدُ الْمُعْتَزِلَةَ وَالْمُرْجِيَّةَ وَالرَّافِضَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ يُفَسِّرُونَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِمْ وَمَعْقُولِهِمْ وَمَا تَأَوَّلُوهُ مِنَ اللَّغَةِ؛ وَلِهَذَا تَجِدُهُمْ لَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى أَحَادِيثِ النَّبِيِّ -صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ- وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَأَيُّمَةِ الْمُسْلِمِينَ؛ فَلَا يَعْتَمِدُونَ لَا عَلَى السُّنَّةِ وَلَا عَلَى إِجْمَاعِ السَّلَفِ وَآثَارِهِمْ؛ وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى الْعَقْلِ وَاللُّغَةِ وَتَجِدُهُمْ لَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى كُتُبِ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورَةِ وَالْحَدِيثِ؛ وَآثَارِ السَّلَفِ وَإِنَّمَا يَعْتَمِدُونَ عَلَى كُتُبِ الْأَدَبِ وَكُتُبِ الْكَلَامِ الَّتِي وَضَعَتْهَا رُءُوسُهُمْ وَهَذِهِ طَرِيقَةُ الْمَلَاحِدَةِ أَيْضًا؛ إِنَّمَا يَأْخُذُونَ مَا فِي كُتُبِ الْفَلَسَفَةِ وَكُتُبِ الْأَدَبِ وَاللُّغَةِ وَأَمَّا كُتُبُ الْقُرْآنِ وَالْحَدِيثِ وَالْآثَارِ؛ فَلَا يَنْتَقِثُونَ إِلَيْهَا. هَؤُلَاءِ يُعْرِضُونَ عَنْ نُصُوصِ الْأَنْبِيَاءِ إِذْ هِيَ عِنْدَهُمْ لَا تُفِيدُ الْعِلْمَ وَأُولَئِكَ يَتَأَوَّلُونَ الْقُرْآنَ بِرَأْيِهِمْ وَفَهْمِهِمْ بِلَا آثَارٍ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابِهِ..." (3)

وقال في موضع آخر: "فَالْعِلْمُ الْمَشْرُوعُ وَالتَّسْلُكُ الْمَشْرُوعُ مَاخُذٌ عَنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَمَّا مَا جَاءَ عَنْ بَعْضِهِمْ فَلَا يَنْبَغِي أَنْ يُجْعَلَ أَصْلًا وَإِنْ كَانَ صَاحِبُهُ مَعْدُورًا بَلْ مَاجُورًا لِاجْتِهَادِهِ أَوْ تَقْلِيدِهِ. فَمَنْ بَنَى الْكَلَامَ فِي الْعِلْمِ: الْأَصُولَ وَالْفُرُوعَ عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْآثَارِ الْمَأْثُورَةِ عَنِ السَّابِقِينَ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ وَكَذَلِكَ مَنْ بَنَى الْإِرَادَةَ وَالْعِبَادَةَ وَالْعَمَلَ وَالسَّمَاعَ الْمُتَعَلِّقَ بِأَصُولِ الْأَعْمَالِ وَفُرُوعِهَا مِنَ الْأَحْوَالِ الْقَلْبِيَّةِ وَالْأَعْمَالِ الْبَدَنِيَّةِ عَلَى الْإِيمَانِ وَالسُّنَّةِ وَالْهُدَى الَّذِي كَانَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَأَصْحَابُهُ فَقَدْ أَصَابَ طَرِيقَ النُّبُوَّةِ وَهَذِهِ طَرِيقُ أَيْمَةِ الْهُدَى. تَجِدُ " الْإِمَامَ أَحْمَدَ " إِذَا ذَكَرَ أَصُولَ السُّنَّةِ قَالَ: هِيَ التَّمَسُّكُ بِمَا كَانَ عَلَيْهِ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

1 -تهذيب سنن أبي داود 338/9

2 -فضل علم السلف على علم الخلف ص6

3 -مجموع الفتاوى 119-118/7

وَكُتِبَ كُتُبُ التَّفْسِيرِ الْمَأْثُورِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ. وَكُتِبَ الْحَدِيثُ وَالْأَثَارُ الْمَأْثُورَةُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ، وَعَلَى ذَلِكَ يَعْتَمَدُ فِي أَصُولِهِ الْعِلْمِيَّةِ وَفُرُوعِهِ...إِلَى أَنْ قَالَ: وَكَذَلِكَ فِي " الزُّهْدِ " و " الرِّقَاقِ " و " الْأَحْوَالِ " فَإِنَّهُ اعْتَمَدَ فِي " كِتَابِ الزُّهْدِ " عَلَى الْمَأْثُورِ عَنِ الْأَنْبِيَاءِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ مِنْ آدَمَ إِلَى مُحَمَّدٍ ثُمَّ عَلَى طَرِيقِ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَلَمْ يَذْكُرْ مَنْ بَعْدَهُمْ. "(1)

هذه بعض القواعد تساعدنا في التعامل مع آثار السلف:

1- إذا اختلف قول الصحابي مع حديث مرفوع وأمكن الجمع، فإن الجمع بينهما أولى(2)

2- قال ابن القيم: "الرجوع إلى الصحابة في معاني الألفاظ متعين سواء كانت لغوية أو شرعية." (3)

3- قال الشيخ الألباني⁴: "ينبغي أن نعامل آثار الصحابة من حيث البحث في صحتها كما نعامل الأحاديث النبوية." انتهى

4- وإذا روى الصحابي حديثاً وفسره ذلك الصحابي أو حمّله على معنى معين من المعاني، فإنه ينبغي الوقوف على ما ذهب إليه الصحابي من معنى ذلك الحديث، لأنه هو راوي الحديث: والراوي أدري بمرويه من غيره.
قال السمعاني: "وأما تفسير الراوي لأحد محتلي الخبر يكون حجة في تفسير الخبر كالذي رواه ابن عمر: "أن المتبايعين بالخيار ما لم يتفرقا"⁵ وفسره بالتفريق بالأبدان لا بالأقوال فيكون أولى، لأنه قد شاهد من خطاب الرسول -صلى الله عليه وسلم- ما عرف به مقاصده وكان تفسيره بمنزلة نقله." (6)
و هذه القاعدة محلها فيما إذا لم يكن النص صريحاً وأما إذا كان النص صريحاً غير محتمل فلا يؤخذ بتفسير الراوي إذا كان مخالفاً للنص الصريح.

5- قال شيخ الإسلام ابن تيمية: "وَأَمَّا أَقْوَالُ الصَّحَابَةِ؛ فَإِنْ انْتَشَرَتْ وَلَمْ تُنْكَرْ فِي زَمَانِهِمْ فَهِيَ حُجَّةٌ عِنْدَ جَمَاهِيرِ الْعُلَمَاءِ وَإِنْ تَنَازَعُوا رُدَّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. وَلَمْ يَكُنْ قَوْلُ بَعْضِهِمْ حُجَّةً مَعَ مُخَالَفَةِ بَعْضِهِمْ لَهُ بِاتِّفَاقِ الْعُلَمَاءِ وَإِنْ قَالَ بَعْضُهُمْ قَوْلًا وَلَمْ يَقُلْ

¹ مجموع الفتاوى 362/10-364

² -إعلام الموقعين 112/4

³ -تهذيب سنن أبي داود 338/9

⁴ -سلسلة الهدى والنور رقم 350

⁵ البخاري (2111)

⁶ -قواطع الأدلة 190/1

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

بَعْضُهُمْ بِخِلَافِهِ وَلَمْ يَنْتَشِرْ؛ فَهَذَا فِيهِ نِزَاعٌ وَجُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ يَحْتَجُّونَ بِهِ كَأَبِي حَنِيفَةَ، وَمَالِكٍ؛ وَأَحْمَدُ فِي الْمَشْهُورِ عَنْهُ؛ وَالشَّافِعِيُّ فِي أَحَدِ قَوْلَيْهِ وَفِي كُتُبِهِ الْجَدِيدَةِ الْإِحْتِجَاجُ بِمِثْلِ ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ وَلَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ يَقُولُ: هَذَا هُوَ الْقَوْلُ الْقَدِيمُ". (1)

6- وقال ابن القيم: "وَأَكْثَرُ الْعُلَمَاءِ بَلَّ الَّذِي نَصَّ عَلَيْهِ مِنْ قُلْدُثُمُوهُ أَنَّ أَقْوَالَ الصَّحَابَةِ حُجَّةٌ: يَجِبُ اتِّبَاعُهَا، وَيَحْرُمُ الْخُرُوجُ مِنْهَا كَمَا سَيَأْتِي حِكَايَةُ أَلْفَظِ الْأَيِّمَةِ فِي ذَلِكَ، وَأَبْلَغُهُمْ فِيهِ الشَّافِعِيُّ، وَنُبِّينُ أَنَّهُ لَمْ يَخْتَلَفْ مَذْهَبُهُ أَنَّ قَوْلَ الصَّحَابِيِّ حُجَّةٌ، وَنَذَكُرُ نُصُوصَهُ فِي الْجَدِيدِ عَلَى ذَلِكَ إِنْ شَاءَ اللَّهُ، وَأَنَّ مَنْ حَكَى عَنْهُ قَوْلَيْنِ فِي ذَلِكَ فَأَتَمَّا حَكَى ذَلِكَ بِإِلَازِمِ قَوْلِهِ، لَا بِصَرِيحِهِ، وَإِنْ كَانَ قَوْلُ الصَّحَابِيِّ حُجَّةً فَقَبُولُ قَوْلِهِ حُجَّةٌ وَاجِبٌ مُتَعَيِّنٌ". (2)

7- إذا خالف الصحابي ما رواه، فالعبرة بما رواه ولا بما رآه أو عمل. (3)

8- ما أقره الصحابة ولم ينكروه أو كان مشهوراً في عهد السلف ولم ينكروه دل ذلك على مشروعيته. (4)

9- قول الصحابي: "كانوا يفعلون كذا وكذا" أو "كنا نفعل كذا" فله حكم مرفوع. (5) وكذلك كل ما ورد من قول أو فعل مما لا مجال للرأي فيه له حكم مرفوع. (6)

10- قول الصحابة: "من السنة كذا" فله حكم المرفوع وقول التابعي: "من السنة كذا وكذا" يكون حكم المرسل قلاً يكون حجة. (7)

¹ مجموع الفتاوى 14/20. والصحيح في هذه المسألة هو أن قول الصحابي حجة لكن حجة بغيره وليس المراد هو أنه حجة بذاته كالكتاب والسنة، فإنهما حجة بذاتهما وإنما يكون حجة لما احتف بقوله من أدلة وقرائن تدل على حجية قوله فهو حجة بالغير. قال ابن القيم في إعلام الموقعين 135/4: "فإن قوله لم يكن بمجرد حجة بل بما انضاف إليه من القرائن".

* تنبيه: وإن لم يشتهر قوله أو لم يعلم هل اشتهر أم لا؟ فاختلف الناس في هذا هل يكون حجة أم لا؟ الجمهور على أنه حجة. (إعلام الموقعين 92/4)

² إعلام الموقعين 186/2

³ الفقيه والمتفقه 143-141/1 وزاد المعاد 295/5

⁴ -اقتضاء الصراط المستقيم 141/1، 310

⁵ جامع بيان العلم وفضله 29/2، إعلام الموقعين 132/2، 770/1 وانظر شرح الكوكب المنير 490/2

⁶ -فتح المغيـث لأبي عمر الداني 151/1، ومذكورة في أصول الفقه للشنقيطي 165، توضيح الأفكار للصنعاني 268/1، مجموع الفتاوى لابن تيمية 121/23

⁷ -تجريد التمهيد لابن عبد البر ص141، وقواطع الأدلة ص536، إرشاد الفحول 300/1

11- قول الصحابي: "أمرنا بكذا ونهينا عن كذا" بصيغة البناء للمجهول فيعني به أمر أو نهى صاحب الشريعة (الله عز وجل أو رسوله). (1)

12- لا تنسب قاعدة إلى السلف بفعل أو قول يصدر من آحاد السلف وجمع عبارات السلف في المكان الواحد أدل على المقصود من عبارة أو عبارتین أو فعل أو فعلین. (2)

13- تَرْتِيبُ الْأَخْذِ بِفَتَاوَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ: إِذَا قَالَ الصَّحَابِيُّ قَوْلًا فَمَا أَنْ يُخَالِفَهُ صَحَابِيُّ آخَرُ أَوْ لَا يُخَالِفُهُ، فَإِنْ خَالَفَهُ مِثْلُهُ لَمْ يَكُنْ قَوْلُ أَحَدِهِمَا حُجَّةً عَلَى الْآخَرِ، وَإِنْ خَالَفَهُ أَعْلَمَ مِنْهُ كَمَا إِذَا خَالَفَ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَوْ بَعْضُهُمْ غَيْرَهُمْ مِنَ الصَّحَابَةِ فِي حُكْمٍ، فَهَلْ يَكُونُ الشَّقُّ الَّذِي فِيهِ الْخُلَفَاءُ الرَّاشِدُونَ أَوْ بَعْضُهُمْ حُجَّةً عَلَى الْآخَرِينَ؟ فِيهِ قَوْلَانِ لِلْعُلَمَاءِ، وَهُمَا رَوَاتَانِ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَالصَّحِيحُ أَنَّ الشَّقَّ الَّذِي فِيهِ الْخُلَفَاءُ أَوْ بَعْضُهُمْ أَرْجَحُ، وَأَوَّلَى أَنْ يُؤْخَذَ بِهِ مِنَ الشَّقِّ الْآخَرِ، فَإِنْ كَانَ الْأَرْبَعَةُ فِي شَقٍّ فَلَا شَكَّ أَنَّهُ الصَّوَابُ، وَإِنْ كَانَ أَكْثَرُهُمْ فِي شَقٍّ فَالصَّوَابُ فِيهِ أَغْلَبُ، وَإِنْ كَانُوا اثْنَيْنِ وَاثْنَيْنِ فَشَقُّ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ أَقْرَبُ إِلَى الصَّوَابِ، فَإِنْ اخْتَلَفَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَالصَّوَابُ مَعَ أَبِي بَكْرٍ. وَهَذِهِ جُمْلَةٌ لَا يَعْرِفُ تَفْصِيلَهَا إِلَّا مَنْ لَهُ خِبْرَةٌ وَاطِّلَاعٌ عَلَى مَا اخْتَلَفَ فِيهِ الصَّحَابَةُ وَعَلَى الرَّاجِحِ مِنْ أَقْوَالِهِمْ، وَيَكْفِي فِي ذَلِكَ مَعْرِفَةُ رُجْحَانِ قَوْلِ الصَّدِّيقِ فِي الْجَدِّ وَالْإِخْوَةِ، وَكَوْنِ الطَّلَاقِ الثَّلَاثِ بِقَمٍّ وَاحِدٍ مَرَّةً وَاحِدَةً، وَإِنْ تَلَفَّظَ فِيهِ بِالثَّلَاثِ، وَجَوَّازَ بَيْعِ أُمَّهَاتِ الْأَوْلَادِ، وَإِذَا نَظَرَ الْعَالَمُ الْمُنْصِيفُ فِي أدْلَةِ هَذِهِ الْمَسَائِلِ مِنَ الْجَانِبَيْنِ تَبَيَّنَ لَهُ أَنَّ جَانِبَ الصَّدِّيقِ أَرْجَحُ، وَقَدْ تَقَدَّمَ بَعْضُ ذَلِكَ فِي مَسْأَلَةِ الْجَدِّ وَالطَّلَاقِ الثَّلَاثِ بِقَمٍّ وَاحِدٍ، وَلَا يُحْفَظُ لِلصَّدِّيقِ خِلَافُ نَصٍّ وَاحِدٍ أَبَدًا، وَلَا يُحْفَظُ لَهُ فَتْوَى وَلَا حُكْمٌ مَأْخُذُهَا ضَعِيفٌ أَبَدًا، وَهُوَ تَحْقِيقٌ لِكَوْنِ خِلَافَتِهِ خِلَافَةً نُبُوَّةً. (3)

14- إذا اختلف أقوال السلف في مسألة وأمكن الجمع بينها فإن الجمع بينها أولى. (4)

1 - الكفاية في علم الرواية ص 592، إرشاد الفحول 299/1

2 - ذكره الشيخ الألباني في بعض جلساته رحمه الله، مجموع الفتاوى 343/13، مختصر الصواعق المرسله 199/2

3 - إعلام الموقعين 90/4-92 فهذا الفصل مهم جدا راجعه تستقد

4 - فتح الباري 179/6، 477/5 راجع كتاب "توضيح أصول الفقه على منهج أهل الحديث" لتركيا بن غلام قادر البكستاني تستقد

وبناءً على قول النبي: "خير الناس قرني ثم الذي يلونهم ثم الذي يلونهم".¹ فالتابعون هم أعلم الناس بهذا الدين بعد الصحابة فما كان منهجهم في فهم القرآن والسنة؟ كما سبق أن النبي -صلى الله عليه وسلم- ذكر: "أن خير القرن قرنه ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"، فعلى المسلم أن يتفقه في أقوال هذه القرون المفضلة لمعرفة معاني كتاب الله تعالى، فما منهج التابعين في فهم كتاب الله وتفسيره؟

منهج التابعين في التفسير:

لم يختلف منهج التابعين عن طرق التفسير التي كان عليها أصحاب النبي ' إلا في إضافات يسيرة نتيجة لبعض المستجدات التي عاشوها بعد أصحاب النبي ' بسبب توسع الفتوحات الإسلامية ، وكذلك لأنهم تلاميذهم ومنهم أخذوا ، ونجد منهجهم كان قائماً على ما يلي:

- 1- تفسير القرآن بالقرآن ، كما هو منهج أصحاب النبي.
- 2- تفسير القرآن بالسنة ، كما هو منهج أصحاب النبي.
- 3- تفسير القرآن بأقوال الصحابة ، وهم الذين أخذوا منهم ، ورجعوا إليهم فيما أشكل عليهم ، ورووا لنا أقوالهم ، ولم يقدموا أقوالهم على أقوالهم .
- 4- الاجتهاد وفق ما تعلموه من أصحاب النبي ' ، ووفق معرفتهم التامة بلغة القرآن الكريم
- 5- الرجوع إلى مسلمة أهل الكتاب فيما يتعلق بقصص الأنبياء والأمم السابقة ، وذلك نتيجة لتوسع الفتوحات الإسلامية ودخول أمم من أهل الكتاب في الإسلام ، ومنهم من كانوا يعرفون تفاصيل عن بعض القصص التي وردت في القرآن ، والنفوس تميل إلى معرفة التفاصيل والاستقصاء ، وهي قصص تؤيد لما جاء في القرآن الكريم ، ومن هنا برزت الإسرائيليات في تفسير التابعين - رحمهم الله -

قيمة التفسير المأثور عن التابعين رحمهم الله:

تفسير التابعين للقرآن الكريم له منزلة ومزية خاصة ، فهو يأتي في المرتبة الرابعة بعد تفسير القرآن بأقوال الصحابة رضي الله عنهم ، ويرجع قيمة تفسيرهم من الناحية العلمية إلى عدة أسباب أهمها ما يلي:

- 1- تعلمهم على يد أصحاب النبي ، وأخذهم من علمهم المبارك ، وعلى رأسهم الأئمة منهم الذين لزموا أصحاب النبي كمجاهد الذي قال " عرضت المصحف على عبد الله ابن عباس ثلاث عرضات من فاتحته إلى خاتمته أوقفه عند كل آية وأسأله عن تفسيرها " وقال عبد الله ابن مسعود عن علمه " ما أعلم شيئاً - أو ما أقرأ - إلا وعلقمة يعلمه " ، وكسعيد الذي قال : " ما في القرآن آية إلا وقد سمعت فيها شيئاً " وهكذا.
- 2- لأنهم عاشوا في فترة القرون المفضلة التي تعتبر العصور الذهبية في تاريخ الأمة علماً وعملاً ، وذلك لقربهم من عصر النبوة المبارك ، تلك العصور التي صفت كثيراً

¹ البخاري (2652)

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

عن من بعدهم من أهل الأهواء ، وكثر فيها أهل العلم والصلاح ، ويكفي في ذلك قول النبي "خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم"(1)
3-لأنهم عاشوا كذلك في عصور الاحتجاج اللغوي قبل أن تدخل العجمة على اللسان العربي ، فعصرهم حجة في اللغة ، وأقوالهم تصدر عن علم تام بلغة القرآن الكريم .
فهذه الأسباب مجتمعة وغيرها جعلت لأقوالهم في فهم التفسير والسنة أهمية كبيرة وقيمة علمية عظيمة.

أشهر المفسرين من التابعين:

- 1- سعيد بن جبیر بن هشام الأسدي الكوفي(2)
- 2-مجاهد بن جبر الإمام الحبر المكي (3)
- 3-عكرمة مولى ابن عباس (4)
- 4-شهر بن حوشب الأشعري الحمصي(5)
- 5-زيد بن أسلم العدوي (6)
- 6-الحسن البصري(7)
- 7-قتادة بن دعامة الدوسي(8)
- 8-أبو العالية الرياحي (9)
- 9-سعيد بن المسيب المخزومي (10)

1 صحيح البخاري (3472)

- 2 انظر : البداية والنهاية لابن كثير 466/12 ، وتذكرة الحفاظ للذهبي ج 76/1 ، وتهذيب التهذيب لابن حجر العسقلاني 11/4 ، وشذرات الذهب 199/1 ، ووفيات الأعيان 371/2 ، وطبقات الحفاظ للسيوطي ص 31 ، وسير أعلام النبلاء 322/4 .
- 3 انظر : الطبقات الكبرى لابن سعد 446/5 ، سير أعلام النبلاء 449/4 والبدایة والنهاية 244/9 ، وشذرات الذهب 224/1 .
- 4 انظر : البداية والنهاية 244/ 9 - 246 .
- 5 انظر : ابن سعد 449/7 ، تهذيب الكمال 589 ، والبدایة والنهاية 82/2 ، سير أعلام النبلاء 372/4 ، وشذرات الذهب .
- 6 انظر: تهذيب الكمال 451 ، وتذكرة الحفاظ 132/1 وسير أعلام النبلاء 316/5 ، وشذرات الذهب 327/1
- 7 انظر : طبقات ابن سعد 156/7 ، وفیات الأعيان 96/2 سير أعلام النبلاء 563/4 ، وتهذيب التهذيب 263/2 وشذرات الذهب 244/1-246 ، والبدایة والنهاية 266/9 - 268 ، وطبقات المفسرين 147/1.
- 8 انظر : طبقات ابن سعد 229/7 ، وفیات الأعيان 85/4 ، تهذيب الكمال 155/3 ، تذكرة الحفاظ 122/1 ، سير أعلام النبلاء 269/5 ، شذرات الذهب 268/1 147.
- 9 انظر : طبقات ابن سعد 112/7 ، تهذيب الكمال 417 تذكرة الحفاظ 85/1 ، الإصابة ترجمة 274 ، وسير أعلام النبلاء 207/4 ، وشذرات الذهب 189/1.
- 10 انظر : طبقات ابن سعد 119/5 ، وفیات الأعيان 375/2 ، تهذيب الكمال 505 ، وتذكرة الحفاظ 51/1 والبدایة والنهاية 999/9 ، وسير أعلام النبلاء 217/4 ، وشذرات الذهب 1/1

10- أبو عبد الرحمن السلمي (1) . رحمهم الله جميعاً.
ذكر ابن القيم: "في جَوَازِ الْفَتَوَى بِالْأَثَرِ السَّلَفِيَّةِ وَالْفَتَاوَى الصَّحَابِيَّةِ، وَأَنَّهَا أَوْلَى بِالْأَخْذِ بِهَا مِنْ آرَاءِ الْمُتَأَخِّرِينَ وَفَتَاوِيهِمْ، وَأَنَّ قُرْبَهَا إِلَى الصَّوَابِ بِحَسَبِ قُرْبِ أَهْلِهَا مِنْ عَصْرِ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ وَسَلَامُهُ عَلَيْهِ وَعَلَى آلِهِ، وَأَنَّ فَتَاوَى الصَّحَابَةِ أَوْلَى أَنْ يُؤْخَذَ بِهَا مِنْ فَتَاوَى التَّابِعِينَ، وَفَتَاوَى التَّابِعِينَ أَوْلَى مِنْ فَتَاوَى تَابِعِي التَّابِعِينَ، وَهَلَمْ جَرًّا وَكُلَّمَا كَانَ الْعَهْدُ بِالرَّسُولِ أَقْرَبَ كَانَ الصَّوَابُ أَغْلَبَ، وَهَذَا حُكْمٌ بِحَسَبِ الْجِنْسِ لَا بِحَسَبِ كُلِّ فَرْدٍ فَرْدٌ مِنَ الْمَسَائِلِ، كَمَا أَنَّ عَصْرَ التَّابِعِينَ، وَإِنْ كَانَ أَفْضَلَ مِنْ عَصْرِ تَابِعِيهِمْ فَإِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِ الْجِنْسِ لَا بِحَسَبِ كُلِّ شَخْصٍ شَخْصٌ، وَلَكِنْ الْمُفَضَّلُونَ فِي الْعَصْرِ الْمُتَقَدِّمِ أَكْثَرُ مِنَ الْمُفَضَّلِينَ فِي الْعَصْرِ الْمُتَأَخَّرِ، وَهَكَذَا الصَّوَابُ فِي أَقْوَالِهِمْ أَكْثَرُ مِنَ الصَّوَابِ فِي أَقْوَالِ مَنْ بَعْدِهِمْ؛ فَإِنَّ التَّفَاوُتَ بَيْنَ عُلُومِ الْمُتَقَدِّمِينَ وَالْمُتَأَخِّرِينَ كَالْتَفَاوُتِ الَّذِي بَيْنَهُمْ فِي الْفَضْلِ وَالِدِينِ، وَلَعَلَّهُ لَا يَسَعُ الْمُفْتِيَّ وَالْحَاكِمَ عِنْدَ اللَّهِ أَنْ يُفْتِيَ وَيَحْكُمَ بِقَوْلِ فُلَانٍ وَفُلَانٍ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ مُقَلِّدِي الْأَيِّمَةِ وَيَأْخُذَ بِرَأْيِهِ وَتَرْجِيحِهِ وَيَتْرُكَ الْفَتَاوَى وَالْحُكْمَ بِقَوْلِ الْبُخَارِيِّ، وَإِسْحَاقَ بْنِ رَاهَوِيَّةٍ وَعَلِيَّ بْنِ الْمَدِينِيِّ وَمُحَمَّدَ بْنَ نَصْرِ الْمَرْوَزِيِّ، وَأَمْثَالِهِمْ، بَلْ يَتْرُكُ قَوْلَ ابْنِ الْمُبَارَكِ وَالْأَوْزَاعِيِّ وَسُفْيَانَ الثَّوْرِيِّ وَسُفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ وَحَمَّادَ بْنَ زَيْدٍ وَحَمَّادَ بْنَ سَلَمَةَ، وَأَمْثَالِهِمْ، بَلْ لَا يَلْتَفِتُ إِلَى قَوْلِ بْنِ أَبِي ذَنْبٍ وَالزُّهْرِيِّ وَاللَّيْثِ بْنِ سَعْدٍ، وَأَمْثَالِهِمْ، بَلْ لَا يَعُدُّ قَوْلَ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ وَالْحَسَنِ وَالْقَاسِمِ وَسَالِمٍ وَعَطَاءٍ وَطَاوُسٍ وَجَابِرِ بْنِ زَيْدٍ وَشَرِيحٍ، وَأَبِي وَائِلٍ وَجَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ، وَأَضْرَابِهِمْ مِمَّا يَسُوغُ الْأَخْذَ بِهِ، بَلْ يَرَى تَقْدِيمَ قَوْلِ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَنْبَاعٍ مَنْ قَلَدَهُ عَلَى فِتْنَى أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي بَكْرٍ كَعْبٍ، وَأَبِي الدَّرْدَاءِ وَزَيْدِ بْنِ ثَابِتٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ وَعَبْدَ اللَّهِ بْنِ الزُّبَيْرِ وَعُبَادَةَ بْنَ الصَّامِتِ، وَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ، وَأَضْرَابِهِمْ، فَلَا يَذَرِي مَا عُدُّهُ غَدَاً عِنْدَ اللَّهِ إِذَا سَوَّى بَيْنَ أَقْوَالِ أُولَئِكَ وَفَتَاوِيهِمْ، وَأَقْوَالِ هَؤُلَاءِ وَفَتَاوِيهِمْ، فَكَيْفَ إِذَا رَجَحَهَا عَلَيْهَا؟ فَكَيْفَ إِذَا عَيَّنَ الْأَخْذَ بِهَا حُكْمًا، وَإِفْتَاءً، وَمَنْعَ الْأَخْذَ بِقَوْلِ الصَّحَابَةِ، وَاسْتِجَازَ عُقُوبَةَ مَنْ خَالَفَ الْمُتَأَخِّرِينَ لَهَا، وَشَهِدَ عَلَيْهِ بِالْبِدْعَةِ وَالضَّلَالَةِ وَمُخَالَفَةِ أَهْلِ الْعِلْمِ، وَأَنَّهُ يَكِيدُ الْإِسْلَامَ؟ تَاللَّهِ لَقَدْ أَخَذَ بِالْمَثَلِ الْمَشْهُورِ " رَمَتْنِي بِدَائِهَا وَأَنْسَلْتُ " وَسَمِّيَ وَرَثَةُ الرَّسُولِ بِاسْمِهِ هُوَ، وَكَسَاهُمْ أَثْوَابُهُ، وَرَمَاهُمْ بِدَائِهِ، وَكَثِيرٌ مِنْ هَؤُلَاءِ يَصْرُخُ وَيَصِيحُ وَيَقُولُ وَيُعْلِنُ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ كُلِّهِمْ الْأَخْذَ بِقَوْلِ مَنْ قَلَدَنَاهُ دِينَنَا، وَلَا يَجُوزُ الْأَخْذُ بِقَوْلِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ وَغَيْرِهِمْ مِنَ الصَّحَابَةِ.

وَهَذَا كَلَامٌ مَنْ أَخَذَ بِهِ وَتَقَلَّدَهُ وَلَاَهُ اللَّهُ مَا تَوَلَّى، وَيَجْزِيهِ عَلَيْهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ الْجَزَاءُ الْأَوْفَى، وَالَّذِي نَدِينُ اللَّهَ بِهِ ضِدُّ هَذَا الْقَوْلِ ... (2)

1 انظر : البداية والنهاية 240/12 ، وسير أعلام النبلاء ج 4 / الطبقات الكبرى ج 6 / 172 ،

وطبقات ابن خياط ج 1 / 153

2 إعلام الموقعين 92-90/4 فهذا الفصل مهم جدا راجعه تستفد

الفصل السابع

نماذج تبين منهج الصحابة في اتباع النبي في حياته

الصحابة الكرام كانوا أتبع الناس للنبي -صلى الله عليه وسلم- و لذلك نصرهم الله في مواقع كثيرة وغلبوا أعدائهم فازوا في الدنيا والآخرة ملتزمين بهدي القرآن في مثل قوله تعالى : {لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الْآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا} الأحزاب: 21 و بمعاني تلك الكلمة الجامعة المانعة التي قالها: فَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ (1)

فمنهج الصحابة في اتباع النبي كان منهج واحد في العقيدة والفقه والأخلاق والدين كله -التسليم والانقياد التام لكل ما جاء عن النبي- "فَيرى الصَّحَابَةُ وضوء النبي، فَيَأْخُذُونَ بِهِ مِنْ غَيْرِ أَنْ يَبِينَنَّ أَنَّ هَذَا رُكْنٌ وَذَلِكَ أَدَبٌ، وَكَانَ يُصَلِّي، فَيُرُونَ صَلَاتَهُ، فَيُصَلُّونَ كَمَا رَأَوْهُ يُصَلِّي، وَحُجٌّ، فَرَمَقَ النَّاسُ حُجَّه، فَفَعَلُوا كَمَا فَعَلَ، فَهَذَا كَانَ غَالِبَ حَالِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَبِينَنَّ أَنَّ فَرُوضَ الْوُضُوءِ سِتَّةٌ أَوْ أَرْبَعَةٌ، وَلَمْ يَفْرَضْ أَنَّهُ يَحْتَمِلُ أَنْ يَتَوَضَّأَ إِنْسَانٌ بِغَيْرِ مُوَالَاةٍ حَتَّى يَحْكُمَ عَلَيْهِ بِالصِّحَّةِ أَوْ الْفُسَادِ إِلَّا مَا شَاءَ اللَّهُ، وَقَلِمَا كَانُوا يَسْأَلُونَهُ عَنْ هَذِهِ الْأَشْيَاءِ... مَا كَانُوا يَسْأَلُونَ إِلَّا عَمَّا يَنْفَعُهُمْ...² وَكَانَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَسْتَفْتِيهِ النَّاسُ فِي الْوَقَائِعِ، فَيَفْتِيهِمْ، وَتَرْفَعُ إِلَيْهِ الْقَضَايَا، فَيَقْضِي فِيهَا، وَيَرَى النَّاسُ يَفْعَلُونَ مَعْرُوفًا، فَيَمْدَحُهُ أَوْ مُنْكَرًا، فَيَنْكَرُ عَلَيْهِ، وَكُلُّ مَا أَفْتَى بِهِ مُسْتَفْتِيًا، أَوْ قَضَى بِهِ فِي قَضِيَّةٍ، أَوْ أَنْكَرَهُ عَلَى فَاعِلِهِ، كَانَ فِي الْأَجْتِمَاعَاتِ، وَكَذَلِكَ كَانَ الشَّيْخَانِ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ إِذَا لَمْ يَكُنْ لِهَما عِلْمٌ فِي الْمَسْأَلَةِ يَسْأَلُونَ النَّاسَ عَنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ... وَبِالْجُمْلَةِ فَهَذِهِ كَانَتْ عَادَتُهُ الْكَرِيمَةِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَرَأَى كُلُّ صَحَابِيٍّ مَا يَسِرُّهُ اللَّهُ لَهُ مِنْ عِبَادَتِهِ وَفَتَاوَاهِ وَأَقْضِيَّتِهِ، فَحَفِظَهَا، وَعَرَفَ لِكُلِّ شَيْءٍ وَجْهًا مِنْ قَبْلِ حُفُوفِ الْقَرَائِنِ بِهِ، فَحَمَلَ بَعْضَهَا عَلَى الْإِبَاحَةِ، وَبَعْضَهَا عَلَى النَّسْخِ لِأُمَارَاتٍ وَقَرَائِنٍ كَانَتْ كَافِيَةً عِنْدَهُ، وَلَمْ يَكُنِ الْعُمْدَةُ عِنْدَهُمْ إِلَّا وَجْدَانِ الْإِطْمِنَانِ وَالتَّلَجُّ مِنْ غَيْرِ التَّفَاتِ إِلَى طَرُقِ الْإِسْتِذْلَالِ كَمَا تَرَى الْأَعْرَابَ يَفْهَمُونَ مَقْصُودَ الْكَلَامِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَتَتَلَجُّ صُدُورُهُمْ بِالتَّصْرِيحِ وَالتَّلْوِيحِ وَالْإِيمَاءِ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ، فَيَنْقَضِي عَصْرُهُ الْكَرِيمُ وَهُمْ عَلَى ذَلِكَ، ثُمَّ إِنَّهُمْ تَفَرَّقُوا فِي الْبِلَادِ وَصَارَ كُلُّ وَاحِدٍ مُقْتَدِي نَاحِيَةٍ مِنَ النُّوَاحِي، فَكَثُرَتِ الْوَقَائِعُ، وَدَارَتِ الْمَسَائِلُ،

1 -البخاري (7288)

2 إذا سمعوا أو ذكر عندهم حديثاً من النبي صلى الله عليه وسلم لم يكونوا يسألون "هل الحديث متواتر أو أحاد" ولم يفرقوا بين قبول الأخبار الأحاد في العقيدة والفقه والسلوك والفضائل إلخ. إن جاءهم شيئاً عن النبي يصدقون كل ما جاء عنه صلى الله عليه وسلم ويسلموا تسليماً لكل ما ورد عنه متواتراً كانت أو أحاداً.

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

فاستفتوا فيها، فَأَجَابَ كُلَّ وَاحِدٍ حَسْبَمَا حَفَظَهُ، أَوْ اسْتَنْبَطَ، وَإِنْ لَمْ يَجِدْ فِيمَا حَفَظَهُ أَوْ اسْتَنْبَطَ مَا يَصْلَحُ لِلْجَوَابِ - اجْتَهِدْ بِرَأْيِهِ" (1)

بعض أمثلة تبين منهج الصحابة في اتباع النبي:

1- عَنْ أَبِي سَعِيدٍ الْخُدْرِيِّ-رضي الله عنه- قَالَ بَيْنَمَا رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- يُصَلِّي بِأَصْحَابِهِ إِذْ خَلَعَ نَعْلَيْهِ فَوَضَعَهُمَا عَنْ يَسَارِهِ فَلَمَّا رَأَى ذَلِكَ الْقَوْمُ الْقَوَا نِعَالَهُمْ فَلَمَّا قَضَى رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- صَلَاتَهُ قَالَ « مَا حَمَلَكُمْ عَلَى الْقَانِكُمْ نِعَالَكُمْ ». قَالُوا رَأَيْنَاكَ أَلْقَيْتَ نَعْلَيْكَ فَالْقَيْنَا نِعَالَنَا. فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ -صلى الله عليه وسلم- « إِنَّ جَبْرِيلَ -صلى الله عليه وسلم- أَتَانِي فَأَخْبَرَنِي أَنَّ فِيهِمَا قَذْرًا ». وَقَالَ « إِذَا جَاءَ أَحَدُكُمْ إِلَى الْمَسْجِدِ فَلْيَنْظُرْ فَإِنْ رَأَى فِي نَعْلَيْهِ قَذْرًا أَوْ أَدَى فَلْيُمْسَحْهُ وَلْيُصَلِّ فِيهِمَا ». (2)

2- عَنْ مَالِكِ بْنِ الْحُوَيْرِثِ-رضي الله عنه- قَالَ: أَتَيْنَا إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ شَبَبَةٌ مُتَقَارِبُونَ، فَأَقَمْنَا عِنْدَهُ عِشْرِينَ يَوْمًا وَلَيْلَةً، وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ رَحِيمًا رَفِيقًا، فَلَمَّا ظَنَّ أَنَا قَدْ اشْتَهَيْنَا أَهْلَنَا - أَوْ قَدْ اشْتَقْنَا - سَأَلْنَا عَمَّنْ تَرَكْنَا بَعْدَنَا، فَأَخْبَرَنَا، قَالَ: «ارْجِعُوا إِلَى أَهْلِكُمْ، فَأَقِيمُوا فِيهِمْ وَعَلِّمُوهُمْ وَمُرُوهُمْ - وَذَكَرَ أَشْيَاءَ أَحْفَظَهَا أَوْ لَا أَحْفَظَهَا - وَصَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أَصَلِّي، فَإِذَا حَضَرَتِ الصَّلَاةُ فَلْيُؤَذِّنْ لَكُمْ أَحَدُكُمْ، وَلْيُؤَمِّكُمْ أَكْبَرُكُمْ» (3)

3- من حديث جابر-رضي الله عنهما-، يَقُولُ: " رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَرْمِي عَلَى رَاحِلَتِهِ يَوْمَ النَّحْرِ، وَيَقُولُ: «لِتَأْخُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ حَجَّتِي هَذِهِ» (4)

وعن جابر بن عبد الله أيضا يَقُولُ: رَأَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، يَرْمِي الْجَمْرَةَ وَهُوَ عَلَى بَعِيرِهِ، وَهُوَ يَقُولُ: «يَا أَيُّهَا النَّاسُ، خُذُوا مَنَاسِكَكُمْ، فَإِنِّي لَا أَدْرِي لَعَلِّي لَا أَحُجُّ بَعْدَ عَامِي هَذَا» (5)

4- عَنْ ابْنِ عُمَرَ -رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا-: أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ ذَهَبٍ أَوْ فِضَّةٍ، وَجَعَلَ فِيهِ مِمَّا يَلِي كَفَّهُ، وَنَقَشَ فِيهِ: مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ، فَاتَّخَذَ النَّاسُ مِثْلَهُ، فَلَمَّا رَأَوْهُ قَدْ اتَّخَذَهَا رَمَى بِهِ وَقَالَ: «لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا». ثُمَّ اتَّخَذَ خَاتَمًا مِنْ فِضَّةٍ،

1 حجة الله البالغة 1/243-248

2 سنن أبي داود (650) وهو صحيح

3 -البخاري (631)

4 صحيح مسلم (310)

5 سنن النسائي (3062) وهو صحيح

فَاتَّخَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَ الْفِضَّةِ قَالَ ابْنُ عُمَرَ: فَلَبَسَ الْخَاتِمَ بَعْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَبُو بَكْرٍ، ثُمَّ عُمَرُ، ثُمَّ عُثْمَانُ، حَتَّى وَقَعَ مِنْ عُثْمَانَ فِي بَنِي أَرِيْسَ" (1)

و عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عُمَرَ، رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا قَالَ: كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَلْبَسُ خَاتِمًا مِنْ ذَهَبٍ، فَنَبَذَهُ فَقَالَ: «لَا أَلْبَسُهُ أَبَدًا» فَنَبَذَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ (2)

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ «أَنَّهُ رَأَى فِي يَدِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِمًا مِنْ وَرَقٍ يَوْمًا وَاحِدًا، ثُمَّ إِنَّ النَّاسَ اصْطَنَعُوا الْخَوَاتِيمَ مِنْ وَرَقٍ وَلَبَسُوهَا، فَطَرَحَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَاتِمَهُ، فَطَرَحَ النَّاسُ خَوَاتِيمَهُمْ» (3)

1 صحيح البخاري (5866)

2 البخاري (5867)

3 البخاري (5868)

الفصل الثامن

منهج الخلفاء الراشدين والصحابة في اتباع سنة النبي بعد وفاته

الصحابة لم يتخلفوا عن اتباع النبي في حياته ولا بعد وفاته أبداً، لم يخالفوه في صغير ولا كبير وهذا سبب فوزهم في الدنيا والآخرة. فهذا أبو بكر الصديق أحب الناس إلى النبي ماذا عمل بعد وفاة الرسول وأن صار خليفته يقول بنفسه: "لست تاركاً شيئاً كان رسول الله يعمل به إلا عملت به، فإني أخشى إن تركت شيئاً من أمره أن أزيغ". (1)

و قال في مناسبة قصته مع عليّ و فاطمة و مطالبتهما إياه بتركته حيث قال: "إن رسول الله قال لا نورث ما تركنا صدقة...إني والله لا أغير شيئاً من صدقة رسول الله عن حالها التي كانت عليها في عهد رسول الله و لأعملن فيها بما عمل به رسول الله..." (2)

وأيضاً موقفه من مانعي الزكاة وفيه مقولته المشهورة: "والله لو منعوني عناقاً كانوا يؤدونها إلى رسول الله لقاتلتهم على منعها" (3)

و كذا موقفه من بعثة جيش أسامة: "فقال أبو بكر: أنا أحبس جيشاً بعثهم رسول الله؟! لقد أجزأت على أمر عظيم...." (4)

فكانت عاقبة التمسك بالسنة الانتصار على العدو والثبات على الإسلام.

و من بعده الخليفة الراشدة عمر بن الخطاب- رضي الله عنه:- أنه جاء إلى الحجر الأسود فقبله فقال: «إِنِّي أَعْلَمُ أَنَّكَ حَجَرٌ، لَا تَضُرُّ وَلَا تَنْفَعُ، وَلَوْلَا أَنِّي رَأَيْتُ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْبَلُكَ مَا قَبَّلْتُكَ» (5)

وفي حديث "فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «لَا، وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ، حَتَّى أَكُونَ أَحَبَّ إِلَيْكَ مِنْ نَفْسِكَ» فَقَالَ لَهُ عُمَرُ: فَإِنَّهُ الْآنَ، وَاللَّهِ، لَأَنْتَ أَحَبُّ إِلَيَّ مِنْ نَفْسِي، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «الآنَ يَا عُمَرُ» (6)

وعن عمر قال: قال رسول الله: "إن الله ينهاكم أن تحلفوا بآبائكم" وقال عمر "فوالله ما حلفتُ بها منذ سمعتُ رسول الله نهى عنها ذاكراً و لا أنثراً." (7)

1 -صحيح البخاري (3092, 3093) من حديث عائشة

2 -صحيح البخاري (3092, 3093, 3711, 3712)

3 -صحيح البخاري (1399, 1400, 6924, 6925)

4 -سير أعلام النبلاء "سير الخلفاء الراشدين ص33

5 صحيح البخاري (1597)

6 -صحيح البخاري (6632)

7 -مسلم في صحيحه (1646)

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

وهذان خليفتان ربّيا بقية الصحابة على هذا المنهج القويم في اتباع النبي حتى غرست في نفوسهم الحب الصادق للنبي حتى بعضهم رضي الله عنهم كانوا يتبعونه في أموره العادية التي لم يقصد به التقرب إلى الله تعالى من شدة حبهم له (1).

وعن أنس بن سيرين قال: "كنت مع ابن عمر بعرفات، فلما كان حين راح رُحْتُ معه حتى أتى الإمام، فصلّى معه الأولى والعصر، ثم وقف معه وأنا وأصحابي لي، حتى أفاض الإمام، فأفضنا معه، حتى انتهى إلى المضيق دون المأزمين، فأناخ وأنخنا ونحن نحسب أنه يريد أن يصلي. فقال غلامه الذي معه يمسك راحلته، أنه ليس يريد الصلاة، ولكنه ذكر أن النبي صلى الله عليه وسلم لما انتهى إلى هذا المكان قضى حاجته، فهو يحب أن يقضى حاجته." (2)

وعن مجاهد قال: "كنا مع ابن عمر رحمه الله في سفر، فمرّ بمكان فحاده، فسئل: لم فعلت ذلك؟ قال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل هذا ففعلت." (3)

وعن عبيد بن جريح أنه قال لعبد الله بن عمر: يا أبا عبد الرحمن رأيتك تصنع أربعاً لم أر من أصحابك من يصنعها، قال: ما هن يا ابن جريح؟ قال: رأيتك لا تمس من

1 - قال شيخ الإسلام ابن تيمية في مجموع الفتاوى (280/1) - كَذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ كَانَ يَتَحَرَّى أَنْ يَسِيرَ مَوَاضِعَ سَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَيُنْزِلَ مَوَاضِعَ مَنَزَلِهِ وَيَتَوَضَّأُ فِي السَّفَرِ حَيْثُ رَأَاهُ يَتَوَضَّأُ وَيَصُبُّ فَضْلَ مَائِهِ عَلَى شَجَرَةٍ صَبَّ عَلَيْهَا وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا اسْتَحَبَّهُ طَائِفَةٌ مِنَ الْعُلَمَاءِ وَرَأَوْهُ مُسْتَحَبًّا وَلَمْ يَسْتَحِبَّ ذَلِكَ جُمْهُورُ الْعُلَمَاءِ؛ كَمَا لَمْ يَسْتَحِبَّهُ وَلَمْ يَفْعَلْهُ أَكْبَارُ الصَّحَابَةِ كَأَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَغُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَمُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ وَغَيْرُهُمْ لَمْ يَفْعَلُوا مِثْلَ مَا فَعَلَ ابْنُ عُمَرَ. وَلَوْ رَأَوْهُ مُسْتَحَبًّا لَفَعَلُوهُ كَمَا كَانُوا يَتَحَرَّوْنَ مُتَابَعَتَهُ وَالْإِفْتِدَاءَ بِهِ. وَذَلِكَ لِأَنَّ الْمُتَابِعَةَ أَنْ يَفْعَلَ مِثْلَ مَا فَعَلَ عَلَى الْوَجْهِ الَّذِي فَعَلَ فَإِذَا فَعَلَ فَعَلًا عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ شَرَعَ لَنَا أَنْ نَفْعَلَهُ عَلَى وَجْهِ الْعِبَادَةِ وَإِذَا قَصَدَ تَخْصِيصَ مَكَانٍ أَوْ زَمَانٍ بِالْعِبَادَةِ خَصَّصْنَاهُ بِذَلِكَ كَمَا كَانَ يَقْصِدُ أَنْ يَطُوفَ حَوْلَ الْكَعْبَةِ وَأَنْ يَسْتَلِمَ الْحَجَرَ الْأَسْوَدَ وَأَنْ يُصَلِّيَ خَلْفَ الْمَقَامِ وَكَانَ يَتَحَرَّى الصَّلَاةَ عِنْدَ أَسْطُوَانَةِ مَسْجِدِ الْمَدِينَةِ وَقَصَدَ الصُّعُودَ عَلَى الصَّفَا وَالْمَرُوءَةِ وَالِدُّعَاءَ وَالذِّكْرَ هُنَاكَ وَكَذَلِكَ عَرَفَهُ وَمُرَدَّفَهُ وَغَيْرُهُمَا. وَأَمَّا مَا فَعَلَهُ بِحُكْمِ الْإِتِّفَاقِ وَلَمْ يَقْصِدْهُ - مِثْلَ أَنْ يَنْزِلَ بِمَكَانٍ وَيُصَلِّيَ فِيهِ لِكُونِهِ نَزْلُهُ لَا قَصْدًا لِتَخْصِيصِهِ بِهِ بِالصَّلَاةِ وَالنُّزُولِ فِيهِ - فَإِذَا قَصَدْنَا تَخْصِيصَ ذَلِكَ الْمَكَانِ بِالصَّلَاةِ فِيهِ أَوْ النُّزُولِ لَمْ نَكُنْ مُتَّبِعِينَ بَلْ هَذَا مِنَ الْبِدْعِ الَّتِي كَانَ يَنْهَى عَنْهَا عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ؛ كَمَا ثَبَتَ بِالإِسْنَادِ الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ شُعْبَةَ عَنْ سُلَيْمَانَ التَّيْمِيِّ عَنِ الْمَعْرُورِ بْنِ سُوَيْدٍ قَالَ: كَانَ عُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ فِي سَفَرٍ فَصَلَّى الْعَدَاةَ ثُمَّ أَتَى عَلَى مَكَانٍ فَجَعَلَ النَّاسُ يَأْتُونَهُ فَيَقُولُونَ: صَلِّ فِيهِ فِيهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ عُمَرُ: إِنَّمَا هَلَاكَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَنَّهُمْ اتَّبَعُوا أَثَارَ أَنْبِيَائِهِمْ فَاتَّخَذُوا كَنَائِسَ وَبَيْعًا فَمَنْ عَرَضَتْ لَهُ الصَّلَاةُ فَلْيُصَلِّ وَإِلَّا فَلْيَمْضِ وَهَذَا هُوَ الْأَصْلُ فَإِنَّ الْمُتَابِعَةَ فِي السُّنَّةِ أَبْلَغُ مِنَ الْمُتَابِعَةِ فِي صُورَةِ الْعَمَلِ. انتهى انظر كتاب: "أصول في البدع والسنن" لأحمد العدوي ص56

2- أخرجه أحمد في "المسند" (6151) و هو صحيح.

3 - أخرجه أحمد في "المسند" (4870) و هو صحيح.

الأركان إلا اليمانيين، ورأيتك تلبس النعال السبتية، ورأيتك تصبغ بالصفرة، ورأيتك إذا كنت بمكة أهل الناس إذا رأوا الهلال ولم تهل أنت حتى يكون يوم التروية، فقال عبد الله: أما الأركان فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يمس إلا اليمانيين، وأم النعال السبتية فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يلبس النعال التي ليس فيها شعر ويتوضأ فيها، فأنا أحب أن ألبسها، وأما الصفرة فإني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يصبغ بها فأنا أحب أن أصبغ بها، وأما الإهلال فإني لم أر رسول الله صلى الله عليه وسلم يهل حتى تتبعته به ناقتة. أي: حين تتبعته به ناقتة إلى منى يوم التروية لا أنها حين تتبعته به من البيداء لأول إحرامه." (1)

وعن أمية بن عبد الله بن خالد بن أسيد: أنه قال لعبد الله بن عمر: "إنا نجد صلاة الحضر وصلاة الخوف في القرآن، ولا نجد صلاة السفر في القرآن؟ فقال له ابن عمر: ابن أخي "إن الله عز وجل بعث إلينا محمداً صلى الله عليه وسلم ولا نعلم شيئاً، وإنما نفعل كما رأينا محمداً صلى الله عليه وسلم يفعل." (2)

وعن نافع مولى ابن عمر: أن ابن عمر سمع صوت زمارة راع، فوضع إصبعيه في أذنيه وعدل راحلته عن الطريق، وهو يقول: يا نافع أسمع؟ فأقول: نعم. فيمضي: حتى قلت: لا، فوضع يديه، وأعاد راحلته إلى الطريق، وقال: رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وسمع صوت زمارة راع فصنع مثل هذا." (3)

وعن زيد بن أسلم قال: رأيت ابن عمر يصلي محلول أزراره فسألته عن ذلك فقال: "رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يفعله" (4)

و عن أبي رافع قال: ((رأيت أبا هريرة يسجد في {إذا السماء انشقت} فقلت: تسجد فيه؟ فقال نعم، رأيت خليلي يسجد فيه فلا أزال أسجد فيها حتى ألقاه" (5)

1 - صحيح البخاري (166)

2- أخرجه أحمد في "المسند" 94/2 ، وابن ماجه برقم (1066) ، والنسائي برقم (1434) . وذكره الهيثمي في "الموارد" برقم (101). وقال أحمد شاکر "صحيح "المسند" برقم (5683) وقال الألباني: صحيح . راجع "صحيح ابن ماجه" برقم (874).

3 - أخرجه الإمام أحمد في "المسند" 28/2 ، وأبو داود في "السنن" برقم (4924) وقال أحمد شاکر "إسناده صحيح المسند رقم (4965، 4535) وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح أبي داود رقم 4116

4 - أخرجه الحاكم في "المستدرک" (250/1). وقال: على شرط الشيخين، ولم يخرجاه، ووافقه الذهبي. وابن خزيمة: في "صحيحه" كتاب الصلاة، باب الرخصة في الصلاة محلول الأزرار إذا كان على المصلي أكثر من ثوب واحد (382/1) رقم (779) وقال الألباني: حسن. انظر: "صحيح الترغيب" حديث رقم (43)

5 -صحيح البخاري كتاب الجمعة، باب من قرأ السجد في الصلاة فسجد بها رقم 1078، مسلم 108/5 ح 578

وقد أنكر الصحابة على كل من خالف سنة النبي ' و لم يسلم للنص تسليما.

و بَلَغَ عُمَرُ: أَنَّ رَجُلًا يَصُومُ الدَّهْرَ، فَعَلَاهُ بِالذَّرَّةِ، وَجَعَلَ يَقُولُ: «كُلُّ يَأْ دَهْرُ كُلِّ يَأْ دَهْرُ» (1)

وَمِنْ طَرِيقِ أَبِي إِسْحَاقَ أَنَّ عَبْدَ الرَّحْمَنِ بْنَ أَبِي نُعَيْمٍ كَانَ يَصُومُ الدَّهْرَ فَقَالَ عَمْرُو بْنُ مَيْمُونٍ لَوْ رَأَى هَذَا أَصْحَابُ مُحَمَّدٍ لَرَجَمُوهُ... (2)

ذكر في مسند الشافعي: فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: فَقُلْتُ لِابْنِ أَبِي ذَنْبٍ: أَتَأْخُذُ بِهَذَا يَا أَبَا الْحَارِثِ؟ فَضْرَبَ صَدْرِي، وَصَاحَ عَلَيَّ صِيَاحًا كَثِيرًا وَنَالَ مِنِّي، وَقَالَ: أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُ: تَأْخُذُ بِهِ. نَعَمْ، أَخْذُ بِهِ وَذَلِكَ الْفَرَضُ عَلَيَّ وَعَلَى مَنْ سَمِعَهُ، إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ اخْتَارَ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ النَّاسِ فَهَذَا هُمْ بِهِ، عَلَى يَدَيْهِ وَاخْتَارَ لَهُمْ مَا اخْتَارَ لَهُ، عَلَى لِسَانِهِ فَعَلَى الْخَلْقِ أَنْ يَتَّبِعُوهُ طَائِعِينَ أَوْ دَاخِرِينَ، لَا مَخْرَجَ لِمُسْلِمٍ مِنْ ذَلِكَ. قَالَ: وَمَا سَكَتَ عَلَيَّ حَتَّى تَمْنَيْتُ أَنْ يَسْكُتَ. (3)

وفي البخاري: أَنَّ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ كَانَ عِنْدَهُ قَوْمٌ فَسَأَلُوهُ عَنِ الْغُسْلِ فَقَالَ يَكْفِيكَ صَاعٌ فَقَالَ رَجُلٌ مَا يَكْفِينِي فَقَالَ جَابِرٌ كَانَ يَكْفِي مَنْ هُوَ أَوْفَى مِنْكَ شَعْرًا وَخَيْرٌ مِنْكَ. (4)

وروى مسلم: عَنْ سَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عُمَرَ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ: " لَا تَمْنَعُوا نِسَاءَكُمْ الْمَسَاجِدَ إِذَا اسْتَأْذَنْتَكُمْ إِلَيْهَا " قَالَ فَقَالَ بِلَالُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ، قَالَ: فَأَقْبَلَ عَلَيْهِ عَبْدُ اللَّهِ فَسَبَّهُ سَبًّا سَيِّئًا مَا سَمِعْتُهُ سَبَّهُ مِنْهُ قَطُّ وَقَالَ: "أَخْبِرْكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُ وَاللَّهِ لَنَمْنَعُهُنَّ." (5)

وروى البخاري: عَنْ عَمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ قَالَ قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْحَيَاءُ لَا يَأْتِي إِلَّا بِخَيْرٍ فَقَالَ بُشَيْرُ بْنُ كَعْبٍ مَكْتُوبٌ فِي الْحِكْمَةِ إِنَّ مِنَ الْحَيَاءِ وَقَارًا وَإِنَّ مِنَ الْحَيَاءِ سَكِينَةً فَقَالَ لَهُ عَمْرَانُ أُحَدِّثُكَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتُحَدِّثُنِي عَنْ صَحِيفَتِكَ" (6)

- 1 -مصنف ابن أبي شيبة كتاب الصيام , باب من كره صوم الدهر رقم 9556 و هو صحيح
- 2 فتح الباري 222/4
- 3 ذكره في مسند الشافعي 302/3 رقم 1632 و كذلك في معرفة سنن و الآثار 131/1 رقم 119
- 4 صحيح البخاري (252)
- 5 صحيح مسلم (568)
- 6 -صحيح البخاري (6117)

تحقيق الاتباع لنبيتنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

وروي عن ابن عباس: "يوشك أن تنزل عليكم حجارة من السماء أقول: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وتقولون قال أبو بكر قال عمر" (1)

وقد خصّ الله تعالى الصحابة رضي الله عنهم بتوقّد الأذهان وفصاحة اللسان، فالعربيّة طبيعتهم وسليقتهم، والمعاني الصحيحة مركوزة في فطرتهم وعقولهم، شهدوا التنزيل وعرفوا التأويل ووقفوا من أحوال النبي صلى الله عليه وآله وسلم ومراده من كلامه على ما لم يقف عليه غيرهم، فكانوا أبرّ الأمة قلوباً وأعمقهم علماً وأقلهم تكلفاً (2)، وقد أثنى الله عليهم بقوله سبحانه: {كُنْتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ} آل عمران: 110

والصحابه فهموا الوحيين فهماً صحيحاً وطبقوها في حياتهم وكانوا أبعد الناس عن الاختلاف وإن اختلفوا في مسألة كانوا يرجعون إلى النبي في حياته عملاً بقوله تعالى: {فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا} النساء: 65 وقوله تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} النساء: 59

ولما عرف النبي أنه سوف يخرج من هذه الدنيا الفانية و سيليقي ربه سبحانه وتعالى فأمر أصحابه رضي الله عنهم بـ "التمسك بسنته و سنة الخلفاء الراشدين من بعده" فأشار إلى الأفضل من أصحابه ليكونوا خلفاء له و أمر بقية الصحابة و أمته أن يتمسكوا بسنته و سنة خلفائه ثم أمرهم بالافتداء بالأفضلين قائلاً: "افْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي: أَبِي بَكْرٍ، وَعُمَرُ." (3)

1 -ذكر نحوه ابن عبد البر في جامع بيان العلم وفضله 1209/2 رقم 2377 ولفظه: "قَالَ عُرْوَةُ لِابْنِ عَبَّاسٍ: " أَلَا تَنْقِي اللَّهُ ثَرْجَعَنَّ فِي الْمُنْعَةِ؟ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: سَلْ أُمُّكَ يَا عُرَيْثُ، فَقَالَ عُرْوَةُ: أَمَا أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ فَلَمْ يَفْعَلَا فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: وَاللَّهِ مَا أَرَاكُمْ مُنْتَهَيْنَ حَتَّى يُعَذِّبَكُمُ اللَّهُ، نُحَدِّثُكُمْ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنُحَدِّثُونَا عَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ "، وذكر نحوه ابن حزم في المحلى 685/11 " وَقَالَ فِي أَمْرِ مُنْعَةِ الْحَجِّ وَفَسَخِهِ بِعُمَرَةَ: مَا أَرَاكُمْ إِلَّا سَيَحْسِفُ اللَّهُ بِكُمْ الْأَرْضَ أَقُولُ لَكُمْ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ - صلى الله عليه وسلم - وَتَقُولُونَ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ، وَعُمَرُ " وذكره ابن تيمية في مجموع الفتاوى 50/26. وما رواه ابن عبد البر أصح والله أعلم.

2 - أقول لهؤلاء المقلدين والمتعصبين لمشايخهم ومذاهبهم إذا أقررتم بأن الصحابة أعلم و أفضل ممن جاء من بعدهم و عرفتم منهجهم القويم الدائم في جميع أمورهم و هو الرجوع إلى النبي صلى الله عليه وسلم في حياته و الرجوع إلى كتاب الله و سنته بعد وفاته، فكيف مع أناس أقل منهم علماً و فهماً و ورعاً و لم يشاهدوا التنزيل و ما عرفوا التأويل فكيف نراهم لا يرجعون إلى الكتاب و السنة هل يعتقدون أنهم أو مشايخهم أعلم من الصحابة؟

3 -رواه احمد في مسنده برقم 23245 و قال محققو المسند :حديث حسن بطرقه و شواهد، و الترمذي و قال: هذا حديث حسن برقم 3662 و 3663 و لفظه: " عَنْ حُذَيْفَةَ قَالَ: كُنَّا جُلُوسًا عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «إِنِّي لَا أَدْرِي مَا بَقَائِي فِيكُمْ، فَافْتَدُوا بِاللَّذِينَ مِنْ بَعْدِي» وَأَشَارَ إِلَى أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ " و صححه الألباني

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و ((لَمَّا مَرَضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ فِيهِ فَحَضَرَتِ الصَّلَاةُ، فَأَذِنَ فَقَالَ: «مُرُوا أَبَا بَكْرٍ فَلْيُصَلِّ بِالنَّاسِ» (1)

فلما مات النبي و قبض الله روحه وعمر بن الخطاب رضي الله عنه لم يصدق الخبر حسم الخلاف أبو بكر بكتاب الله تعالى عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ أَبَا بَكْرٍ خَرَجَ وَعُمَرُ بْنُ الْخَطَّابِ يُكَلِّمُ النَّاسَ فَقَالَ: اجْلِسْ يَا عُمَرُ، فَأَبَى عُمَرُ أَنْ يَجْلِسَ، فَأَقْبَلَ النَّاسُ إِلَيْهِ، وَتَرَكَوا عُمَرَ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: "أَمَّا بَعْدُ فَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ مُحَمَّدًا صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنَّ مُحَمَّدًا قَدْ مَاتَ، وَمَنْ كَانَ مِنْكُمْ يَعْبُدُ اللَّهَ فَإِنَّ اللَّهَ حَيٌّ لَا يَمُوتُ، قَالَ اللَّهُ: {وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ} آل عمران: 144 إِلَى قَوْلِهِ {الشَّاكِرِينَ} آل عمران: 144 ، وَقَالَ: وَاللَّهِ لَكَأَنَّ النَّاسَ لَمْ يَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ هَذِهِ الْآيَةَ حَتَّى تَلَاهَا أَبُو بَكْرٍ، فَتَلَقَّاهَا مِنْهُ النَّاسُ كُلُّهُمْ، فَمَا أَسْمَعُ بَشَرًا مِنَ النَّاسِ إِلَّا يَتْلُوهَا " وقال الزهري: فَأَخْبَرَنِي سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ، أَنَّ عُمَرَ قَالَ: «وَاللَّهِ مَا هُوَ إِلَّا أَنْ سَمِعْتُ أَبَا بَكْرٍ تَلَاهَا فَعَقَرْتُ (دهشت)، حَتَّى مَا تُقْلِنِي رَجُلًا، وَحَتَّى أَهْوَيْتُ إِلَى الْأَرْضِ حِينَ سَمِعْتُهُ تَلَاهَا، عَلِمْتُ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَدْ مَاتَ. (2)

ثم حصل الخلاف بينهم فيمن يكون الخلافة بعد النبي فحسم الخلاف بما عندهم من سنة رسول الله' ((الأئمة من قریش)) (3)

ثم حصل الخلاف بينهم في موضع الذي يدفن فيه النبي فحسم الخلاف بالحديث عن النبي عَنْ عَائِشَةَ، قَالَتْ: لَمَّا قُبِضَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ اخْتَلَفُوا فِي دَفْنِهِ، فَقَالَ أَبُو بَكْرٍ: سَمِعْتُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ شَيْئًا مَا نَسِيتُهُ، قَالَ: «مَا قَبِضَ اللَّهُ نَبِيًّا إِلَّا فِي الْمَوْضِعِ الَّذِي يُجِبُّ أَنْ يُدْفَنَ فِيهِ» ، ادْفِنُوهُ فِي مَوْضِعِ فِرَاشِهِ: " هَذَا حَدِيثٌ غَرِيبٌ، وَعَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي بَكْرٍ الْمُطَّلِبِيُّ يُضَعِّفُ مِنْ قَبْلِ حِفْظِهِ، وَقَدْ رَوَى هَذَا الْحَدِيثُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ، فَرَوَاهُ ابْنُ عَبَّاسٍ، عَنْ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَيْضًا (4)

و بعد مُشاورات في سقيفة بني ساعدة بين فضلاء المهاجرين والأنصار وعلمائهم ورؤسائهم، من أهل الحل والعقد وافقوا ما أَرَادَهُ اللَّهُ وَأَشَارَ إِلَيْهِ رَسُولُهُ ' في اختيار أفضلهم وأحبهم إلى الرسول ' فاتفقوا على أبي بكر رضي الله تعالى عنه.

1 -صحيح البخاري (664)

2 -صحيح البخاري كتاب المغازي باب مرض النبي ووفاته (4454)

3 -أخرجه ابن أبي شيبة في مصنفه #33055، مسند أحمد 12307، 12900، 19777 و غيرهما و معناه في البخاري و مسلم من حديث ابن عمر مرفوعا: "لا يزال هذا الأمر في قریش ما بقي منهم اثنين"

4 -الترمذي كتاب الجنائز باب ما جاء في دفن النبي حيث قبض برقم 1018 و صححه الألباني

ثم حصل الخلاف بين علي و عباس و فاطمة و بين أبي بكر بعدما استخلف فقضى الخلاف بحديث رسول الله 'كما روى البخاري عن عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ، أَنَّ عَائِشَةَ أُمَّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا أَخْبَرَتْهُ، أَنَّ فَاطِمَةَ - عَلَيْهَا السَّلَامُ - ابْنَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، سَأَلَتْ أَبَا بَكْرٍ الصِّدِّيقَ بَعْدَ وَفَاةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَنْ يَقْسِمَ لَهَا مِيرَاثَهَا، مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّا أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِ، فَقَالَ لَهَا أَبُو بَكْرٍ: إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا تُورَثُ، مَا تَرَكَْنَا صَدَقَةً»، فَغَضِبَتْ فَاطِمَةُ بِنْتُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَهَجَرَتْ أَبَا بَكْرٍ، فَلَمْ تَزَلْ مُهَاجِرَتَهُ حَتَّى تُوَفِّيَتْ، وَعَاشَتْ بَعْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ سِتَّةَ أَشْهُرٍ، قَالَتْ: وَكَانَتْ فَاطِمَةُ تَسْأَلُ أَبَا بَكْرٍ نَصِيبَهَا مِمَّا تَرَكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ حَيِّبَرٍ، وَفَدَكٍ، وَصَدَقَتَهُ بِالْمَدِينَةِ، فَأَبَى أَبُو بَكْرٍ عَلَيْهَا ذَلِكَ، وَقَالَ: لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمِلْتُ بِهِ، فَأَبَى أَخْشَى أَنْ تَرَكَتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَرِيعَ فَأَمَّا صَدَقَتُهُ بِالْمَدِينَةِ فَدَفَعَهَا عُمَرُ إِلَى عَلِيٍّ، وَعَبَّاسٍ، وَأَمَّا حَيِّبَرُ، وَفَدَكُ، فَأَمْسَكَهَا عُمَرُ، وَقَالَ: هُمَا صَدَقَةُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، كَانَتْ لِحُقُوقِهِ الَّتِي تَعْرُوهُ وَنَوَائِبِهِ، وَأَمْرُهُمَا إِلَيَّ مَنْ وَلِيَ الْأَمْرَ، قَالَ: فَهُمَا عَلَى ذَلِكَ إِلَى الْيَوْمِ... ثم روى بعده مجيء علي و عباس في هذا الشأن. (1)

و مثل هذه الوقائع موجودة في عهد الصحابة فإذا اختلفت الصحابة في مسألة أو جاءت قضية أو نزلة نازلة فكانوا ينظرون في أدلة الكتاب و السنة و يسألون و يفتشون عنها فإذا وجدوا الدليل حسم الخلاف به و هم بأعمالهم صدقوا قول الله تعالى: ﴿فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ﴾ النساء: 59

فكان الصحابة يتواصلون بذكر الدليل مما حفظوا من رسول الله (قول، فعل، تقرير، صفة خلقية أو خلقية) و يحثون على ذلك و عن عمر بن الخطاب "إن حديثكم شر الحديث، و إن كلامكم شر الكلام، فإنكم قد حدثتم الناس حتى قيل: قال فلان، قال فلان و يترك كتاب الله من كان منكم قائما فليقم بكتاب الله و إلا فليجلس." (2)

و عن الضحاك قال : لقي ابن عمر جابر بن زيد و هو يطوف بالكعبة فقال: يا جابر إنك من فقهاء البصرة، و إنك تستفتي فلا تفتين إلا بالقرآن ناطق، أو سنة ماضية فإنك إن فعلت ذلك و إلا فقد هلكت و أهلكت." (3)

1 صحيح البخاري كتاب فرض الخمس باب فرض الخمس رقم 3092-3094

2 -ذكرها أبو زرعة في تاريخه الثامن من التاريخ باب مجلس العلماء والمذاكرة بالعلم برقم

1401 و هو من قول عمر

3 الفقيه و المتفقه 260/1 برقم 481

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

فكان الصحابة يحترمون الدليل و لا يقدمون قول أحد على قول الله و رسوله وفقا عاملون بقوله تعالى {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْدِمُوا بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ} الحجرات:1

فمن فارق الدليل ضل السبيل ولا دليل إلا ما جاء به الرسول.

أما من أبى إلا الجمود على أقوال آبائه و أشياخه و الانتصار لها فيوشك أن يدخل في قوله تعالى: { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهَبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ } التوبة:31

فصار الخلفاء الراشدين على هذا المنهج القويم في اتباع النبي ' واتباع النصوص و تبعوهم في ذلك بقية الصحابة فإن وجدوا المسألة منصوصا عليه في الكتاب و السنة قضوا بها، و رجعوا إليها، و عن لم يجدوها منصوصا عليها، استشاروا و سألوا غيرهم، على معنى قول تعالى: { فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } الانبياء:7

وبهذا المنهج-الاتباع الحقيقي- قادوا الأمة واستمروا على ما كانوا عليه في عهد النبوة في فقه والعقيدة و الدين كله: عن مَيْمُونُ بْنُ مِهْرَانَ، قَالَ: كَانَ أَبُو بَكْرٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، إِذَا وَرَدَ عَلَيْهِ الْحَصْمُ نَظَرَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ وَجَدَ فِيهِ مَا يَقْضِي بَيْنَهُمْ، قَضَى بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْكِتَابِ، وَعَلِمَ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي ذَلِكَ الْأَمْرِ سُنَّةً، قَضَى بِهِ، فَإِنْ أَعْيَاهُ، خَرَجَ فَسَأَلَ الْمُسْلِمِينَ وَقَالَ: «أَتَانِي كَذَا وَكَذَا، فَهَلْ عَلِمْتُمْ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَضَى فِي ذَلِكَ بِقَضَاءٍ؟» فَرُبَّمَا اجْتَمَعَ إِلَيْهِ النَّفَرُ كُلُّهُمْ يَذْكُرُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِيهِ قَضَاءٌ. فَيَقُولُ أَبُو بَكْرٍ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي جَعَلَ فِينَا مَنْ يَحْفَظُ عَلَى نَبِيِّنَا،» صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، " فَإِنْ أَعْيَاهُ أَنْ يَجِدَ فِيهِ سُنَّةً مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، جَمَعَ رُءُوسَ النَّاسِ وَخِيَارَهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ، فَإِذَا اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى أَمْرٍ، قَضَى بِهِ. (1)

وَعَنْ شُرَيْحٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ كَتَبَ إِلَيْهِ: " إِنْ جَاءَكَ شَيْءٌ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَاقْضِ بِهِ وَلَا تَلْفِتْكَ عَنْهُ الرِّجَالُ، فَإِنْ جَاءَكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ فَانْظُرْ سُنَّةَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَاقْضِ بِهَا، فَإِنْ جَاءَكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ فِيهِ سُنَّةٌ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَانْظُرْ مَا اجْتَمَعَ عَلَيْهِ النَّاسُ فَحُذِّ بِهِ، فَإِنْ جَاءَكَ مَا لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ وَلَمْ يَكُنْ فِي سُنَّةِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَمْ يَتَكَلَّمْ فِيهِ أَحَدٌ قَبْلَكَ. فَاخْتَرْ أَيَّ الْأَمْرَيْنِ شِئْتَ: إِنْ شِئْتَ أَنْ تَجْتَهِدَ بِرَأْيِكَ ثُمَّ تَقْدَمَ فَتَقْدَمْ، وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَتَأَخَّرَ، فَتَأَخَّرَ، وَلَا أَرَى التَّأَخَّرَ إِلَّا خَيْرًا لَكَ " (2)

1 -سنن الدارمي 262/1 رقم 163 رجاله ثقات غير أن ميمون بن مهران لم يدرك أبا بكر فالإسناد منقطع و رواه البيهقي برقم 20341 بغير هذا اللفظ و ذكره ابن القيم عن أبي عبيد في كتاب القضاء
2 -سنن الدارمي 265/1 رقم 169 و أخبار القضاة 189/2 و إسناده جيد

وَعَنْ عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ يَزِيدَ، قَالَ: أَكْثَرُوا عَلَى عَبْدِ اللَّهِ ذَاتَ يَوْمٍ فَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ: " إِنَّهُ قَدْ أَتَى عَلَيْنَا زَمَانٌ وَلَسْنَا نَقْضِي، وَلَسْنَا هُنَالِكَ، ثُمَّ إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَدَّرَ عَلَيْنَا أَنْ بَلَّغَنَا مَا تَرَوْنَ، فَمَنْ عَرَضَ لَهُ مِنْكُمْ قَضَاءٌ بَعْدَ الْيَوْمِ، فَلْيَقْضِ بِمَا فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، فَلْيَقْضِ بِمَا قَضَى بِهِ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا قَضَى بِهِ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَلْيَقْضِ بِمَا قَضَى بِهِ الصَّالِحُونَ، فَإِنْ جَاءَ أَمْرٌ لَيْسَ فِي كِتَابِ اللَّهِ، وَلَا قَضَى بِهِ نَبِيُّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَلَا قَضَى بِهِ الصَّالِحُونَ، فَلْيَجْتَهِدْ رَأْيَهُ، وَلَا يَقُولُ: إِنِّي أَخَافُ، وَإِنِّي أَخَافُ، فَإِنَّ الْحَلَالَ بَيِّنٌ، وَالْحَرَامَ بَيِّنٌ، وَبَيِّنَ ذَلِكَ أُمُورٌ مُشْتَبِهَاتٌ، فَدَعْ مَا يَرِيْبُكَ إِلَى مَا لَا يَرِيْبُكَ " قَالَ أَبُو عَبْدِ الرَّحْمَنِ: «هَذَا الْحَدِيثُ جَيِّدٌ جَيِّدٌ» (1)

وَقَالَ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «إِذَا سُئِلَ عَنِ الْأَمْرِ فَكَانَ فِي الْقُرْآنِ، أَخْبَرَ بِهِ، وَإِنْ لَمْ يَكُنْ فِي الْقُرْآنِ وَكَانَ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، أَخْبَرَ بِهِ، فَإِنْ لَمْ يَكُنْ، فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فَإِنْ لَمْ يَكُنْ، قَالَ فِيهِ بِرَأْيِهِ» (2) و عَنْ أَبِي سَهْلٍ، قَالَ: كَانَ عَلَى أَمْرَاتِي اعْتِكَافُ ثَلَاثَةِ أَيَّامٍ فِي الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ، فَسَأَلْتُ عُمَرَ بْنَ عَبْدِ الْعَزِيزِ، وَعِنْدَهُ ابْنُ شِهَابٍ، قَالَ: قُلْتُ عَلَيْهَا صِيَامٌ. قَالَ ابْنُ شِهَابٍ: لَا يَكُونُ اعْتِكَافٌ إِلَّا بِصِيَامٍ. فَقَالَ لَهُ عُمَرُ بْنُ عَبْدِ الْعَزِيزِ: أَعَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَعَنْ أَبِي بَكْرٍ؟ قَالَ: لَا؟ قَالَ: فَعَنْ عُمَرَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: فَعَنْ عُثْمَانَ؟ قَالَ: لَا. قَالَ: عُمَرُ: مَا أَرَى عَلَيْهَا صِيَامًا. فَخَرَجْتُ فَوَجَدْتُ طَاوُسًا وَعَطَاءَ بْنَ أَبِي رَبَاحٍ، فَسَأَلْتُهُمَا، فَقَالَ طَاوُسٌ: كَانَ ابْنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا، «لَا يَرَى عَلَيْهَا صِيَامًا إِلَّا أَنْ تَجْعَلَهُ عَلَى نَفْسِهَا». قَالَ: وَقَالَ عَطَاءٌ: ذَلِكَ رَأْيِي. ((3))

قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: " وَقَدْ كَانَ الْعُلَمَاءُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَمَنْ بَعْدَهُمْ إِذَا تَنَازَعُوا فِي الْأَمْرِ اتَّبَعُوا أَمْرَ اللَّهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} وَكَانُوا يَتَنَازَعُونَ فِي الْمَسْأَلَةِ مُنَازَعَةً مُشَاوِرَةً وَمُنَاصَحَةً وَرُبَّمَا اخْتَلَفَ قَوْلُهُمْ فِي الْمَسْأَلَةِ الْعِلْمِيَّةِ وَالْعَمَلِيَّةِ مَعَ بَقَاءِ الْأُلْفَةِ وَالْعِصْمَةِ وَأُخُوَّةِ الدِّينِ. " (4)

1 -سنن النسائي كتاب آداب القضاء باب الحكم باتفاق أهل العلم رقم 5397 و هو صحيح الإسناد موقوف من كلام ابن مسعود

2 -سنن الدارمي 265/1 برقم 168 و إسناده صحيح

3 -سنن الدارمي 262/1 برقم 164 و إسناده صحيح

4 -مجموع الفتاوى 172/24. اختلافهم في رؤية النبي صلى الله عليه وسلم لربه ليلة المعراج، هل وقعت أم لا؟ مجموع الفتاوى (386/3) ومن ذلك أيضاً: اختلافهم في أنه هل يكون للبدن في القبر عذاب أو نعيم دون الروح أم لا؟ مجموع الفتاوى (283-282/4) ومن ذلك أيضاً: اختلافهم فيما يُوزَن يوم القيامة: هل هو العمل، أم صحائف العمل، أم العامل نفسه أي صاحب العمل؟ (انظر شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز (2/608-613)، ومن ذلك: اختلافهم في الفروع والأحكام الفقهية العملية وهو كثير مشهور.

الفصل التاسع

أهمية الاتباع وفوائده وآثاره الطيبة على الفرد والمجتمع

أ- الاتباع أحد أركان الإسلام:

لا يتحقق إسلام المرء إلا بشهادة أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فلا معبود بحق إلا الله ولا متبع بحق إلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قال تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِثْلُكُمْ يُوحَى إِلَيَّ أَنَّمَا إِلَهُكُمُ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ {الكهف: 110}

قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "وَبِالْجُمْلَةِ فَمَعْنَا أَصْلَانِ عَظِيمَانِ أَحَدُهُمَا: أَنْ لَا نَعْبُدَ إِلَّا اللَّهَ. وَالثَّانِي: أَنْ لَا نَعْبُدَهُ إِلَّا بِمَا شَرَعَ لَا نَعْبُدُهُ بِعِبَادَةٍ مُبْتَدَعَةٍ. وَهَذَانِ الْأَصْلَانِ هُمَا تَحْقِيقُ " شَهَادَةِ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ " (1)

قال ابن القيم: " فَصْلٌ لَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُتَحَقِّقًا بِإِيَّاكَ نَعْبُدُ إِلَّا بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ وَالْإِخْلَاصِ وَأَقْسَامُ النَّاسِ فِي ذَلِكَ "...

إِذَا عُرِفَ هَذَا فَلَا يَكُونُ الْعَبْدُ مُتَحَقِّقًا بِ " {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} الْفَاتِحَةِ: 5 " إِلَّا بِأَصْلَيْنِ عَظِيمَيْنِ: أَحَدُهُمَا: مُتَابَعَةُ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَالثَّانِي: الْإِخْلَاصُ لِلْمَعْبُودِ، فَهَذَا تَحْقِيقُ " {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} الْفَاتِحَةِ: 5

وَالنَّاسُ مُنْقَسِمُونَ بِحَسَبِ هَذَيْنِ الْأَصْلَيْنِ أَيْضًا إِلَى أَرْبَعَةِ أَقْسَامٍ:

أَحَدُهَا: أَهْلُ الْإِخْلَاصِ لِلْمَعْبُودِ وَالْمُتَابَعَةِ، وَهُمْ أَهْلُ " {إِيَّاكَ نَعْبُدُ} الْفَاتِحَةِ: 5 " حَقِيقَةً، فَأَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا لِلَّهِ، وَأَقْوَالُهُمْ لِلَّهِ، وَعَطَاؤُهُمْ لِلَّهِ، وَمَنْعُهُمْ لِلَّهِ، وَحُبُّهُمْ لِلَّهِ، وَبُغْضُهُمْ لِلَّهِ، فَمُعَامَلَتُهُمْ ظَاهِرًا وَبَاطِنًا لِوَجْهِ اللَّهِ وَحَدِّهِ، لَا يُرِيدُونَ بِذَلِكَ مِنَ النَّاسِ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا، وَلَا ابْتِغَاءَ الْجَاهِ عِنْدَهُمْ، وَلَا طَلِبَ الْمُحَمَّدَةِ، وَالْمَنْزِلَةِ فِي قُلُوبِهِمْ، وَلَا هَرَبًا مِنْ دَمِهِمْ، بَلْ قَدْ عَدُوا النَّاسَ بِمَنْزِلَةِ أَصْحَابِ الْقُبُورِ، لَا يَمْلِكُونَ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا، وَلَا مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا نُشُورًا، فَالْعَمَلُ لِأَجْلِ النَّاسِ، وَابْتِغَاءُ الْجَاهِ وَالْمَنْزِلَةِ عِنْدَهُمْ، وَرَجَاؤُهُمْ لِلضَّرِّ وَالنَّفْعِ مِنْهُمْ لَا يَكُونُ مِنْ عَارِفٍ بِهِمْ النَّبْتَةِ، بَلْ مِنْ جَاهِلٍ بِشَأْنِهِمْ، وَجَاهِلٍ بِرَبِّهِ، فَمَنْ عَرَفَ النَّاسَ أَنْزَلَهُمْ مَنَازِلَهُمْ، وَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ أَخْلَصَ لَهُ أَعْمَالَهُ وَأَقْوَالَهُ، وَعَطَاءَهُ وَمَنْعَهُ وَحُبَّهُ وَبُغْضَهُ، وَلَا يُعَامِلُ أَحَدَ الْخَلْقِ دُونَ اللَّهِ إِلَّا لِجَهْلِهِ بِاللَّهِ وَجَهْلِهِ بِالْخَلْقِ، وَإِلَّا فَإِذَا عَرَفَ اللَّهَ وَعَرَفَ النَّاسَ أَنْزَلَ مُعَامَلَةَ اللَّهِ عَلَى مُعَامَلَتِهِمْ.

وَكَذَلِكَ أَعْمَالُهُمْ كُلُّهَا وَعِبَادَتُهُمْ مُوَافَقَةً لِأَمْرِ اللَّهِ، وَلِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، وَهَذَا هُوَ الْعَمَلُ الَّذِي لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْ عَامِلٍ سِوَاهُ، وَهُوَ الَّذِي بَلَا عِبَادَهُ بِالْمَوْتِ وَالْحَيَاةِ لِأَجْلِهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا} الملك: 2 وَجَعَلَ مَا عَلَى الْأَرْضِ زِينَةً لَهَا لِيُخْتَبِرَهُمْ فِيهِمْ أَحْسَنُ عَمَلًا، قَالَ الْفَضِيلُ بْنُ عِيَاضٍ: الْعَمَلُ الْحَسَنُ هُوَ أَخْلَصُهُ وَأَصَوْبُهُ، قَالُوا: يَا أَبَا عَلِيٍّ مَا أَخْلَصُهُ وَأَصَوْبُهُ؟ قَالَ: إِنَّ الْعَمَلَ إِذَا كَانَ خَالِصًا وَلَمْ يَكُنْ صَوَابًا لَمْ يَقْبَلْ، وَإِذَا كَانَ صَوَابًا، وَلَمْ يَكُنْ خَالِصًا لَمْ يَقْبَلْ، حَتَّى يَكُونَ خَالِصًا صَوَابًا، وَالْخَالِصُ: مَا كَانَ لِلَّهِ، وَالصَّوَابُ: مَا كَانَ عَلَى السُّنَّةِ، وَهَذَا هُوَ الْمَذْكُورُ فِي قَوْلِهِ تَعَالَى {فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا} الكهف: 110 وَفِي قَوْلِهِ {وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ} النساء: 125 فَلَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنَ الْعَمَلِ إِلَّا مَا كَانَ خَالِصًا لَوَجْهِهِ، عَلَى مُتَابَعَةِ أَمْرِهِ، وَمَا عَدَا ذَلِكَ فَهُوَ مَرْدُودٌ عَلَى عَامِلِهِ، يُرَدُّ عَلَيْهِ أَحْوَجَ مَا هُوَ إِلَيْهِ هَبَاءً مَنْثُورًا، وَفِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ عَائِشَةَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «كُلُّ عَمَلٍ لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ» وَكُلُّ عَمَلٍ بِلَا اقْتِدَاءٍ فَإِنَّهُ لَا يَزِيدُ عَامِلَهُ مِنَ اللَّهِ إِلَّا بُعْدًا، فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى إِنَّمَا يُعَبِّدُ بِأَمْرِهِ، لَا بِالْأَرَاءِ وَالْأَهْوَاءِ. (1)

قال ابن أبي عز الحنفي: "فَهُمَا تَوْحِيدَانِ، لَا نَجَاةَ لِلْعَبْدِ مِنْ عَذَابِ اللَّهِ إِلَّا بِهِمَا: تَوْحِيدُ الْمُرْسَلِ، وَتَوْحِيدُ مُتَابَعَةِ الرَّسُولِ، فَلَا يُحَاكِمُ إِلَى غَيْرِهِ، وَلَا يَرْضَى بِحُكْمِ غَيْرِهِ، وَلَا يَقِفُ تَنْفِيدُ أَمْرِهِ وَتَصْدِيقُ خَبَرِهِ عَلَى عَرْضِهِ عَلَى قَوْلِ شَيْخِهِ وَإِمَامِهِ وَدَوِي مَذْهَبِهِ وَطَائِفَتِهِ وَمَنْ يُعْظِمُهُ..." (2)

ب- الاتباع أساس قبول العمل:

لا قبول لعمل العبد إلا بالاتباع والموافقة لما جاء به النبي بل إن العمل بلا اتباع وتأسٍ لا يزيد عامله من الله إلا بعدا لأن الله تعالى إنما يُعبد بأمره الذي بعث به محمد صلى الله عليه وسلم لا بأراء والأهواء كما قال النبي (مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ) (3) وقال الحسن البصري "لا يصح القول إلا بعمل ولا يصح قول وعمل إلا بنية ولا يصح قول وعمل ونية إلا بالسنة" (4)

1 مدراج السالكين 104-105

2 شرح الطحاوية 228/1

3 -مسلم في الأقضية بالأحكام الباطلة...رقم 1718

4 جامع العلوم والحكم 176/1

د- الاتباع من صفات المؤمنين وسبب الفلاح والفوز في الدنيا والآخرة ودخول الجنة:

قال الله تعالى: {إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (51) وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشَ اللَّهَ وَيَتَّقْهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ} النور 51-52

وقال تعالى: {تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} النساء: 13

قال تعالى: {وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ} التوبة: 71

قال تعالى: {لَيْسَ عَلَى الْأَعْمَى حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْأَعْرَجِ حَرَجٌ وَلَا عَلَى الْمَرِيضِ حَرَجٌ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ وَمَنْ يَتَوَلَّ يُعَذِّبْهُ عَذَابًا أَلِيمًا} الفتح: 17

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا (70) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا} الأحزاب: 70-71

وقال تعالى: {فَالَّذِينَ آمَنُوا بِهِ وَعَزَّرُوهُ وَنَصَرُوهُ وَاتَّبَعُوا النُّورَ الَّذِي أُنْزِلَ مَعَهُ أُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ} الأعراف: 157

قال تعالى: {وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} النساء: 69 فهؤلاء المستسلمون المتبعون هم المؤمنون حقا المستحقون لنعيم الجنة. قال ' ((كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى قالوا: يا رسول الله و من يأبى؟ قال: من أطاعني دخل الجنة و من عصاني فقد أبى)) (1)

ر- الاتباع دليل محبة الله تعالى و محبة رسوله' وسبب عظيم يستجلب به العبد محبة الله تعالى ومغفرته:

الذين يقولون أنهم يحبون الله تعالى ويحبون الرسول هم كُثُرٌ لا يُحْصَوْنَ, لكن الذين تصدق أفعالهم أقوالهم قلة في الناس وأهم أدلة المحبة هي متابعة الرسول يدل على ذلك قوله تعالى: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ} آل عمران 31

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

فيؤخذ من هذه الآيات أن علامة المحبة الصادقة لله ورسوله هي اتباعه صلى الله عليه وسلم فالذي يخالفه و يدعي أنه يحبه كاذب مفتر، إذ لو كان محبا له لأطاعه، و من المعلوم عند العامة أن المحبة تستجلب الطاعة و منه قول الشاعر:

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

و قول ابن أبي ربيعة المخزومي:

و من لو نهاني عن حبه عن الماء عطشان لم أشرب

وقال ابن تيمية: "وَمِمَّا يَنْبَغِي التَّفَقُّنُ لَهُ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ قَالَ فِي كِتَابِهِ: {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} قَالَ طَائِفَةٌ مِنَ السَّلَفِ ادَّعَى قَوْمٌ عَلَى عَهْدِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُمْ يُحِبُّونَ اللَّهَ فَأَنْزَلَ اللَّهُ هَذِهِ الْآيَةَ {قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحْبِبْكُمُ اللَّهُ} الْآيَةَ. فَبَيَّنَ سُبْحَانَهُ أَنَّ مَحَبَّتَهُ تُوجِبُ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ وَأَنَّ اتِّبَاعَ الرَّسُولِ يُوجِبُ مَحَبَّةَ اللَّهِ لِلْعَبْدِ وَهَذِهِ مَحَبَّةٌ امْتَحَنَ اللَّهُ بِهَا أَهْلَ دَعَاوَى مَحَبَّةِ اللَّهِ فَإِنَّ هَذَا الْبَابَ تَكَثَّرَ فِيهِ الدَّعَاوَى وَالْإشْتِبَاهُ..."(1)

وقال ابن كثير: "هَذِهِ الْآيَةُ الْكَرِيمَةُ حَاكِمَةٌ عَلَى كُلِّ مَنْ ادَّعَى مَحَبَّةَ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ عَلَى الطَّرِيقَةِ الْمُحَمَّدِيَّةِ فَإِنَّهُ كَاذِبٌ فِي دَعْوَاهُ فِي نَفْسِ الْأَمْرِ، حَتَّى يَتَّبِعَ الشَّرْعَ الْمُحَمَّدِيَّ وَالِدِينَ النَّبَوِيِّ فِي جَمِيعِ أَقْوَالِهِ وَأَحْوَالِهِ..."(2)

ويقول ابن القيم: "تَبَاتُّهَا (أي محبة الله) إِنَّمَا يَكُونُ بِمُتَابَعَةِ الرَّسُولِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فِي أَعْمَالِهِ، وَأَقْوَالِهِ وَأَخْلَاقِهِ. فَبِحَسَبِ هَذَا الْإِتِّبَاعِ يَكُونُ مَنَشَأُ هَذِهِ الْمَحَبَّةِ وَتَبَاتُّهَا وَقُوَّتُهَا. وَبِحَسَبِ نُقْصَانِهِ يَكُونُ نُقْصَانُهَا..."(3)

و من علامات محبة المؤمنين لرسولهم محمد ' الصلاة عليه كلما ذكر كما في قول رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الْبَخِيلُ الَّذِي مَنْ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ)) (4)

و قال صلى الله عليه وسلم ((أكثرُوا الصلاة عَلَيَّ في يوم الجمعة، فإنه ليس يصلي عليَّ أحد يوم الجمعة إلا عرضت عليَّ صلاته)) (5)

1 مجموع الفتاوى 81/10

2 تفسير ابن كثير 32/2

3 مدارج السالكين 39/3

4 -رواه الترمذي أبواب الدعوات برقم 3546 و قال الترمذي هذا حسن صحيح غريب و صححه الألباني

5 -رواه الحاكم في المستدرک 457/2 و قال صحيح الإسناد و تعقبه الذهبي و صححه الألباني في صحيح الجامع 1208 و السلسلة الصحيحة 1527

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و قال صلى الله عليه و سلم ((أكثرُوا الصلاة عليَّ يوم الجمعة و ليلة الجمعة فمن صلى عليَّ صلاة صلى الله عليه عشرة)) (1)

عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «رَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ ذُكِرْتُ عَنْدهُ فَلَمْ يُصَلِّ عَلَيَّ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ دَخَلَ عَلَيْهِ رَمَضَانُ ثُمَّ انْسَلَخَ قَبْلَ أَنْ يُغْفَرَ لَهُ، وَرَغِمَ أَنْفُ رَجُلٍ أَدْرَكَ عَنْدهُ أَبَوَاهُ الْكِبَرَ فَلَمْ يُدْخِلَاهُ الْجَنَّةَ» (2)

س-من فوائد الاتباع عز الأمة وتمكينها:

إن عز الأمة وسوددها إنما هو في تحقيق الاتباع الصحيح لنبيينا محمد ' تعلمنا لسننته وهديه و عملا به في جميع مجالات الحياة، عقيدة، شريعة، آدابا ، و أخلاقا و تلك النصره الحقه لرسول الله '. فقد وعد الله تعالى بنصرة رسله وتأييده لهم :{وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (171) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنْصُورُونَ (172) وَإِنَّ جُنَدَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ { الصافات: 171-173 و من كان لهم متبعا كان له مثل ما لهم من النصره و التأييد كما قال تعالى لموسى وهارون عليهما السلام ولأتباعهما :{قَالَ سَتَشِدُّ عَضْدُكَ بِأَخِيكَ وَنَجْعُلُ لَكُمَا سُلْطَانًا فَلَا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا بِآيَاتِنَا أَنْتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ { القصص: 35 و قال لعيسى عليه السلام ولأتباعه: {إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنِي مَتْوَفِيكَ وَرَافِعُكَ إِلَيَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا وَجَاعِلُ الَّذِينَ اتَّبَعُوكَ فَوْقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ ثُمَّ إِلَيَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنْتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ { آل عمران: 55

يقول ابن تيمية: " وَلِهَذَا كُلُّ مَنْ كَانَ مُتَّبِعًا لِلرَّسُولِ كَانَ اللَّهُ مَعَهُ بِحَسَبِ هَذَا الْإِتِّبَاعِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَسْبُكَ اللَّهُ وَمَنِ اتَّبَعَكَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ { الأنفال: 64 أَي: حَسْبُكَ وَحَسْبُ مَنْ اتَّبَعَكَ، فَكُلُّ مَنْ اتَّبَعَ الرَّسُولَ مِنْ جَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ فَاللَّهُ حَسْبُهُ ، وَهَذَا مَعْنَى كَوْنِ اللَّهِ مَعَهُ. وَالْكَفَايَةُ الْمُطْلَقَةُ مَعَ الْإِتِّبَاعِ الْمُطْلَقِ، وَالنَّاقِصَةُ مَعَ النَّاقِصِ." (3)

و في المقابل فما تجرأ الأعداء اليوم على مقام النبوة إلا بسبب مخالفتنا للرسول'. فكما ان أتباع الرسول' منصورون فإن مخالفيهم مخذولون قال تعالى:{ إِنَّ الَّذِينَ يُحَادِّثُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُولَئِكَ فِي الْأَذَلِّينَ { المجادلة: 20 وقال النبي' ((وجعل الذلة والصغار على من خالف أمري)) (4)

1 -رواه البيهقي في الكبرى 249/3 و حسنه الألباني في صحيح الجامع 1209

2 رواه الترمذي في جامعه 3545 أبواب الدعوات وقال الترمذي: هذا حديث حسن غريب من هذا الوجه و قال الألباني حسن صحيح

3 منهاج السنة 4/487

4 رواه أحمد 50/2 وابن أبي شيبه في مصنفه رقم 19629, والبخاري معلقا في كتاب الجهاد عند حديث 2914, و حسنه الألباني في إرواء الغليل رقم 1269

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

يقول ابن تيمية: "والبدعة مقرونة بالفرقة كما أن السنة مقرونة بالجماعة فيقال أهل السنة والجماعة كما يقال أهل البدعة والفرقة" (1)

وقد أجمع عقلاء أهل العلم أن أعظم أسباب الهزيمة وتمكن الأعداء هو التنازع وأشدّه التنازع في الدين و التنازع سببه التقصير في طاعة الله و طاعة الرسول' لذلك قرن الله بينهما فقال: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} الأنفال:46 وكما نبه إلى ذلك النبي' بعد إعلامه أمته بحدوث الخلاف فيها وأن لزوم السنة هو سفينة النجاة في بحر الاختلاف ((وإنه من يعيش منكم فسيرى اختلافا كثيرا فعليكم بسنتي)) (2)

ص-من فوائد الاتباع أن المتبع يعيش حياة سعيدة هنيئة طيبة:

قال تعالى: {مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أَنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهٗ حَيَاةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُمْ بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ} النحل: 97

وتفسير العمل الصالح هو ما كان فيه الاخلاص لله تعالى و المتابعة للنبي'

ط-طاعة الله وطاعة رسوله من أسباب رحمة العبد في الدنيا و الآخرة: قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} آل عمران:132

قال تعالى: {وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ} النور: 56

ع-الاتباع سبب للشبات على الحق والهدى:

قال تعالى: {وَلَوْ أَنَّهُمْ فَعَلُوا مَا يُوعَظُونَ بِهِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُمْ وَأَشَدَّ تَثْبِيثًا} النساء: 66

قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّمَا عَلَيْهِ مَا حُمِّلَ وَعَلَيْكُمْ مَا حُمِّلْتُمْ وَإِنْ تُطِيعُوهُ تَهْتَدُوا وَمَا عَلَى الرَّسُولِ إِلَّا الْبَلَاغُ الْمُبِينُ} النور: 54

قال تعالى: {قُلْ يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنِّي رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ جَمِيعًا الَّذِي لَهُ مُلْكُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ يُحْيِي وَيُمِيتُ فَأَمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ النَّبِيِّ الْأُمِّيِّ الَّذِي يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَكَلِمَاتِهِ وَاتَّبِعُوهُ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} الأعراف: 158

ف- طاعة الرسول من طاعة الله:1

قال تعالى: {مَنْ يُطِيعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ وَمَنْ تَوَلَّى فَمَا أَرْسَلْنَاكَ عَلَيْهِمْ حَفِظًا} النساء: 80

وعن جابر بن عبد الله يقول: في رؤيا رآها النبي ' قالت الملائكة ((...فمن أطاع محمدا ' فقد أطاع الله، ومن عصى محمدا فقد عصى الله، ومحمد فرق بين الناس)) (2)

ك- أن من أطاع الرسول فهو ممن أخرج الله من الظلمات إلى النور:

قال تعالى: {يَا أَهْلَ الْكِتَابِ قَدْ جَاءَكُمْ رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ كَثِيرًا مِمَّا كُنْتُمْ تُخْفُونَ مِنَ الْكِتَابِ وَيَعْفُو عَنْ كَثِيرٍ قَدْ جَاءَكُمْ مِنَ اللَّهِ نُورٌ وَكِتَابٌ مُبِينٌ (15) يَهْدِي بِهِ اللَّهُ مَنِ اتَّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَيُخْرِجُهُم مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَيَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} المائدة 16-15

ل- أن الاتباع ينجي من الضلال والانحراف والبدعة:

قال النبي صلى الله عليه وسلم: ((تَرَكْتُ فِيكُمْ أُمْرَيْنِ، لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)) (3) قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "... وَعَامَّةُ هَذِهِ الضَّلَالَاتِ إِنَّمَا تَطْرُقُ مَنْ لَمْ يَعْتَصِمَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ كَمَا كَانَ الزُّهْرِيُّ يَقُولُ: كَانَ عَلَمًاؤُنَا يَقُولُونَ: الْاِعْتِصَامُ بِالسُّنَّةِ هُوَ النِّجَاةُ " وَقَالَ مَالِكٌ " السُّنَّةُ سَفِينَةُ نُوحٍ مَنْ رَكِبَهَا نَجَا وَمَنْ تَخَلَّفَ عَنْهَا غَرِقَ ". وَذَلِكَ أَنَّ السُّنَّةَ وَالشَّرِيعَةَ وَالْمَنْهَاجَ: هُوَ الصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ الَّذِي يُوصِلُ الْعِبَادَ إِلَى اللَّهِ. وَالرَّسُولُ: هُوَ الدَّلِيلُ الْهَادِي الْخَرِيطُ فِي هَذَا الصِّرَاطِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {إِنَّا أَرْسَلْنَاكَ شَاهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا} قال {وَدَاعِيًا إِلَى اللَّهِ بِإِذْنِهِ وَسِرَاجًا مُنِيرًا} . وَقَالَ تَعَالَى: {وَإِنَّكَ لَتَهْدِي إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} وقال {صِرَاطِ اللَّهِ الَّذِي لَهُ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ أَلَا إِلَى اللَّهِ تَصِيرُ الْأُمُورُ} وَقَالَ تَعَالَى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ}..." (4)

م- دخول المتبع في ولاية الأنبياء:

{إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللَّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ} آل عمران: 68 فمن أتبع قوما وأحبهم لحق بهم.

1 -انظر الفصل الرابع من هذا الكتاب

2 البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب والسنة باب الاقتداء بسنن رسول الله 7281

3 -صحيح لغيره , الموطأ 2/899 رقم 3 وصححه العلامة الألباني في الصحيحة (761)

4 -مجموع الفتاوى 57/4

ن- أن في اتباع السنة والعمل بها إحياء لها وسعي في نشرها
فعن أبي هريرة قال: قال رسول الله ((مَنْ دَعَا إِلَى هُدًى، كَانَ لَهُ مِنَ الْأَجْرِ مِثْلُ أُجُورِ
مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ أُجُورِهِمْ شَيْئًا، وَمَنْ دَعَا إِلَى ضَلَالَةٍ، كَانَ عَلَيْهِ مِنَ الْإِثْمِ مِثْلُ
إِثْمِ مَنْ تَبِعَهُ، لَا يَنْقُصُ ذَلِكَ مِنْ آثَمِهِمْ شَيْئًا)) (1)

ي- قد دعانا الله تعالى أن نتبعه ونتبع نبيه محمد:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ لِمَا يُحْيِيكُمْ وَاعْلَمُوا أَنَّ
اللَّهَ يَحُولُ بَيْنَ الْمَرءِ وَقَلْبِهِ وَأَنَّهُ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ} الأنفال: 24(2)

1- صحيح مسلم كتاب العلم باب من سن سنة حسنة... 2674

2- هذا الفصل مستفاد من الأبحاث العلمية للمؤتمر الدولي نبي الرحمة محمد شوال 1431 الرياض
"بحث عز الامة و أيضا من حقيقة الاتباع ص 3822 مجلد 7

الفصل العاشر ظهور من ترك اتباع النبي

"و لما دخل في الإسلام قوم خلصت قلوبهم من أدران التقليد و العصبية و صفت نفوسهم لما يدعوهم إليه الرسول صلى الله عليه و سلم' الإيمان و اطمأنت قلوبهم إلى أمانة هذا الرسول الكريم و صدقه فعضوا على ما دعاهم إليه بالنواجذ, و استمسكوا بالعروة الوثقى الذي لا انفصام لها, و كرهوا الشرك و ما كان يعبد آبائهم و رأوا رسول الله' و صحبوه فأحبوه فوق ما يحبون آبائهم و ابنائهم و فدوه بالأنفس و الأموال حتى كان أحدهم يستعذب أن يعذب بأشد أنواع العذاب إذا كان هذا العذاب نجاة للرسول' الكريم من أن تشوكة شوكة, و نفعهم الله بذلك كله..."

و دخل في الإسلام بجانب هؤلاء (الصحابية) أصناف من الناس, أولهم جماعة من العرب ساقهم إلى الإسلام-حين جاء فتح الله و النصر (فتح مكة) و دخول قومهم فيه, فدخلوه تقليدا و إنسياقا مع الجمهور, و لم تكتحل أعينهم برؤية صاحب الرسالة, و لا انشروحت صدورهم بسماع تعاليمه منه, و لا صفت قلوبهم من آثار جاهليتهم و لا نظفت من أدرانه, فكان سواء لديهم انتصرت الدعوة الإسلامية أم لم تنتصر.

و ثانيهم جماعة من عامة أهل الأديان الأخرى-و على الأخص اليهودية و المجوسية-دخلوا في هذا الدين أيام الفتوح التي أخضعت الدولتين الكبيرتين الرومانية و الفارسية, فرارا من حكم الإسلام على من يبقى على دينه منهم, و لم تخالط بشاشة هذا الدين قلوبهم, و لا اقتلعت جذور الحقد و الضغينة من قلوبهم, و لا استأصلت من أنفسهم أعلاق الحنين إلى دينهم القديم, فهم يشتاقونه, و تتقطع أنفسهم حشرات عليه, و يتمنون أن يعودوا إليه.

و ثالثهم جماعة من دُعاة أهل الأديان الأخرى و ذوي الخبِّ و المكر منهم-و على الأخص اليهودية و المجوسية أيضا- تظاهروا بالدخول في الدين الجديد و هم يضمنون في أنفسهم الكيد و المكر و الخديعة, و يتحيزون الفرصة للانقضاض على هذا الدين الذي بسط سلطانه على رقعة الأرض المعروفة يومذاك, و يعملون في الخفاء لإيجاد هذه الفرصة إن لم تُواتهم من تلقاء أنفسهم, و يهيئون أذهان الطائفتين السابقتين و قلوبهم و جهودهم للقيام معهم فيما يعتزمون القيام به من الإفساد." (1)

و لما كان النبي ممن اصطفاه الله تعالى لبلاغ دينه و صيانتة أوحى الله إليه أن يحذر أصحابه و أمته من مخالفته فقال لهم: "مَنْ عَمِلَ عَمَلًا لَيْسَ عَلَيْهِ أَمْرُنَا فَهُوَ رَدٌّ" (2) فقام النبي مؤيدا بالوحي المنزل في مقاومة جميع مخالفات الدينية و حسمها النبي صلى

1 -تقديم الفرق بين الفرق ص8-10 كتبه محمد محيي الدين عبد الحميد

2 -مسلم في الأقضية بالأحكام الباطلة...رقم 1718

الله عليه وسلم ووضح الحق فيها كما جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، يقول: جاء ثلاثه رهط إلى بيوت أزواج النبي صلى الله عليه وسلم، يسألون عن عبادة النبي صلى الله عليه وسلم، فلما أخبروا كأنهم تقالوها، فقالوا: وأين نحن من النبي صلى الله عليه وسلم؟ قد غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر، قال أحدهم: أما أنا فإني أصلي الليل أبداً، وقال آخر: أنا أصوم الدهر ولا أفطر، وقال آخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوج أبداً، فجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم إليهم، فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أما والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأفطر، وأصلي وأرقد، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني» (1)

ولا شك أن هذه الأفعال مخالفة لسنة النبي وأمور محدثة في الدين فلما علم النبي ذلك نصحهم وبين لهم عظمة فعل ذلك فقال: (من رغب عن سنتي فليس مني). (2)

ولما خرج النبي صلى الله عليه وسلم على أصحابه وهم يتناقشون في القدر، هذا يضرب بأية وهذا يأتي بأية، فغضب عليه الصلاة والسلام كأنما فقي في وجهه حب الرمان، وقال: ((أبهذا أمرتم أن تضربوا كتاب الله بعضه ببعض))، أو كما قال عليه الصلاة والسلام، وقال: ((هذا الذي أهلك الأمم قبلكم)) (3) فكل أمر مخالفة لسنة النبي التي ظهرت في زمنه صلى الله عليه وسلم، بين صلى الله عليه وسلم خطرهما، وتراجع الذين حصلت منهم؛ وذلك أن الزمن زمن تشريع وأنه عليه الصلاة والسلام موجود يبين الحق للناس.

ولما جاء ذو الخويسرة ببذرة فكرة الخوارج حذرهم النبي من شرهم وخطورتهم وأمر الصحابة والأمة بقتلهم لأنهم يفسدون في الأرض بخروجهم عن طاعة الله ورسوله وأولياء الأمور كما ذكره أبو سعيد الخدري، قال: بينا نحن عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقسم قسماً، أتاه ذو الخويسرة، وهو رجل من بني تميم، فقال: يا رسول الله، أعدل، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «وَيْلَكَ وَمَنْ يَعْدِلُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ؟ قَدْ خَبْتُ وَخَسِرْتُ إِنْ لَمْ أَعْدِلْ» فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: يا رسول الله، انذن لي فيه أضرب عنقه، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «دَعُهُ، فَإِنَّ لَهُ أَصْحَابًا يَحْقِرُ أَحَدَكُمْ صَلَاتَهُ مَعَ صَلَاتِهِمْ، وَصِيَامَهُ مَعَ صِيَامِهِمْ، يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، لَا يُجَاوِزُ تَرَاقِيهِمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الْإِسْلَامِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَّةِ، يُنْظَرُ إِلَى نَصِيهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى رِصَافِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى نَصِيهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ - وَهُوَ الْقِدْحُ - ثُمَّ يُنْظَرُ إِلَى قُدْزِهِ فَلَا يُوجَدُ فِيهِ شَيْءٌ، سَبَقَ الْفَرْتُ وَالْدَمُ، آيَنُهُمْ رَجُلٌ أَسْوَدُ، إِحْدَى عَضْدِيهِ

1 - صحيح البخاري كتاب النكاح باب الترغيب في النكاح رقم 5063

2 - المقصود (بسنني): طريقتي ومنهاجي، فهي تشمل الواجب والمستحب، وليست السنة في عرف الفقهاء التي تعني: ما يثاب فاعله ولا يعاقب تاركه. فإن هذا مصطلح متأخر اصطلاح عليه الفقهاء في الأوامر التي لم تأت على سبيل الإلزام، ويسمونه المندوب.

3 سبق تخريج الحديثين في بداية فصل "الاختلاف والتفرق"

مِثْلُ نَدْيِ الْمَرْأَةِ، أَوْ مِثْلُ الْبَضْعَةِ تَتَدَرَّدَرُ، يَخْرُجُونَ عَلَى جِوْنٍ فُرْقَةٍ مِنَ النَّاسِ» قَالَ أَبُو سَعِيدٍ: «فَأَشْهَدُ أَنِّي سَمِعْتُ هَذَا مِنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَشْهَدُ أَنَّ عَلِيَّ بْنَ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَاتَلَهُمْ وَأَنَا مَعَهُ، فَأَمَرَ بِذَلِكَ الرَّجُلِ فَالْتَمَسَ، فَوَجَدَ، فَأَتَى بِهِ، حَتَّى نَظَرْتُ إِلَيْهِ، عَلَى نَعْتِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الَّذِي نَعَتَ»¹ و في رواية: "هُم شَرُّ الْخَلْقِ - أَوْ مِنْ أَشَرِّ الْخَلْقِ - يَقْتُلُهُمْ أَدْنَى الطَّائِفَتَيْنِ إِلَى الْحَقِّ» (2)

سَعِيدُ الْخُدْرِيِّ، يَقُولُ: بَعَثَ عَلِيُّ بْنُ أَبِي طَالِبٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنَ الْيَمَنِ بِذُهَيْبَةٍ فِي أَدِيمٍ مَفْرُوطٍ، لَمْ تُحْصَلْ مِنْ تَرَابِهَا، قَالَ: فَفَسَمَهَا بَيْنَ أَرْبَعَةِ نَفَرٍ، بَيْنَ غَيْثَةَ بْنِ بَدْرٍ، وَأَفْرَعِ بْنِ حَابِسٍ، وَزَيْدِ الْخَيْلِ، وَالرَّابِعِ: إِمَّا عَلَقْمَةُ وَإِمَّا عَامِرُ بْنُ الطَّفِيلِ، فَقَالَ رَجُلٌ مِنْ أَصْحَابِهِ: كُنَّا نَحْنُ أَحَقُّ بِهَذَا مِنْ هَؤُلَاءِ، قَالَ: فَبَلَغَ ذَلِكَ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «أَلَا تَأْمُنُونِي وَأَنَا أَمِينٌ مِنْ فِي السَّمَاءِ، يَأْتِينِي خَبَرُ السَّمَاءِ صَبَاحًا وَمَسَاءً» ، قَالَ: فَقَامَ رَجُلٌ غَائِرُ الْعَيْنَيْنِ، مُشْرِفُ الْوَجْنَتَيْنِ، نَاشِرُ الْجَبْهَةِ، كَثُ اللَّحْيَةِ، مَخْلُوقُ الرَّأْسِ، مُشَمَّرُ الْإِزَارِ، فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ اتَّقِ اللَّهَ، قَالَ: «وَيْلَكَ، أَوْلَسْتُ أَحَقَّ أَهْلِ الْأَرْضِ أَنْ يَنْقِيَ اللَّهَ» قَالَ: ثُمَّ وَلَّى الرَّجُلُ، قَالَ خَالِدُ بْنُ الْوَلِيدِ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَا أَضْرِبُ عُقْقَهُ؟ قَالَ: «لَا، لَعَلَّهُ أَنْ يَكُونَ يُصَلِّي» فَقَالَ خَالِدٌ: وَكَمْ مِنْ مُصَلٍّ يَقُولُ بِلِسَانِهِ مَا لَيْسَ فِي قَلْبِهِ، قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنِّي لَمْ أَوْمَرْ أَنْ أَنْقُبَ عَنْ قُلُوبِ النَّاسِ وَلَا أَشَقُّ بُطُونَهُمْ» قَالَ: ثُمَّ نَظَرَ إِلَيْهِ وَهُوَ مُقَفٍّ، فَقَالَ: «إِنَّهُ يَخْرُجُ مِنْ ضَنْبِي هَذَا قَوْمٌ يَتْلُونَ كِتَابَ اللَّهِ رَطْبًا، لَا يُجَاوِرُ حَنَاجِرَهُمْ، يَمْرُقُونَ مِنَ الدِّينِ كَمَا يَمْرُقُ السَّهْمُ مِنَ الرَّمِيَةِ» ، وَأَظْنُهُ قَالَ: «لَنْ أَدْرِكُهُمْ لِأَقْتُلَنَّهُمْ قَتْلَ ثَمُودَ» و في رواية: (...) يَقْتُلُونَ أَهْلَ الْإِسْلَامِ وَيَدْعُونَ أَهْلَ الْأَوْتَانِ... (3)

و كان صلى الله عليه وسلم حريصا على نصح و إرشاد و هداية أصحابه رضي الله عنهم أجمعين فأوصاهم إن رأوا ما يخالف ما كان عليه في حياته -بعد وفاته- أن يتبعوا ما أنزل الله في القرآن و السنة كما قال تعالى: {اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ} الأعراف:3

و كما ذكرهم النبي قائلا: " ((أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَن يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسِيرَیْ أَخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمَهْدِيِّينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلَّ

1 -صحيح مسلم باب ذكر الخوارج رقم 148 و انظر في نفس الباب في صحيح مسلم لتعرف بقية

صفات الخوارج و قد بوب الإمام مسلم ثلاثة أبواب عن الخوارج: بَابُ التَّخْرِيطِ عَلَى قَتْلِ الْخَوَارِجِ، وَ بَابُ الْخَوَارِجِ شَرُّ الْخَلْقِ وَالْخَلِيقَةِ وَ أورد عدة روايات (18 أو أكثر) في بيان

خطورتهم، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، الناشر: دار إحياء التراث العربي - بيروت

2 -صحيح مسلم كتاب الكسوف باب ذكر الخوارج وصفاتهم رقم 149

3 رواه البخاري في عدة مواضع بالفاظ متقاربة بقرم 3344, 4351, 4667, 7432

بِدْعَةٍ ضَلَالَةٍ)) (1) و وعدهم إن تمسكوا بالوحي لن يضلوا من بعده ' أبداً قائلاً: ((تَرَكَتُمْ فِيكُمْ أَمْرَيْنِ لَنْ تَضِلُّوا مَا تَمَسَّكْتُمْ بِهِمَا: كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ نَبِيِّهِ)) (2) و قال: ((" قَدْ تَرَكَتُكُمْ عَلَى الْبَيْضَاءِ لَيْلَهَا كَنَهَارُهَا لَا يَزِيغُ عَنْهَا بَعْدِي إِلَّا هَالِكٌ، وَمَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ، فَسِيرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِمَا عَرَفْتُمْ مِنْ سُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، وَعَلَيْكُمْ بِالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، فَإِنَّمَا الْمُؤْمِنُ كَالْجَمَلِ الْأَنْفِ حَيْثُمَا انْقَبَدَ انْقَادًا " (3)

فتمسكوا الصحابة رضي الله عنهم بهديه ' واستمروا على اتباع سنته ' و هذا هو السبب في نجاحهم و فلاحهم لا غير و هذا هو السبب الرئيسي لتمكنهم و قوتهم في دينهم و دنياهم لما تمسكوا بالوحيين كان عدوهم يخافون يهابون منهم مسيرة شهر (4) و قذف الله في قلوب الكافرين الرعب كما قال تعالى: {سَنُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ بِمَا أَشْرَكُوا بِاللَّهِ { آل عمران: 151 فالله تعالى قذف في قلوب أعدائهم الرعب لما كان من المؤمنين من قوة الإيمان و اجتماعهم على التوحيد الخالص و اتباع النبي ' حتى مع قلة عددهم كما فازوا و انتصروا في غزوة المؤتة وهم ثلاثة آلاف و الروم أكثر من مائة ألف فالمسلم البصير يعلم علماً يقيناً أن سبب القوة والنصر هو قوة الإيمان و اجتماع على الشهادتين و تطبيق الاتباع الحقيقي لنبيينا محمد - لا غير.

و لما أعجبوا بكثرتهم ذكرهم الله أن كثرتهم لم تغن عنهم شيئاً، قال تعالى: {لَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ فِي مَوَاطِنَ كَثِيرَةٍ وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثَرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمْ

- 1 رواه أبو داود في سننه في كتال السنة باب لزوم السنة رقم 4607 و رواه الترمذي في كتاب العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة رقم 2676 و قال الترمذي: حسن صحيح
- 2 -ذكره الإمام مالك في الموطأ في كتاب القدر رقم 1708 ط. دار المعرفة. و أخرجه أبو مصعب الزهري، 1874 في الجامع . و ذكره التبريزي في مشكاة المصابيح رقم 186 عن أنس مرسل و حسنه الألباني. و رواه الحاكم مسنداً في كتاب العلم , باب في خطبته في حجة الوداع برقم 318 و قال الحاكم " وقد احتج البخاري بأحاديث عكرمة واحتج مسلم بأبي أويس ، وسائر رواياته متفق عليهم ، وهذا الحديث لخطبة النبي صلى الله عليه وسلم متفق على إخراجها في الصحيح: " يا أيها الناس إني قد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله ، وأنتم مسئولون عني فما أنتم قائلون ؟ " و ذكر الاعتصام بالسنة في هذه الخطبة غريب ويحتاج إليها . وقد وجدت له شاهداً من حديث أبي هريرة برقم 319 ط. دار الحرمين تحقيق الشيخ مقبل بن هادي الوادعي رحمه الله. و قال الألباني في سلسلة الصحيحة 361/4 تحت حديث رقم 1761: " إذا عرفت ما تقدم فالحديث شاهد قوي لحديث " الموطأ " بلفظ: " تركت فيكم أمرين لن تضلوا ما تمسكتم بهما، كتاب الله وسنة رسوله ". وهو في " المشكاة " (186) . وقد خفي وجه هذا الشاهد على بعض من سود صفحات من إخواننا الناشئين اليوم في تضعيف حديث الموطأ. والله المستعان. " اهـ
- 3 -مسند الإمام أحمد برقم 17142 و صححه الألباني في سلسلة الصحيحة برقم 937
- 4 -انظر في صحيح البخاري كتاب الصلاة باب قول النبي جعلت لي الأرض ولفظه: " قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " أُعْطِيتُ حَمْسًا لَمْ يُعْطَهُنَّ أَحَدٌ مِنَ الْأَنْبِيَاءِ قَبْلِي: نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةً شَهْرًا، وَجُعِلَتْ لِي الْأَرْضُ مَسْجِدًا وَطَهُورًا... إلخ حديث رقم 438 و غيره

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ} التوبة:25 فكثره الناس واجتماعهم مع وجود مخالفين لله ولرسوله ' لم ولن ينفع الإسلام و المسلمين شيئاً أبداً ويكونون غثاء كغثاء السيل والله المستعان.

و كلما ابتعدوا الناس عن طاعة الله تعالى واتباع النبي يصيبهم مصائب وهذا مشاهد في تاريخ الإسلام كما حصلت في غزوة أحد لما عصوا الرماة أمر رسول الله ' قتل كثير من الصحابة رضي الله عنهم قال تعالى: (أَوَلَمْ أَصَابَتْكُمْ مُصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُمْ مِثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّى هَذَا قُلْ هُوَ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِكُمْ ...) آل عمران:165 فالإعجاب بكثره العدد و حب الدنيا و مخالفة أوامر الله ورسوله ' وجعل أصل اجتماع الناس على غير التوحيد واتباع النبي ' سبب لفشل و الضعف والهزيمة في الدنيا والآخرة.

ولما غلب على بعض المسلمين الضعف في دينهم و دنياهم و تنقلب الأمور فأصبحوا (كثير من المنتسبين إلى الإسلام اليوم) يهابون و يخافون من عدوهم من الكفار و المشركين و أصبحوا أكلة لهم كما أخبر النبي ' ((يُوشِكُ الْأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الْأَكْلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا)) ، فَقَالَ قَائِلٌ: وَمِنْ قَلِيلٍ نَحْنُ يَوْمَئِذٍ؟ قَالَ: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنْكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللَّهُ مِنْ صُورٍ عَذُوكُمْ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللَّهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهْنَ» ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا الْوَهْنُ؟ قَالَ: «حُبُّ الدُّنْيَا، وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ» ((1))

و قد أخبرهم النبي عن السبب لمثل هذه المشاكل و أعطاهم العلاج الكافي الشافي فقال ((إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ، وَرَضَيْتُمْ بِالزَّرْعِ، وَتَرَكَتُمُ الْجِهَادَ(2))، سَلَطَ اللَّهُ عَلَيْكُمْ ذُلًّا لَا يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ))((3)) فلما أصاب بعض المسلمين الذلة وخافوا من الكفار صاروا يمشون خلف أذناب البقر بعد أن كانوا يركبون على ظهور الخيول.

فالدواء لهذه الأمراض هو الاتباع الحقيقي الذي هو التمسك بالدين والرجوع إلى الكتاب والسنة على فهم السلف الأمة -دون التعصب والتحزب وتقليد الأعمى للمذاهب وللأشخاص- وجعل أسس و رابطة الاجتماع الناس التوحيد الخالص واتباع النبي ' وليس غرض سياسي أو وطني أو قبلي.

- 1 -سنن أبي داود كتاب الملاحم باب في تداعي الامم على الإسلام برقم 4297 و هو صحيح
- 2 -الجهاد المنضبط بشروطها وضوابطها التي نصوا عليها أهل العلم والحل والعقد و يكون تحت راية (لا إله إلا الله محمد رسول الله) و بالأسف نرى أن بعض المسلمين الذين ينادون بالجهاد ليس لهم غرض إلا إثارة الناس وتشهير أخطاء الحكام وليس لهم إمام ولا راية تجمعهم إلا راية حزبية أو سياسية وهم مختلفين في العقيدة والمنهج والفكر والفهم و كثير منهم يريدون المناصب و السيطرة على بعض الأرضى لا غير. فنسأل الله أن يرزقنا الإخلاص والمتابعة للنبي صلى الله عليه وسلم وإذا رفعنا راية أن لا نرفعه إلا لنجعل كلمة الله هي العليا لا غير.
- 3 -سنن أبي داود كتاب الإجارة باب في النهي عن العينة برقم 3462 و هو صحيح

وقد أشار إلى هذا الشيخ محمد أمين الشنقيطي رحمه الله تعالى : "وَمِنْ هَدْيِ الْقُرْآنِ لِلَّتِي هِيَ أَقْوَمُ هَدْيُهُ إِلَى أَنَّ الرِّابِطَةَ الَّتِي يَجِبُ أَنْ يَعْتَقَدَ أَنَّهَا هِيَ الَّتِي تَرْبِطُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ، وَأَنْ يُنَادَى بِالْإِزْتِمَاطِ بِهَا دُونَ غَيْرِهَا إِنَّمَا هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ، لِأَنَّهُ هُوَ الَّذِي يَرْبِطُ بَيْنَ أَفْرَادِ الْمُجْتَمَعِ حَتَّى يَصِيرَ بِقُوَّةِ تِلْكَ الرِّابِطَةِ جَمِيعُ الْمُجْتَمَعِ الْإِسْلَامِيِّ كَأَنَّهُ جَسَدٌ وَاحِدٌ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى، فَرَبِطُ الْإِسْلَامِ لَكَ بِأَخِيكَ كَرَبِطِ يَدِكَ بِمِعَصَمِكَ، وَرَجْلِكَ بِسَاقِكَ، كَمَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِنْ مَثَلَ الْمُؤْمِنِينَ فِي تَرَاحُمِهِمْ وَتَعَاطُفِهِمْ وَتَوَادِهِمْ كَمَثَلِ الْجَسَدِ الْوَاحِدِ إِذَا اشْتَكَى مِنْهُ عُضْوٌ تَدَاعَى لَهُ سَائِرُ الْجَسَدِ بِالسَّهْرِ وَالْحُمَى» (1). وَلِذَلِكَ يَكْثُرُ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ إِطْلَاقُ النَّفْسِ وَإِرَادَةُ الْآخِ تَنْبِيْهَا عَلَى أَنَّ رَابِطَةَ الْإِسْلَامِ تَجْعَلُ أَحَا الْمُسْلِمِ كَنَفْسِهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: {وَلَا تُخْرِجُونَ أَنْفُسَكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ} الْآيَةُ [البقرة: 84] ، أَيْ لَا تُخْرِجُونَ إِخْوَانَكُمْ، وَقَوْلِهِ: {لَوْ لَا إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ الْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بِأَنْفُسِهِمْ خَيْرًا} [النور: 12] ، أَيْ بِإِخْوَانِهِمْ عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَيْنِ، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَلْمِزُوا أَنْفُسَكُمْ} الْآيَةُ [الحجرات: 11] ، أَيْ إِخْوَانَكُمْ عَلَى أَصَحِّ التَّفْسِيرَيْنِ، وَقَوْلِهِ: {وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُمْ بَيْنَكُمْ} الْآيَةُ [البقرة: 188] ، أَيْ لَا يَأْكُلْ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ، وَلِذَلِكَ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ ' أَنَّهُ قَالَ: «لَا يُؤْمِنُ أَحَدُكُمْ حَتَّى يُحِبَّ لِأَخِيهِ مَا يُحِبُّ لِنَفْسِهِ» (2) الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ! فَسَمِعَهَا اللَّهُ رَسُولُهُ قَالَ: «مَا هَذَا» ؟ فَقَالُوا: كَسَعَ رَجُلٌ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ رَجُلًا مِنَ الْأَنْصَارِ، فَقَالَ الْأَنْصَارِيُّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَقَالَ الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعَوْهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» الْحَدِيثُ (3). فَقَوْلُ هَذَا الْأَنْصَارِيِّ: يَا لِلْأَنْصَارِ، وَهَذَا الْمُهَاجِرِيُّ: يَا لِلْمُهَاجِرِينَ هُوَ النَّدَاءُ بِالْقَوْمِيَّةِ الْعَصَبِيَّةِ بَعَيْنِهِ، وَقَوْلُ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «دَعَوْهَا فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» يَقْتَضِي وَجُوبَ تَرْكِ النَّدَاءِ بِهَا ؛ لِأَنَّ قَوْلَهُ: «دَعَوْهَا» أَمْرٌ صَرِيحٌ بِتَرْكِهَا... وَقَدْ أَكَّدَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذَا الْأَمْرَ بِالتَّرْكِ بِقَوْلِهِ: «فَإِنَّهَا مُنْتَنَةٌ» ، وَحَسْبُكَ بِالنَّتْنِ مُوجِبًا لِلتَّبَاعُدِ لِدَلَالَتِهِ عَلَى الْخُبْثِ الْبَالِغِ.

فَقَدْ هَذَا الْحَدِيثُ الصَّحِيحُ عَلَى أَنَّ النَّدَاءَ بِرَابِطَةِ الْقَوْمِيَّةِ مُخَالَفٌ لِمَا أَمَرَ بِهِ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَنَّ فَاعِلَهُ يَتَعَاطَى الْمُنْتِنَ، وَلَا شَكَّ أَنَّ الْمُنْتِنَ خَبِيثٌ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: {الْخَبِيثَاتُ لِلْخَبِيثِينَ} الْآيَةُ [النور: 26] ، وَيَقُولُ: {وَيُحَرِّمُ عَلَيْهِمُ الْخَبَائِثَ} [الأعراف: 157]... وَقَدْ عَرَفْتُ... أَنَّ دَعْوَى الرَّجُلِ: «يَا لِبَنِي فُلَانٍ» مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ. وَإِذَا صَحَّ بِذَلِكَ أَنَّهَا مِنْ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ فَقَدْ صَحَّ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: ((لَيْسَ مِنَّا مَنْ ضَرَبَ الْخُدُودَ، وَشَقَّ الْجُيُوبَ، وَدَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ)) (4)... وَذَلِكَ صَرِيحٌ فِي أَنَّ مَنْ دَعَا تِلْكَ الدَّعْوَى لَيْسَ مِنَّا، وَهُوَ دَلِيلٌ وَاضِحٌ عَلَى التَّحْرِيمِ الشَّدِيدِ، وَمِمَّا يَدُلُّ لِذَلِكَ قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَنْ تَعَزَّى عَلَيْكُمْ بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعِضُوهُ بِهَنْ أَبِيهِ وَلَا

1 سبق تخريجه

2-مسلم كتاب الإيمان باب الدليل على أن من خصال الإيمان أن يحب المسلم... برقم 45 وغيره

3 -مسلم كتاب البر والصلة و الآداب باب نصر الأخ ظالما أو مظلوما 2584 وغيره

4 -مسلم كتاب الإيمان باب تحريم ضرب الخدود وشق الجيوب... 103 وغيره

تَكُونُوا» (1) فَأَنْظُرْ كَيْفَ سَمَّى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَلِكَ النَّدَاءَ «عَزَاءَ الْجَاهِلِيَّةِ» وَأَمَرَ أَنْ يُقَالَ لِلدَّاعِي بِهِ «اعْضَضْ عَلَى هِنِّ أَبِيكَ» أَيُّ فَرْجِهِ، وَأَنْ يُصْرَحَ لَهُ بِذَلِكَ وَلَا يُعَيَّرُ عَنْهُ بِالْكِنَايَةِ، فَهَذَا يَذُلُّ عَلَى شِدَّةِ قُبْحِ هَذَا النَّدَاءِ، وَشِدَّةِ بُغْضِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لَهُ.

وَاعْلَمْ أَنَّ رُؤْسَاءَ الدُّعَاةِ إِلَى نَحْوِ هَذِهِ الْقَوْمِيَّةِ الْعَرَبِيَّةِ: أَبُو جَهْلٍ، وَأَبُو لَهَبٍ، وَالْوَلِيدُ بْنُ الْمُغِيرَةِ، وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنْ رُؤْسَاءِ الْكُفَرَةِ.

وَقَدْ بَيَّنَّ تَعَالَى تَعَصُّبَهُمْ لِقَوْمِيَّتِهِمْ فِي آيَاتٍ كَثِيرَةٍ؛ كَقَوْلِهِ: {قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [الآية: المائدة: 104] وَقَوْلِهِ: {قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} [الآية: البقرة: 170] ، وَأَمْثَالِ ذَلِكَ مِنَ الْآيَاتِ.

وَاعْلَمْ أَنَّهُ لَا خِلَافَ بَيْنَ الْعُلَمَاءِ - كَمَا ذَكَرْنَا آنِفًا - فِي مَنَعِ النَّدَاءِ بِرَابِطَةِ غَيْرِ الْإِسْلَامِ (لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ = التَّوْحِيدُ الْخَالِصُ وَاتِّبَاعُ النَّبِيِّ)، كَالْقَوْمِيَّاتِ وَالْعَصَبِيَّاتِ النَّسَبِيَّةِ، وَلَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ النَّدَاءُ بِالْقَوْمِيَّةِ يُقْصَدُ مِنْ وَرَائِهِ الْقَضَاءُ عَلَى رَابِطَةِ الْإِسْلَامِ وَإِزَالَتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ، فَإِنَّ النَّدَاءَ بِهَا حِينَئِذٍ مَعْنَاهُ الْحَقِيقِيُّ: أَنَّهُ نِدَاءٌ إِلَى التَّخَلِّيِ عَنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَرَفْضِ الرَّابِطَةِ السَّمَاوِيَّةِ رَفْضًا بَاتًا، عَلَى اللَّهِ أَنْ يَغْتَاصَ مِنْ ذَلِكَ رَوَابِطَ عَصَبِيَّةٍ قَوْمِيَّةٍ، مَدَارُهَا عَلَى أَنَّ هَذَا مِنَ الْعَرَبِ، وَهَذَا مِنْهُمْ أَيْضًا مَثَلًا. فَالْعُرُوبَةُ لَا يُمْكِنُ أَنْ تَكُونَ خَلْفًا مِنَ الْإِسْلَامِ، وَاسْتَبْدَالُهَا بِهِ صَفَقَةٌ خَاسِرَةٌ...

وَقَدْ عَلِمَ فِي التَّارِيخِ حَالُ الْعَرَبِ قَبْلَ الْإِسْلَامِ وَحَالُهُمْ بَعْدَهُ كَمَا لَا يَخْفَى. وَقَدْ بَيَّنَّ اللَّهُ جَلَّ وَعَلَا فِي مُحْكَمِ كِتَابِهِ: أَنَّ الْحِكْمَةَ فِي جَعْلِهِ بَنِي آدَمَ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ هِيَ التَّعَارُفُ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَيْسَتْ هِيَ أَنْ يَتَّعَصَّبَ كُلُّ شَعْبٍ عَلَى غَيْرِهِ، وَكُلُّ قَبِيلَةٍ عَلَى غَيْرِهَا، قَالَ جَلَّ وَعَلَا: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ} [الحجرات: 13] ، فَالْأَلَامُ فِي قَوْلِهِ: لِتَعَارَفُوا لَامُ التَّعْلِيلِ، وَالْأَصْلُ لِتَتَّعَارَفُوا، وَقَدْ حُذِفَتْ إِحْدَى التَّاءَيْنِ؛ فَالتَّعَارُفُ هُوَ الْعِلَّةُ الْمُشْتَمِلَةُ عَلَى الْحِكْمَةِ لِقَوْلِهِ: {وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ} [الحجرات: 13] ، وَنَحْنُ حِينَئِذٍ نُصْرِّحُ بِمَنَعِ النَّدَاءِ بِالرَّوَابِطِ الْعَصَبِيَّةِ وَالْأَوَاصِرِ النَّسَبِيَّةِ، وَنُقِيمُ الْأَدِلَّةَ عَلَى مَنَعِ ذَلِكَ...

فَيَلْزِمُ النَّاطِرُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ أَنْ يُفَرِّقَ بَيْنَ الْأَمْرَيْنِ، وَيَعْلَمْ أَنَّ النَّدَاءَ بِرَوَابِطِ الْقَوْمِيَّاتِ لَا يَجُوزُ عَلَى كُلِّ حَالٍ، وَلَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ الْقَصْدُ بِذَلِكَ الْقَضَاءُ عَلَى رَابِطَةِ الْإِسْلَامِ، وَإِزَالَتِهَا بِالْكُلِّيَّةِ بِدَعْوَى أَنَّهُ لَا يُسَايِرُ التَّطَوُّرَ الْجَدِيدَ، أَوْ أَنَّهُ جُمُودٌ وَتَأَخُّرٌ عَنْ مُسَايَرَةِ رَكْبِ الْحَضَارَةِ - نَعُودُ بِاللَّهِ مِنْ طَمَسِ الْبَصِيرَةِ - وَأَنَّ مَنَعَ النَّدَاءِ بِرَوَابِطِ الْقَوْمِيَّاتِ لَا يُنَافِي أَنَّهُ رُبَّمَا انْتَفَعَ الْمُسْلِمُ بِنُصْرَةِ قَرِيْبِهِ الْكَافِرِ بِسَبَبِ الْعَوَاطِفِ النَّسَبِيَّةِ وَالْأَوَاصِرِ الْعَصَبِيَّةِ الَّتِي

1 - قال الشنقيطي: "هذا حديث صحيح، وَذَكَرَهُ صَاحِبُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِلَفْظٍ «إِذَا سَمِعْتُمْ مَنْ يُعْتَرَى بِعَزَاءِ الْجَاهِلِيَّةِ فَأَعْضُوهُ وَلَا تَكُونُوا» وَأَشَارَ لِأَنَّهُ أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ، وَالنَّسَائِيُّ وَابْنُ جَبَانَ، وَالطَّبْرَانِيُّ فِي الْكَبِيرِ، وَالضَّيَّاءُ الْمُفَسِّسِيُّ عَنْ أَبِي رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ عِلَامَةَ الصِّحَّةِ. وَذَكَرَهُ أَيْضًا صَاحِبُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ بِلَفْظٍ «إِذَا رَأَيْتُمُ الرَّجُلَ يَتَعَرَّى، وَأَشَارَ إِلَى أَنَّهُ أَخْرَجَهُ الْإِمَامُ أَحْمَدُ فِي الْمُسْنَدِ وَالتِّرْمِذِيُّ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ عِلَامَةَ الصِّحَّةِ. وَقَالَ شَارِحُهُ الْمُتَاوِيُّ: وَرَوَاهُ أَيْضًا الطَّبْرَانِيُّ، قَالَ الْهَيْثَمِيُّ: وَرَجَالُهُ ثِقَاتٌ، وَقَالَ شَارِحُهُ الْعَزِيزِيُّ: هُوَ حَدِيثٌ صَحِيحٌ.»

لَا تَمُتْ إِلَى الْإِسْلَامِ بِصِلَةٍ، كَمَا وَقَعَ مِنْ أَبِي طَالِبٍ لِلنَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنْهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «إِنَّ اللَّهَ يُؤَيِّدُ هَذَا الدِّينَ بِالرَّجُلِ الْفَاجِرِ» (1) وَلَكِنَّ تِلْكَ الْقَرَابَاتِ النَّسَبِيَّةَ لَا يَجُوزُ أَنْ تُجْعَلَ هِيَ الرَّابِطَةُ بَيْنَ الْمُجْتَمَعِ، لِأَنَّهَا تَشْمَلُ الْمُسْلِمَ وَالْكَافِرَ، وَمَعْلُومٌ أَنَّ الْمُسْلِمَ عَدُوُّ الْكَافِرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: {لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ} [الأنعام: 22] ... وَالْحَاصِلُ أَنَّ الرَّابِطَةَ الْحَقِيقِيَّةَ الَّتِي تَجْمَعُ الْمُفْتَرَقَ وَتُوَلِّفُ الْمُخْتَلَفَ هِيَ رَابِطَةُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ» أَلَا تَرَى أَنَّ هَذِهِ الرَّابِطَةُ الَّتِي تُجْعَلُ الْمُجْتَمَعُ الْإِسْلَامِيُّ كُلُّهُ كَأَنَّهُ جَسَدٌ وَاحِدٌ، وَتُجْعَلُهُ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا، عَطَفَتْ قُلُوبَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ مِنَ الْمَلَائِكَةِ عَلَى بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ مَعَ مَا بَيْنَهُمْ مِنَ الْإِخْتِلَافِ، قَالَ تَعَالَى: {الَّذِينَ يَحْمِلُونَ الْعَرْشَ وَمَنْ حَوْلَهُ يُسَبِّحُونَ بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَيُؤْمِنُونَ بِهِ وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا وَسِعْتَ كُلَّ شَيْءٍ رَحْمَةً وَعِلْمًا فَاغْفِرْ لِلَّذِينَ تَابُوا وَاتَّبَعُوا سَبِيلَكَ وَقِهِمْ عَذَابَ الْجَحِيمِ رَبَّنَا وَأَدْخِلْهُمْ جَنَّاتٍ عَدْنٍ الَّتِي وَعَدْتَهُمْ وَمَنْ صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَرْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ وَقِهِمُ السَّيِّئَاتِ وَمَنْ تَقِ السَّيِّئَاتِ يَوْمَئِذٍ فَقَدْ رَحِمْتَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ} [غافر: 7 - 9]. فَقَدْ أَشَارَ تَعَالَى إِلَى أَنَّ الرَّابِطَةَ الَّتِي رَبَطَتْ بَيْنَ حَمَلَةِ الْعَرْشِ وَمَنْ حَوْلَهُ، وَبَيْنَ بَنِي آدَمَ فِي الْأَرْضِ حَتَّى دَعَا اللَّهُ لَهُمْ هَذَا الدُّعَاءَ الصَّالِحَ الْعَظِيمَ، إِنَّمَا هِيَ الْإِيمَانُ بِاللَّهِ جَلَّ وَعَلَا؛ لِأَنَّهُ قَالَ عَنِ الْمَلَائِكَةِ: وَيُؤْمِنُونَ بِ [غافر: 7] فَوَصَفَهُمْ بِالْإِيمَانِ. وَقَالَ عَنْ بَنِي آدَمَ فِي اسْتِغْفَارِ الْمَلَائِكَةِ لَهُمْ: {وَيَسْتَغْفِرُونَ لِلَّذِينَ آمَنُوا} [غافر: 7]، فَوَصَفَهُمْ أَيْضًا بِالْإِيمَانِ، فَذَلِكَ عَلَى أَنَّ الرَّابِطَةَ بَيْنَهُمْ هِيَ الْإِيمَانُ، وَهُوَ أَعْظَمُ رَابِطَةٍ. وَمِمَّا يُوَضِّحُ لَكَ أَنَّ الرَّابِطَةَ الْحَقِيقِيَّةَ هِيَ دِينُ الْإِسْلَامِ قَوْلُهُ تَعَالَى فِي أَبِي لَهَبٍ عَمَّ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {سَيَصْلَى نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ} [المسد: 3] وَيَقَابِلُ ذَلِكَ بِمَا لِسَلَمَانَ الْفَارِسِيِّ مِنَ الْفَضْلِ وَالْمَكَانَةِ عِنْدَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَالْمُسْلِمِينَ، وَقَدْ جَاءَ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ فِيهِ: «سَلَمَانُ مِنَّا أَهْلُ الْبَيْتِ»² وَقَدْ أَجَادَ مَنْ قَالَ: لَقَدْ رَفَعَ الْإِسْلَامُ سَلَمَانَ فَارِسٍ ... وَقَدْ وَضَعَ الْكُفْرُ الشَّرِيفَ أَبَا لَهَبٍ. وَبِالْجُمْلَةِ، فَلَا خِلَافَ بَيْنَ الْمُسْلِمِينَ أَنَّ الرَّابِطَةَ الَّتِي تَرْبُطُ أَفْرَادَ أَهْلِ الْأَرْضِ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ، وَتَرْبُطُ بَيْنَ أَهْلِ الْأَرْضِ وَالسَّمَاءِ، هِيَ رَابِطَةُ «لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ»، فَلَا يَجُوزُ الْبَتَّةَ الْبِدَاءُ بِرَابِطَةٍ غَيْرِهَا» (3)

1- رواه أحمد في مسنده برقم 8090 وهو في "مصنف عبد الرزاق" (9573)، ومن طريقه أخرجه البخاري (3062)، ومسلم (111) (178) ورواه الدارمي في مسنده (سننه) برقم 2559 وهو صحيح

2 قال الشنقيطي: رَوَاهُ الطَّبْرَانِيُّ وَالْحَاكِمُ فِي الْمُسْتَدْرَكِ، وَجَعَلَ عَلَيْهِ صَاحِبُ الْجَامِعِ الصَّغِيرِ عَلَامَةً الصِّحَّةِ، وَضَعَهُ الْخَافِضُ الدَّهَبِيُّ، وَقَالَ الْهَيْثَمِيُّ فِيهِ، عِنْدَ الطَّبْرَانِيِّ كَثِيرٌ بَنُ عَبْدِ اللَّهِ الْمُرْنِيُّ ضَعَفَهُ الْجُمُهورُ، وَبَقِيَّةُ رَجَالِهِ ثِقَاتٌ.

3 أضواء البيان 47-40/3

أما ما نراه ونسمع اليوم من بعض الناس يرددون فكرة: (نتعاون فيما اتفقنا فيه أو عليه، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه)(1) وجعلوا هذه الفكرة أصل في دعوتهم ويحاولون أن يربطوا بين أفراد بعض المجتمعات والدول العربية الإسلامية. فهذه الفكرة خطيرة على الإسلام والمسلمين وهي التي تهدم الاتباع الحقيقي والعقيدة الإسلامية الصافية، فالدعاة إلى هذه الفكرة يريدون أن يخلطوا الحق بالباطل ويهدم مبدأ الولاء والبراء بين أهل الحق وغيرهم من الكفار والمشركين والفرق الضالة، فلا يمكن أن يجتمع أصحاب الديانات أخرى والفرق الضالة مع أهل السنة إلا على التوحيد الخالص والاتباع الحقيقي فإن لم يكن ذلك فلا بد أن يتنازل إحدى طائفتين عما يعتقدونه وأهل السنة الحق لم ولن يتنازل عما يعتقدونه أبداً لا لغرض سياسي ولا وطني ولا قبلي ولا لينضم إلى جماعة من الناس يعتقدون أشياء تخالف القرآن والسنة وفهم السلف الصالح، وهم يقصدون بـ "نعذر بعضنا بعض فيما اختلفنا فيه" - (العقيدة) - (2) يريدون من أهل حق أن يسكت عن الشرك والبدع والخرافات لمصلحة جمع الناس وتكثير عددهم فهم كما قال تعالى: {الَّذِينَ ضَلَّ سَعْيُهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا} الكهف: 104 هداهم الله، فخلاصة هذه الفكرة هي محاولة التقريب بين الأديان والفرق الضالة، ومزج الحق بالباطل فيريدون من أهل السنة أن يتغاضوا عما يعتقدونه الديانات أخرى من الشرك بالله ومخالفة الرسل والأنبياء وأن يغمضوا أعينهم عما يقولون بعض الفرق الضالة كالرافضة في أن القرآن ناقص أو أن أغلب الصحابة ارتدوا إلا نفرا يسيراً وغير ذلك من الأباطيل أو يسكتون عما يفعلونه بعض الصوفية كعبادة القبور والاستغاثة بالأموات وغيرها من البدع والخرافات.

فهؤلاء الذين اتخذوا هذه الفكرة مبدأ في دعوتهم يدغدغون بها أحاسيس الناس بكلام جميل (بدون التطبيق طبعاً) حول "الإيمان و تطبيق الشرع وإقامة الدولة " ليخدع العوام

1 قيل أن محمد رشيد رضا أول من اصطلح هذه القاعدة الباطلة الشهيرة والمعروفة بـ " قاعدة المنار " وقد تبنّاها حسن أحمد البنا وفرقته (الإخوان المسلمين) وطورها بعد ذلك تلميذه د. محمد الغزالي ، فقال : (نتعاون فيما اتفقنا عليه وهو كثير ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه وهو قليل! ثم أصلها د. يوسف بن عبد الله القرضاوي ، وزعم أن لها ما يقويها من أدلة الكتاب والسنة ، وجعلها من القواعد الرئيسية في التقارب مع الرافضة الإمامية ، ففرحوا بها أشد الفرح وكتبوا في بيانها معانيها مقالات كثيرة.

وأصلها بعده من تربي على عقيدتهم وفكرهم ، فتوسعوا بها توسعاً عجيبياً حتى أصبحت من أسس التقارب ووحدة الأديان مع الأقباط والنصارى واليهود. قال د. سلمان بن فهد العودة - في مقاله " أدب الخلاف : "تفعيل دائرة المتفق عليه ؛ وهذه قاعدة رشيد رضا الشهيرة - قاعدة المنار - كان يقول - رحمه الله - : (نتعاون فيما اتفقنا فيه ، ويعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه) .. وهذه الكلمة ينتقدها كثيرون ويجلبون حولها ، لكن لو نظر إليها الإنسان باعتدال ؛ لوجد أنها قاعدة صحيحة ..انظر: <http://www.qataru.com/vb/archive/index.php/t-65560.html>

2 - وإن كان يقصدون بهذه العبارة المسائل الفقهية فلا بأس بذلك لكن الناظر في الواقع يرى أنهم لا يريدون إلا العقيدة والله أعلم.

و لكسب ثقتهم طائنين الظن السوء أن كثرة عددهم سبب للتمكين والقوة فيقف السني السلفي مع أتباع الديانات الشركية من النصرانية و اليهودية و المجوسية والبوذية والهندوسية من الذين اتخذوا وجعلوا آلهتهم الفروج والبقرة والأصنام والحشرات و عياذ بالله من ذلك و يجتمع مع أتباع الفرق الضالة كالرافضة والصوفية وأصحاب الأهواء لغرض من الأغراض غير اجتماعهم على (لا إله إلا الله محمد رسول الله) والذين يدعو الناس إلى هذه الفكرة الخبيثة فنذكرهم بأن اجتماعهم على هذا لم ولن يغنهم شيئاً وهم أشبه بغثاء كغثاء السيل وعملهم هذا كما قال تعالى: { وَقَدِمْنَا إِلَى مَا عَمِلُوا مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَاهُ هَبَاءً مَنْثُورًا } الفرقان: 23 وضررهم على الإسلام والمسلمين أكثر مما يظنون و الإسلام والمسلمين برآء من أفعالهم وأقوالهم و أفكارهم, فنسأل الله أن يهديهم إلى الحق.

وقد سئل الشيخ العلامة محمد بن صالح العثيمين رحمه الله عن هذه الفكرة, فأجاب: " هذه القاعدة الذهبية ليست قاعدة ذهبية ولا تستحق أن تكون قاعدة، بل ما اتفقنا فيه فهو من نعمة الله عز وجل، والاتفاق خير من الاختلاف، وما اختلفنا فيه فقد يعذر فيه المخالف وقد لا يعذر، فإذا كان الاختلاف في أمر يسوغ فيه الاختلاف فهذا لا بأس به، ولا زال الأئمة يختلفون، فالإمام أحمد والشافعي ومالك وأبو حنيفة كلهم يختلفون، وأما إذا كان الخلاف لا يعذر فيه كالخلاف في العقائد، فإنه لا يعذر بعضنا بعضاً، بل الواجب الرجوع إلى ما دل عليه الكتاب والسنة، فعلى المرجئة وعلى الشيعة وعلى كل مبتدع أن يرجع إلى الكتاب والسنة ولا يعذر، فهذه القاعدة ليست قاعدة ذهبية، ولعلك تسميها قاعدة خشبية. عرفت الآن الذي يسوغ فيه الاجتهاد، هذا لا بأس أن نسمح للمخالف، والذي لا يسوغ فيه الاجتهاد كمسائل العقائد التي يخالف فيها الإنسان السلف لا يمكن أن يعذروا." (1)

وقال الشيخ العلامة محدث بلاد الشام الإمام محمد ناصر الدين بن نوح الألباني: قال - رحمه الله تعالى - في رده على من يقول بها : (هم أول من يخالف هذه الفقرة ، ونحن لا نشك بأن شطراً من هذه الكلمة صواب ، وهو : (نتعاون على ما اتفقنا عليه)

الجملة الأولى هي - طبعاً - مقتبسة من قوله تعالى : { وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى }

أما الجملة الأخرى : (يعذر بعضنا بعضاً) ، لا بد من تقييدها ... متى ؟ حينما نتناصح ، ونقول لمن أخطأ : أخطأت ، والدليل كذا وكذا ، فإن رأيناه ما اقتنع ، ورأيناه مخلصاً ، فدعاه وشأنه ، فنتعاون معه فيما اتفقنا عليه.

أما إذا رأيناه عاند واستكبر وولى مدبراً ، فحينئذ ، لا تصح هذه العبارة ، ولا يعذر بعضنا بعضاً فيما اختلفنا فيه " (2)

وقال دكتور ربيع بن هادي عمير المدخلي مجيباً على سؤال ورد: "فهذا الذي عارض ؛ يعني أرى أنه جاهل وأنه يجمع بين التصوف وبين الإخوانية ؛ لأن " الإخوان

1- لقاء الباب المفتوح #75 ص25

2- (مجلة الفرقان التراثية العدد : 77)

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

المسلمون هم الذين يقولون : نتعاون فيما اتفقنا عليه ، ويعذر بعضنا بعضا فيما اختلفنا فيه. وهم الذين يقولون : إيمان ، إيمان ، ولا يستطيعون أن يقولوا : التوحيد والشرك ؛ لأن كلمة إيمان لما يقولها يحضر اليهودي ، والنصراني ، وغيرهم ، ولا يخجل ، ولا يستاء . الإيمان بالله ، الإيمان باليوم الآخر ، الإيمان بكذا يصدق اليهودي ، والنصراني ، ولا يغضب. لكن لما تدخله في توحيد الألوهية وتقول : عيسى عبد الله ورسوله ليس ابن الله ، فيغضبون ويحاربونك وينفضوا عنك! إذا أحببت أن تكسبهم قل لهم : إيمان ، إيمان فقط ، لا تتعرض للعقيدة ولا تتعرض لتوحيد العبادة ؛ يعني القبوريين لو تقول لهم : إيمان ، إيمان يصفقون لك . لكن لو قلت : البدوي ، الرفاعي لا يذبح له ، لا يدعى ، لا يُنذر له . فيحاربونك.

قال تعالى : {وَإِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَحْدَهُ اشْمَأَزَّتْ قُلُوبُ الَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِالْآخِرَةِ وَإِذَا ذُكِرَ الَّذِينَ مِنْ دُونِهِ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ} الزمر:45 هذه قاعدة قديمة ومستمرة في أهل الضلال ، وإن كنا لا نكفر هذه النوعيات السيئة التي أساءت إلى الإسلام بمواقفها وحروبها ، فهذا كلام سيء على صاحب هذا الموقف أن يتوب إلى الله ، وأن يعود من جديد لدراسة الإسلام" (1)

فنرجو من كل من تبني هذه الفكرة الخبيثة في دعوته أن يرجع إلى الحق و يبني دعوته على الشهادتين و هي القاعدة الذهبية والركن الأساس الذي يجمع جميع المسلمين في العالم .

¹ (فتاوى في العقيدة والمنهج للشيخ ربيع بن هادي المدخلي ، الحلقة الثانية : جمع الأخ الفاضل فواز الجزائري.)

الفصل الحادي عشر

الآثار السيئة لترك الاتباع وأنه من أسباب هلاك أصحابها وسبب
الفتنة في الدنيا والآخرة

أ- أن ترك الاتباع قد يزيغ القلب ويحرفه عن الهدى:

قال تعالى: {فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ} الصف:5

و قال أبو بكر الصديق: " لَسْتُ تَارِكًا شَيْئًا، كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَعْمَلُ بِهِ إِلَّا عَمَلْتُ بِهِ، فَإِنِّي أَخْشَى أَنْ تَرَكَتُ شَيْئًا مِنْ أَمْرِهِ أَنْ أَزِيغَ" (1)

ب- ترك الاتباع قد يؤدي إلى الشرك والكفر وإبطال الأعمال والفتنة وعذال اليم في الدنيا والآخرة:

قال تعالى: {قُلْ أَطِيعُوا اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَإِنْ تَوَلَّوْا فَإِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْكَافِرِينَ} آل عمران: 32

قال تعالى: {أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَلَا تُبْطِلُوا أَعْمَالَكُمْ} محمد: 33

وقال تعالى: {فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} النور: 63 و الفتنة: الشرك

ت- عدم الاتباع والتسليم يؤدي إلى العاهات في الجسد (2):

قد ثبت عن سلمة بن الأكوع، أَنَّ أَبَاهُ، حَدَّثَهُ أَنَّ رَجُلًا أَكَلَ عِنْدَ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِشِمَالِهِ، فَقَالَ: «كُلْ بِيَمِينِكَ»، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ، قَالَ: «لَا اسْتَطَعْتَ»، مَا مَنَعَهُ إِلَّا الْكِبَرُ، قَالَ: فَمَا رَفَعَهَا إِلَى فِيهِ (3)

وَعَنْ أَبِي حُمَيْدٍ السَّاعِدِيِّ، قَالَ: غَزَوْنَا مَعَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ غَزْوَةَ تَبُوكَ، فَلَمَّا جَاءَ وَادِي الْفُرَى إِذَا امْرَأَةٌ فِي حَدِيقَةٍ لَهَا، فَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ لِأَصْحَابِهِ: «اخْرُصُوا»، وَخَرَصَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَشْرَةَ أُوسُقٍ، فَقَالَ لَهَا: «أَحْصِي مَا يَخْرُجُ مِنْهَا» فَلَمَّا أَتَيْنَا تَبُوكَ قَالَ: «أَمَّا إِنَّهَا سَتَهُبُ اللَّيْلَةَ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَلَا يَقُومَنَّ أَحَدٌ،

1 - البخاري كتاب فرض الخمس رقم 3092, 3093 من حديث عائشة

2 فقد بوب الإمام الدارمي بابا "بَابُ تَعْجِيلِ عُقُوبَةِ مَنْ بَلَغَهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَدِيثٌ فَلَمْ يُعْظِمْهُ وَلَمْ يُوقِّرْهُ"

3 صحيح مسلم كتاب الأشربة باب آداب الطعام والشراب وأحكامهما 2021

وَمَنْ كَانَ مَعَهُ بَعِيرٌ فَلْيَعْقِلْهُ» فَعَقَلْنَاهَا، وَهَبَّتْ رِيحٌ شَدِيدَةٌ، فَقَامَ رَجُلٌ، فَأَلْقَتْهُ بِجَبَلٍ طَيِّءٍ...» (1)

وَجَاءَ رَجُلٌ إِلَى سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ يُودِّعُهُ بِحَجٍّ أَوْ عُمْرَةٍ فَقَالَ لَهُ: لَا تَبْرَحْ حَتَّى تُصَلِّيَ، فَإِنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: «لَا يَخْرُجُ بَعْدَ النِّدَاءِ مِنَ الْمَسْجِدِ إِلَّا، مُنَافِقٌ، إِلَّا رَجُلٌ أَخْرَجَتْهُ حَاجَةٌ، وَهُوَ يُرِيدُ الرَّجْعَةَ إِلَى الْمَسْجِدِ» فَقَالَ: إِنَّ أَصْحَابِي بِالْحَرَّةِ قَالَ: فَخَرَجَ، قَالَ: فَلَمْ يَزَلْ سَعِيدٌ يُؤَلِّعُ بِذِكْرِهِ، حَتَّى أَخْبَرَ أَنَّهُ وَقَعَ مِنْ رَاحِلَتِهِ فَأَنْكَسَرَتْ فَخَذَهُ» (2)

وَعَنْ عِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، قَالَ: «نَهَى النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَنِ الْكَيِّ فَاكْتَوَيْنَا، فَمَا أَفْلَحْنَا، وَلَا أَنْجَحْنَا» قَالَ أَبُو دَاوُدَ: «وَكَانَ يَسْمَعُ تَسْلِيمَ الْمَلَائِكَةِ فَلَمَّا اكْتَوَى انْقَطَعَ عَنْهُ فَلَمَّا تَرَكَ رَجَعَ إِلَيْهِ» (3)

ج- ترك الاتباع يكون سبباً في قطع الخير عن العبد:

وَقَدْ رُوِيَ عَنِ ابْنِ عَبَّاسٍ: " أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: نَهَاهُمْ أَنْ يَطْرُقُوا النِّسَاءَ لَيْلًا " قَالَ: «فَطَرَقَ رَجُلَانِ بَعْدَ نَهْيِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَوَجَدَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا مَعَ امْرَأَتِهِ رَجُلًا» (4)

عَنِ ابْنِ الْمُسَيَّبِ، عَنْ أَبِيهِ: أَنَّ أَبَاهُ جَاءَ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ: «مَا اسْمُكَ» قَالَ: حَزْنٌ، قَالَ: «أَنْتَ سَهْلٌ» قَالَ: لَا أَعْيُرُ اسْمًا سَمَانِيهِ أَبِي قَالَ ابْنُ الْمُسَيَّبِ: «فَمَا زَالَتْ الْحُزُونَةُ فِينَا بَعْدُ» (5)

د- ترك الاتباع ورفع كلام الناس فوق كلامه مؤذن بإحباط العمل:

قال تعالى: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَرْفَعُوا أَصْوَاتَكُمْ فَوْقَ صَوْتِ النَّبِيِّ وَلَا تَجْهَرُوا لَهُ بِالْقَوْلِ كَجَهْرِ بَعْضِكُمْ لِبَعْضٍ أَنْ تَحْبَطَ أَعْمَالُكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تَشْعُرُونَ} الحجرات: 2

وقال الشيخ محمد الأمين الشنقيطي: " فَعَلَيْنَا مَعَاشِرَ الْمُسْلِمِينَ أَنْ نَتَأَمَّلَ هَذِهِ الْآيَاتِ الْقُرْآنِيَّةَ وَنَعْتَقِدَ مَا تَضَمَّنَتْهُ وَنَعْمَلَ بِهِ لِنَكُونَ بِذَلِكَ مُطِيعِينَ لِلَّهِ تَعَالَى وَلِرَسُولِهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ

1 صحيح البخاري كتاب الزكاة، باب خرص النمر 1481

2 سنن الدارمي رقم 460 وإسناده حسن

3 أبو داود كتاب الطب باب في الكي 3865 وهو صحيح

4 الترمذي أبواب الاستئذان و الأداب باب ما جاء في كراهية طروق الرجل أهله ليلا 2712 و قال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح

5 صحيح البخاري كتاب الأدب باب اسم الحزن 6190

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

وَسَلَّمَ - مُعْظَمِينَ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ ; لِأَنَّ أَعْظَمَ أَنْوَاعِ تَعْظِيمِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ اتِّبَاعُهُ وَالْإِقْتِدَاءُ بِهِ... (1)

س- ترك الاتباع ومخالفته توجب النار والعذاب الأليم:

قال تعالى: {وَمَنْ يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا} النساء: 115

وأهل البدع كلهم الذين يشاققون الرسول من بعد ما تبين لهم الهدى ويتبعون غير سبيل المؤمنين من الصحابة والتابعين لهم بإحسان، فيصيبهم من الفتنة أو العذاب بقدر مشاقتهم ومخالفتهم للرسول واتباعهم غير سبيل المؤمنين، ويصيبهم من الذل والهوان في الدنيا والآخرة بقدر ذلك.

ص- طاعة الله وطاعة الرسول متعلقتان بالإيمان فمن لم يطع الله ورسوله فهو ليس بمؤمن:

وقال تعالى: {يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنْفَالِ قُلِ الْأَنْفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ} الأنفال: 1

ف- الاتباع سبب للألفة والوحدة وهما سببان للقوة والاختلاف والتنازع وترك الاتباع من أسباب الفشل والضعف وذهاب القوة:

قال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} الأنفال: 46

ك- ترك الاتباع سبب الوقوع في الضلالة:

قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا لِمُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} الأحزاب: 36

ونختتم هذا الفصل بكلام الشيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "كما أن مخالفة الرسول ومعصيته والإعراض عن سنته سبيل إلى عقوبة الله تعالى ببتّر شأني الرسول ومخالفه " مَا أَجْلَهَا مِنْ سُورَةٍ (سورة الكوثر) وَأَغْزُرُ فَوَائِدَهَا عَلَى اخْتِصَارِهَا وَحَقِيقَةُ مَعْنَاهَا تُعْلَمُ مِنْ آخِرِهَا فَإِنَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى بَتْرُ شَأْنِي رَسُولِهِ مِنْ كُلِّ خَيْرٍ فَيَبْتَرُ ذِكْرَهُ وَأَهْلَهُ وَمَالَهُ فَيَحْسُرُ ذَلِكَ فِي الْآخِرَةِ وَيَبْتَرُ حَيَاتَهُ فَلَا يَنْتَفِعُ بِهَا وَلَا يَتَرَوَّدُ فِيهَا صَالِحًا لِمَعَادِهِ وَيَبْتَرُ قَلْبَهُ فَلَا يَبْعِي الْخَيْرَ وَلَا يُؤْهِلُهُ لِمَعْرِفَتِهِ وَمَحَبَّتِهِ وَالْإِيمَانِ بِرُسُلِهِ وَيَبْتَرُ أَعْمَالَهُ فَلَا يَسْتَعْمِلُهُ فِي طَاعَةٍ وَيَبْتَرُهُ مِنَ الْأَنْصَارِ فَلَا يَجِدُ لَهُ نَاصِرًا وَلَا عَوْنًا. وَيَبْتَرُهُ مِنْ جَمِيعِ الْقُرْبِ وَالْأَعْمَالِ

الصَّالِحَةِ فَلَا يَذُوقُ لَهَا طَعْمًا وَلَا يَجِدُ لَهَا حَلَاوَةً وَإِنْ بَاشَرَهَا بِظَاهِرِهِ فَقَلْبُهُ شَارِدٌ عَنْهَا. وَهَذَا جَزَاءُ مَنْ شَتَّى بَعْضَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَرَدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاهُ أَوْ مَتْبُوعِهِ أَوْ شَيْخِهِ أَوْ أَمِيرِهِ أَوْ كَبِيرِهِ... وَمَنْ أَقْوَى عِلَامَاتِ شَتَائِهِ لَهَا وَكَرَاهَتِهِ لَهَا أَنَّهُ إِذَا سَمِعَهَا جِئْنَ يَسْتَدِلُّ بِهَا أَهْلُ السُّنَّةِ عَلَى مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِنَ الْحَقِّ اشْمَازٍ مِنْ ذَلِكَ وَحَادٍ وَنَفَرَ عَنْ ذَلِكَ لِمَا فِي قَلْبِهِ مِنَ الْبُغْضِ لَهَا وَالتُّفَرَةِ عَنْهَا فَأَيُّ شَانِيٍّ لِلرَّسُولِ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَكَذَلِكَ أَهْلُ السَّمَاعِ الَّذِينَ يَرْفُصُونَ عَلَى سَمَاعِ الْغَنَاءِ وَالْقَصَائِدِ وَالْدُّفُوفِ وَالشَّبَابَاتِ إِذَا سَمِعُوا الْقُرْآنَ يُنَلِّى وَيُقْرَأُ فِي مَجَالِسِهِمْ اسْتَطَالُوا ذَلِكَ وَاسْتَنْقَلَوْهُ فَأَيُّ شَتَانٍ أَعْظَمُ مِنْ هَذَا وَقَسَّ عَلَى هَذَا سَائِرَ الطَّوَائِفِ فِي هَذَا الْبَابِ. وَكَذَا مِنْ أَثَرِ كَلَامِ النَّاسِ وَعُلُومِهِمْ عَلَى الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ... فَالْحَذَرُ الْحَذَرُ أَيُّهَا الرَّجُلُ مِنْ أَنْ تَكْرَهَ شَيْئًا مِمَّا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ تَرُدَّهُ لِأَجْلِ هَوَاكَ أَوْ انْتِصَارًا لِمَذْهَبِكَ أَوْ لِشَيْخِكَ أَوْ لِأَجْلِ اسْتِغَالِكَ بِالشَّهَوَاتِ أَوْ بِالذُّنُوبِ فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يُوجِبْ عَلَى أَحَدٍ طَاعَةَ أَحَدٍ إِلَّا طَاعَةَ رَسُولِهِ وَالْأَخَذَ بِمَا جَاءَ بِهِ بِحَيْثُ لَوْ خَالَفَ الْعَبْدُ جَمِيعَ الْخَلْقِ وَاتَّبَعَ الرَّسُولَ مَا سَأَلَهُ اللَّهُ عَنْ مُخَالَفَةِ أَحَدٍ فَإِنَّ مَنْ يُطِيعُ أَوْ يُطَاعُ إِنَّمَا يُطَاعُ... فَاعْلَمْ ذَلِكَ وَاسْمَعْ وَأَطِعْ وَاتَّبِعْ وَلَا تَبْتَدِعْ. تَكُنْ أَبْتَرَّ مَرْدُودًا عَلَيْكَ عَمَلُكَ بَلْ لَا خَيْرَ فِي عَمَلٍ أَبْتَرَّ مِنَ الْإِتِّبَاعِ وَلَا خَيْرَ فِي عَامِلِهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (1)

ل- عدم الاستجابة والاتباع للرسول يدل على أن الشخص يتبع هواه:

{فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكَ فَاعْلَمْ أَنَّمَا يَتَّبِعُونَ أَهْوَاءَهُمْ وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّنْ اتَّبَعَ هَوَاهُ بِغَيْرِ هُدًى مِنَ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ} القصص: 50

الفصل الثاني عشر

ترك الاتباع يؤدي إلى التفرق والاختلاف وتسلب الأعداء على المسلمين وذهاب قوتهم

يلاحظ العاقل في آيات القرآن الكريم أن الآيات التي جاءت في ذم الفرقة أكثر عدداً من الآيات التي جاءت في الحث على الجماعة، ولا غرابة في ذلك لأن الجماعة هي الأصل وملازمتها هو الواجب والمطلوب، أما مفارقة الجماعة فأمر طارئ وحادث وهو مع ذلك أمر خطير وشنيع، فلذلك جاءت الآيات الكثيرة التي تحذر منه وتحمل في ثناياها الوعيد الشديد لمن ترك الجماعة وفارقها.

قد ذم الله تعالى الاختلاف و التنازع و نهى عنهما في مواضع كثيرة من كتابه قال تعالى: {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ فُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ} آل عمران: 103

و قال تعالى: {وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ} الانعام: 153

و قال تعالى: {كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنْذِرِينَ وَأَنْزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِيُخَكِّمَ بَيْنَ النَّاسِ فِيمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ وَمَا اخْتَلَفَ فِيهِ إِلَّا الَّذِينَ أُوتُوهُ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَتْهُمْ الْبَيِّنَاتُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ فَهَدَى اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا لِمَا اخْتَلَفُوا فِيهِ مِنَ الْحَقِّ بِإِذْنِهِ وَاللَّهُ يَهْدِي مَنْ يَشَاءُ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ} البقرة: 213

و قال تعالى: {إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ إِلَّا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًا بَيْنَهُمْ وَمَنْ يَكْفُرْ بِآيَاتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ} آل عمران: 19
و قال تعالى: {ذَلِكَ بَأْسَ اللَّهِ أَنْ نَزَلَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ} البقرة: 176

و قال تعالى: {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران: 105

و برأ الله من التفریق و التفرق و الاختلاف في الدين و قال تعالى: {إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا أَلَسْتُ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ} الانعام: 159

و قال تعالى: {شَرَعَ لَكُمْ مِنَ الدِّينِ مَا وَصَّى بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَى وَعِيسَى أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَنْ يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ يُنِيبُ} الشورى: 13

و قال تعالى في غزاة أحد: {...حَتَّى إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَارَعَتُمْ فِي الْأَمْرِ...} آل عمران: 152
و قال تعالى في غزاة بدر: {إِذْ يُرِيكُهُمُ اللَّهُ فِي مِائِمَةٍ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَاكُهُمْ كَثِيرًا لَفَشِلْتُمْ وَتَنَارَعَتُمْ فِي الْأَمْرِ وَلَكِنَّ اللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ} الأنفال: 43

قال تعالى: { وَلَوْ شَاءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ النَّاسَ أُمَّةً وَاحِدَةً وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ وَلِذَلِكَ خَلَقَهُمْ } هود: 118-119.

و قال تعالى: { فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لَا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (30) مُنِيبِينَ إِلَيْهِ وَاتَّقُوهُ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ وَلَا تَكُونُوا مِنَ الْمُشْرِكِينَ (31) مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ فَرِحُونَ } الروم: 30-32

قال العلامة عبدالرحمن بن ناصر السعدي رحمه الله : "أمركم أن تقيموا جميع شرائع الدين أصوله وفروعه، تقيمونه بأنفسكم، وتجتهدون في إقامته على غيركم، وتعاونون على البر والتقوى ولا تعاونون على الإثم والعدوان. { وَلَا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ } أي: ليحصل منكم الاتفاق على أصول الدين وفروعه، واحرصوا على أن لا تفرقكم المسائل وتحزبكم أحزاباً، وتكونون شيعاً يعادي بعضهم بعضاً مع اتفاقكم على أصل دينكم." (1)

قال ابن جرير في قوله تعالى { وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ (105) يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكْفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ } آل عمران: 105-107 يقول جل ثناؤه: "فلا تفرقوا يا معشر المؤمنين في دينكم تفرق هؤلاء في دينهم، ولا تفعلوا فعلهم، وتستنوا في دينكم بسنتهم، فيكون لكم من عذاب الله العظيم مثل الذي لهم... ونحو هذا في القرآن أمر الله جل ثناؤه المؤمنين بالجماعة، فنهاهم عن الاختلاف والفرقة، وأخبرهم إنما هلك من كان قبلهم بالمرء والخصومات في دين الله" (2)

وقال القرطبي رحمه الله: "فمن بدل أو غير أو ابتدع في دين الله ما لا يرضاه الله ولم يأذن به الله فهو من المطرودين عن الحوض المبتعدين منه المسودي الوجوه، وأشدهم طرداً وإبعاداً من خالف جماعة المسلمين وفارق سبيلهم، كالخوارج على اختلاف فرقها، والروافض على تباين ضلالها، والمعتزلة على أصناف أهوائها، فهؤلاء كلهم مبدلون ومبتدعون، وكذلك الظلمة المسرفون في الجور والظلم وطمس الحق وقتل أهله وإذلالهم، والمعلنون بالكبائر المستخفون بالمعاصي، وجماعة أهل الزيغ والأهواء والبدع، كل يخاف عليهم أن يكونوا عنوا بالآية، والخبر كما بينا، ولا يخلد في النار إلا كافر جاحد ليس في قلبه مثقال حبة خردل من إيمان. وقد قال ابن القاسم: وقد يكون من غير أهل الأهواء من هو شر من أهل الأهواء. وكان يقول: تمام الإخلاص تجنب المعاصي." (3)

وقال الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: "هم اليهود والنصارى عند جمهور المفسرين، وقيل: هم المبتدعة من هذه الأمة، وقيل: الحرورية، والظاهر الأول،

1 - تيسير الكريم الرحمن ص754 وانظر تفسير الطبري

2 تفسير الطبري "جامع البيان 92/7

3 -الجامع لأحكام القرآن للقرطبي 168/4

والبيانات الآيات الواضحة المبينة للحق الموجبة لعدم الاختلاف" (1) قال ابن جرير في تفسير (الأنعام: 153) رحمه الله: {فتفرق بكم عن سبيله} يقول: فيشتت بكم إن اتبعتم السبل المحدثه التي ليست لله بسبل ولا طرق، ولا أديان أتباعكم إياها {عن سبيله}، يعني عن طريقه ودينه الذي شرعه لكم وارتضاه، وهو الإسلام الذي وصى به الأنبياء وأمر به الأمم قبلكم" (2) وقال ابن كثير رحمه الله: "أمر الله المؤمنين بالجماعة ونهاهم عن الاختلاف والتفرقة وأخبرهم أنه إنما هلك من كان قبلهم بالمراء والخصومات في دين الله ونحو هذا. قاله مجاهد وغير واحد..." (3) وقال الشوكاني رحمه الله في تفسير الآية: "قال ابن عطية: وهذه السبل تعم اليهودية والنصرانية، والمجوسية وسائر أهل الملل وأهل البدع والضلالات من أهل الأهواء والشذوذ في الفروع وغير ذلك من أهل التعمق في الجدل والخوض في الكلام، هذه كلها عرضة للزلل ومظنة لسوء المعتقد" (4) وقال تعالى: {وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ} الانفال: 46 والتنازع: التخالف والاختلاف والتخاصم. والوشل: الوهن والإعياء والجبن وانحطاط القوة، مادية أو معنوية . ويلاحظ أن الخطاب القرآني قد ربط بين هذه المعاني، ورتب بعضها على بعض؛ ربط النتيجة بسببها، وترتب المعلول على علته؛ وهذا شأن منهج القرآن الكريم في كثير من آياته فقوله تعالى {ولا تنازعوا فتفشلوا} إخبار واضح، ونهي جازم، وسنة ثابتة، يدل على أن الفشل والتراجع - على مستوى الأمة أو الأفراد - إنما مرجعه إلى التنازع والاختلاف؛ إذ العلاقة بين الأمرين علاقة تلازمية، كعلاقة السبب بالمسبب تماماً، وعلى هذا، فإن النهي عن التنازع يقتضي الأمر بمنع أسباب التنازع وموجباته، من شقاق واختلاف وافتراق؛ والأمر بتحصيل أسباب التفاهم ومحصلاته، من تشاور وتعاون ووفاء. ولما كان التنازع من شأنه أن ينشأ عن اختلاف الآراء والتوجهات، وهو أمر مركوز في الفطرة والجيلة البشرية، بسط القرآن القول فيه ببيان سيئ آثاره، ومغبة مآله، ورتب عليه في الآية هنا أمرين: الفشل {فتفشلوا} وذهاب القوة {وتذهب ريحكم} والفشل في الآية هنا على حقيقته، إذ يعني الفشل في مواجهة العدو ومدافعتة؛ وذهاب الريح في الآية، كناية عن ذهاب القوة، والدخول في حالة الضعف والوهن. وإنما كان التنازع

1 -فتح القدير للشوكاني 423/1

2 -جامع البيان 229/12

3 تفسير ابن كثير 456/5

4 -فتح القدير 203/2

مفضيًّا إلى الفشل، لأنه يُثير التباغض والشحناء، ويُزيل التعاون والألفة بين النفوس، ويدفع بها إلى أن يتربص بعضها ببعض، ويمكر كل طرف بالآخر، مما يُطمع الأعداء فيها، ويشجعهم على النيل منها، ويجرئهم على خرق حرمانها، واختراق محارمها. وكم أُتيت أمة الإسلام على مر تاريخها - القديم والحديث - من جهة التنازع والتباغض، مع وضوح النص وصراحته في النهي عن هذا.

ومن ثمَّ، جاء صدر الآية أمرًا بطاعة الله ورسوله، إذ بطاعتها تُتلاشى أسباب التنازع والاختلاف، وبالتزام أمرهما تتجمع أسباب النصر المادي والمعنوي؛ فما يتنازع الناس إلا حين تتعدد جهات القيادة والتوجيه، وحين يكون الهوى المطاع هو الموجِّه الأساس للآراء والأفكار، فإذا استسلم الناس لأمر الله ورسوله، وجعلوا أهواءهم على وَفْق ما يحب الله ورسوله انتفى النزاع والتنازع بينهم، وسارت الأمور على سَنَنِ الشرع الحنيف، وضُبُطت بأحكامه وتوجيهاته .

على أنه من المهم هنا حمل (الفشل) في الآية على معنى أعم وأوسع، بحيث يشمل الفشل في أمور الحياة كافة، الاقتصادية والاجتماعية والسياسية، بحيث لا يقتصر الفشل على ساحات الوغى والقتال فحسب - كما هو السبب الذي وردت لأجله الآية الكريمة - وهو معنى لا تأباه اللغة، ولا يمنعه الشرع؛ وهذا أولى بفهم الآية، كما يُعلم ذلك من تتبع مقاصد القرآن، ووكلياته الأساسية.

وحاصل القول في الآية: أن الاختلاف والتنازع عاقبته الفشل والخسران، وأن التعاون والوفاق سبب للفوز والنجاح في الدنيا والآخرة؛ والقارئ لتاريخ الأمم والشعوب - بما فيها تاريخ أمتنا الإسلامية - لا يعجزه أن يقف على العديد من الأحداث والشواهد والمشاهد - وعلى المستويات كافة - التي تصدق ما أخبر به القرآن الكريم. وصدق الله إذ يقول: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا﴾ آل عمران: 103 فهل يعمل المسلمون بهذا الأمر الإلهي، أم ما زالوا عنه غافلين؟

وقد ذم ونهى النبي صلى الله عليه وسلم عن التفرق والاختلاف كذلك:

- 1- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، قَالَ : خَطَبَنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقَالَ : أَيُّهَا النَّاسُ قَدْ فَرَضَ اللَّهُ عَلَيْكُمُ الْحَجَّ ، فَحُجُّوا ، فَقَالَ رَجُلٌ : أَكُلَّ عَامٍ يَا رَسُولَ اللَّهِ ، ؟ فَسَكَتَ حَتَّى قَالَهَا ثَلَاثًا ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : لَوْ قُلْتُ : نَعَمْ لَوَجَبَتْ ، وَلَمَّا اسْتَطَعْتُمْ ، ثُمَّ قَالَ : ذَرُونِي مَا تَرَكْتُكُمْ ، فَإِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِكَثْرَةِ سُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِشَيْءٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ ، وَإِذَا نَهَيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَدَعُوهُ. (1)
- 2- حَدَّثَنَا أَبُو عِمْرَانَ الْجَوْنِيُّ ، قَالَ : كَتَبَ إِلَيَّ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ رَبَاحٍ الْأَنْصَارِيُّ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ عَمْرٍو ، قَالَ : هَجَرْتُ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَوْمًا ، قَالَ : فَسَمِعَ أصْوَاتَ

- رَجُلَيْنِ اخْتَلَفَا فِي آيَةٍ ، فَخَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يُعْرِفُ فِي وَجْهِهِ الْغَضَبُ ، فَقَالَ : إِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ ، بِاخْتِلَافِهِمْ فِي الْكِتَابِ. (1)
- 3- عَنْ جُنْدَبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ : « اقْرَءُوا الْقُرْآنَ مَا انْتَلَفْتُمْ قُلُوبُكُمْ ، فَإِذَا اخْتَلَفْتُمْ فَقُومُوا عَنْهُ » (2)
- 4- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، أَنَّهُ سَمِعَ رَجُلًا يَقْرَأُ آيَةً سَمِعَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خِلَافَهَا ، فَأَخَذَتْ يَدَيْهِ ، فَأَنْطَلَقَتْ بِهِ إِلَى النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ : « كِلَاكُمَا مُحْسِنٌ فَاقْرَأْ » أَكْبَرُ عِلْمِي ، قَالَ : « فَإِنْ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ اخْتَلَفُوا فَأَهْلِكُوا » (3)
- 5- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ ، عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، قَالَ : « دَعُونِي مَا تَرَكَتُكُمْ ، إِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ بِسُؤَالِهِمْ وَاخْتِلَافِهِمْ عَلَى أَنْبِيَائِهِمْ ، فَإِذَا تَهَيَّيْتُكُمْ عَنْ شَيْءٍ فَاجْتَنِبُوهُ ، وَإِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ » (4)
- 6- عَنْ عَبْدِ اللَّهِ ، قَالَ : ((أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، سُورَةَ الرَّحْمَنِ ، فَخَرَجْتُ إِلَى الْمَسْجِدِ عَشِيَّةً ، فَجَلَسَ إِلَيَّ رَهْطٌ ، فَقُلْتُ لِرَجُلٍ : اقْرَأْ عَلَيَّ . فَإِذَا هُوَ يَقْرَأُ أَحْرَفًا لَا أَفْرُوهَا ، فَقُلْتُ : مَنْ أَقْرَأَكَ ؟ فَقَالَ : أَقْرَأَنِي رَسُولُ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ . فَاَنْطَلَقْنَا حَتَّى وَقَفْنَا عَلَى النَّبِيِّ ؛ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَقُلْتُ : اخْتَلَفْنَا فِي قِرَاءَتِنَا . فَإِذَا وَجْهُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فِيهِ تَغَيُّرٌ ، وَوَجَدَ فِي نَفْسِهِ حِينَ ذَكَرْتُ الْاِخْتِلَافَ ، فَقَالَ : " إِنَّمَا هَلَاكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِالْاِخْتِلَافِ " فَأَمَرَ عَلِيًّا فَقَالَ : إِنَّ رَسُولَ اللَّهِ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، يَأْمُرُكُمْ أَنْ يَقْرَأَ كُلُّ رَجُلٍ مِنْكُمْ كَمَا عُلِّمَ ، فَإِنَّمَا أَهْلَاكَ مَنْ قَبْلَكُمْ بِالْاِخْتِلَافِ ، قَالَ فَاَنْطَلَقْنَا وَكُلُّ رَجُلٍ مِنْهَا يَقْرَأُ حَرْفًا لَا يَقْرَأُ صَاحِبَهُ.)) (5)
- 7- عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، عَنْ أَبِيهِ ، عَنْ جَدِّهِ ، قَالَ : خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ عَلَى أَصْحَابِهِ ، وَهُمْ يَخْتَصِمُونَ فِي الْقَدَرِ ، فَكَانَتْ يَفْقَهُ فِي وَجْهِهِ ، حُبُّ الرُّمَّانِ مِنَ الْغَضَبِ ، فَقَالَ : « بِهَذَا أَمَرْتُمْ ، أَوْ لِهَذَا خُلِقْتُمْ ، تَضْرِبُونَ الْقُرْآنَ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ ، بِهَذَا هَلَكْتَ الْأُمَّةُ قَبْلَكُمْ » قَالَ : فَقَالَ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عَمْرٍو ، مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِمَجْلِسٍ تَخَلَّفْتُ فِيهِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، مَا غَبَطْتُ نَفْسِي بِذَلِكَ الْمَجْلِسِ وَتَخَلَّفِي عَنْهُ. " (6)
- 8- عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَدِّهِ أَنَّ نَفَرًا كَانُوا جُلُوسًا بِبَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا وَقَالَ بَعْضُهُمْ أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ كَذَا وَكَذَا فَسَمِعَ ذَلِكَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَخَرَجَ كَأَنَّمَا فَقِيَ فِي وَجْهِهِ حُبُّ الرُّمَّانِ فَقَالَ بِهَذَا أَمَرْتُمْ

1 - مسلم كتاب العلم باب النهي عن الاختلاف في القرآن برقم 6870

2 - البخاري في كتاب فضائل القرآن باب اقرءوا القرآن ما انتلفت عليه قلوبكم برقم 5060

3 - البخاري كتاب فضائل القرآن باب اقرءوا القرآن ما انتلفت عليه قلوبكم برقم 5062

4 - البخاري كتاب الاعتصام بالكتاب و السنة باب الاقتداء بسنن النبي صلى الله عليه و سلم

5 - صحيح ابن حبان باب ذكر الزجر عن العتب على من قرأ بحرف من الأحراف السبعة 22/3

برقم 748 و هو حسن

6 - سنن ابن ماجه باب في القدر برقم 85 و قال الألباني حسن صحيح

أَوْ بِهِذَا بُعِثْتُمْ أَنْ تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بِغَضِّهِ بِبَعْضِ إِنَّمَا ضَلَّتْ الْأُمَمُ قَبْلَكُمْ فِي مِثْلِ هَذَا إِنَّكُمْ لَسْتُمْ مِمَّا هَاهُنَا فِي شَيْءٍ انْظُرُوا الَّذِي أَمَرْتُمْ بِهِ فاعْمَلُوا بِهِ وَالَّذِي نُهَيْتُمْ عَنْهُ فَانْتَهُوا)) (1)

9- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ قَالَ: خَرَجَ عَلَيْنَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَنَحْنُ نَتَنَازَعُ فِي الْقَدْرِ فَعَصِبَ حَتَّى احْمَرَّتْ وَجْهُهُ، حَتَّى كَانَمَا فُقِئَ فِي وَجْنَتَيْهِ الرُّمَانُ، فَقَالَ: «أَبْهَذَا أَمَرْتُمْ أَمْ بِهِذَا أُرْسِلْتُ إِلَيْكُمْ؟ إِنَّمَا هَلَكَ مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ حِينَ تَنَازَعُوا فِي هَذَا الْأَمْرِ، عَزَمْتُ عَلَيْكُمْ أَلَّا تَتَنَازَعُوا فِيهِ» (2)

10- عَنْ أَبِي أَمَامَةَ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «مَا ضَلَّ قَوْمٌ بَعْدَ هُدًى كَانُوا عَلَيْهِ إِلَّا أَوْثُوا الْجَدَلَ» ، ثُمَّ تَلَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ هَذِهِ الْآيَةَ: {مَا ضَرَبُوهُ لَكَ إِلَّا جَدَلًا بَلْ هُمْ قَوْمٌ خَصِمُونَ} الزخرف: 58 (3)

11- وَعَنِ الْحُسَيْنِ بْنِ عَلِيٍّ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا -: ((أَنَّ النَّبِيَّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - حَبَّأَ لِابْنِ صَيَّادٍ دُخَانًا، فَسَأَلَهُ عَمَّا حَبَّأَ لَهُ، فَقَالَ لَهُ: دُخٌّ. فَقَالَ: أَحْسَأُ فَلَنْ تَعْدُو قَدْرَكَ. فَلَمَّا وَلَّى قَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: مَا قَالَ؟ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: دُخٌّ وَقَالَ بَعْضُهُمْ: دِيحٌ. فَقَالَ النَّبِيُّ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ -: قَدْ اخْتَلَفْتُمْ وَأَنَا بَيْنَ أَطْهَرِكُمْ، وَأَنْتُمْ بَعْدِي أَشَدَّ اخْتِلَافًا.)) (4)

12- عَنِ الْحَارِثِ الْأَشْعَرِيِّ، أَنَّ نَبِيَّ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " إِنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ أَمَرَ يَحْيَى بْنَ زَكَرِيَّا عَلَيْهِمَا السَّلَامُ بِخَمْسِ كَلِمَاتٍ ... قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: " وَأَنَا أَمَرُكُمْ بِخَمْسِ اللَّهِ أَمَرَنِي بِهِنَّ: بِالْجَمَاعَةِ، وَالسَّمْعِ، وَالطَّاعَةِ، وَالْهَجْرَةِ، وَالْجِهَادِ فِي سَبِيلِ اللَّهِ، فَإِنَّهُ مَنْ خَرَجَ مِنَ الْجَمَاعَةِ قِيدَ شِبْرٍ فَقَدْ خَلَعَ رِبْقَةَ (5) الْإِسْلَامِ مِنْ عُنُقِهِ إِلَّا أَنْ يَرْجِعَ ، وَمَنْ دَعَا بِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ، فَهُوَ مِنْ جُنَاءِ جَهَنَّمَ)) (6)

13- عَنْ أَبِي الدَّرْدَاءِ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «أَلَا أُخْبِرُكُمْ بِأَفْضَلِ مِنْ دَرَجَةِ الصِّيَامِ وَالصَّلَاةِ وَالصَّدَقَةِ» ، قَالُوا: بَلَى، قَالَ: «صَلَاةُ ذَاتِ الْبَيْنِ، فَإِنَّ فَسَادَ ذَاتِ

1 مسند الإمام أحمد 6845 و قال محققو المسن :صحيح و إسناده حسن

2 -الترمذي باب ما جاء في التشديد في الخوض في القدر رقم 2133 و حسنه الألباني

3 -الترمذي باب من سورة الزخرف رقم 3253 و حسنه الألباني

4 -ذكره البوصيري في اتحاف الخيرة المهرة بزوائد المسانيد العشرة باب فب التلاعن و تحريم دم

المسلم برقم 7508 و قال البوصيري: رَوَاهُ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ. و ذكره ايضا ابن

حجر في المطالب العالية بزوائد المسانيد الثمانية باب كراهية الاختلاف برقم 4355

5 - رِبْقٍ. قال السندي: بكسر ففتح، جمع رِبْقَةٍ: عُروة من حبل

6 -أخرجه الإمام أحمد في مسنده رقم 17170 و غيره من حديث الحارث الأشعري الطويل و قال

محققو المسند :صحيح

البَيِّن هِيَ الْحَالِقَةُ»: «هَذَا حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ» وَيُرَوَّى عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: «هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ تَخْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ» (1)

14- عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: ((وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ لَا تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ حَتَّى تُسَلِّمُوا، وَلَا تُسَلِّمُوا حَتَّى تَحَابُّوا، وَأَفْشُوا السَّلَامَ تَحَابُّوا، وَإِيَّاكُمْ وَالْبُغْضَةَ، فَإِنَّهَا هِيَ الْحَالِقَةُ لَا أَقُولُ لَكُمْ تَخْلُقُ الشَّعْرَ، وَلَكِنْ تَخْلُقُ الدِّينَ)) (2)

و قد أخبرنا النبي ' أن الأمة ستفترق قبل ألف و أربعة مائة سنة:

15- و عن العَرَبَاضِ بْنِ سَارِيَةَ، يَقُولُ: قَامَ فِينَا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ذَاتَ يَوْمٍ، فَوَعَظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً، وَجَلَسَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، وَذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، فَقِيلَ يَا رَسُولَ اللَّهِ: وَعَظْتَنَا مَوْعِظَةً مُوَدِّعَةً، فَأَعْهَدَ إِلَيْنَا بَعْدَ، فَقَالَ: «عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتَرُونَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالتَّوَاجِدِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (3)

16- عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «افْتَرَقَتِ الْيَهُودُ عَلَى إِحْدَى وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَافْتَرَقَتِ النَّصَارَى عَلَى ثِنْتَيْنِ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، فَأِحْدَى وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَالَّذِي نَفْسُ مُحَمَّدٍ بِيَدِهِ لَنُفْتَرِقَنَّ أُمَّتِي عَلَى ثَلَاثٍ وَسَبْعِينَ فِرْقَةً، وَوَاحِدَةٌ فِي الْجَنَّةِ، وَثِنْتَانِ وَسَبْعُونَ فِي النَّارِ»، قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ مَنْ هُمْ؟ قَالَ: «الْجَمَاعَةُ» (4)

هذه النصوص صحيحة صريحة قطعية الدلالة على الذم و النهي عن الاختلاف فعلى العاقل أن يتأملها يفهمها و يطبقها و يراعيها في تعامله مع المسلمين و خاصة إخوانهم من أهل السنة فكلما اختلف المسلمون فيما بينهم أصابهم ضعف الحسي و المعنوي و زاد التفرق و التحزب و التعصب. و هذا ما يريده الكفار ويرضونه تطبيقا لقاعدتهم "فرق تسد" (5) فجاءوا إلى بلاد المسلمين مع فكرتهم الخبيثة و طبقوها في استعمار بعض

1 -الترمذي 4 أبواب صفة القيامة والرقائق والورع /663 برقم 2509 وقال الترمذي: هذا حديث حسن صحيح

2 -ذكره البخاري في الأدب المفرد 137/1, باب الألفة برقم 260 و قال الألباني في صحيح الأدب المفرد :حسن لغيره

3 -ابن ماجه باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين برقم 42 و صححه الألباني

4 -ابن ماجه باب افتراق الامم برقم 3992 و صححه الألباني

5 -) قاعدة عسكري اقتصادي الأصل اللاتيني التي تقوم على إحداث تفرقة بين أفراد المجتمع الواحد ليسهل السيطرة عليهم. ويعني تفريق قوة الخصم الكبيرة إلى أقسام متفرقة لتصبح أقل قوة وهي غير متحدة مع بعضها البعض مما يسهل التعامل معها كذلك يتطرق المصطلح للقوى المتفرقة التي لم يسبق أن اتحدت والتي يراد منعها من الاتحاد وتشكيل قوة كبيرة يصعب التعامل معها. بهذه القاعدة عملت بريطانيا العظمى خلال فترة الإستعمار، فأستخدمت التفرقة العنصرية المبنية على اللغة أو العرق أو الدين، لإحكام السيطرة على دول كالهند وسيريلانكا. وكذلك تم تقسيم دول العالم الإسلامي والعربي ورسم الحدود بعد الحرب العالمية الثانية، لتسهيل السيطرة عليها. ومن بعد بريطانيا جاءت اليهود و أمريكا و الغرب.

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

بلاد المسلمين و أذهانهم و نشروا هذه القاعدة بين سكان الدول العربية و الاسلامية فتأثروا بعض المسلمين بهم و بقاعدتهم فصاروا يطبقونها على إخوانهم من المسلمين. فكلما يختلف المسلمون فيما بينهم و يتفرقون في الأحزاب و الفرق والمذاهب- الكفار يضحكون علينا و يقولون: "شكرا أيها المسلمون قمتم بما أردنا بتطبيقكم قاعدتنا واستمروا في تشتيت شملكم..." فعلى العاقل أن يعلم أن الاختلاف و التفرق من أعظم الأسباب لذهاب قوة المسلمين و وحدتهم فعلى المسلم البصير أن يسعى في إصلاح بين المسلمين و جمع كلمتهم على التوحيد الخالص واتباع النبي ' أولا وآخرا. فكان الصحابة يفهمون هذا و كانوا يراعونها في تعاملهم مع بعضهم بعضا.

الفصل الثالث عشر

ما ينبغي للمسلم أن يفعله لتحقيق الاتباع الحقيقي للنبي

1- التطبيق والتوضيح المستمر لأصول الدين:

إن ظهور السنن وإحيائها، و ضعف البدع و مقاومتها، يرتبط بالقيام بواجب الدعوة إلى الله و أول أصول الدين هو الشهادتين. و مقتضى الشهادتين فيه أعظم أسس لتحقيق الاتباع و مقاومة الابتدع والتعصب المذموم.

فمقتضى شهادة ألا إله إلا الله: فيه أفراد الله تعالى بالعبادة، و فيه أفراد الله بصفات الكمال و كذلك يقاوم هذا البدع الشركية و الكفرية مثل:

-دعاء غير الله، الاستغاثة بال مخلوق، النذر للمخلوق، الذبح للمخلوق، تعظيم القبور و الغلو فيها، و الطواف حولها، واعتقاد تفرد الله بصفات الكمال مما اعتقده جميع الأنبياء و الرسل و أتباعهم فهو كذلك يقاوم البدع الاعتقادية الكفرية مثل:

-اعتقاد علم الغيب للمخلوق، اعتقاد النفع و الضر في المخلوق، اعتقاد التصرف في الكون لبعض الأولياء، اعتقاد إجابة للمخلوق للمضطر و المستغيث

و مقتضى شهادة أن محمدا رسول الله: فيه تصديقه فيما أخبر، و طاعته فيما أمر، و اجتناب ما نهى عنه و زجر، و أن لا يعبد الله إلا بما شرع.

فمقتضى شهادة المسلم بأن محمدا رسول الله: ألا يعبد الله إلا بما شرع، و في هذا الأمر بلزوم السنة و اتباع النبي في كل شيء، و ترك كل بدعة محدثة.

و من تصديقه فيما أخبر، و طاعته فيما أمر، و اجتناب ما نهى عنه و زجر: الأحاديث في الأمر بالسنة و التمسك بها، و الأحاديث في النهي عن البدعة و ذمها.

و من مقتضى شهادة ألا إله إلا الله، و أن محمدا رسول الله، يتبين شرطا قبول العمل:

أ- أن يكون خالصا لله

ب- أن يكون صوابا أي: متبعا فيه للنبي

قال تعالى: (فَمَنْ كَانَ يَرْجُوا لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَالِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا) الكهف: 110

2- تعلم سنته ولزومها والاكتفاء بما ثبت منها ففيه غنية عن كل زيادة وإحداث.

الإحداث في الدين من أعظم الجنايات على السنة النبوية و من أهم مظاهر المخالفات لنبي ' وهو أخطر معاول الهدم لشريعته مع ما فيه من تشويه لصورة الإسلام ولهدايته القيمة.

قال تعالى: (فَلْيَحْذَرِ الَّذِينَ يُخَالِفُونَ عَنْ أَمْرِهِ أَنْ تُصِيبَهُمْ فِتْنَةٌ أَوْ يُصِيبَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ) (النور 63)

و قال صلى الله عليه وسلم (من عمل عملا ليس عليه أمرنا فهو رد)(1)

و قال صلى الله عليه وسلم " عَلَيْكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبْدًا حَبَشِيًّا، وَسَتَرُونَ مِنْ بَعْدِي اخْتِلَافًا شَدِيدًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي، وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ الْمَهْدِيِّينَ، عَضُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَالْأُمُورَ الْمُحْدَثَاتِ، فَإِنَّ كُلَّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ"(2)

قال الإمام مالك: مَنْ أَحْدَثَ فِي هَذِهِ الْأُمَّةِ شَيْئًا لَمْ يَكُنْ عَلَيْهِ سَلْفُهَا؛ فَقَدْ زَعَمَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ خَانَ الرِّسَالَةَ؛ لِأَنَّ اللَّهَ يَقُولُ: {الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا} [المائدة: 3] ، فَمَا لَمْ يَكُنْ يَوْمَئِذٍ دِينًا؛ فَلَا يَكُونُ الْيَوْمَ دِينًا.(3)

و قال ابن كثير: "وَأَمَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ فَيَقُولُونَ فِي كُلِّ فِعْلٍ وَقَوْلٍ لَمْ يَنْبُتْ عَنْ الصَّحَابَةِ: هُوَ بِدْعَةٌ؛ لِأَنَّهُ لَوْ كَانَ خَيْرًا لَسَبَقُونَا إِلَيْهِ، لِأَنَّهُمْ لَمْ يَتْرُكُوا خَصْلَةً مِنْ خِصَالِ الْخَيْرِ إِلَّا وَقَدْ بَادَرُوا إِلَيْهَا"(4)

3-نبذ العصبية المذهبية و التقليد الأعمى:

فالمذهبية حادثة في تاريخ هذه الأمة ولم تكن على العهد الأول خير القرون ثم الذي يليه ثم الذي يليه وبعد حدوثها وما لازمها من عصبية وتعسف في رد النصوص النبوية وتأويلها كانت سببا في تفريق المسلمين وتحزبهم ومخاصمة بعضهم بعضا.

فكانت تلك العصبية مظهرا من مظاهر تخلف المسلمين و لا تزال جاثمة على صدر الأمة إلى اليوم، فالواجب هو التخلص منها ونبذها و إحياء منهج الاتباع الصحيح للأئمة و

1 صحيح البخاري كتاب الصلح باب إذا اصطلحوا على صلح جور فالصلح مردود2697, مسلم 1718

2 ابن ماجه باب اتباع سنة الخلفاء الراشدين المهديين رقم 42 وهو صحيح

3 ذكره الشاطبي في الاعتصام 494/1

4 تفسير ابن كثير 279-278/7

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

العودة بالأمة إلى ما كانت عليه في العهد النبوي والراشدي حتى يلتئم شملها وتعود إلى عزها وقوتها.

4- اتباع الصحابة علما وعملا

فمن أهم الأمور الدالة على حقيقة اتباعه صلى الله عليه وسلم هو اتباع صحابته في علمهم وعملهم بالإسلام في هديهم وفهومهم وكذا بإكرامهم ونشر فضائلهم ومناقبهم وعدم الإساءة إليهم أو الخوض في الحديث عن أخطائهم و ما جرى بينهم

وهذا من سلوك المؤمنين كما كان السلف الأمة الأخيار حيث خدموا علم الصحابة وعلمهم، فدونوا آثارهم وصنفوها ورتبوها بل نصوا على حجيتها وعدم جواز الخروج عنها.

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيْرُ النَّاسِ قَرْنِي، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ الَّذِينَ يُلُونَهُمْ، ثُمَّ يَجِيءُ أَقْوَامٌ تَسْبِقُ شَهَادَةُ أَحَدِهِمْ يَمِينُهُ، وَيَمِينُهُ شَهَادَتُهُ» (1)

و قال ' : «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ، وَإِنْ عَبدًا حَبَشِيًّا، فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا، فَعَلَيْكُمْ بِسُنَّتِي وَسُنَّةِ الْخُلَفَاءِ الْمُهَدِّدِينَ الرَّاشِدِينَ، تَمَسَّكُوا بِهَا وَعَظُّوا عَلَيْهَا بِالنَّوَاجِذِ، وَإِيَّاكُمْ وَمُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَإِنَّ كُلَّ مُحَدَّثَةٍ بِدْعَةٌ، وَكُلُّ بِدْعَةٍ ضَلَالَةٌ» (2)

قال ابن رجب: " وَفِي أَمْرِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بِاتِّبَاعِ سُنَّتِهِ، وَسُنَّةِ خُلَفَائِهِ الرَّاشِدِينَ بَعْدَ أَمْرِهِ بِالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ لَوْلَاةِ الْأُمُورِ عُمُومًا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ سُنَّةَ الْخُلَفَاءِ الرَّاشِدِينَ مُتَّبَعَةٌ، كَاتِبَاتُ سُنَّتِهِ" (3)

وقال الشاطبي: " فقرن عليه السلام كما ترى سنة الخلفاء الراشدين بسنته وان من اتباع سنته اتباع سنتهم وان المحدثات خلاف ذلك ليست منها في شيء" (4)

لذا فلا طريق لمن أراد أن يستمسك بدينه ويتبع رسول الله ' اتباعا نقيا صحيحا إلا أن يضبط فهمه للنصوص الصحيحة واستيعابه لها وعمله على تنفيذها بالطريقة التي كان عليها الصحابة ومن جاء من بعدهم ممن سار على نهجهم، وما أحسن نصيحة عبدالله بن مسعود حين قال: " «مَنْ كَانَ مِنْكُمْ مُتَأَسِّيًّا فَلْيَتَأَسَّ بِأَصْحَابِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا أَبْرَ هَذِهِ الْأُمَّةِ قُلُوبًا وَأَعَمَّقَهَا عِلْمًا وَأَقْلَهَا تَكَلُّفًا وَأَقْوَمَهَا هَدْيًا وَأَحْسَنَهَا حَالًا،

1 صحيح البخاري 2652, 3651, 6429, 6658 و مسلم 84/16, 86

2 رواه أبو داود في سننه في كتال السنة باب لزوم السنة رقم 4607 و رواه الترمذي في كتاب

العلم باب ما جاء في الأخذ بالسنة رقم 2676 و قال حسن صحيح و غيرهما

3 -جامع العلوم والحكم 2-121-126

4 الاعتصام 88/1

قَوْمًا اخْتَارَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى لِصُحْبَةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَأَعْرِفُوا لَهُمْ فَضْلَهُمْ وَاتَّبِعُوهُمْ فِي آثَارِهِمْ؛ فَإِنَّهُمْ كَانُوا عَلَى الْهُدَى الْمُسْتَقِيمِ»(1)

5- العناية بكتب السنة و دواوينها و الدفاع عنها

الإسلام مبني على الوحي و لا يدرك إلا بالتعلم والتعليم فلا وسيلة للعمل بأحكام الإسلام واتباع النبي صلى الله عليه وسلم إلا عن طريق التعلم لما جاء في سنته. ولا شك أن جهل بالسنة النبوية من أعظم عوائق الاتباع بل هو أعظم أسباب الوقوع في المحرمات من الكفر والبدع والمعاصي سواء أكان الجهل جهلا بالنصوص بعدم الاطلاع عليها أم كان جهلا بمنزلتها من الدين أم كان جهلا بدلالات الألفاظ ومقاصد الشريعة وقواعد العلوم وأصولها.

والعناية بكتب الحديث قراءة، فهما، حفظا، وتفهيما ثم العمل بما فيها من أهم معالم اتباع النبي صلى الله عليه وسلم ونصرتة، فهي الكتب التي جمعت كل ما يتعلق بسنة النبي صلى الله عليه وسلم من شريعة وأحكام وسيرة وأدب وشمائل ودلائل النبوة مع ما امتازت به هذه الكتب من جودة التصنيف وحسن الترتيب ودقة التبويب ونقاوة أسانيد فهي بحق دواوين الإسلام بكل أبعاده وعناصره الأساسية، عقيدة وأخلاقا وآدابا وأحكاما وقصصا ومواعظ.

6- الدعوة إلى إحياء السنة و ترغيب الناس فيها

فالواجب هو الدعوة الناس إلى اتباع السنة وإحيائها وأن تكون الدعوة إلى هذا واضحة صافية لا لبس فيها، ولا مdahنة بحيث تجرد الدعوة إلى لزوم السنة، نعم بالحكمة والموعظة الحسنة، مع تنبيه المسلمين إلى خطورة مخالفة هذا السبيل، ليحيي من حيي على بيئة ويهلك من هلك عن بيئة.

فإن عدم الوضوح في الحق أو المdahنة فيه أو مجالسة أهل الأهواء والتساهل معهم، كان سببا مباشرا في خلط كثير من المفاهيم ونشر الشبهات في أوساط المسلمين وإبعادهم عن المعين الصافي لهدي النبي بل كان سببا في عزوف عوام المسلمين عن السنة النبوية لما رأوه من تضارب في الأقوال والمفاهيم بين دعاة الإسلام فاختلف عليهم الأمر فتركوه بالكلية. فوضوح الحق ودعوة الناس إليه -وإن كان ثقيلًا على البعض- موافق للطرة السليمة وللعقول السوية.

الفصل الرابع عشر

ملخص لفوائد الاتباع وبعض المفاصد لترك الاتباع

*من فوائد الاتباع:

- 1- دليل المحبة الكاملة ويجلب محبة الله لعبده.
- 2- يجلب رحمة الله تعالى ومغفرته ورضوانه.
- 3- دليل الفلاح والهداية وقبول التوبة.
- 4- يجلب التأييد والنصر والتّمكن والعزة والفلاح.
- 5- يحصل للعبد به السعادة وطيب العيش في الدارين.
- 6- يخرج العبد من هوى النفس.
- 7- ضمان السلامة والأمن من الخطأ لعصمة المتبوع صلى الله عليه وسلم.
- 8- السلامة من الاعتراض والأمن من الانتقاد.
- 9- صاحبه من أنمة الهدى فيكثر أجره بمقدار ما يكثر تابعه.
- 10- الاتباع فيما تركه صلى الله عليه وسلم حكمه كحكم اتّباعه فيما فعله صلى الله عليه وسلم.

*الأسباب المعينة على الاتباع:

- 1-دراسة السنة
 - 2-قراءة كتب عن حقيقة الاتباع والنهي عن الابتداع
 - 3-الحرص على اتباع السلف وخير القرون
 - 4-الدعاء
 - 5-المنهجية الصحيحة في أخذ العلم
- أ-اختيار الشيخ أو العالم المعروف بتعليم الكتاب والسنة على فهم السلف
- ب- اختيار الكتب المناسبة التي يدرسها على هؤلاء المشايخ والعلماء(1)

¹ - هذه الأسباب مأخوذة من بحث "حقيقة الاتباع لنبيّنا المطاع" ص3894-3899

و من أعظم مفسد ترك الاتباع:

- 1-الرأي المذموم
- 2-التقليد الأعمى
- 3-التعصب للمذاهب والأشخاص
- 4-الكلام والفلسفة والمنطق
- 5-البدع والشبهات
- 6-الهوى والشهوات
- 7-الصحبة السيئة
- 8-الاعتماد على الأحاديث الضعيفة والموضوعة
- 9-الجهل وأخذ العلم عن الجهلة والعكوف على الكتب بدون معلم
- 10-الغلو والتكلف
- 11-الشرك ووسائله
- 11-الاعتماد على قواعد وضعها بعض الناس ليصرف الناس عن الاتباع الحقيقي، مثل:
 - أ-إنه لا يجب العمل بخبر الواحد لا سيما في العقائد
 - ب-القياس إذا خالف النص
 - ج-عمل أهل المدينة إذا خالف النص
 - د-الحرص على اتباع الجمهور والأكثرية ولو كانت على خلاف النص
 - ر-قولهم بعدم شمولية النصوص لجميع أبواب الدين
 - س-التلفيق بين المذاهب وتتبع الرخص وزلات العلماء
 - ص-تقسيم الدين إلى قشور ولباب(1)

¹ -انظرالأبحاث العلمية للمؤتمر الدولي نبي الرحمة محمد صلى الله عليه وسلم الرياض شوال 23- 1431 25 الجزء السابع بحث باسم "حقيقة الاتباع لنبيينا المطاع" لوليد بن سيف النصر ص3777-

الباب الثاني

ظهور المذاهب

الفصل الأول

خير القرون ونشأة المذاهب

قال ابن القيم: "ثُمَّ جَاءَتْ الْأَئِمَّةُ مِنَ الْقَرْنِ الرَّابِعِ الْمُفَضَّلِ فِي إِحْدَى الرَّوَائِثَيْنِ، كَمَا ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي سَعِيدٍ وَابْنِ مَسْعُودٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَعَائِشَةَ وَعِمْرَانَ بْنِ حُصَيْنٍ، فَسَلَكُوا عَلَى آثَارِهِمْ اقْتِصَاصًا، وَاقْتَبَسُوا هَذَا الْأَمْرَ عَنْ مَشْكَاتِهِمْ اقْتِبَاسًا، وَكَانَ دِينُ اللَّهِ سُبْحَانَهُ أَجَلَ فِي صُدُورِهِمْ، وَأَعْظَمَ فِي نُفُوسِهِمْ، مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهِ رَأْيًا أَوْ مَعْقُولًا أَوْ تَقْلِيدًا أَوْ قِيَاسًا، فَطَارَ لَهُمُ الثَّنَاءُ الْحَسَنُ فِي الْعَالَمِينَ، وَجَعَلَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ لَهُمْ لِسَانَ صِدْقٍ فِي الْآخِرِينَ، ثُمَّ سَارَ عَلَى آثَارِهِمُ الرَّعِيلُ الْأَوَّلُ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ، وَدَرَجَ عَلَى مِنْهَاجِهِمُ الْمُؤَفَّقُونَ مِنْ أَشْيَاعِهِمْ، زَاهِدِينَ فِي التَّعَصُّبِ لِلرِّجَالِ، وَاقِفِينَ مَعَ الْحُجَّةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، يَسِيرُونَ مَعَ الْحَقِّ أَيْنَ سَارَتْ رِكَائِبُهُ، وَيَسْتَقِلُّونَ مَعَ الصَّوَابِ حَيْثُ اسْتَقَلَّتْ مَضَارِبُهُ، إِذَا بَدَأَ لَهُمُ الدَّلِيلُ بِأُخْذَتِهِ طَارُوا إِلَيْهِ زَرَاقَاتٍ وَوُحْدَانًا، وَإِذَا دَعَاهُمُ الرَّسُولُ إِلَى أَمْرٍ انْتَدَبُوا إِلَيْهِ وَلَا يَسْأَلُونَهُ عَمَّا قَالَ بُرْهَانًا، وَنُصُوصُهُ أَجَلَ فِي صُدُورِهِمْ وَأَعْظَمَ فِي نُفُوسِهِمْ مِنْ أَنْ يُقَدِّمُوا عَلَيْهَا قَوْلَ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ، أَوْ يُعَارِضُوهَا بِرَأْيٍ أَوْ قِيَاسٍ... (1)

وكان الناس في زمن النبي ' يلجأون في معرفة أمور دينهم إليه ' وإلى من جعلهم النبي ' من قبله كأمرء أو رسل إلى البلاد الأخرى، وبقي الحال على ذلك إلى أن قبض النبي.

وأما بعد زمانه ' فكان الناس يسألون الخلفاء خاصة والصحابة عامة لما تفرقوا في سائر البلدان، لأنهم كانوا أقرب الناس إلى رسول الله '، وأعرفهم بأحكام دينه.

ولما جاء عصر التابعين وتابعي التابعين انقسم العلماء إلى قسمين : أهل الحديث، وأهل الرأي. وكثر المفتون في المدينة ومكة والشام ومصر والكوفة وبغداد وغيرها من بلاد الإسلام، فكان العامة يسألون مَنْ يظهر لهم علمه ومعرفته، دون أن يتمذهبوا بقول واحد بعينه.

أول الأئمة ظهورا : الإمام أبو حنيفة و هو النعمان بن ثابت بن زوطي، مولى بني تميم الله بن ثعلبة، أصله من كابل، وُلد بالكوفة سنة 80هـ ونشأ فيها، وكان يبيع الخز ويطلب العلم في صباه، ثم انقطع للتدريس والإفتاء، وهو إمام أهل الرأي.

و من أشهر تلاميذه القاضي أبو يوسف، ومحمد بن حسن الشيباني، له كتاب (المسند) في الحديث، جمعه تلاميذه، و (المخارج) كتيب صغير في الفقه، رواه عنه تلميذه أبو يوسف.

ولما ظهر كفقيهه-له آراؤه الفقهية-وأخذ العلم عن حماد بن أبي سليمان و أن فقه أهل الكوفة يرجع إلى الصحابي الجليل عبد الله بن مسعود الذي أرسله عمر ليفقه أهل الكوفة. وقد أخذ تلامذته من بعده عن علي بن أبي طالب أيام خلافته. ثم نشأ بعد هؤلاء التلامذة، فقيهين أخذاً عنهم، هما: عامر الشعبي وإبراهيم النخعي. وصار هذين الإمامين فقيهي الكوفة في زمانهما. والأول كان أميل للأثر (الشعبي)، والثاني كان يميل إلى الرأي، (النخعي) شأنه شأن عامة أهل الكوفة. ثم أخذ الفقه عن إبراهيم النخعي إمامان: منصور، وحماد. فأما منصور فقد أخذ الفقه عنه سفيان الثوري. وأما حماد فقد أخذ الفقه عنه أبو حنيفة. ومن تأمل فقه الإمامين أبي حنيفة والثوري، لوجده قريب، لكن الأول أكثر تفريعاً، والثاني أقرب لأهل الحديث...وقيل أن ابن مسعود هو الذي وضع الأساس لهذه الطريقة في الاستدلال، ثم توارثها عنه علماء العراق، وما قاله خاص بالكوفة ومن حولها كبغداد ولا يشمل البصرة استطاع أن يستقطب له تلاميذ صار لهم الدور الكبير بعد ذلك في نشر تلك الآراء، ولا سيما القاضي أبو يوسف الذي نال الخطوة عند الخلفاء العباسيين، فتولى منصب القضاء لثلاثة من الخلفاء: المهدي والهادي والرشيد، فنشر مذهب أبي حنيفة بواسطة القضاة الذين كان يعينهم هو وأصحابه.

وثانيهم- مالك بن أنس وهو مالك بن أنس بن مالك بن أبي عامر بن عمرو بن الحارث الأصبحي الحميري، أبو عبد الله المدني. ولد سنة 93هـ، وقيل غيرها، الملقب بإمام دار الهجرة.

وروى عنه الإمام الشافعي والسفيانان والأوزاعي وغيرهم.

له كتاب الموطأ في الحديث قال الشافعي: ما في الأرض كتاب أكثر صواباً من موطأ مالك، وقال البخاري: أصح الأسانيد: مالك، عن نافع، عن ابن عمر. مات بالمدينة سنة 179هـ وعمره تسعون سنة، وقيل: خمس وثمانون، ودُفن بالبقيع.

ولما بزغ نجم الإمام مالك أراد أبو جعفر المنصور أن يحمل الناس على العمل بما في الموطأ، وأمر من ينادي في الناس: (إلا لا يُفتن أحد ومالك بالمدينة). وحظي مالك بمكانة عظيمة عنده وعند من جاء بعده من أبنائه الخلفاء، كالمهدي والهادي والرشيد، فسبب ذلك ظهور أتباع له يروجون مذهبه، ويظهرون التعصب له.

وثالثهم- محمد بن إدريس الشافعي :

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن السائب القرشي المطلبية المكي. وُلد في غزة بفلسطين سنة 150هـ، وقيل: باليمن، مات أبوه وهو صغير وحملته أمه إلى مكة وهو ابن سنتين. فنشأ بمكة، ثم انتقل إلى المدينة وقرأ الموطأ على مالك.

روى عن ابن عيينة ومالك وغيرهم، وروى عنه أحمد بن حنبل وأبو ثور والمزني وغيرهم. اعتبره بعضهم هو المجدد على رأس المائتين، له كتاب (الأم) وفيه آراؤه الفقهية الجديدة، وكتاب (المسند) في الحديث، و(أحكام القرآن) وغيرها

زار بغداد سنة 195هـ فاجتمع به أحمد بن حنبل وأبو ثور وغيرهما، وأقام بها حولين وصنف بها كتابه القديم، ثم عاد إلى مكة، ثم رجع إلى بغداد سنة 198هـ، ومكث فيها شهراً، ثم قصد مصر سنة 199هـ، وصنف بها كتبه الجديدة كالأم، والأمالى الكبرى، ومختصر البويطي، ومختصر المزني، ومات فيها سنة 204هـ وعمره 54 سنة.

ولما تألق الشافعي وبرز على علماء عصره، وساعده على ذلك تتلمذه على مالك في المدينة، ونزوله ضيفاً لما ذهب إلى مصر عند محمد بن عبد الله بن الحكم الذي كانت له في مصر مكانة ومنزلة علمية، وكان مقدماً عند أهل مصر، فقام هذا الأخير بنشر علم الشافعي وبث كتبه، مضافاً إلى ما لقيه الشافعي في بادئ الأمر من المالكية في مصر من الإقبال والحفاوة، بسبب كثرة ثنائه على الإمام مالك، وتسميته بـ (الأستاذ).

ورابعهم- هو أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني المروزي البغدادي، صاحب المسند. خرجت به أمه من مرو حملاً، وولد في بغداد سنة 164هـ، ونشأ بها، وتوفي أبوه وهو ابن ثلاث سنين، طلب الحديث سنة 179هـ، وقيل: 187هـ، وطاف بالبلاد، ودخل الكوفة والبصرة والحجاز واليمن والشام والجزيرة، سمع من هشيم، عن الشافعي وسفيان بن عيينة وغيرهم، وروى عنه البخاري ومسلم وأبو داود وغيرهم، وروى عنه الترمذي والنسائي وابن ماجة بواسطة رجل واحد.

دُعي إلى القول بخلق القرآن في زمن المأمون العباسي سنة 218هـ، ثم في زمن المعتصم، فأبى وامتنع، فحُبس نحواً من ثمانية وعشرين شهراً، أو 28 يوماً على اختلاف النقل، وضُرب، فثبت على قوله، فأطلقه المعتصم سنة 221هـ، وبقي مدة في منزله، وفي سنة 237هـ استقدمه المتوكل العباسي إليه وأكرمه وقربه. مات ببغداد سنة 241هـ، وعمره سبع وسبعون سنة.

ولما وقع الإمام أحمد بن حنبل في محنة خلق القرآن، وضُرب وحُبس، مع ما أظهر من الصبر والتجلد، جعل له المكانة عند الناس، ولاسيما بعد أن أدناه المتوكل العباسي وأكرمه وعظمه، وعني به عناية فائقة.

قال أبو شامة المقدسي: "وكانت تلك الأزمنة مملوءة بالمجتهدين، فكل صنف على ما رأى، وتعقب بعضهم بعضاً مستمدّين من الأصليين: الكتاب والسنة و ترجيح الراجح من أقوال السلف المختلفة، ولم يزل الأمر على ما وصفت إلى أن استقرت المذاهب المدونة، ثم اشتهرت المذاهب الأربعة وهُجر غيرها، فقصرت همم أتباعهم إلا قليلاً منهم، فقلّدوا و لم ينظروا فيما نظر فيه المتقدمين من الاستنباط من الأصليين: الكتاب و السنة. بل

صارت أقوال أئمتهم بمنزلة الأصلين فأخذوها مسلمة مفروغا منها ففرعوا عليها، واستنبطوا منها، و لم يبق لهم نظر إلا فيها، و أعرضوا عن علوم الأصلين، فُعِدِم المجتهدون، وغلب المتقلدون، حتى صاروا ممن يروم رتبة الاجتهاد يعجبون، و له يزدرون، وكثر التعصب، و قلة النصفة و بانث المثالب، و دبث بينهم العقارب، فجرى من بعضهم العجائب و الغرائب، و آل بهم التعصب إلى أن صار أحدهم إذا أورد عليه شيء من الكتاب و السنة على خلاف مذهبه يجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويل البعيد، نصرةً لقوله و إعراضاً عما يجب عليه الأخذ به، و لو كان ذلك وصل إلى إمامه الذي يقلده هذا المتعصب لقابله ذلك الإمام بالتبجيل و لصار إليه إن لم يعارضه دليل.

ثم تفاقم الأمر حتى صار كثير منهم لا يرون الاشتغال بعلوم القرآن و الحديث، و يعيبون من يعتني بهما، و يرون أن ما هم عليه هو الذي ينبغي المواظبة عليه، و تقدمته بين يديه، من الاحتجاج للمذاهب بالأراء و كثرة الجدل و المراء، فينقضي منهم المجلس بعد المجلس لا يسمع فيها آية تتلى، و لا حديث يروى، و إن اتفق ذكر شيء من ذلك لم يكن في المجلس من يعرف صحيحه من سقيمه، و لا إirاده على وجهه، و لا فهم معناه، و غرض كل منهم قمع خصمه، وإبطال حكمه، و عدم منهم الانصاف في مسائل الخلاف، و لا سيما لما وقفت عليهم الأوقاف. ثم نبغ قوم آخرون صارت عقيدتهم في الاشتغال بمسائل المذاهب، كعقيدة أولئك في الاشتغال بعلوم الأصلين، يرون أن أولى منه الاقتصار على نكت خلافية وضعوها و أشكال منطقية ألفوها... (1)

قال شاه ولي الله الدهلوي: "وَبِالْجُمْلَةِ فَاخْتَلَفَتْ مَذَاهِبُ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، وَأَخَذَ عَنْهُمْ التَّابِعُونَ كَذَلِكَ كُلِّ وَاحِدٍ مَا تَبَيَّنَ لَهُ، فَحَفِظَ مَا سَمِعَ مِنْ حَدِيثِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَمَذَاهِبِ الصَّحَابَةِ وَعَقْلَهَا، وَجَمَعَ الْمُخْتَلَفَ عَلَى مَا تَبَيَّنَ لَهُ وَرَجَحَ بَعْضَ الْأَقْوَالِ عَلَى بَعْضٍ وَاضْمَحَلَّ فِي نَظَرِهِمْ بَعْضُ الْأَقْوَالِ وَإِنْ كَانَ مَأْثُورًا عَنْ كِبَارِ الصَّحَابَةِ كَالْمَذْهَبِ الْمَأْثُورِ عَنْ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ فِي تَيَمُّمِ الْجَنْبِ اضْمَحَلَّ عَنْدهُمْ لَمَّا اسْتِفَاضَ مِنَ الْأَحَادِيثِ عَنْ عِمَارٍ وَعُمَرَ ابْنِ الْحَصِينِ وَغَيْرِهِمَا، فَعِنْدَ ذَلِكَ صَارَ لِكُلِّ عَالَمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ التَّابِعِينَ مَذْهَبٌ عَلَى حِيَالِهِ، فَانْتَصَبَ فِي كُلِّ بِلَدٍ إِمَامٌ مِثْلُ سَعِيدِ بْنِ الْمُسَيَّبِ، وَسَالِمِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عُمَرَ فِي الْمَدِينَةِ، وَبَعْدَهَا الزُّهْرِيُّ وَالْقَاضِي يَحْيَى بْنُ سَعِيدٍ وَرَبِيعَةُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ فِيهَا، وَعَطَاءُ بْنُ أَبِي رَبَاحٍ بِمَكَّةَ، وَإِبْرَاهِيمُ النَّخَعِيُّ وَالشَّعْبِيُّ، بِالْكُوفَةِ، وَالْحَسَنُ الْبَصْرِيُّ بِالْبَصْرَةِ، وَطَاوُسُ بْنُ كَيْسَانَ بِالْيَمَنِ، وَمَكْحُولٌ بِالشَّامِ، فَأَظْمَأَ اللَّهُ أَكْبَادًا إِلَى عُلُومِهِمْ، فَرِغُوا فِيهَا، وَأَخَذُوا عَنْهُمْ الْحَدِيثَ وَفَتَاوَى الصَّحَابَةِ وَأَقَاوِيلَهُمْ، وَمَذَاهِبَ هَؤُلَاءِ الْعُلَمَاءِ وَتَحْقِيقَاتِهِمْ مِنْ عِنْدِ أَنْفُسِهِمْ، وَاسْتَفْتَى مِنْهُمْ الْمُسْتَفْتُونَ، وَدَارَتِ الْمَسَائِلُ بَيْنَهُمْ، وَرَفَعَتْ إِلَيْهِمُ الْأَفْضِيَّةُ، وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ وَإِبْرَاهِيمُ وَأَمثالهما جَمَعُوا أَبْوَابَ الْفِقْهِ أَجْمَعَهَا، وَكَانَ لَهُمْ فِي كُلِّ بَابٍ أَصُولٌ تَلْقَوُهَا مِنَ السَّلَفِ، وَكَانَ سَعِيدُ وَأَصْحَابُهُ يَذْهَبُونَ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْحَرَمَيْنِ أَثْبَتَ النَّاسَ فِي الْفِقْهِ، وَأَصْلَ مَذْهَبِهِمْ فَتَاوَى عَبْدِ

الله ابن عمر وَعَائِشَةُ وَابْنُ عَبَّاسٍ، وَقَضَايَا قُضَاةِ الْمَدِينَةِ، فَجَمَعُوا مِنْ ذَلِكَ مَا يسره الله لَهُمْ، ثُمَّ نَظَرُوا فِيهَا نَظْرَ اعْتِبَارٍ وَتَفْتِيشٍ، فَمَا كَانَ مِنْهَا مَجْمَعًا عَلَيْهِ بَيْنَ عُلَمَاءِ الْمَدِينَةِ فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ عَلَيْهِ بِنَوَاجِذِهِمْ، وَمَا كَانَ فِيهِ اخْتِلَافٌ عَنْدهُمْ، فَإِنَّهُمْ يَأْخُذُونَ بِأَقْوَاهَا وَأَرْجَحِهَا إِمَّا بِكَثْرَةِ مَنْ ذَهَبَ إِلَيْهِ مِنْهُمْ أَوْ لِمُوَافَقَتِهِ بِقِيَاسِ قَوَى أَوْ تَخْرِيجِ صَرِيحٍ، مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ نَحْوِ ذَلِكَ، وَإِذَا لَمْ يَجِدُوا فِيهَا حِفْظًا مِنْهُمْ جَوَابَ الْمَسْأَلَةِ خَرَجُوا مِنْ كَلَامِهِمْ وَتَتَبَعُوا الْإِيْمَاءَ وَالْإِقْتِضَاءَ، فَحَصَلَ لَهُمْ مَسَائِلُ كَثِيرَةٌ فِي كُلِّ بَابٍ، وَكَانَ إِبْرَاهِيمُ وَأَصْحَابُهُ يَرَوْنَ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَأَصْحَابَهُ أَثَبَتَ النَّاسَ فِي الْفَقْهِ كَمَا قَالَ عَلْقَمَةُ لِمَسْرُوقٍ: هَلْ أَحَدٌ مِنْهُمْ أَثَبَتَ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ؟ وَقَوْلُ أَبِي حَنِيفَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِلأَوْزَاعِيِّ إِبْرَاهِيمَ أَفْقَهُ مِنْ سَالِمٍ، وَلَوْ لَا فَضْلَ الصُّحْبَةِ لَقُلْتُ أَنَّ عَلْقَمَةَ أَفْقَهُ مِنْ عَبْدِ اللَّهِ ابْنِ عَمْرٍو وَعَبْدَ اللَّهِ - هُوَ عَبْدُ اللَّهِ - وَأَصْلَ مَذْهَبِهِ فَنَاقَوْا عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ وَقَضَايَا عَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا وَفَنَاقَاهُ وَقَضَايَا شَرِيحٍ وَغَيْرِهِ مِنْ قُضَاةِ الْكُوفَةِ، فَجَمَعَ مِنْ ذَلِكَ مَا يسره الله. ثُمَّ صَنَعَ فِي أَثَارِهِمْ كَمَا صَنَعَ أَهْلُ الْمَدِينَةِ فِي أَثَارِ أَهْلِ الْمَدِينَةِ، وَخَرَجَ كَمَا خَرَجُوا، فَلَخِصَ لَهُ مَسَائِلُ الْفَقْهِ فِي كُلِّ بَابٍ. وَكَانَ سَعِيدُ بْنُ الْمُسَيَّبِ لِسَانَ فُقَهَاءِ الْمَدِينَةِ، وَكَانَ أَحْفَظَهُمْ لِقَضَايَا عُمَرَ وَلِحَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ، وَإِبْرَاهِيمُ لِسَانَ فُقَهَاءِ الْكُوفَةِ، فَإِذَا تَكَلَّمَا بِشَيْءٍ، وَلَمْ يَنْسَبَاهُ إِلَى أَحَدٍ فَإِنَّهُ فِي الْأَكْثَرِ مَنْسُوبٌ إِلَى أَحَدٍ مِنَ السَّلَفِ صَرِيحًا أَوْ إِيْمًا وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَاجْتَمَعَ عَلَيْهِمَا فُقَهَاءُ بِلَدِهِمَا وَأَخَذُوا عَنْهُمَا وَعَقَلُوهُ وَخَرَجُوا عَلَيْهِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ." (1)

الفصل الثاني

كيف انتشر المذاهب

و في عهد التابعين كان هناك عدة مذاهب مشهورة ، مثل مذهب الثوري والأوزاعي والليث وابن المبارك وإسحاق بن راهويه ، فسفيان الثوري كان كوفياً مذهبه يشبه مذهب أبي حنيفة، لكنه أكثر معرفة بالحديث والآثار منه، وأعرف بصحيح الحديث، وأقل قياساً والأوزاعي مذهبه قريب من مذهب الشافعي إلى حدٍّ ما من ناحية الاعتناء بالأثر والإقلال من القياس.

والليث بن سعد كان الشافعي يعتبر مذهبه أقوى من مذهب مالك. ويبدو أنه أقرب لمذهب الشافعي من ناحية اعتماد الدليل وعدم الاعتماد على الرأي المجرد. لكن تلاميذ الليث أهملوا تدوين مذهبه، ولم ينتشر. قال الشافعي: «الليث أفقه من مالك، إلا أن أصحابه لم يقوموا به». كما أن المالكية قد بذلوا جهداً كبيراً في إخفاء هذا المذهب واستبداله بمذهب مالك. وعبد الله بن المبارك تتلمذ على أبي حنيفة والثوري، إمامي الكوفة. ومذهبه هو مزيج بين مذاهب العراقيين والحجازيين، مع معرفة عالية بالحديث الصحيح.

أما مذهب إسحاق فهو شبيه بمذهب أحمد، لكنه يحتج بأحاديث ضعيفة⁽¹⁾. وإذا تأملنا موافقات هؤلاء لمذهب الظاهرية، فأكثر الموافقات هي مع: الأوزاعي، ثم الليث بن سعد، ومن بعدهما أبو ثور، ثم أحمد، ثم الشافعي، ثم مالك، ثم النعمان، ثم الطبري.

وإجمالاً فالذي يُبقي المذهب هو الكتابة. فالتدوين والكتابة هي التي تحفظ المذهب، والسلطان هو الذي ينشره والله أعلم.

فالأئمة الأربعة قام تلامذتهم بتدوين فقههم، وبذلك حفظت تلك المذاهب إلى اليوم. فقام محمد بن الحسن بتدوين آراء صاحبيه أبي يوسف وأبي حنيفة، في عدة كتب. ومالك جمع مسائله بعض تلامذته كابن القاسم وغيره. والشافعي كتب مذهبه بنفسه. وأحمد له مسائل كثيرة جمع خلال وغيره الكثير منها من أصحابه.

وأما مذاهب الأوزاعي والليث والثوري وإسحاق وأمثالهم من الأئمة المجتهدين، فلم تُخدم. فمثلاً قال شيخ الإسلام في مجموع الفتاوى: «وأما الأئمة المذكورون فمن سادات أئمة

¹- قال ابن القيم في إعلام الموقعين 25/1-26: "لأصل الرّابع: الأخذ بالمرسل والحديث الضعيف، إذا لم يكن في الباب شيء يدفعه، وهو الذي رجّحه على القياس، وليس المراد بالضعيف عنده الباطل ولا المنكر ولا ما في روايته منهم بحيث لا يسوغ الذهاب إليه فالعمل به؛ بل الحديث الضعيف عنده قسيم الصحيح وقسم من أقسام الحسن، ولم يكن يُقسم الحديث إلى صحيح وحسن وضعيف، بل إلى صحيح وضعيف، وللضعيف عنده مراتب، فإذا لم يجد في الباب أثراً يدفعه ولا قول صاحب، ولا إجماع على خلافه كان العمل به عنده أولى من القياس وليس أحد من الأئمة إلا وهو موافق على هذا الأصل من حيث الجملة، فإنه ما منهم أحد إلا وقد قدّم الحديث الضعيف على القياس." انتهى كلامه

الإسلام. فإن الثوري إمام أهل العراق. وهو عند أكثرهم (أي أكثر العلماء) أجل من أقرانه: كابن أبي ليلى، والحسن بن صالح بن حي، وأبي حنيفة، وغيره. وله مذهبٌ باق إلى اليوم بأرض خراسان. والأوزاعي إمام أهل الشام. وما زالوا على مذهبه إلى المئة الرابعة. بل أهل المغرب (وبالذات الأندلس) كانوا على مذهبه قبل أن يدخل إليهم مذهب مالك». (1)

وليس ضياع أو عدم انتشار أقوال صاحب مذهب، دليلاً على ضعف مذهبه. لا. فالثوري وابن المبارك أفقه من أبي حنيفة، ولم ينتشر فقهما كفقّه أبي حنيفة. وهذا الليث أفقه من مالك، ولم ينتشر فقّه الإمام مالك. وما كان الأوزاعي دون أبي يوسف، ومع ذلك فقد فقد فقّه الأول وبقي فقّه الثاني لتبني السلطان له.

قال الحافظ ابن رجب الحنبلي: «وفي زماننا يتعيّن كتابة كلام أئمة السلف المقتدى بهم إلى زمن الشافعي وأحمد وإسحاق وأبي عبيد. وليكن الإنسان على حذرٍ مما حدث بعدهم. فإنه حدث بعدهم حوادث كثيرة. وحدث من انتسب إلى متابعة السنن والحديث، من الظاهرية ونحوهم، وهو أشدّ مخالفة لها، لشذوذه عن الأئمة وانفراده بفهم يفهمه، أو يأخذ ما لم يأخذ به الأئمة من قبله». (2)

بقي العمل بالمذاهب المتعدّدة عند أهل السنة، الأربعة وغيرها، إلى أن جعل الخلفاء المدارس وقصروا التدريس في هذه المذاهب. كما أن مناصب القضاء حُصرت أيضاً في القضاة الذين يقضون بفتاوى الأئمة الأربعة. واستمر الحال على ذلك، إلى أن أمر السلطان الظاهر ببيرس -الذي كان له النفوذ والسلطان على مصر والشام وغيرها من بلاد الإسلام- بجعل قضاة أربعة في مصر: لكل مذهب قاض خاص، وكان ذلك في سنة 663هـ. ثم جعل بعد ذلك بعام في بلاد الشام قضاة أربعة أيضاً. وعلى ذلك استمر الحال إلى زماننا الحاضر... (3)

و لم يحصل التفرق و كيد بعضهم لبعض في المسلمين إلا بالتعصب لتقليد بعض الأئمة. و ما وجدت في مدى القرون مذاهب أو أحزاب فكرية أخرى إلا بالتقليد والتعصب للأشخاص والمذاهب.

وللتقليد الأعمى والتعصب المذهبي في الدين مساوي عظام و عظام سيئة، فما خرجت القدرية و الشيعة و الخوارج إلا بالتقليد، و ترك الاتباع، و ما وجدت مذاهب عقدية أخرى من الاعتزال و الأشعرية، و الماتريدية و غيرها إلا بترك الاتباع و التزام ما لا يلزم.

1 - مجموع الفتاوى (583/20)

2 - "بيان فضل علم السلف على علم الخلف" (ص67)

3 - <http://www.ibnamin.com>

و من عوامل انحطاط المسلمين و تأخرهم التقليد و التعصب للمذاهب و الأشخاص و قد أدى هذان الشيئان إلى مسخ عقول كثير من الناس و وقوعهم في فتنة و شر و أصبحوا لا يفكرون إلا بعقول غيرهم و قد وقعوا في تشبه بالبهائم و السوائم. و من العجب كما نرى في الواقع و كما ذكر شيخنا الشيخ وصي الله عباس حفظه الله: "أمر أصحاب المذاهب, يتعصبون للأئمة في المسائل الفرعية و هم قد نهوهم عن تقليدهم و تقليد غيرهم. و أما الفقه في العقيدة الذي هو الفقه الأكبر فهم مخالفون لهم(الأئمة الأربعة) فيه, فأكثرهم خالفوا الأئمة الذين انتسبوا إليهم واتبعوا المذهب الأشعري(1) سوى الإمام أحمد فكانوا رمزا للعقيدة الصحيحة السلفية على مر القرون إلا قليلا منهم. و أما المذاهب الثلاثة الأخرى فأكثر أتباعها كانوا على غير مذهب السلف (في العقيدة)...(2) و فيهم قلة كانوا على العقيدة السلفية بعد انتشار المذاهب في القرن الرابع, و أما قبله فأتباع الأئمة كلهم فيما يظهر كانوا على عقيدة الصحابة سلفنا الصالح.(3)

وكما ذكر ابن تيمية: "وَهَذَا لِأَنَّ الْأَئِمَّةَ قَدْ ائْتَسَبَ إِلَيْهِمْ فِي الْفُرُوعِ طَوَائِفُ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ الْمُخَالَفِينَ لَهُمْ فِي الْأَصُولِ مَعَ بَرَاءَةِ الْأَئِمَّةِ مِنْ أَوْلِيكَ الْأَتْبَاعِ، وَهَذَا مَشْهُورٌ فَكَانَ فِي ذَلِكَ الْوَقْتِ قَدْ ائْتَسَبَ كَثِيرٌ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدَرِيَّةِ مِنَ الْمُعْتَزَلَةِ، وَغَيْرِهِمْ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ فِي الْفُرُوعِ مَعَ أَنَّهُ وَأَصْحَابُهُ كَانُوا مِنْ أَبْرَارِ النَّاسِ مِنْ مَذَاهِبِ الْمُعْتَزَلَةِ وَكَلَامُهُمْ فِي ذَلِكَ مَشْهُورٌ، حَتَّى قَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: لَعَنَ اللَّهُ عَمْرَو بْنَ عُبَيْدٍ هُوَ فَتَحَ عَلَى النَّاسِ الْكَلَامَ فِي هَذَا... وَمَا زَالَ الْفُقَهَاءُ مِنْ أَصْحَابِهِ يُنَادُونَ الْمُعْتَزَلَةَ وَغَيْرَهُمْ مِنْ أَهْلِ الْأَهْوَاءِ، وَقَدْ كَانَ بِشَرِّ بَنِي غِيَاثِ الْمَرِيسِيِّ رَأْسُ الْجَهْمِيَّةِ، وَأَحْمَدُ بْنُ أَبِي دَاوُدَ قَاضِي الْفُضَاةِ، وَنُظَرَاؤُهُمْ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ الْمُعْتَزَلَةِ وَغَيْرِهِمْ قَبْلَهُمْ وَبَعْدَهُمْ يَنْتَسِبُونَ فِي الْفُرُوعِ إِلَى مَذْهَبِ أَبِي حَنِيفَةَ، وَهُمْ الَّذِينَ أَوْقَدُوا نَارَ الْحَرْبِ حَتَّى جَرَتْ فِي الْإِسْلَامِ الْمِحْنَةُ الْمَشْهُورَةُ عَلَى تَعْطِيلِ الصِّفَاتِ وَالْقَوْلِ بِخُلُقِ الْقُرْآنِ.(4)

قال الشيخ وصي الله عباس حفظه الله: "حتى جاءت قرون كان أصحاب الحديث و أصحاب العقيدة السلفية في قلة و ذلة من إخوانهم المسلمين... و وصل الحال في التعصب المذهبي في العقيدة و الفقه إلى حد كان يُمنع أصحاب العقيدة السلفية من الجهر بها, و كذلك يؤذي من كان يدرس و يدارس كتب السنة غير كتب الفقه التي تبنتها الدولة و علماءها. و ما أؤذي من قبل الإمام أحمد بن حنبل و من معه إلا من المخالفين لعقيدة السلف, و المتعصبين للمذاهب. ثم ما أؤذي ابن تيمية و تلاميذه إلا من المتعصبين." و حتى لو نظرنا إلى عهد الصحابة و التابعين لم نجد هناك مذاهب منسوبة إلى أحد من

1 أو جهمي, معتزلي, صوفي ماتريدي, خارجي, شيعي و يختلفون في "الطريقة" نقشبندية, برويلية, تجاني, جيلاني إلخ

2 -الاتباع للشيخ وصي الله عباس ص80

3 المصدر السابق ص86

4 -الفتوى الكبرى لابن تيمية 6/86

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الصحابة أو التابعين فلم نجد أحد يقول: أنا بكري (أبو بكر الصديق) أو أنا عمري (عمر بن الخطاب) أو عثمانى أو علوي أو عباسي أو مسعودي في الانتساب إلى فقهم, و حتى الأئمة الأربعة انفسهم لم نجدهم على ذلك. و حتى تلاميذ الأئمة الأربعة لم يكونوا يتعصبون لرأي شيوخهم إلا إذا رأوه موافقا للدليل, و قد كانوا يخالفون أئمتهم, و الشيخ الكريم كان لا يجد في نفسه حرجا من مخالفة تلميذه, بل ربما رجع إلى قول تلميذه, و أثنى على مخالفته له. (1)

1 -الاتباع للشيخ وصي الله عباس مقدمة بحثه و ص 88 بتصريف . انظر في هذه المسألة في كتب المذاهب كحاشية ابن عابدين 62/1, النافع الكبير ص93, خطبة المؤمل ص 112, و انظر ما ذكره الألباني في صفة صلاة النبي ص55

الفصل الثالث

هل يجوز التقليد، ولمن يجوز له التقليد

ومعلوم من تاريخ التقليد أنه لم يرفع هذا القول رأسه إلا بعد القرون المفضلة فالذي تدل عليه الأدلة أن الناس في العلم ينقسمون إلى أقسام:

1- العلماء الكبار المعروفون في الأمة بالمجتهدين يعرفهم العلماء وطلبة العلم.

2- العلماء المتوسطون الذين تعلموا العلم في أعلى درجاته من التفسير والحديث والعقيدة وهم يقدرون أن يميزوا بين الأدلة صحيحها وسقيمها

3- العامة الذين لا يعرفون الأدلة ولم يجب عليهم تعلم العلم الواسع

فأما القسم الأول فلا يجوز له تقليد أحد إلا إذا عجز عن معرفة الحكم في بعض المسائل فجاز له أن يقلد من شاء ممن طابت له واطمأنت إليه نفسه من العلماء

والقسم الثاني أيضا لا يجوز له التقليد مثل القسم الأول فلا بد أن يعرف الأدلة ويفهم فتاوى العلماء بالدليل أو يقلد إذا عجز ولم يعرف الدليل ممن يقلده

أما القسم الثالث وهو عامة الناس الذين لا بصر لهم بالأدلة فجاز لهم أن يسألوا أي واحد من العلماء من النوعين المذكورين بالعلم والصلاح من غير تقيد برأي أحد أو مذهب أحد يقلده

وقال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "وَالَّذِي عَلَيْهِ جَمَاهِيرُ الْأُمَّةِ أَنَّ الْاجْتِهَادَ جَائِزٌ فِي الْجُمْلَةِ؛ وَالتَّقْلِيدَ جَائِزٌ فِي الْجُمْلَةِ لَا يُوجِبُونَ الْاجْتِهَادَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَيَحْرَمُونَ التَّقْلِيدَ وَلَا يُوجِبُونَ التَّقْلِيدَ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ وَيَحْرَمُونَ الْاجْتِهَادَ وَأَنَّ الْاجْتِهَادَ جَائِزٌ لِلْقَادِرِ عَلَى الْاجْتِهَادِ وَالتَّقْلِيدَ جَائِزٌ لِلْعَاجِزِ عَنِ الْاجْتِهَادِ. فَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى الْاجْتِهَادِ فَهَلْ يَجُوزُ لَهُ التَّقْلِيدُ؟ هَذَا فِيهِ خِلَافٌ وَالصَّحِيحُ أَنَّهُ يَجُوزُ حَيْثُ عَجَزَ عَنِ الْاجْتِهَادِ: إِمَّا لِنُكَافُؤِ الْأَدِلَّةِ وَإِمَّا لِضِيقِ الْوَقْتِ عَنِ الْاجْتِهَادِ وَإِمَّا لِعَدَمِ ظُهُورِ دَلِيلٍ لَهُ؛ فَإِنَّهُ حَيْثُ عَجَزَ سَقَطَ عَنْهُ وَجُوبُ مَا عَجَزَ عَنْهُ وَانْتَقَلَ إِلَى بَدَلِهِ وَهُوَ التَّقْلِيدُ كَمَا لَوْ عَجَزَ عَنِ الطَّهَارَةِ بِالْمَاءِ. وَكَذَلِكَ الْعَامِيُّ إِذَا أَمَكَّنَهُ الْاجْتِهَادُ فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ جَازَ لَهُ الْاجْتِهَادُ فَإِنَّ الْاجْتِهَادَ مُنْصَبٌّ يَقْبَلُ التَّجْزِي وَالْإِنْقِسَامَ فَالْعَبْرَةُ بِالْقُدْرَةِ وَالْعَجْزُ وَقَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ قَادِرًا فِي بَعْضِ عَاجِزًا فِي بَعْضٍ لَكِنَّ الْقُدْرَةَ عَلَى الْاجْتِهَادِ لَا تَكُونُ إِلَّا بِحُصُولِ عُلُومٍ تُفِيدُ مَعْرِفَةَ الْمَطْلُوبِ فَأَمَّا مَسْأَلَةُ وَاحِدَةٍ مِنْ فَنٍّ فَيَبْعُدُ الْاجْتِهَادُ فِيهَا وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ أَعْلَمُ." (1)

وقال ابن عبد البر: "وَهَذَا كُلُّهُ لِعَبْرِ الْعَامَّةِ؛ فَإِنَّ الْعَامَّةَ لَا بُدَّ لَهَا مِنْ تَقْلِيدِ عُلَمَائِهَا عِنْدَ النَّازِلَةِ تَنْزِلُ بِهَا؛ لِأَنَّهَا لَا تَتَبَيَّنُ مَوْقِعَ الْحُجَّةِ وَلَا تَصِلُ لِعَدَمِ الْفَهْمِ إِلَى عِلْمِ ذَلِكَ؛ لِأَنَّ

الْعِلْمَ دَرَجَاتٌ لَا سَبِيلَ مِنْهَا إِلَى أَعْلَاهَا إِلَّا بَنِيْلَ أَسْفَلِهَا، وَهَذَا هُوَ الْحَائِلُ بَيْنَ الْعَامَّةِ وَبَيْنَ طَلَبِ الْحُجَّةِ، وَاللَّهُ أَعْلَمُ، وَلَمْ تَخْتَلِفِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْعَامَّةَ عَلَيْهَا تَقْلِيدٌ عُلَمَائِهَا وَأَنَّهُمْ الْمُرَادُونَ بِقَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ {فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ} [النحل: 43] وَأَجْمَعُوا عَلَى أَنَّ الْأَعْمَى لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَقْلِيدِ غَيْرِهِ مِمَّنْ يَثِيقُ بِمَيزَرِهِ بِالْقِبْلَةِ إِذَا أَشْكَلَتْ عَلَيْهِ فَكَذَلِكَ مَنْ لَا عِلْمَ لَهُ وَلَا بَصَرَ بِمَعْنَى مَا يَدِينُ بِهِ لَا بُدَّ لَهُ مِنْ تَقْلِيدِ عَالِمِهِ، وَكَذَلِكَ لَمْ يَخْتَلِفِ الْعُلَمَاءُ أَنَّ الْعَامَّةَ لَا يَجُوزُ لَهَا الْفُتْيَا، وَذَلِكَ وَاللَّهُ أَعْلَمُ لِجَهْلِهَا بِالْمَعَانِي الَّتِي مِنْهَا يَجُوزُ التَّحْلِيلُ وَالتَّحْرِيمُ وَالْقَوْلُ فِي الْعِلْمِ... (1)

لكن لا يجوز للمسلم عالما كان أو عاميا أن يتبع أو يقلد قول إمام واحد في كل ما نقل عنه وفي كل المسائل. و ما يقال إنه يجب فهو قول لا دليل عليه بل قد يؤدي هذا القول إلى مخالفة الله ورسوله فإن المنقول عن الأئمة والمنسوب إليهم أشياء لم تثبت نسبتها إليهم ولو ثبت وكان مخالفا للنص الشرعي وجب تركه والرجوع إلى النص. (2)

وقال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "مَا تَقُولُ السَّادَةُ الْعُلَمَاءُ أَيْمَةُ الدِّينِ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ أَجْمَعِينَ - فِي رَجُلٍ سَأَلَ إِيَّاهُ مَذْهَبُكَ؟ فَقَالَ: مُحَمَّدِيٌّ أَتَّبِعُ كِتَابَ اللَّهِ وَسُنَّةَ رَسُولِهِ مُحَمَّدٍ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقِيلَ لَ: يَنْبَغِي لِكُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يَتَّبِعَ مَذْهَبًا وَمَنْ لَا مَذْهَبَ لَهُ فَهُوَ شَيْطَانٌ فَقَالَ: إِيَّاهُ كَانَ مَذْهَبُ أَبِي بَكْرٍ الصِّدِّيقِ وَالْخُلَفَاءِ بَعْدَهُ - رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ -؟ فَقِيلَ لَهُ: لَا يَنْبَغِي لَكَ إِلَّا أَنْ تَتَّبِعَ مَذْهَبًا مِنْ هَذِهِ الْمَذَاهِبِ فَأَيُّهُمَا الْمُصِيبُ؟ أَفْتُونَا مَا جُورِينَ."

فَأَجَابَ: الْحَمْدُ لِلَّهِ، إِنَّمَا يَجِبُ عَلَى النَّاسِ طَاعَةُ اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَهُوَ لَا أَوْلَا أُولَا الْأَمْرَ الَّذِينَ أَمَرَ اللَّهُ بِطَاعَتِهِمْ فِي قَوْلِهِ: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ} إِنَّمَا تَجِبُ طَاعَتُهُمْ تَبَعًا لَطَاعَةِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ لَا اسْتِقْلَالًا ثُمَّ قَالَ: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا} . وَإِذَا نَزَلَتْ بِالْمُسْلِمِ نَازِلَةٌ فَإِنَّهُ يَسْتَفْتِي مَنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يُفْتِيهِ بِشَرَعِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَيِّ مَذْهَبٍ كَانَ وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ تَقْلِيدَ شَخْصٍ بَعِيْنِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ فِي كُلِّ مَا يَقُولُ وَلَا يَجِبُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ التَّزَامُ مَذْهَبِ شَخْصٍ مُعَيَّنٍ غَيْرِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي كُلِّ مَا يُوجِبُهُ وَيُخْبِرُ بِهِ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. وَاتِّبَاعُ شَخْصٍ لِمَذْهَبِ شَخْصٍ بَعِيْنِهِ لِعَجْزِهِ عَنِ مَعْرِفَةِ الشَّرْعِ مِنْ غَيْرِ جِهَتِهِ إِنَّمَا هُوَ مِمَّا يَسُوغُ لَهُ لَيْسَ هُوَ مِمَّا يَجِبُ عَلَى كُلِّ أَحَدٍ إِذَا أَمَكَنَهُ مَعْرِفَةُ الشَّرْعِ بِغَيْرِ ذَلِكَ الطَّرِيقِ بَلْ كُلُّ أَحَدٍ عَلَيْهِ أَنْ يَتَّقِيَ اللَّهَ مَا اسْتَطَاعَ وَيَطْلُبَ عِلْمَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ فَيَفْعَلَ الْمَأْمُورَ وَيُتْرِكَ الْمَحْظُورَ. وَاللَّهُ أَعْلَمُ. (3)

¹ جامع بيان العلم وفضله 975/2-989 والفقيه والمتفقه 68/2 وإعلام الموقعين 447/3

² -التقليد وحكمه في ضوء الكتاب والسنة والآثار السلفية للشيخ وصي الله عباس ص38-55 باختصار وتصريف

³ -مجموع الفتاوى 208/20-209

و سئل ابن تيمية رحمه الله: "عَنْ رَجُلٍ حَنَفِيٍّ صَلَّى فِي جَمَاعَةٍ وَأَسْرَ نَبِيَّهُ ثُمَّ رَفَعَ يَدَيْهِ فِي كُلِّ تَكْبِيرَةٍ؛ فَأَنكَرَ عَلَيْهِ فَقِيهِ الْجَمَاعَةِ وَقَالَ لَهُ: هَذَا لَا يَجُوزُ فِي مَذْهَبِكَ وَأَنْتَ مُبْتَدِعٌ فِيهِ وَأَنْتَ مُدْبَذَّبٌ لَا بِإِمَامِكَ أَفْتَدَيْتَ وَلَا بِمَذْهَبِكَ اهْتَدَيْتَ. فَهَلْ مَا فَعَلَهُ نَقُصٌ فِي صَلَاتِهِ وَمُخَالَفَةٌ لِلسُّنَّةِ وَلِإِمَامِهِ أَمْ لَا؟".

فَأَجَابَ: "... وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَّبِعًا لِأَبِي حَنِيفَةَ أَوْ مَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَدَ: وَرَأَى فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ أَنَّ مَذْهَبَ غَيْرِهِ أَقْوَى فَاتَّبَعَهُ كَانَ قَدْ أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَفْذَخْ ذَلِكَ فِي دِينِهِ. وَلَا عَدَالَتِهِ بَلَا نِزَاعٍ؛ بَلْ هَذَا أَوْلَى بِالْحَقِّ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ يَتَّعَصِبُ لِوَاحِدٍ مُعَيَّنٍ غَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَنْ يَتَّعَصِبُ لِمَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَدَ أَوْ أَبِي حَنِيفَةَ وَيَرَى أَنَّ قَوْلَ هَذَا الْمُعَيَّنِ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ دُونَ قَوْلِ الْإِمَامِ الَّذِي خَالَفَهُ. فَمَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ جَاهِلًا ضَالًّا؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ كَافِرًا؛ فَإِنَّهُ مَتَى اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ وَاحِدٍ بَعِيْنِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ دُونَ الْإِمَامِ الْآخَرِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسْتَنَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. بَلْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهُ يَسُوءُ أَوْ يَنْبَغِي أَوْ يَجِبُ عَلَى الْعَامَّةِ أَنْ يَقْلَدَ وَاحِدًا لَا بَعِيْنِهِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينِ زَيْدٍ وَلَا عَمْرٍو. وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ فَهَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ. وَمَنْ كَانَ مُوَالِيًا لِلْأَئِمَّةِ مُحِبًّا لَهُمْ يَقْلَدُ كُلَّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ فِيمَا يَظْهَرُ لَهُ أَنَّهُ مُوَافِقٌ لِلسُّنَّةِ فَهُوَ مُحْسِنٌ فِي ذَلِكَ." (1)

وَسُئِلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - رَحِمَهُ اللَّهُ - عَنْ رَجُلٍ تَفَقَّهَ فِي مَذْهَبٍ مِنَ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ وَتَبَصَّرَ فِيهِ وَاشْتَغَلَ بَعْدَهُ بِالْحَدِيثِ فَرَأَى أَحَادِيثَ صَحِيحَةً لَا يَعْلَمُ لَهَا نَاسِخًا وَلَا مُخَصِّصًا وَلَا مُعَارِضًا وَذَلِكَ الْمَذْهَبُ مُخَالِفٌ لَهَا: فَهَلْ يَجُوزُ لَهُ الْعَمَلُ بِذَلِكَ الْمَذْهَبِ؟ أَوْ يَجِبُ عَلَيْهِ الرُّجُوعُ إِلَى الْعَمَلِ بِالْأَحَادِيثِ وَيُخَالِفُ مَذْهَبَهُ؟

فَأَجَابَ: "الْحَمْدُ لِلَّهِ، قَدْ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فَرَضَ عَلَى الْخَلْقِ طَاعَتَهُ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَمْ يُوجِبْ عَلَى هَذِهِ الْأُمَّةِ طَاعَةَ أَحَدٍ بَعِيْنِهِ فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ حَتَّى كَانَ صَدِيقُ الْأُمَّةِ وَأَفْضَلُهَا بَعْدَ نَبِيِّهَا يَقُولُ: أَطِيعُونِي مَا أَطَعْتَ اللَّهَ فَإِذَا عَصَيْتَ اللَّهَ فَلَا طَاعَةَ لِي عَلَيْكُمْ. وَاتَّقُوا كُلَّهُمْ عَلَى أَنَّهُ لَيْسَ أَحَدٌ مَعْصُومًا فِي كُلِّ مَا يَأْمُرُ بِهِ وَيَنْهَى عَنْهُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلِهَذَا قَالَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ: كُلُّ أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُنْرَكُ إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ.

وَهَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةُ الْأَرْبَعَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ قَدْ نَهَوْا النَّاسَ عَنْ تَقْلِيدِهِمْ فِي كُلِّ مَا يَقُولُونَهُ وَذَلِكَ هُوَ الْوَاجِبُ عَلَيْهِمْ؛ فَقَالَ أَبُو حَنِيفَةَ: هَذَا رَأْيِي وَهَذَا أَحْسَنُ مَا رَأَيْتُ؛ فَمَنْ جَاءَ بِرَأْيٍ خَيْرٍ مِنْهُ قَبْلُنَا وَلِهَذَا لَمَّا اجْتَمَعَ أَفْضَلُ أَصْحَابِهِ أَبُو يُوسُفَ بِمَالِكٍ فَسَأَلَهُ عَنْ مَسْأَلَةِ الصَّاعِ؛ وَصَدَقَةِ الْخَضِرَاوَاتِ؛ وَمَسْأَلَةِ الْأَجْنَاسِ؛ فَأَخْبَرَهُ مَالِكٌ بِمَا تَدُلُّ عَلَيْهِ السُّنَّةُ فِي

ذَلِكَ فَقَالَ: رَجَعْتُ إِلَى قَوْلِكَ يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ وَلَوْ رَأَى صَاحِبِي مَا رَأَيْتَ لَرَجَعِ إِلَى قَوْلِكَ كَمَا رَجَعْتُ. وَمَالِكٌ كَانَ يَقُولُ: إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ أَصِيبُ وَأُخْطِئُ فَأَعْرَضُوا قَوْلِي عَلَى الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ أَوْ كَلَامًا هَذَا مَعْنَاهُ. وَالشَّافِعِيُّ كَانَ يَقُولُ: إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ فَأَضْرِبُوا بِقَوْلِي الْحَائِطَ وَإِذَا رَأَيْتَ الْحُجَّةَ مَوْضُوعَةً عَلَى الطَّرِيقِ فَهِيَ قَوْلِي. وَفِي مُخْتَصَرِ الْمَزْنِيِّ لَمَّا ذَكَرَ أَنَّهُ اخْتَصَرَهُ مِنْ مَذْهَبِ الشَّافِعِيِّ لِمَنْ أَرَادَ مَعْرِفَةَ مَذْهَبِهِ قَالَ: مَعَ إِعْلَامِهِ نَهْيُهُ عَنْ تَقْلِيدِهِ وَتَقْلِيدِ غَيْرِهِ مِنَ الْعُلَمَاءِ. وَالْإِمَامُ أَحْمَدُ كَانَ يَقُولُ: لَا تَقْلُدُونِي وَلَا تَقْلُدُوا مَالِكًا وَلَا الشَّافِعِيَّ وَلَا الثَّوْرِيَّ وَتَعَلَّمُوا كَمَا تَعَلَّمْنَا. وَكَانَ يَقُولُ: مِنْ قَلَّةِ عِلْمِ الرَّجُلِ أَنْ يَقْلُدَ دِينَهُ الرَّجَالَ وَقَالَ: لَا تَقْلُدْ دِينَكَ الرَّجَالَ فَإِنَّهُمْ لَنْ يَسْلَمُوا مِنْ أَنْ يَغْلُطُوا. وَقَدْ ثَبَتَ فِي الصَّحِيحِ عَنِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَنَّهُ قَالَ: {مَنْ يُرِدْ اللَّهُ بِهِ خَيْرًا يُفْقَهُهُ فِي الدِّينِ} وَلَا زِمَ ذَلِكَ أَنْ مَنْ لَمْ يُفْقَهُهُ اللَّهُ فِي الدِّينِ لَمْ يُرِدْ بِهِ خَيْرًا فَيَكُونُ التَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ فَرَضًا. وَالتَّفَقُّهُ فِي الدِّينِ: مَعْرِفَةُ الْأَحْكَامِ الشَّرْعِيَّةِ بِأَدِلَّتِهَا السَّمْعِيَّةِ. فَمَنْ لَمْ يَعْرِفْ ذَلِكَ لَمْ يَكُنْ مُتَفَقِّهًا فِي الدِّينِ لَكِنْ مِنَ النَّاسِ مَنْ قَدْ يَعْجُرُ عَنْ مَعْرِفَةِ الْأَدِلَّةِ النَّفْصِيَّةِ فِي جَمِيعِ أُمُورِهِ فَيَسْقُطُ عَنْهُ مَا يَعْجُرُ عَنْ مَعْرِفَتِهِ لَا كُلُّ مَا يَعْجُرُ عَنْهُ مِنَ التَّفَقُّهِ وَيَلْزِمُهُ مَا يَفْهَرُ عَلَيْهِ. وَأَمَّا الْقَادِرُ عَلَى الْإِسْتِدْلَالِ؛ فَقِيلَ: يَحْرُمُ عَلَيْهِ التَّقْلِيدُ مُطْلَقًا وَقِيلَ: يَجُوزُ مُطْلَقًا وَقِيلَ: يَجُوزُ عِنْدَ الْحَاجَةِ؛ كَمَا إِذَا ضَاقَ الْوَقْتُ عَنِ الْإِسْتِدْلَالِ وَهَذَا الْقَوْلُ أَغْدَلُ الْأَقْوَالِ. وَالْاجْتِهَادُ لَيْسَ هُوَ أَمْرًا وَاحِدًا لَا يَقْبَلُ التَّجْزِيءَ وَالْإِنْقِسَامَ بَلْ قَدْ يَكُونُ الرَّجُلُ مُجْتَهِدًا فِي فَنٍّ أَوْ بَابٍ أَوْ مَسْأَلَةٍ دُونَ فَنٍّ وَبَابٍ وَمَسْأَلَةٍ وَكُلُّ أَحَدٍ فَاجْتِهَادُهُ بِحَسَبِ وَسْعِهِ فَمَنْ نَظَرَ فِي مَسْأَلَةٍ تَنَازَعَ الْعُلَمَاءُ فِيهَا وَرَأَى مَعَ أَحَدِ الْقَوْلَيْنِ نُصُوصًا لَمْ يَعْلَمْ لَهَا مُعَارَضًا بَعْدَ نَظَرٍ مِثْلِهِ فَهُوَ بَيْنَ أَمْرَيْنِ: إِمَّا أَنْ يَتَّبِعَ قَوْلَ الْقَائِلِ الْآخَرِ لِمَجَرَّدِ كَوْنِهِ الْإِمَامَ الَّذِي اشْتَغَلَ عَلَى مَذْهَبِهِ؛ وَمِثْلُ هَذَا لَيْسَ بِحُجَّةٍ شَرْعِيَّةٍ بَلْ مُجَرَّدُ عَادَةٍ يُعَارِضُهَا عَادَةُ غَيْرِهِ وَاشْتِغَالُ عَلَى مَذْهَبِ إِمَامٍ آخَرَ. وَإِمَّا أَنْ يَتَّبِعَ الْقَوْلَ الَّذِي تَرَجَّحَ فِي نَظَرِهِ بِالنُّصُوصِ الدَّالَّةِ عَلَيْهِ وَحِينَئِذٍ فَتَكُونُ مُوَافَقَتُهُ لِإِمَامٍ يَقَاوِمُ ذَلِكَ الْإِمَامَ وَتَبْقَى النُّصُوصُ سَالِمَةً فِي حَقِّهِ عَنْ الْمُعَارِضِ بِالْعَمَلِ فَهَذَا هُوَ الَّذِي يَصْلُحُ. وَإِنَّمَا تَنَزَّلْنَا هَذَا التَّنَزُّلَ لِأَنَّهُ قَدْ يُقَالُ: إِنَّ نَظَرَ هَذَا قَاصِرٌ وَلَيْسَ اجْتِهَادُهُ قَائِمًا فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ؛ لِضَعْفِ آلَةِ الْاجْتِهَادِ فِي حَقِّهِ. أَمَّا إِذَا قَدَّرَ عَلَى الْاجْتِهَادِ التَّامِّ الَّذِي يَعْتَقِدُ مَعَهُ أَنَّ الْقَوْلَ الْآخَرَ لَيْسَ مَعَهُ مَا يَدْفَعُ بِهِ النَّصَّ فَهَذَا يَجِبُ عَلَيْهِ اتِّبَاعُ النُّصُوصِ وَإِنْ لَمْ يَفْعَلْ كَانَ مُتَّبِعًا لِلظَّنِّ وَمَا تَهَوَّى الْأَنْفُسُ وَكَانَ مِنْ أَكْبَرِ الْعُصَاةِ لِلَّهِ وَلِرَسُولِهِ بِخِلَافِ مَنْ يَقُولُ: قَدْ يَكُونُ لِلْقَوْلِ الْآخَرِ حُجَّةٌ رَاجِحَةٌ عَلَى هَذَا النَّصِّ وَأَنَا لَا أَعْلَمُهَا فَهَذَا يُقَالُ لَهُ: قَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ} وَقَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ {إِذَا أَمَرْتُكُمْ بِأَمْرٍ فَأَتُوا مِنْهُ مَا اسْتَطَعْتُمْ} وَالَّذِي تَسْتَطِيعُهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْفَقْهِ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ قَدْ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ هَذَا الْقَوْلَ هُوَ الرَّاجِحُ فَعَلَيْكَ أَنْ تَتَّبِعَ ذَلِكَ ثُمَّ إِنْ تَبَيَّنَ لَكَ فِيهَا بَعْدَ أَنْ لِلنَّصِّ مُعَارِضًا رَاجِحًا كَانَ حُكْمُكَ فِي ذَلِكَ حُكْمُ الْمُجْتَهِدِ الْمُسْتَقِلِّ إِذَا تَغَيَّرَ اجْتِهَادُهُ وَانْتَقَلَ الْإِنْسَانُ مِنْ قَوْلٍ إِلَى قَوْلٍ لِأَجْلِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ مِنَ الْحَقِّ هُوَ مُحْمُودٌ فِيهِ بِخِلَافِ إِصْرَارِهِ عَلَى قَوْلٍ لَا حُجَّةَ مَعَهُ عَلَيْهِ وَتَرْكُ الْقَوْلِ الَّذِي وَضَحَتْ حُجَّتُهُ أَوْ الْإِنْتِقَالُ عَنْ قَوْلٍ إِلَى قَوْلٍ لِمَجَرَّدِ عَادَةٍ وَاتِّبَاعِ هَوَى فَهَذَا مَذْمُومٌ. وَإِذَا كَانَ الْإِمَامُ الْمُقْلَدُ قَدْ سَمِعَ الْحَدِيثَ وَتَرَكَهُ - لَا سِيَّمًا إِذَا كَانَ قَدْ رَوَاهُ أَيْضًا - فَمِثْلُ هَذَا وَحْدَهُ لَا يَكُونُ عُذْرًا

فِي تَرْكِ النَّصِّ فَقَدْ بَيَّنَّا فِيمَا كَتَبْنَاهُ فِي " رَفْعِ الْمَلَامِ عَنِ الْأَئِمَّةِ الْأَعْلَامِ " نَحْوَ عَشْرِينَ عُذْرًا لِلْأَئِمَّةِ فِي تَرْكِ الْعَمَلِ بِبَعْضِ الْحَدِيثِ وَبَيَّنَّا أَنَّهُمْ يُعَذَّرُونَ فِي التَّارِكِ لِتِلْكَ الْأَعْدَارِ وَأَمَّا نَحْنُ فَمَعَذَّرُونَ فِي تَرْكِهَا لِهَذَا الْقَوْلِ. فَمَنْ تَرَكَ الْحَدِيثَ لَا عِتْقَادَ لَهُ أَنَّهُ لَمْ يَصِحَّ؛ أَوْ أَنَّ رَاوِيَهُ مَجْهُولٌ وَنَحْوَ ذَلِكَ؛ وَيَكُونُ غَيْرُهُ قَدْ عَلِمَ صِحَّتَهُ وَثِقَةَ رَاوِيهِ: فَقَدْ زَالَ عُذْرُ ذَلِكَ فِي حَقِّ هَذَا وَمَنْ تَرَكَ الْحَدِيثَ لَا عِتْقَادَ لَهُ أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ يُخَالِفُهُ؛ أَوْ الْقِيَاسَ؛ أَوْ عَمَلَ لِبَعْضِ الْأُمُصَارِ؛ وَقَدْ تَبَيَّنَ لِلْآخِرِ أَنَّ ظَاهِرَ الْقُرْآنِ لَا يُخَالِفُهُ؛ وَأَنَّ نَصَّ الْحَدِيثِ الصَّحِيحِ مُقَدَّمٌ عَلَى الظَّوَاهِرِ؛ وَمُقَدَّمٌ عَلَى الْقِيَاسِ وَالْعَمَلِ: لَمْ يَكُنْ عُذْرٌ ذَلِكَ الرَّجُلِ عُذْرًا فِي حَقِّهِ؛ فَإِنَّ ظُهُورَ الْمَدَارِكِ الشَّرْعِيَّةِ لِلْأَذْهَانِ وَخَفَاءَهَا عَنْهَا أَمْرٌ لَا يَنْضَبِطُ طَرَفَاهُ لَا سِيَّمَا إِذَا كَانَ التَّارِكُ لِلْحَدِيثِ مُعْتَقِدًا أَنَّهُ قَدْ تَرَكَ الْعَمَلَ بِهِ الْمُهَاجِرُونَ وَالْأَنْصَارُ أَهْلُ الْمَدِينَةِ النَّبَوِيَّةِ وَغَيْرِهَا الَّذِينَ يُقَالُ: إِنَّهُمْ لَا يَتْرَكُونَ الْحَدِيثَ إِلَّا لَا عِتْقَادَ لَهُمْ أَنَّهُ مَنْسُوخٌ أَوْ مُعَارَضٌ بِرَاجِحٍ وَقَدْ بَلَغَ مَنْ بَعْدَهُ أَنَّ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارَ لَمْ يَتْرَكُوهُ بَلْ عَمِلَ بِهِ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ؛ أَوْ مَنْ سَمِعَهُ مِنْهُمْ؛ وَنَحْوَ ذَلِكَ مِمَّا يَفْدُخُ فِي هَذَا الْمُعَارِضِ لِلنَّصِّ. وَإِذَا قِيلَ لِهَذَا الْمُسْتَهْدِي الْمُسْتَرْشِدِ: أَنْتَ أَعْلَمُ أَمْ الْإِمَامُ الْفُلَانِي؟ كَانَتْ هَذِهِ مُعَارَضَةً فَاسِدَةً؛ لِأَنَّ الْإِمَامَ الْفُلَانِيَّ قَدْ خَالَفَهُ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ مَنْ هُوَ نَظِيرُهُ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَلَسْتُ أَعْلَمُ مِنْ هَذَا وَلَا هَذَا وَلَكِنْ نِسْبَةُ هَؤُلَاءِ إِلَى الْأَئِمَّةِ كَنِسْبَةِ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرُ وَعُثْمَانُ وَعَلِيٌّ وَابْنُ مَسْعُودٍ وَأَبِي وَمُعَاذٍ وَنَحْوِهِمْ إِلَى الْأَئِمَّةِ وَغَيْرِهِمْ فَكَمَا أَنَّ هَؤُلَاءِ الصَّحَابَةَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ أَكْفَاءٌ فِي مَوَارِدِ النَّزَاعِ؛ وَإِذَا تَنَازَعُوا فِي شَيْءٍ رَدُّوا مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ وَإِنْ كَانَ بَعْضُهُمْ قَدْ يَكُونُ أَعْلَمُ فِي مَوَاضِعٍ أُخَرَ: فَكَذَلِكَ مَوَارِدُ النَّزَاعِ بَيْنَ الْأَئِمَّةِ وَقَدْ تَرَكَ النَّاسُ قَوْلَ عُمَرَ وَابْنِ مَسْعُودٍ فِي مَسْأَلَةِ تَيْمُمِ الْجُنُبِ وَأَخَذُوا بِقَوْلِ مَنْ هُوَ دُونُهُمَا كَأَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ وَغَيْرِهِ لَمَّا احْتَجَّ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَتَرَكَوا قَوْلَ عُمَرَ فِي دِيَةِ الْأَصَابِعِ وَأَخَذُوا بِقَوْلِ مُعَاوِيَةَ لَمَّا كَانَ مَعَهُ مِنَ السُّنَّةِ أَنَّ النَّبِيَّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ: " هَذِهِ وَهَذِهِ سَوَاءٌ ". وَقَدْ كَانَ بَعْضُ النَّاسِ يُنَاطِرُ ابْنَ عَبَّاسٍ فِي الْمُتَعَةِ فَقَالَ لَهُ: قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: يُوْشِكُ أَنْ تَنْزَلَ عَلَيْكُمْ جَارَةٌ مِنَ السَّمَاءِ أَقُولُ قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَتَقُولُونَ قَالَ أَبُو بَكْرٍ وَعُمَرُ؟ . وَكَذَلِكَ ابْنُ عُمَرَ لَمَّا سَأَلُوهُ عَنْهَا فَأَمَرَ بِهَا فَعَارَضُوا بِقَوْلِ عُمَرَ فَتَبَيَّنَ لَهُمْ أَنَّ عُمَرَ لَمْ يَرُدَّ مَا يَقُولُونَهُ فَأَلْحُوا عَلَيْهِ فَقَالَ لَهُمْ: أَمْرُ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَحَقُّ أَنْ يُتَّبَعَ أَمْ أَمْرُ عُمَرَ؟ مَعَ عِلْمِ النَّاسِ أَنَّ أَبَا بَكْرٍ وَعُمَرَ أَعْلَمُ مِمَّنْ هُوَ فَوْقَ ابْنِ عُمَرَ وَابْنِ عَبَّاسٍ. وَلَوْ فُتِحَ هَذَا الْبَابُ لَوَجَبَ أَنْ يُعْرَضَ عَنْ أَمْرِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَيَبْقَى كُلُّ إِمَامٍ فِي اتِّبَاعِهِ بِمَنْزِلَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَمْرِهِ وَهَذَا تَبْدِيلٌ لِلدِّينِ يُشْبِهُ مَا عَابَ اللَّهُ بِهِ النَّصَارَى فِي قَوْلِهِ: {اتَّخَذُوا أَخْبَارَهُمْ وَرُءُوبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أَمْرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ} وَاللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى أَعْلَمُ وَالْحَمْدُ لِلَّهِ وَحْدَهُ. (1)

وقال ابن القيم رحمه الله: "وَهَلْ يُلْزَمُ الْعَامِيُّ أَنْ يَتَمَذَّهَبَ بِبَعْضِ الْمَذَاهِبِ الْمَعْرُوفَةِ أَمْ لَا؟ فِيهِ مَذْهَبَانِ:

أَحَدُهُمَا: لَا يُلْزَمُهُ، وَهُوَ الصَّوَابُ الْمَقْطُوعُ بِهِ؛ إِذْ لَا وَاجِبَ إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَلَمْ يُوجِبِ اللَّهُ وَلَا رَسُولُهُ عَلَى أَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يَتَمَذَّهَبَ بِمَذْهَبِ رَجُلٍ مِنَ الْأُمَّةِ فَيَقْلُدَهُ دِينَهُ دُونَ غَيْرِهِ، وَقَدْ انْطَوَتْ الْقُرُونُ الْفَاضِلَةُ مُبَرَّرَةً مُبَرَّرًا أَهْلِهَا مِنْ هَذِهِ النِّسْبَةِ، بَلْ لَا يَصِحُّ لِلْعَامِيِّ مَذْهَبٌ وَلَوْ تَمَذَّهَبَ بِهِ؛ فَالْعَامِيُّ لَا مَذْهَبَ لَهُ؛ لِأَنَّ الْمَذْهَبَ إِنَّمَا يَكُونُ لِمَنْ لَهُ نَوْعٌ نَظَرٍ وَاسْتِدْلَالٍ، وَيَكُونُ بَصِيرًا بِالْمَذَاهِبِ عَلَى حَسْبِهِ، أَوْ لِمَنْ قَرَأَ كِتَابًا فِي فُرُوعِ ذَلِكَ الْمَذْهَبِ وَعَرَفَ فَتَاوَى إِمَامِهِ وَأَقْوَالَهُ، وَأَمَّا مَنْ لَمْ يَتَأَهَّلْ لِذَلِكَ أَلْبَتَّةَ بَلْ قَالَ: أَنَا شَافِعِيٌّ، أَوْ حَنَبَلِيٌّ، أَوْ غَيْرُ ذَلِكَ؛ لَمْ يَصِرْ كَذَلِكَ بِمُجَرَّدِ الْقَوْلِ، كَمَا لَوْ قَالَ: أَنَا فُقَيْهٌ، أَوْ نَحْوِيٌّ، أَوْ كَاتِبٌ، لَمْ يَصِرْ كَذَلِكَ بِمُجَرَّدِ قَوْلِهِ.

يُوضِّحُهُ أَنَّ الْقَائِلَ إِنَّهُ شَافِعِيٌّ أَوْ مَالِكِيٌّ أَوْ حَنَفِيٌّ يَزْعُمُ أَنَّهُ مُتَّبِعٌ لِذَلِكَ الْإِمَامِ، سَالِكٌ طَرِيقَهُ، وَهَذَا إِنَّمَا يَصِحُّ لَهُ إِذَا سَلَكَ سَبِيلَهُ فِي الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ وَالِاسْتِدْلَالِ، فَأَمَّا مَعَ جَهْلِهِ وَبُعْدِهِ جَدًّا عَنْ سِيرَةِ الْإِمَامِ وَعِلْمِهِ وَطَرِيقِهِ فَكَيْفَ يَصِحُّ لَهُ الْإِنْتِسَابُ إِلَيْهِ إِلَّا بِالِدَّعْوَى الْمُجَرَّدَةِ وَالْقَوْلِ الْفَارِغِ مِنْ كُلِّ مَعْنَى؟ وَالْعَامِيُّ لَا يُتَصَوَّرُ أَنْ يَصِحَّ لَهُ مَذْهَبٌ، وَلَوْ تَصَوَّرَ ذَلِكَ لَمْ يُلْزَمُهُ وَلَا لغيره، وَلَا يُلْزَمُ أَحَدًا قَطُّ أَنْ يَتَمَذَّهَبَ بِمَذْهَبِ رَجُلٍ مِنَ الْأُمَّةِ حَيْثُ يَأْخُذُ أَقْوَالَهُ كُلَّهَا وَيَدْعُ أَقْوَالَ غَيْرِهِ.

وَهَذِهِ بَدْعَةٌ قَبِيحَةٌ حَدَّثَتْ فِي الْأُمَّةِ، لَمْ يَقُلْ بِهَا أَحَدٌ مِنْ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ، وَهُمْ أَعْلَى رُتْبَةٍ وَأَجَلُ قَدْرٍ وَأَعْلَمُ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ مِنْ أَنْ يُلْزَمُوا النَّاسَ بِذَلِكَ، وَأَبْعَدُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: يُلْزَمُهُ أَنْ يَتَمَذَّهَبَ بِمَذْهَبِ عَالِمٍ مِنَ الْعُلَمَاءِ، وَأَبْعَدُ مِنْهُ قَوْلُ مَنْ قَالَ: يُلْزَمُهُ أَنْ يَتَمَذَّهَبَ بِأَحَدِ الْمَذَاهِبِ الْأَرْبَعَةِ.

فَيَا لِهَذَا الْعَجَبِ، مَا تَنَتَّ مَذَاهِبُ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - وَمَذَاهِبُ التَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ وَسَائِرُ أَيْمَةِ الْإِسْلَامِ، وَبَطَلَتْ جُمْلَةُ إِلَّا مَذَاهِبَ أَرْبَعَةٍ أَنْفُسٍ فَقَطُّ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ الْأَيْمَةِ وَالْفُقَهَاءِ، وَهَلْ قَالَ ذَلِكَ أَحَدٌ مِنَ الْأَيْمَةِ أَوْ دَعَا إِلَيْهِ أَوْ دَلَّتْ عَلَيْهِ لَفْظَةٌ وَاحِدَةٌ مِنْ كَلَامِهِ عَلَيْهِ؟ وَالَّذِي أَوْجَبَهُ اللَّهُ - تَعَالَى وَرَسُولُهُ عَلَى الصَّحَابَةِ وَالتَّابِعِينَ وَتَابِعِيهِمْ هُوَ الَّذِي أَوْجَبَهُ عَلَى مَنْ بَعْدَهُمْ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ، لَا يَخْتَلِفُ الْوَاجِبُ وَلَا يَتَبَدَّلُ، وَإِنْ اخْتَلَفَتْ كَيْفِيَّتُهُ أَوْ قَدْرُهُ بِاخْتِلَافِ الْقُدْرَةِ وَالْعِزِّ وَالزَّمَانِ وَالْمَكَانِ وَالْحَالِ فَذَلِكَ أَيْضًا تَابِعٌ لِمَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَمَنْ صَحَّحَ لِلْعَامِيِّ مَذْهَبًا قَالَ: هُوَ قَدْ اعْتَقَدَ أَنَّ هَذَا الْمَذْهَبَ الَّذِي انْتَسَبَ إِلَيْهِ هُوَ الْحَقُّ، فَعَلَيْهِ الْوَفَاءُ بِمُوجِبِ اعْتِقَادِهِ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ هُوَ لَا لَوْ صَحَّ لِلزَّمِّ مِنْهُ تَحْرِيمٌ اسْتِفْتَاءً أَهْلَ غَيْرِ الْمَذْهَبِ الَّذِي انْتَسَبَ إِلَيْهِ، وَتَحْرِيمٌ تَمَذُّبِهِ بِمَذْهَبِ نَظِيرِ إِمَامِهِ أَوْ أَرْجَحَ مِنْهُ، أَوْ غَيْرَ ذَلِكَ مِنَ اللُّوَاظِمِ الَّتِي يَدُلُّ فَسَادُهَا عَلَى فَسَادِ مَلُومَاتِهَا، بَلْ يُلْزَمُ مِنْهُ أَنَّهُ إِذَا رَأَى نَصَّ رَسُولِ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - أَوْ قَوْلَ خُلَفَائِهِ الْأَرْبَعَةِ مَعَ غَيْرِ إِمَامِهِ أَنْ يَتْرَكَ النَّصَّ وَأَقْوَالَ الصَّحَابَةِ وَيُقَدِّمَ عَلَيْهَا قَوْلَ مَنْ انْتَسَبَ إِلَيْهِ. وَعَلَى

هَذَا فَلَهُ أَنْ يَسْتَفْتِيَ مَنْ شَاءَ مِنْ أَتْبَاعِ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ وَغَيْرِهِمْ، وَلَا يَجِبُ عَلَيْهِ وَلَا عَلَى الْمُفْتَى أَنْ يَتَّقِيَ بِأَحَدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ الْأَرْبَعَةِ بِإِجْمَاعِ الْأُمَّةِ، كَمَا لَا يَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ أَنْ يَتَّقِيَ بِحَدِيثِ أَهْلِ بَلَدِهِ أَوْ غَيْرِهِ مِنَ الْبِلَادِ، بَلْ إِذَا صَحَّ الْحَدِيثُ وَجَبَ عَلَيْهِ الْعَمَلُ بِهِ حِجَازِيًّا كَانَ أَوْ عِرَاقِيًّا أَوْ شَامِيًّا أَوْ مِصْرِيًّا أَوْ يَمَنِيًّا..." (1)

وإن قيل لك: "يجب عليك أن تتمذهب أو تلتزم مذهبا معينا."

فاقرأ عليه ما ذكر ابن القيم رحمه الله عن شيخه -الشيخ الإسلام ابن تيمية-: قال ابن القيم: "وَقَدْ سَمِعْتُ شَيْخَنَا (الشيخ الإسلام ابن تيمية) - رَحِمَهُ اللَّهُ - يَقُولُ: جَاءَنِي بَعْضُ الْفُقَهَاءِ مِنَ الْحَنَفِيَّةِ فَقَالَ: أَسْتَشِيرُكَ فِي أَمْرٍ، قُلْتُ: مَا هُوَ؟ قَالَ: أُرِيدُ أَنْ أُنْقِلَ عَنْ مَذْهَبِي، قُلْتُ لَهُ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِأَنِّي أَرَى الْأَحَادِيثَ الصَّحِيحَةَ كَثِيرًا تُخَالِفُهُ، وَاسْتَشَرْتُ فِي هَذَا بَعْضَ أَيْمَةِ أَصْحَابِ الشَّافِعِيِّ فَقَالَ لِي: لَوْ رَجَعْتَ عَنْ مَذْهَبِكَ لَمْ يَرْتَفَعْ ذَلِكَ مِنَ الْمَذْهَبِ، وَقَدْ تَقَرَّرَتْ الْمَذَاهِبُ، وَرُجُوعُكَ غَيْرُ مُفِيدٍ، وَأَشَارَ عَلَيَّ بَعْضُ مَشَايخِ التَّصَوُّفِ بِالْإِفْتِقَارِ إِلَى اللَّهِ وَالتَّضَرُّعِ إِلَيْهِ وَسُؤَالِ الْهَدَايَةِ لِمَا يُحِبُّهُ وَيَرْضَاهُ، فَمَازَا تُشِيرُ بِهِ أَنْتَ عَلَيَّ؟

قَالَ: فَقُلْتُ لَهُ: اجْعَلِ الْمَذْهَبَ ثَلَاثَةَ أَقْسَامٍ:

1- قِسْمُ الْحَقِّ فِيهِ ظَاهِرٌ بَيِّنٌ مُوَافِقٌ لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ فَاقْضِ بِهِ وَأَقْتِ بِهِ طَيِّبِ النَّفْسِ مُنْشَرَحِ الصَّدْرِ،

2- وَقِسْمٌ مَرْجُوحٌ وَمُخَالَفُهُ مَعَهُ الدَّلِيلُ فَلَا تُفْتِ بِهِ وَلَا تَحْكُمَ بِهِ وَادْفَعُهُ عَنْكَ،

3- وَقِسْمٌ مِنْ مَسَائِلِ الاجْتِهَادِ الَّتِي الْأَدِلَّةُ فِيهَا مُتَجَادِبَةٌ؛ فَإِنْ شِئْتَ أَنْ تُفْتِيَ بِهِ وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَدْفَعَهُ عَنْكَ، فَقَالَ: جَزَاكَ اللَّهُ خَيْرًا، أَوْ كَمَا قَالَ. (2)

¹ إعلام الموقعين 204-201/4

² -إعلام الموقعين 182/4

وقال الشيخ وصي الله عباس حفظه الله في بيان الفقه الصحيح في الفروع: "الفقه في الفروع منحصر في أدلة الكتاب والسنة ثم ما أجمع بناءً عليهما أو على أحدهما وما قيس عليهما أو على أحدهما. ومن هنا نقسم الفقه إلى أقسام:

- 1- قسم فيه نص واضح من القرآن أو من سنة رسول الله ' الصحيحة (1)
- 2- ما لا نص في بخصوصه أصلاً أو يكون فيه نص من الكتاب والسنة الصحيحة لكن غاب عن العالم دون العالم الذي يجوز الاجتهاد، أو يجب فيه من العالم المبتلى بالفتوى بالقياس.
- 3- ما فيه نص لكن دلالاته غير متعينة على الحكم ويحتمل أكثر من معنى وهذا القسم أيضاً يجوز الاجتهاد فيه أو يجب في تعيين معنى أو تصويب المعاني المختلفة فتكون المسألة ذات الوجوه.
- 4- ما فيه نصوص ظاهرها التعارض والتخالف، هذا القسم يجوز فيه اجتهاد فيه أو يجب للجمع بين النصوص إن أمكن أو الترجيح أو النسخ أو التوقف
- 5- ما فيه نص عن الرسول ' ولكن لم يثبت إسناده فهنا قد يقول المفتي مطابقاً للحديث الضعيف على ما ذكر بعض الأئمة كما في الفقيه والمتفقه و عن الإمام أحمد رحمه الله. (2)

1 - قال الشيخ وصي الله عباس حفظه الله في الاتباع و أصول فقه السلف ص 108-109: "وهذا القسم لا مجال للاجتهاد فيه لأحد ولا مذهب فيه لأحد ولا قول فيه لأحد لوجوب اتباعه على الجميع وإذا اجتهد أحدهم وأفتى ولم يعلم النص ثم ظهر له النص وجب ترك الفتوى المخالفة ووجب اتباع النص قال تعالى: {وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَنْ يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُبِينًا} الأحزاب: 36

2 وذكر الخطيب في الفقيه والمتفقه 1/534-535: "وَرُبَّمَا كَانَ الْحَدِيثُ عَنِ النَّبِيِّ وَفِي إِسْنَادِهِ شَيْءٌ فَيَأْخُذُ بِهِ ، إِذَا لَمْ يَجِئْ خِلَافُهُ أَثَبَتْ مِنْهُ ، مِثْلُ حَدِيثِ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ ، وَمِثْلُ حَدِيثِ إِبْرَاهِيمَ الْهَجَرِيِّ ، وَرُبَّمَا أَخَذَ بِالْحَدِيثِ الْمُرْسَلِ ، إِذَا لَمْ يَجِئْ خِلَافُهُ» قُلْتُ: الَّذِي ذَكَرَهُ الشَّافِعِيُّ أَصْلًا جَامِعٌ لَاسْتِعْمَالِ أُدْلَةٍ الشَّرِيعَةِ ، وَكَيْفَ تَرْتَبُ طُرُقُهَا ، وَتُسْتَنْبَطُ أَحْكَامُهَا ، فَيَجِبُ عَلَى الْعَالِمِ إِذَا نَزَلَتْ بِهِ نَازِلَةٌ أَنْ يَطْلُبَ حُكْمَهَا فِي كِتَابِ اللَّهِ ، وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، فَيَنْظُرَ فِي مَنْطُوقِ النُّصُوصِ ، وَالظُّوَاهِرِ وَمَفْهُومِهَا ، وَفِي أَفْعَالِ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَإِقْرَارِهِ وَلَيْسَ فِي نَصِّ الْقُرْآنِ وَلَا نَصِّ الْحَدِيثِ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَعَارُضٌ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: {وَلَوْ كَانَ مِنْ عِنْدِ غَيْرِ اللَّهِ لَوَجَدُوا فِيهِ اخْتِلَافًا كَثِيرًا} [النساء: 82] ، وَقَالَ مُخْبِرًا عَنْ نَبِيِّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: {وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى ، إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى} [النجم: 4] ، فَأُخْبِرَ أَنَّهُ لَا اخْتِلَافَ فِي شَيْءٍ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَنَّ كَلَامَ نَبِيِّهِ وَحْيٌ مِنْ عِنْدِهِ ، فَدَلَّ ذَلِكَ عَلَى أَنَّ كُلَّهُ مُتَّقٍ ، وَأَنَّ جَمِيعَهُ مُضَافٌ بَعْضُهُ إِلَى بَعْضٍ ، وَمَبْنِيٌّ بَعْضُهُ عَلَى بَعْضٍ إِمَّا بِعَطْفٍ ، أَوْ اسْتِثْنَاءٍ ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ. " انتهى كلامه

قال ابن القيم في إعلام الموقعين 1/25-26 في ذكر أصول الإمام أحمد: "وَلَيْسَ الْمُرَادُ بِالضَّعِيفِ عِنْدَهُ الْبَاطِلُ وَلَا الْمُنْكَرُ وَلَا مَا فِي رَوَايَتِهِ مُتَّهَمٌ بِحَيْثُ لَا يَسُوعُ الدَّهَابُ إِلَيْهِ فَالْعَمَلُ بِهِ؛ بَلْ الْحَدِيثُ الضَّعِيفُ عِنْدَهُ قَسِيمُ الصَّحِيحِ وَقِسْمٌ مِنْ أَقْسَامِ الْحَسَنِ، وَلَمْ يَكُنْ يُقَسَّمُ الْحَدِيثُ إِلَى صَحِيحٍ وَحَسَنِ وَضَعِيفٍ، بَلْ إِلَى صَحِيحٍ وَضَعِيفٍ، وَلِلضَّعِيفِ عِنْدَهُ مَرَاتِبٌ، فَإِذَا لَمْ يَجِدْ فِي الْبَابِ أَثَرًا يَدْفَعُهُ وَلَا

وكان سلف الأمة ومن تبعهم بإحسان على هذا الرسم من الفقه في الفروع.(1)

*تذكرة لمن قال بالتقليد: " قَالَ أَبُو عُمَرَ (ابن عبد البر رحمه الله) : " يُقَالُ لِمَنْ قَالَ بِالتَّقْلِيدِ: لَمْ قُلْتُ بِهِ وَخَالَفْتُ السَّلَفَ فِي ذَلِكَ؟ فَإِنَّهُمْ لَمْ يَقْلُدُوا فَإِنْ قَالَ: قُلْتُ؛ لِأَنَّ كِتَابَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ لَا عِلْمَ لِي بِتَأْوِيلِهِ، وَسُنَّةُ رَسُولِهِ لَمْ أَحْصِهَا وَالَّذِي قُلْتُهُ قَدْ عَلِمَ ذَلِكَ فَقُلْتُ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنِّي قِيلَ لَهُ: أَمَّا الْعُلَمَاءُ إِذَا اجْتَمَعُوا عَلَى شَيْءٍ مِنْ تَأْوِيلِ الْكِتَابِ أَوْ حِكَايَةِ سُنَّةٍ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ أَوْ اجْتَمَعَ رَأْيُهُمْ عَلَى شَيْءٍ فَهُوَ الْحَقُّ لَا شَكَّ فِيهِ، وَلَكِنْ قَدْ اخْتَلَفُوا فِيمَا قُلْتُ فِيهِ بَعْضُهُمْ دُونَ بَعْضٍ، فَمَا حُجَّتُكَ فِي تَقْلِيدِ بَعْضٍ دُونَ بَعْضٍ، وَكُلُّهُمْ عَالِمٌ وَلَعَلَّ الَّذِي رَغِبْتَ عَنْ قَوْلِهِ أَعْلَمُ مِنَ الَّذِي ذَهَبْتَ إِلَى مَذْهَبِهِ، فَإِنْ قَالَ: قُلْتُهُ لِأَنِّي عَلِمْتُ أَنَّهُ صَوَابٌ قِيلَ لَهُ: عَلِمْتَ ذَلِكَ بِدَلِيلٍ مِنْ كِتَابٍ أَوْ سُنَّةٍ أَوْ إِجْمَاعٍ، فَإِنْ قَالَ: نَعَمْ، فَقَدْ أَبْطَلَ التَّقْلِيدَ وَطَوَّلَ بِمَا ادَّعَاهُ مِنَ الدَّلِيلِ وَإِنْ قَالَ: قُلْتُهُ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ مِنِّي، قِيلَ لَهُ: فَقُلْ كُلُّ مَنْ هُوَ أَعْلَمُ مِنْكَ فَإِنَّكَ تَجِدُ مِنْ ذَلِكَ خَلْقًا كَثِيرًا وَلَا يُحْصَى مَنْ قُلْتُهُ إِذْ عَلِمْتَ فِيهِ أَنَّهُ أَعْلَمُ مِنْكَ وَتَجِدُهُمْ فِي أَكْثَرِ مَا يَنْزِلُ بِهِمْ مِنْ [ص:995] السُّؤَالِ مُخْتَلَفِينَ فَلِمَ قُلْتُ أَحَدَهُمْ؟ فَإِنْ قَالَ: قُلْتُهُ لِأَنَّهُ أَعْلَمُ النَّاسِ قِيلَ لَهُ: فَهُوَ إِذَا أَعْلَمَ مِنَ الصَّحَابَةِ وَكَفَى يَقُولُ مِثْلَ هَذَا قُبْحًا وَإِنْ قَالَ: إِنَّمَا قُلْتُ بَعْضَ الصَّحَابَةِ قِيلَ لَهُ: فَمَا حُجَّتُكَ فِي تَرْكِ مَنْ لَمْ تُقْلِدْ مِنْهُمْ؟ وَلَعَلَّ مَنْ تَرَكْتَ قَوْلَهُ مِنْهُمْ أَعْلَمُ وَأَفْضَلُ مِمَّنْ أَخَذْتَ بِقَوْلِهِ عَلَى أَنَّ الْقَوْلَ لَا يَصِحُّ لِفَضْلِ قَائِلِهِ وَإِنَّمَا يَصِحُّ بِدَلَالَةِ الدَّلِيلِ عَلَيْهِ " (2)

قَوْلَ صَاحِبٍ، وَلَا إِجْمَاعَ عَلَى خِلَافِهِ كَانَ الْعَمَلُ بِهِ عِنْدَهُ أَوْلَى مِنَ الْقِيَاسِ وَلَيْسَ أَحَدٌ مِنَ الْأُئِمَّةِ إِلَّا وَهُوَ مُوَافِقُهُ عَلَى هَذَا الْأَصْلِ مِنْ حَيْثُ الْجُمْلَةُ، فَإِنَّهُ مَا مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَّا وَقَدْ قَدَّمَ الْحَدِيثَ الضَّعِيفَ عَلَى الْقِيَاسِ. " انتهى كلامه

1 - الاتباع للشيخ وصي الله عباس حفظه الله ص108-109

2 - جامع بيان العلم وفضله 994/2

الفصل الرابع

نهى أصحاب المذاهب عن تقليدهم والتعصب لهم

لقد تطابقت واتفقت كلمات أئمة الأربعة على عدم جواز تقليدهم في الدين، وقد نهوا تلاميذهم عن التعصب لأحد بل التقليد لأحد معين.

وقد ذكر العلامة الألباني أقوال الأئمة بمصادرها:

أ- أبو حنيفة رحمه الله:

- 1 - (إذا صح الحديث فهو مذهبي)(1)
- 2 - (لا يحل لأحد أن يأخذ بقولنا ما لم يعلم من أين أخذناه)(2)

وفي رواية: (حرام على من لم يعرف دليلي أن يفتي بكلامي)
زاد في رواية: (فإننا بشر نقول القول اليوم ونرجع عنه غدا)
وفي أخرى: (ويحك يا يعقوب (هو أبو يوسف) لا تكتب كل ما تسمع مني فإنني قد أرى الرأي اليوم وأتركه غدا وأرى الرأي غدا وأتركه بعد غد)
3 - (إذا قلت قولا يخالف كتاب الله تعالى وخبر الرسول صلى الله عليه وسلم فاتركوا قولي)(3)

ب- مالك بن أنس رحمه الله فقال:

- 1 - (إنما أنا بشر أخطئ وأصيب فانظروا في رأيي فكل ما وافق الكتاب والسنة فخذوه وكل ما لم يوافق الكتاب والسنة فاتركوه)(4) .
- 2 - (ليس أحد بعد النبي صلى الله عليه وسلم إلا ويؤخذ من قوله ويترك إلا النبي صلى الله عليه وسلم)5

3 - قال ابن وهب: سمعت مالكا سئل عن تخليل أصابع الرجلين في الوضوء فقال: ليس ذلك على الناس. قال: فتركته حتى خف الناس فقلت له: عندنا في ذلك سنة فقال: وما هي قلت: حدثنا الليث بن سعد وابن لهيعة وعمرو بن الحارث عن يزيد بن عمرو المعافري عن أبي عبد الرحمن الحنبلي عن المستورد بن شداد القرشي قال: رأيت رسول الله صلى

1 - (ابن عابدين في " الحاشية " 1 / 63)

2 - (ابن عابدين في " حاشيته على البحر الرائق " 6 / 293)

3 - (الفلاني في الإيقاظ ص 50)

4 - (ابن عبد البر في الجامع 2 / 32)

5 - (ابن عبد البر في الجامع 2 / 91)

الله عليه وسلم يدلك بخنصره ما بين أصابع رجله. فقال: إن هذا الحديث حسن وما سمعت به قط إلا الساعة ثم سمعته بعد ذلك يسأل فيأمر بتخليل الأصابع.(1)

ج-وأما الإمام الشافعي رحمه الله فالتقول عنه في ذلك أكثر وأطيب وأتباعه أكثر عملا بها وأسعد فمناها:

- 1 - (ما من أحد إلا وتذهب عليه سنة لرسول الله صلى الله عليه وسلم وتعزب عنه فمهما قلت من قول أو أصلت من أصل فيه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لخلاف ما قلت فالتقول ما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو قولي)(2)
- 2 - (أجمع المسلمون على أن من استبان له سنة عن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يحل له أن يدعها لقول أحد)(3)
- 3 - (إذا وجدتم في كتابي خلاف سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم فقولوا بسنة رسول الله صلى الله عليه وسلم ودعوا ما قلت) . (وفي رواية (فاتبعوها ولا تلتفتوا إلى قول أحد)(4)
- 4 - (إذا صح الحديث فهو مذهبي)(5)
- 5 - (أنتم أعلم بالحديث والرجال مني فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني به أي شيء يكون: كوفيا أو بصريا أو شاميا حتى أذهب إليه إذا كان صحيحا)(6)
- 6 - (كل مسألة صح فيها الخبر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم عند أهل النقل بخلاف ما قلت فأنا راجع عنها في حياتي وبعد موتي)(7)
- 7 - (إذا رأيتموني أقول قولاً وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم خلافه فاعلموا أن عقلي قد ذهب)(8)
- 8 - (كل ما قلت فكان عن النبي صلى الله عليه وسلم خلاف قولي مما يصح فحديث النبي أولى فلا تقلدوني)(9)
- 9 - (كل حديث عن النبي صلى الله عليه وسلم فهو قولي وإن لم تسمعه مني)(10)

1- مقدمة الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ص 31 - 32)

2 - (تاريخ دمشق لابن عساكر 15 / 1 / 3)

3 - (الفلاني ص 68)

4 - (النووي في المجموع 1 / 63)

5 - (النووي 1 / 63)

6 - (الخطيب في الاحتجاج بالشافعي 8 / 1)

7 - (أبو نعيم في الحلية 9 / 107)

8 - (ابن عساكر بسند صحيح 15 / 10 / 1)

9 - (ابن عساكر بسند صحيح 15 / 9 / 2)

10 - (ابن أبي حاتم 93 - 94)

د-وأما الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله فهو أكثر الأئمة جمعا للسنة وتمسكا بها حتى (كان يكره وضع الكتب التي تشتمل على التفريع والرأي) ولذلك قال:

1- (لا تقلدني ولا تقلد مالكا ولا الشافعي ولا الأوزاعي ولا الثوري وخذ من حيث أخذوا)(1)

وفي رواية: (لا تقلد دينك أحدا من هؤلاء ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه فخذ به ثم التابعين بعد الرجل فيه مخير)

وقال مرة: (الاتباع أن يتبع الرجل ما جاء عن النبي صلى الله عليه وسلم وعن أصحابه ثم هو من بعد التابعين مخير)(2)

2 - (رأي الأوزاعي ورأي مالك ورأي أبي حنيفة كله رأي وهو عندي سواء وإنما الحجة في الآثار)(3)

3 - (من رد حديث رسول الله صلى الله عليه وسلم فهو على شفا هلكة)(4)
تلك هي أقوال الأئمة رضي الله تعالى عنهم في الأمر بالتمسك بالحديث والنهي عن تقليدهم دون بصيرة وهي من الواضوح والبيان بحيث لا تقبل جدلا ولا تأويلا وعليه فإن من تمسك بكل ما ثبت في السنة ولو خالف بعض أقوال الأئمة لا يكون مباينا لمذهبهم ولا خارجا عن طريقتهم بل هو متبع لهم جميعا و متمسك بالعروة الوثقى التي لا انفصام لها وليس كذلك من ترك السنة الثابتة لمجرد مخالفتها لقولهم بل هو بذلك عاص لهم ومخالف لأقوالهم المتقدمة والله تعالى يقول: { فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّى يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنْفُسِهِمْ حَرَجًا مِمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا }.(5)

وقال شيخنا الشيخ وصي الله عباس حفظه الله تعالى: "وإن تعجب فعجب أمر أصحاب المذاهب يتعصبون للأئمة في المسائل الفرعية وهم قد نهواهم عن تقليدهم وتقليد غيرهم. وأما الفقه والعقيدة الذي هو الفقه الأكبر بالنسبة إلى فقه الفروع، فهم مخالفون لهم فيه فأكثرهم خالفوا الأئمة الذين انتسبوا إليهم واتبعوا المذهب الأشعري وغيره، سوى أتباع الإمام أحمد رحمه الله فكانوا رمزا للعقيدة الصحيحة السلفية على مر القرون إلا قليلا منهم. وأما المذاهب الثلاثة الأخرى فأكثر أتباعها كانوا على غير مذهب السلف (في العقيدة بعد انتشار المذاهب في القرن الرابع، وأما قبله فأتباع الأئمة كلهم كانوا على عقيدة الصحابة سلفنا الصالح) وهذا أمر واقع لا ينكره إلا مكابر أو من ليس له إلمام بتاريخ الإسلام و المذاهب الإسلامية."

"ووصل الحال في التعصب المذهبي في العقيدة والفقه إلى حدّ كان يُمنع أصحاب العقيدة السلفية من الجهر بها وكذلك كان يؤدي من كان يدرس ويدرس كتب السنة غير كتب

1 - (ابن القيم في إعلام الموقعين 2 / 302)

2 - (أبو داود في مسائل الإمام أحمد ص 276 - 277)

3 - (ابن عبد البر في الجامع 2 / 149)

4 - (ابن الجوزي في المناقب (ص 182)

5 - صفة صلاة النبي للألباني 146-54

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الفقه التي تبنتها الدولة وعلمائها. و ما أودى الإمام أحمد بن حنبل و من معه إلا من المخالفين لعقيدة السلف, و المتعصبين للمذاهب. ثم ما أودى ابن تيمية (وابن القيم) و تلاميذه إلا من المتعصبين.

و كان في كل مصر علماء الإسلام يقودون الأمة بعلومهم وفتاواهم, أينما حلوا وارتحلوا و أينما كان عامة الناس يسألون الفقه والفتوى من عالم ذاك المكان, من غير تخصيص لمدرسة خاصة و لا تفيد بشخص خاص. ولا شك أن التلميذ يتأثر بفكر شيخه وقوله وعقيدته ولكن التلامذة لم يكونوا يتعصبون لرأي شيوخهم إلا إذا رأوه موافقا لدليل..."(1) وقال: "فالذين ينادون ويحزبون الناس على قولهم (أنه يجب على الناس أن يتبعوا مذهبا) أو "إن اللامذهبية هي بدعة" فنناشدهم بأي دليل توجبون أمرا لم يوجبه الله و رسوله' أليس هذا إحداثا في دين الله؟ ونقول: لو كان تقليد أحدهم بأعيانهم واجبا على الأمة ألم يكن بينه النبي' لنا؟

ثم هل كان الأئمة الأربعة وغيرهم يجهلون هذه المسألة فنهوا تلاميذهم عن تقليدهم مع كونه واجبا عليهم, إذن فقد خانوا أمة محمد' أليس هذا مرمى قولكم وهم عباد الله الأتقياء وحاشاهم الله أن يرتكبوا هذا الإثم. لا يعقل هذا, ولا يقبل بحال من الأحوال, فتلخص في هذه المسألة أنه لا يجب على أحد عالما كان أو عاميا اتباع مذهب معين بل يجب أن يتعلم الواجب من دينه على أدلة الكتاب والسنة على طريقة السلف, وإذا نزلت به نازلة أن يسأل أي واحد من العلماء المعروفين بعلم الكتاب والسنة..."(2)

¹ - الاتباع وأصول فقه السلف ص80-90

² التقليد وحكمه في ضوء الكتاب والسنة و الآثار السلفية, للشيخ وصي الله عباس حفظه الله ص55

الباب الثالث

تاريخ التعصب المذموم أسبابه وآثاره وعلاجه

الفصل الأول

التعصب والحزبية

فما معنى التعصب و ما مضارها على الإسلام و المسلمين؟

و التعصب: تَفَعُّلٌ من العصبية، و العصبية: أن يدعو الرجل على نصره عصبته، والتألب معهم على من يناوئهم ظالمين كانوا أو مظلومين.

أخذت كلمة التعصب من العصبية ، و هي أن يدعو الرجل إلى نصره عصبته ، و الوقوف معها على من يُناوئها ، ظالمة كانت أو مظلومة . و من معانيهما أيضا -أي التعصب و العصبية- المحاماة و المدافعة و النصر (1) . و يكون ذلك على مستوى الأفكار و المشاعر ، و الأقوال و الأفعال .

و العلماء المسلمين استعملوا كلمة التعصب للمدح و الذم معا ، تُفهم من حسب سياقها في الكلام . فقال بعض علماء الجرح و التعديل : إن القاضي أبا الحسن محمد الرازي الشافعي (ت 338 هـ) كان متعصبا للسنة ناصرا لأهلها (2) . و قيل في الثري أبي منصور بن يوسف البغدادي (ت 460 هـ) : ((كان صالحا عظيم الصدقة ، متعصبا للسنة)) (3). و قال بعضهم في الحافظ الرحالة عمر بن علي الليثي البخاري (ت 468 هـ): إنه كان مدلسا متعصبا لأهل الباطل (4) .

و في الحديث: ((العصبى من يعين قومه على الظلم)) (5)

وذكر شيخ الإسلام ابن تيمية (ت 728 هـ) الحديث (6) ، مفاده إنه قيل للرسول-عليه الصلاة والسلام-: أمن العصبية أن ينصر الرجل قومه في الحق ؟ ، قال : لا ، و لكن من العصبية أن ينصر الرجل قومه في الباطل (7) .

- 1 ابن منظور الإفريقي: لسان العرب ، بيروت ، دار صادر ، د ت ، ج 1 ص: 607 .
- 2 الذهبي: سير أعلام النبلاء حققه بشار عواد ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، ج 15 ص: 379 .
- 3 نفس المصدر ، ج 18 ص: 333 .
- 4 نفس المصدر ، ج 18 ص: 319 ، 407 .
- 5 -أخرجه ابن ماجه، كتاب الفتن، باب العصبية عن فسيلة (بنت واثلة بن الأسقع) (القصة) و هو ضعيف بهذه القصة.
- 6 لم يذكر ابن تيمية درجته ، و قد ضعفه الشيخ الألباني في تحقيقه لسنن الترمذي ، كتاب الفتن ، رقم : 3949 . لكن الحديث يصلح شاهدا لما نحن فيه .
- 7 ابن تيمية : دقائق التفسير ، ج 2 ص: 44 .

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و في اصطلاح المذاهب الإسلامية يكون تعريفه: التعصب هو التزام مذهب معين من المذاهب المنسوبة إلى الإسلام، عقدية أو فقهية، و المحاماة عنها حقاً أو باطلاً. (1)

و بذلك يتبين أن التعصب على نوعين ، أولهما الانتصار للحق و هو ممدوح ، و ثانيهما الانتصار للباطل و هو مذموم . و النوع الثاني هو الموضوع الذي سنتحدث عنه ، و هو التعصب للباطل لا للحق ، و مقياسنا في ذلك هو النقل الصحيح -أي الكتاب و السنة- و العقل الصريح ، فما وافقهما فهو تعصب للحق، و ما خالفهما فهو تعصب للباطل .

وما معنى الحزبية و ما هي آثارها السيئة في ترك الاتباع الحقيقي؟

و الحزبية: الحزب لغة : صنف من الناس تجمعهم صفة جامعة أو مصلحة شاملة من رابطة العقيدة والإيمان ، أو الكفر والفسق والعصيان ، أو رابطة النسب أو المهنة ولكل حزب مبادئ وأفكار ولوائح داخلية ونظريات تشكل مجموعها دستوراً للحزب ؛ وإن لم يسم عند بعضهم دستوراً وهو بمنزلة الأساس الذي ينبثق عنه تنظيم الحزب وينبني عليه ، فمن آمن به واعتقده حقاً واتخذه أساساً للعمل ؛ انتظم في ذلك الحزب ، وصار فرداً من أفرادِهِ وربما عضواً من أعضائه...فالدستور هو أساس الولاء والبراء كما قال حسن البنا مؤسس "الإخوان المسلمين": "موقفنا مع الدعوات المختلفة...أن نزنها بميزان دعوتنا فما وافقها فمرحباً به وما خالفها فنحن براء منه"(2)

ويقول البنا أيضاً مخاطباً حزبه: "فدعوتكم أحق أن يأتيها الناس ولا تأتي هي أحداً، وتستغني عن غيرها إذ هي جماع كل خير وما عداها لا يسلم من النقص"(3) و بذور الافتراق و الحزبية قديمة ، حاربها النبي صلى الله عليه وسلم لما رأى نذراً لها تلمح بوجود شيء قد يفرق أو يشتت :

فقد روى البخاري في صحيحه عن جابر رضي الله عنه قال : "غزونا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقد ثاب معه ناس من المهاجرين حتى كثروا ، وكان من المهاجرين رجل لعاب ، فكسع أنصاريًا ، فغضب الأنصاري غضباً شديداً وقال: يا لأنصار ، وقال المهاجري : يا للمهاجرين ، فخرج النبي صلى الله عليه وسلم ، فقال : " ما بال دعوى الجاهلية ؟ " ، ثم قال : " ما شأنهم ؟ " ، فأخبر بكسعة المهاجري الأنصاري . قال : فقال النبي صلى الله عليه وسلم " :دعوها فإنها خبيثة." (4) وانتساب الرجل إلى المهاجرين والأنصار انتساب حسن محمود عند الله وسوله ثم مع هذا لما دعا كل منهما طائفته منتصراً بها ؛ أنكر النبي صلى الله عليه وسلم ذلك ،

1 التقليد و حكمه للشيخ وصي الله ص56

2 مجموعة رسائل حسن البنا ص17

3 مذكرات الدعوة والداعية ص222

4 ورواه مسلم (2584) عنه بنحوه والبخاري 3518 .

وسماه دعوى الجاهلية .
ثم بيّن لهم وجه الصواب ، وأرشدتهم أن يتسمّوا بالمسلمين والمؤمنين وعباد الله ،
وهي الدعوى الجامعة ؛ بخلاف المفرقة .
خلاصة القول في معنى الدعاء بدعوى الجاهلية أنه (كالدعاء إلى القبائل ، والعصبية
للإنسان ، ومثله التعصب للمذاهب ، والطوائف ، والمشايخ ، وتفضيل بعض على
بعض في الهوى والعصبية ، وكونه منتسبا إليه ، يدعو إلى ذلك ، ويوالي من وافقه أو
انتمى إلى حزبه أو شيخه ويعادي من خالفه و لم ينتم إلى حزبه أو شيخه، ويزن الناس
بأقوال حزبه أو مشايخه (الاجتهادية)

الفصل الثاني

من أعظم عوائق الاتباع- التعصب المذهبي والتقليد الأعمى والحزبية

- 1- أنه بدعة محدثة في الدين
- 2- التفرق والتحزب و تسلط الأعداء على المسلمين و ذهاب قوتهم
- 3- أن المتعصبين المقلدين وقعوا فيما وقع فيه اليهود و النصارى كما قال تعالى: (اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ) التوبة: 31
- 4- ترك الأحاديث الصحيحة لأجل التحزب أو التعصب لمذهب أو لشخص ما
- 5- الاستدلال بالأحاديث الضعيفة تأييدا للمذهب و فامتألت الكتب المذهبية بالأحاديث الضعيفة
- 6- معادة بعض أهل المذاهب أصحاب المذهب الأخرى بل أوى بعضهم بعضا لما تمكن أحدهم من الآخر
- 7- تقديم أقوال المتأخرين على أقوال المتقدمين
- 8- التقييد في مذهب واحد و عدم الاستفادة من المذاهب الأخرى
- 9- خلو كثير من كتب المذاهب من الأدلة الشرعية
- 10- الأخذ ببعض ما يدل عليه النص دون بعض
- 11- دخول المصالح السياسية في انتشار المذاهب و انحسارها(1)
- 12- حرمان الأمة من كثير من الأقوال الصحيحة و النصوص الصحيحة التي اختلف الأئمة الأربعة فيها كطلاق الثلاث هل يقع ثلاثا أو واحدة يقول الأئمة الأربعة جميعا أنه يقع ثلاثا و بذلك من قال لامرأته (أنت طالق ثلاثا) فإنها لا تحل له حتى تنكح زوجا غيره. مع العلم الطلاق ثلاثا يقع واحدا في زمن النبي و أبي بكر و صدرا من خلافة عمر. و هذه المسألة أفتى بها الإمام ابن تيمية رحمه الله و كانت سببا في اتهامه بالكفر والردة بناء على أن الدين فقط هو ما قاله الأئمة الأربعة و أنه ليس هناك دين غير ذلك.
- 13- حرمان الأمة من البحث و استنباط الأحكام في الوقائع الجديدة

1 - (راجع كتاب بدعة التعصب المذهبي)

14-ظن بعض الناس أنه يجوز للمسلم أن يأخذ رأي إمام ما من الأئمة الأربعة و لو كان النص بخلافه و بذلك ارتكبت كثيرا من المخالفات

15-نشر ضعف الوازع الديني و ذلك بأن المكلف إذا وعظ بالآية أو الحديث و علم أن هذا كلام الله و رسوله كان هذا شأن عنده بعكس ما لو قيل له هذا رأي الإمام فلان أو الإمام فلان و بذلك نشأ عند كثير من المسلمين ضعف الوازع الديني و الذي نشاهده في التحايل على الأمور الشرعية.

16-نشأة التلفيق و هو الاتجاه إلى جمع الرخص و التسهيلات الموجودة في المذاهب و بذلك ينشأ التهاون و ارتكاب كثير من المخالفات و ذلك بتتبع الأقوال التي تناسب هوى كل إنسان من كل مذهب و لو كان الاحتكام إلى الدليل من الكتاب و السنة لما وجد هذا.

20-تعظيم و تقديس الأئمة إلى حد نسبة العصمة لهم و عدم جواز الخطأ عليهم. و لذلك نرى كثيرا من العلماء لا يجرؤ أن يقول أخطأ الإمام في هذه المسألة مع العلم أنه يرى النص بخلاف الفتوى. و هذا التعظيم قد يصل ببعض الناس إلى رد الآية المحكمة القاطعة الدلالة, و الحديث الصحيح الواضح المعنى خوفا من مخالفة الإمام و هذا إن لم يكن استدراكا على الله فهو ذريعة إليه و في تقديم غير أمر الله و أمر رسوله عليه (1)

1 - هذه المساوي مأخوذة من كتب "بدعة التعصب المذهب" لمحمد عيد عباسي, و "السلفيون و الأئمة الأربعة" رقم 12 من سلسلة تصحيح عقائد المسلمين و أعمالهم دار السلفية-الكويت, و التقليد و حكمه في ضوء الكتاب و السنة للشيخ وصي الله عباس حفظه الله ص76-101

الفصل الثالث

بدايات ظهور التعصب المذهبي عند المسلمين (من القرن الأول إلى الثالث هـ)

تعود بدايات التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي إلى الخلافات السياسية والفكرية -الأصولية والفقهية- التي حدثت بين المسلمين خلال القرون الثلاثة الهجرية الأولى، مما أدى إلى ظهور فرق وطوائف وجماعات تمذهبت بأفكار وأصول كانت تحملها، ثم تعصبت لها وسعت جاهدة إلى نشرها والانتصار لها على أرض الواقع، فدخلت في نزاع مذهبي شديد فيما بينها، على مستوى المشاعرة والأفكار، والأقوال والأفعال، وقد تجلّى ذلك فيما يأتي:

1- فعلى مستوى الفرق، فإنه لما انقسمت الأمة على نفسها بسبب الفتنة الكبرى بين سنتي: 35-41هـ، ظهرت الفرق المتمثلة في الرافضة، والشيعية، والخوارج، والقدريّة¹، والسنة، ثم تنظمت، وتسيست، وتمذهبت، وتعصبت لأفكارها، وخاضت من أجلها الصعاب والشدائد والحروب (2).

2- فعلى مستوى العقائد وأصول الدين، فقد حدثت خلافات كثيرة بين مختلف طوائف أهل العلم، منذ نهاية القرن الأول الهجري وما بعده، فظهرت المعتزلة (3) ونفت صفات الله تعالى وقدمت العقل على الوحي (4)-أي النقل.

و ظهرت الجهمية -أتباع جهم بن صفوان (ق:2هـ) - فقالت بالجبر وفناء الجنة والنار، وعطلت صفات الله تعالى (5). و ظهرت أيضا الطائفة الكرامية المجسمة على

1 - كما ذكر مسلم في مقدمة صحيحه: "عَنْ يَحْيَى بْنِ يَعْمَرَ، قَالَ: كَانَ أَوَّلَ مَنْ قَالَ فِي الْقَدَرِ بِالْبَصْرَةِ مَعْبُدُ الْجَهَنِيِّ، فَأَنْطَلَقْتُ أَنَا وَحَمِيدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْجَمِيرِيُّ حَاجِّينَ - أَوْ مُعْتَمِرِينَ - فَقُلْنَا: لَوْ لَقِينَا أَحَدًا مِنْ أَصْحَابِ رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ، فَسَأَلْنَاهُ عَمَّا يَقُولُ هَؤُلَاءِ فِي الْقَدَرِ، فَوُفِّقَ لَنَا عَبْدُ اللَّهِ بْنُ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ دَاخِلًا الْمَسْجِدَ، فَكَتَبْتُهُ أَنَا وَصَاحِبِي أَحَدُنَا عَنْ يَمِينِهِ، وَالْآخَرُ عَنْ شِمَالِهِ، فَظَنَنْتُ أَنَّ صَاحِبِي سَيَكُلُ الْكَلَامَ إِلَيَّ، فَقُلْتُ [ص:37]: أَبَا عَبْدِ الرَّحْمَنِ إِنَّهُ قَدْ ظَهَرَ قِبَلَنَا نَاسٌ يَقْرَأُونَ الْقُرْآنَ، وَيَتَقَفَّرُونَ الْعِلْمَ، وَذَكَرَ مِنْ شَأْنِهِمْ، وَأَنَّهُمْ يَزْعُمُونَ أَنَّ لَا قَدَرَ، وَأَنَّ الْأَمْرَ أُنْفُ، قَالَ: «فَإِذَا لَقِيتَ أُولَئِكَ فَأَخْبِرْهُمْ أَنِّي بَرِيءٌ مِنْهُمْ، وَأَنَّهُمْ بُرَاءٌ مِنِّي»

2 انظر مثلا: عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق، حققه محي الدين عبد الحميد، بيروت، المكتبة العصرية، 1995، ص: 14، 21، 24، 29، 72.

3 هم أتباع عمرو بن عبيد البصري (ت142هـ)، اعتزل هو وأصحابه حلقة شيخه الحسن البصري (ت110هـ)، فسموا بالمعتزلة. الفرق بين الفرق، ص: 20.

4 الفرق بين الفرق، ص: 114 وما بعدها.

5 نفس المصدر، ص: 211.

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

يد المتكلم محمد بن الكرام السجستاني (ق: 3هـ —) ، فجسّمت الله تعالى ، وشبهته بمخلوقاته (1) . تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا .

و في مقابل هؤلاء نجد أهل السنة و الجماعة ، كانوا يمثلون جمهور المسلمين ، رافعين راية القرآن الكريم و السنة النبوية الصحيحة ، فمثلوا الإسلام الصحيح ، و ردوا على انحرافات تلك الفرق ، فأثبتوا صفات الله تعالى بلا تأويل ، و لا تعطيل ، و لا تشبيه ، و لا تجسيم ، و تولوا الصحابة ، و قدموا النقل على العقل (2) .

تلك الفرق تميزت بأفكار تمذهبت بها و تعصّبت لها ، و حاضت من أجلها المصادمات و المناظرات ، وصنفت الكتب انتصارا لمذاهبها ، فكان ذلك سببا في ظهور التعصب المذهبي فيما بينها ، و انتشاره بين أتباعها .

3- فعلى مستوى الفروع-أي الفقه- فإن الناس زمن الصحابة و التابعين و تابعيهم لم يكونوا متمذهبين ، فكان العلماء يجتهدون لاستنباط الأحكام الشرعية ، و غير المجتهدين منهم يسألونهم فيما لا يعرفونه ، و كان العوام يقلدونهم بلا تمذهب و لا التزام بشخص معين منهم (3) . لذا لم يعرف المسلمون التعصب الفقهي المذموم زمن هؤلاء طيلة نحو ثلاثة قرون ، ثم تغير الحال في القرن الرابع الهجري و ما بعده ، حيث انتشر التمذهب الفقهي بين الناس ، و صاحبه التعصب المذهبي بينهم ، بشكل واسع (4) .

لكن بؤاده الأولى المحدودة تعود إلى النصف الثاني من القرن الثاني الهجري و ما بعده ، بدليل الشواهد التاريخية الآتية :

أولها إن الفقيه الحنفي مُسعر بن كدام (ت155هـ) كان فيه غلو في تعظيمه للإمام أبي حنيفة النعمان (ت150هـ) ، فكان يقول: ((جعلتُ أبا حنيفة حجة بيني و بين الله تبارك و تعالى)) (5) .

¹ نفس المصدر ، ص: 216 .

² نفس المصدر ، ص: 26 .

³ انظر مثلا : الشوكاني: البدر الطالع ، بيروت ، دار المعرفة ، د ت ، ص: 90، 91 . و ولي الله الدهلوي: الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، حققه عبد الفتاح أبو غدة ، بيروت ، دار النفائس ، 1983 ، ص: 68 و ما بعدها .

⁴ انظر مثلا : الدهلوي : نفس المصدر ، ص: 87 و ما بعدها .

⁵ عبد القادر القرشي: الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، كراتشي ، مير محمد كتب خانة ، د ت ، ج 1 ص: 563 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و ثانيها يخص الفقيه المالكي أبا يحيى زكريا بن يحيى الوقاد (ت181هـ) فإنه كان يغلو في الإمام مالك بن أنس(ت179هـ) ، و يتعصب له على أبي حنيفة(1).

و ثالثها ما قاله الحافظ شمس الدين الذهبي (ت748هـ) في الحافظ يحيى بن معين (ت232هـ) ، فعندما ذكر أن ابن معين قال : إن الإمام الشافعي ليس بثقة ، أرجع - أي الذهبي- ذلك إلى فلتات اللسان و الهوى و العصبية ، لأن ((ابن معين كان من الحنفية الغلاة في مذهبه ، و إن كان محدثا))(2) .

و الرابع يتعلق بالفقيه المالكي أصبغ بن خليل القرطبي (ت272هـ) ، كان شديد التعصب للمذهب المالكي حتى أنه اختلق حديثا في ترك رفع اليدين في الركوع و الرفع منه ، فكشف الناس أمره.(3)

و الخامس- يتعلق بالحافظ أبي بشر الدولابي (ت310هـ) ، فإنه كان حنفيا مفرط التعصب لمذهبه ، حتى أنه روى حديثا في القهقهة إسناده غير صحيح ، فصحه لأن أبا حنيفة من رجاله و إسناده هو : روى أبو حنيفة ، عن منصور بن زاذان ، عن المجلسي ، عن معبد الجهني ، عن رسول الله-صلى الله عليه و سلم- ، و الخلل في هذا الإسناد هو أن الدولابي قال أن معبد الجهني هذا هو معبد بن هوذا الذي ذكره البخاري في تاريخه ، و هذا غير صحيح ، لأن معبد بن هوذا أنصاري ، و ليس من قبيلة جُهينة ، و معبد بن الجهني تابعي و ليس صحابيا ، فكيف يروي عن رسول الله-عليه الصلاة و السلام- و هو لم يره ؟(4)

وكذلك فإنه وُجد أيضا تعصب مذهبي بين مدرستي أصحاب الحديث و أهل الرأي ، فالأولى أكثرت من استخدام الأثر من الأحاديث النبوية و الأقوال السلفية ، و من رجالها الأئمة : مالك و الشافعي ، و سفيان الثوري و أحمد بن حنبل ، و الثانية أكثرت من استعمال الاجتهاد القائم على الرأي و القياس ، و من رجالها : الإمام أبو حنيفة و كبار أصحابه كـ محمد بن الحسن ، و أبي يوسف يعقوب(5) . فأوجد هذا الاختلاف نزاعا مذهبيا بين المدرستين ، نتج عنه تعصب مذهبي بين الطائفتين ظهرت بوادره الأولى منذ القرن الثاني الهجري و ما بعده ، و الشواهد الآتية تثبت ذلك بوضوح .

¹ أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء، حققه خليل الميس ، بيروت ، دار القلم ، د ت ، ص: 156 .

² زكّم الذهبي : الرواة الثقات المتكلم فيهم بما لا يوجب ردا ، ط 4 ، حققه محمد الموصلي ، بيروت ، دار البشائر ، 1992 ، ص: 29 ، 30 .

³ ابن حجر : اللسان ، ج 1 ص: 458 .

⁴ نفس المصدر(اللسان) ، ج 5 ص: 41 .

⁵ عمر سليمان الأشقر : المدخل إلى دراسة المدارس و المذاهب الفقهية ن ط2 الأردن ، دار النفائس ، 1998 ، 19 و ما بعدها .

أولها إنه حدثت نزاعات و مهاترات ، و ردود بين المدرستين منذ زمن أبي حنيفة النعمان المتوفى سنة 159 هجرية (1) . و ثانيها هو أن الفقيه محمد بن شجاع الثلجي الحنفي (ت266هـ) كان من أصحاب الرأي ييغض أهل الأثر-أي أهل الحديث-و يتعصب عليهم ، حتى انتهى به الأمر إلى الكذب عليهم ، فكان يضع -أي يخلق- الأحاديث في تشبيه صفات الله تعالى ، و ينسبها إلى أهل الحديث ثلها لهم ، و طعنا فيهم ، و تعصبا عليهم ، منها حديث عرق الخيل (2) . و كان هذا الرجل -أي ابن شجاع- يقول في أصحاب أحمد بن حنبل : ((أصحاب أحمد بن حنبل يحتاجون أن يُذبحوا)) (3) . و كان أحمد بن حنبل يقول فيه: ابن شجاع الثلجي مبتدع صاحب هوى (4) .

و الشاهد الثاني يتعلق بالفقيه أصبغ بن خليل القرطبي المالكي فإنه كان يُعادي أهل الحديث و علمهم ، و لم تكن له معرفة بعلمهم ، حتى إنه رُوي أنه كان يقول : ((لئن يكون في تابوتي رأس خنزير ، أحب إليّ من أن يكون مسند ابن أبي شيبه)) . و في رواية أخرى أنه قال : ((لئن يكون في كتبي رأس خنزير أحب إليّ من أن يكون فيها مصنف أبي بكر بن أبي شيبه)) (5) . و ابن أبي شيبه هذا هو محدث توفي سنة 235 هـ هجرية .

و من تعصبه على أهل الحديث إنه كان ينهي أهل العلم عن الاجتماع بالحافظ بقي بن مخلد الأندلسي (ت276هـ) ، و يحثهم على عدم الأخذ عنه ، لذا رُوي أن الفقيه قاسم بن أصبغ كان يدعوا عليه -أي علي ابن خليل- ، و يقول : هو الذي حرمني السماع من بقي بن مخلد ، و ذلك أنه كان يحث والدي على منعي من الذهاب إلى بقي بن مخلد (6) .

كان للتعصب المذهبي تأثير كبير على المسلمين في حياتهم الاجتماعية -خلال العصر الإسلامي- فجرّهم إلى الفرقة و التناحر، و إلى السباب و المهاترات ، و التكفير و اللعن ، و الفتن و المصادمات الدموية.

من تلك المظاهر المتعصبة أيضا : الذم و التهكم و التنقيص ، و منها الأمثلة الآتية ، أولها يتعلق بالفقيه أبي عثمان بن الحداد الإفريقي (ت302هـ) ، كان مالكا ثم مال إلى

¹ عبد الله بن أحمد بن حنبل : السنة ، حققه محمد القحطاني ، ط 1 ، الدمام ، دار ابن القيم ، 1406 ج 1 ص: 180 و ما بعدها .

² ابن عدي: الكامل في ضعفاء الرجال ، حققه مختار عزاوي ، ط 3 ، بيروت ، دار الفكر ، 1988 ج 6 ص: 291 .

³ الذهبي: ميزان الاعتدال ، ج 6 ص: 182 .

⁴ الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج 5 ص: 350 .

⁵ ابن حجر : اللسان ، ج 1 ص: 458 .

⁶ نفسه ، ج 1 ص: 458 .

مذهب الشافعي ، و أصبح يتنقّص بعض الكتب المعظمة عند المالكية ، فسمى كتاب المدونة بالمدودة ، فجهره المالكية ، ثم عادوا و أحبوه عندما تصدى لداعية العبيديين أبي عبد الله الشيعي(ت297هـ)، و ناظره و نصر المذهب السني(1) .

وكذلك ما وقع من تهكم و تنقّص بعض الشافعية بالحنفية و استهزائهم بهم في كيفية الصلاة عندهم ، انتصارا للمذهب الشافعي و ردا على معارضيه ، أن السلطان محمود بن سبكتكين (ت في قرن:5هـ —) لما أراد أن يُفاضل بين المذهبيين الحنفي و الشافعي ليتمذهب بأحدهما ، جمع الفقهاء بمدينة مرو و أمرهم بالبحث في أي المذهبين أقوى ، فوقع الاختيار على أن يصلي كل طرف ركعتين بين يدي السلطان على المذهبين ، فقام الفقيه الشافعي أبو بكر القفال و صلى بوضوء مُسبغ ، و سترة ، و طهارة ، و قبلة ، و باقي الأركان التي لا يُجوز الشافعي الصلاة دونها . ثم صلى-أي القفال- صلاة ((على ما يُجوزهُ أبو حنيفة ، فلبس جلد كلب مدبوغ قد لُطخ رُبْعُهُ بنجاسة ، و توضأ بنبذ ، فاجتمع عليه الذباب ، و كان وضوءا مُنكسا ، ثم كَبُرَ بالفارسية ، و قرأ بالفارسية : دو بركك سبز . و نقر و لم يطمئن ، و لا رفع من الركوع ، و تشهّد و شرط-أي أخرج الريح- بلا سلام)) ، فقال له السلطان : ((إن لم تكن هذه الصلاة يُجيزها الإمام قتلتك)) ، فأكرت الحنفية تلك الصلاة ، فأمر القفال بإحضار كتبهم فوجدوا الأمر كما قال القفال ، و تحوّل السلطان محمود إلى المذهب الشافعي . (2)

و قد علّق أبو حامد الغزالي الشافعي(ت505هـ) على تلك الصلاة -أي صلاة الحنفية- بقوله : ((و الذي ينبغي أن يقطع به كل ذي دين أن مثل هذه الصلاة ، لا يبعث الله لها نبيا ، و ما بعث محمد بن عبد الله — صلى الله عليه و سلم- لدعوة الناس إليها ، و هي قطب الإسلام و عماد الدين)) ، و قد زعم أبو حنيفة أن هذا ((القدر — من الصلاة- أقل من الواجب ، فهي الصلاة التي بُعث لها النبي ، و ما عداها آداب و سنن))(3) .

و واضح من هذه الحادثة أن التعصب المذهبي كان من الطائفتين ، فالشافعية تعصبوا لمذهبهم بالتهكم و الاستهزاء من كيفية الصلاة في المذهب الحنفي . و الحنفية حملهم تعصبهم لمذهبهم إلى الانتصار له بالباطل ، عندما أنكروا أمرا صحيحا ثابتا في مذهبهم لا يمكنهم إخفاؤه .

1 الذهبي: العبر، ج 2 ص : 128 .

2 الذهبي: السير ، ج17 ص: 486 .

3 أبو حامد الغزالي: المنحول ، حققه محمد حسن هيتو ، بيروت ، دار الفكر ، 1405 ص : 501 .

و مثال آخر يتضمن كلاما للقاضي أبي بكر بن العربي (ت 543هـ) في الحنابلة و أهل الحديث ، فقال فيهم كلاما غليظا(1) ، و وصفهم بأوصاف شنيعة ، فجعلهم ممن كاد للإسلام ، و لا فهم لهم ، و ليس لهم قلوب يعقلون بها ، و لا آذان يسمعون بها ، فهم كالأنعام بل هم أضل . و عدّهم من الغافلين الجاهلين في موقفهم من الصفات ، و شبههم باليهود ، و قال أنه لا يُقال عنهم : بنوا قصرا و هدموا مصرا ، بل يُقال : هدموا الكعبة ، و استوطنوا البيعة(2) – أي كنيسة اليهود .

و يتبين أن ما استعملته الطوائف المذهبية من لعن و ذم ، و اتهامات و تشنيعات ، هو دليل قاطع على ما وصلت إليه من تعصب و نزاع ، و قسوة و تنافر ، و ما تكنه لبعضها بعض من حقد و كراهية و بغضاء ، بسبب التعصب المذهبي الذي سيطر عليها .

جر التعصب المذهبي الطوائف الإسلامية إلى التكفير و التضليل ، انتصارا للمذهب و تعصبا على المخالف ، و الشواهد التاريخية على ذلك كثيرة جدا ، أذكر منها طائفة حسب الموضوعات الآتية :

تكفير الشيعة للصحابة و لكل من يخالفهم :

أولها إن الشيعي عمرو بن ثابت الكوفي (ت 172هـ) كان يسب السلف - و يقول : ((كفر الناس بعد رسول الله إلا أربعة))(3) .

و ثانيها ما ذكره إمام الشيعة الإثنى عشرية و ثقتهم محمد بن يعقوب الكليني(ت329هـ) في كتابه : الكافي -الأصول- ، فقد نص فيه صراحة -حسب رواياته المكذوبة- على أن الناس - أي كل المسلمين- ارتدوا بعد الرسول -صلى الله عليه و سلم- . و أكد صراحة على كفر كل من لم يؤمن بأئمة الشيعة الإثنى عشرية(4)

و آخرها هو ما صرّح به الكاتب الشيعي المعاصر محسن المعلم في كتابه النصب و النواصب ، حين ذكر صراحة أن الشيعة الإمامية - يقصد الإثنى عشرية- أجمعت على أن ((الناصبي-أي السني- حكمه حكم الكافر من حيث الاعتقاد)) ، و هو -أي الناصبي- في حكم الكافر من حيث النجاسة ، و إن كان مظهرا للشهادتين . و نقل عن

¹ للتوسع فيما حدث بين الأشاعرة و أهل الحديث من نزاع ، أنظر كتاب : الأزمة العقيدية بين الأشاعرة و أهل الحديث ، دار الإمام مالك ، الجزائر ، 2005 .

² العواصم من القواصم ، حققه عمار طالبي الجزائر ، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع ، 1981 ج2 ص: 282، 288، 303 .

³ الذهبي: ميزان الاعتدال ، ج 5 ص: 302 .

⁴ الكليني: الكافي من الأصول ، طهران دار الكتب الإسلامية ، 1328هـ ج1 ص: 187 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

عالمهم الصدر أن النواصب كفار . و نقل أيضا عن أحد علمائهم إنه قال : الناصبي شر من اليهودي و النصراني، و هو أنجس من الكلب(1)

و هو يقصد بالنواصب أهل السنة ، من الصحابة و التابعين و من جاء بعدهم من السنيين إلى يومنا هذا ، و قد ذكر منهم طائفة ، من بينهم : أبو هريرة ، و أنس بن مالك ، و عمر بن الخطاب، و عثمان بن عفان ، و أبو بكر الصديق، و عائشة أم المؤمنين ، و الزبير بن العوام ، و سعد بن أبي وقاص ، و سعيد بن المسيب ، و تقي الدين بن تيمية ، و ابن كثير ، و أحمد بن حجر الهيتمي(2)

و بذلك يتبين جليا أن التعصب المذهبي الأعمى أوصل الشيعة إلى تكفير الصحابة و أهل السنة أيضا ، بسبب انحراف عقائدهم —أي عقائد الشيعة- المخالفة للنقل الصحيح و العقل السليم معا ، فهل كُفّر السنيون الشيعة هم أيضا ؟ .

و بذلك يتبين أن كثيرا من أعيان أهل السنة قد كفروا الشيعة ، لتكفيرهم الصحابة و تضليلهم أيّاهم ، و طعنهم فيهم . فمن المتعصب المذموم في هذه الحالة ؟ ، لا شك أن كل طرف كُفّر الآخر ، لكن شتان بين من كُفّر الصحابة ظلما و عدوانا ، و بين من دافع عن الصحابة و كُفّر من كُفّرهم ، فالذين كُفّروا الصحابة هم المتعصبون للباطل ، المخالفون للنقل الصحيح و صريح العقل . و أما الذين نزّهوا الصحابة و انتصروا لهم اتباعا للشرع و للحقائق التاريخية الثابتة ، فهم المنتصرون للحق المتعصبون له ، فتعصبهم محبوب ممدوح ، و تعصب هؤلاء-أي الشيعة- مُنكر مذموم ، لأن الله تعالى شهد لصحابة رسوله-عليه الصلاة و السلام- بالإيمان و العمل الصالح ، و بالجنة و النصر في الدنيا و الآخرة ، و هم —أي الشيعة- خالفوا كلام الله تعالى و جعلوه وراء ظهورهم ، و سبوا الصحابة و كفّروهم ، اتباعا لأهوائهم و ظنونهم ، و مفتريات الكذابين من سلفهم من السبئية و الرافضية ، فويل لهم مما افتروا ، و ويل لهم مما كتبوا من أباطيل و أكاذيب عن الصحابة ، و الله تعالى قال فيهم { وَالسَّافِقُونَ الْأُولُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } سورة التوبة / 100 ، فأنه سبحانه قد شهد لهم بالجنة و الرضوان ، و هؤلاء الضالون سبّوهم و كفّروهم !!

كما أنه سبحانه وعدهم —أي الصحابة- بالنصر و التمكين ، و قد تحقق على يدهم ، في قوله سبحانه : { وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ }

¹ محسن المعلم : النصب و النواصب ، دار الهادي، بيروت ، ص: 609 .

² نفس المرجع ، ص: 268، 272، 279، 282، 283، 284، 294، 308، 317، 318، 328،

337، 338، 365، 399، 419 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

سورة النور / 55 و هذا الوعد تحقق بناء على شروط اشترطها الله تعالى على الصحابة ، و هي الإيمان ، و العمل الصالح ، و عدم الإشراك بالله ، فتحقق النصر على أرض الواقع ، ففتح الصحابة الفتوحات و بنوا دولة الإسلام ، و نشروا التوحيد و العدل ، فدل ذلك على أنهم كانوا مؤمنين صالحين زمن رسول الله و بعده عليه الصلاة و السلام .

و مثال آخر يتعلّق بما حدث للحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي (ت600هـ) ، فإنه لما أظهر مذهبه في صفات الله تعالى أنكر عليه طائفة من الأشاعرة ، و رفعوا أمره إلى ولي الأمر بدمشق (سنة 596هـ) ، و ناقشوه في مذهبه ، فلما أصر عليه كفّروه و بدّعوه (1)

و مثال آخر يتعلّق بالشيخ تقي الدين بن تيمية ، فإنه لما أظهر مذهبه في صفات الله تعالى على طريقة السلف و أهل الحديث تألّب عليه جماعة من الأشاعرة و رفعوا أمره إلى السلطان ، ثم انتهى أمره إلى قضاة المذاهب الأربعة ، فحكم عليه القاضي المالكي ابن مخلوف بالسجن و الكفر (2)

و هذا القاضي-أي ابن مخلوف- قال فيه الشوكاني : كان جاهلا غبيا ((من الشياطين المتجرئين على سفك دماء المسلمين ، بمجرد أكاذيب ... و ناهيك بقوله إن هذا الإمام-أي ابن تيمية- قد استحق القتل ، و ثبت لديه كفره ، و لا يساوي شعرة من شعراته، بل لا يصلح أن يكون شسعا لنعله . و ما زال هذا القاضي الشيطان يتطلّب الفرص التي يتوصل بها إلى إراقة دم هذا الإمام -أي ابن تيمية- فحجبه الله عنه ، و حال بينه ، و الحمد لله رب العالمين)) (3)

أن التكفير و التضليل لم ينحصر بين الشيعة و السنة ، و لا بين السنيين أنفسهم ، و إنما حدث أيضا بين المعتزلة و أهل السنة ، و بين الخوارج و السنيين ، فالمعتزلة كفّروا من خالفهم في أصولهم كمسألة الصفات و كلام الله ؛ فردّ عليهم أهل السنة بالتكفير هم أيضا ، بسبب انحرافهم عن الدين في مسألة الصفات و كلام الله تعالى (4)

و أما الخوارج فقد ظهر تطرفهم و تعصبهم مبكرا ، عندما كفّروا عليا ، و عثمان ، و الحكمين عمرو بن العاص و أبا موسى الأشعري ، و أصحاب الجمل ، و كل من

1 الذهبي: السير، ج 21 ص: 446 .

2 الشوكاني: البدر الطالع ، ج 1 ص: 67 .

3 نفسه ، ج 1 ص: 67 .

4 انظر-مثلا- : عبد القاهر البغدادي: الفرق بين الفرق ، ص: 114 و ما بعدها ، 357 . و ابن كثير : البداية ، ج 10 ص: 305 . و أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 2 ص: 37 ، 537 .

رضي بتحكيم الحكمين ، كما أنهم كفروا أيضا مرتكب الذنوب (1) -أي الكبائر- . و كان صاحب الحمار مخلص بن كداد الخارجي الإباضي المغربي (ت 336هـ) يُكفر أهل الملة ، و يسب علي بن أبي طالب-رضي الله عنه-(2) . فرد عليهم أهل السنة بالتضليل و التكفير و التبديع ، بسب تكفيرهم لكثير من الصحابة و جماهير الأمة ، و ما ارتكبه في حق المسلمين من تقتيل و ترويع(3)

و من خلال هذه الأمثلة يتبين أن التعصب المذهبي أوصل الطوائف الإسلامية إلى التكفير و التضليل و التبديع ، و أذهب أخوتهم و وحدتهم . و قد أصاب الفقيه المجدد محمد بن علي الشوكاني عندما قال : " ها هنا تُسكب العبرات ، و يُناح على الإسلام و أهله ، بما جناه التعصب في الدين على غالب المسلمين من الترامي بالكفر لا لسنة ، و لا لقرآن ، و لا لبيان من الله ، و لا لبرهان ، بل لما غلبت مراحل العصبية في الدين ، و تمكن الشيطان الرجيم من تفريق كلمة المسلمين ، لقنهم إزمات بعضهم لبعض ، بما هو شبيه الهباء في الهواء ، و السراب البقية ، فيا لله و للمسلمين ، من هذه الفاقة التي هي من أعظم فواقر الدين و الرزية "(4)

¹ عبد القاهر البغدادي: نفس المصدر ، ص: 13 .

² ابن خلدون : كتاب العبر ، ج 7 ص: 18 .

³ انظر مثلا : عبد القاهر البغدادي: المصدر السابق، ص: 84 ، 357 . و أبو يعلى الفراء: المعتمد في أصول الدين ، ص: 267 . و ابن مفلح المقدسي : الفروع ، ج 6 ص: 155 .

⁴ الشوكاني: السيل الجرار ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1405هـ ، ج 4 ص: 584 .

الفصل الرابع

الفتن المذهبية بين الطوائف السنية

لم تكن الطوائف السنية الأربعة: الحنفية ، و المالكية ، و الشافعية ، و الحنبلية ، بمنأى عن التعصب المذهبي فيما بينها ، فقد كان متغلغلا فيها ، على مستوى أصول الدين و فروعه ، و أوصلها إلى الفتن المذهبية الدامية -خلال العصر الإسلامي.

1- ما حدث سنة 393 هجرية بين الشافعية و الحنفية ببغداد ، سببها أن شيخ الشافعية أبا حامد الإسفراييني (ت406هـ) أستطاع أن يؤثر في الخليفة العباسي القادر بالله ، و يُقنعه بتحويل القضاء من الحنفية إلى الشافعية ، فلما فعل ذلك احتج الحنفية ودخلوا في مصادمات مع الشافعية(1) . و هذه الفتنة عثرتُ عليها عند المقرئزي ، و لم يذكر تفاصيلها ولا مآلها ؛ لكن المعروف أن القضاء بقي بأيدي الحنفية ببغداد ، مما يعني أن الخليفة قد تراجع عن موقفه وأعاد القضاء للحنفية .

كما أن هذه الفتنة لها خلفيات بسبب التعصب المذهبي القائم بين الطوائف السنية ، لأنه ليس من العدل أن تحتكر طائفة منهم القضاء دون الطوائف الأخرى ؛ لأن كل طائفة تريد أن تتولى القضاء و تحتكم فيه إلى مذهبها ، و لا تحتكم إلى غير مذهبها .

2- ما حدث بمدينة مرو ببلاد خراسان بين الشافعية و الحنفية ، عندما غير الفقيه منصور بن محمد السمعاني المروزي(ت489هـ) مذهبه ، فقد كان حنفيا مدة ثلاثين سنة ، ثم تحوّل إلى المذهب الشافعي ، و أعلن ذلك بدار الإمارة بمدينة مرو بحضور أئمة الحنفية و الشافعية ، فاضطرب البلد لذلك ، و هاجت الفتنة بين الشافعية و الحنفية ، و دخلوا في قتال شديد ، و عمّت الفتنة المنطقة كلها ، حتى كادت تملأ ما بين خراسان و العراق لكن السمعاني ظل ثابتا على موقفه و لم يتراجع عنه ، لكنه اضطر إلى الخروج من مدينة مرو ، و الانتقال إلى مدينة طوس ، ثم إلى نيسابور ، ثم عاد إلى مرو بعد سكون الفتنة(2) .

3- ما حدثت بين الحنابلة و الشافعية ببغداد سنة 573 هجرية ، و ذلك أنه عندما توفي خطيب جامع المنصور محمد بن عبد الله الشافعي سنة 537 هجرية ، و منع الحنابلة من دفنه بمقبرة الإمام أحمد بن حنبل ، لأنه شافعي و ليس حنبليا ، حدثت فتنة بين

¹ المقرئزي : كتاب المواعظ و الاعتبار ، ج 2 ص: 333-334 .

² أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ،حققه خليل الميس ، بيروت دار القلم ، دت ، ج1 ص: 240 . و السبكي: طبقات الشافعية ، ج 5 ص: 34 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الطائفتين تدخل على إثرها الخليفة العباسي المقتفي (530-555هـ) و أوقفها ، و أفضل محاولة الحنابلة منع دفن المتوفى بمقبرتهم ، و أمر بدفنه فيها ، فتّم ذلك(1)

و واضح من هذه الفتنة أن التعصب المذهبي كان على أشده بين الحنابلة و الشافعية ، حتى أنه أوصل الحنابلة إلى رفض دفن رجل مسلم شافعي بمقبرتهم المعروفة باسم إمامهم ، ثم الدخول في مواجهات مع الشافعية ، و هذا غريب جدا يأباه الدين و العقل مهما كانت المبررات .

4- ما حدثت بأصفهان ببلاد فارس- بين فقهاء أصحاب المذاهب سنة 560 هجرية ، كان في مقدمتهم عبد اللطيف الخُجَنْدي الشافعي ، مع مخالفه من المذاهب الأخرى ، فحدثت بينهم فتنة كبيرة بسبب التعصب للمذاهب ، فخرج المتعصبون إلى القتال لمدة 8 أيام ، فكثرت بينهم الشرور و الخطوب ، و قُتل منهم خلق كثير ، و أحرقت و خُربت منازل و مرافق كثيرة ، و بعد ثلاثة أيام افترقوا على أقبح صورة(2) .

5- ما حدثت بأصفهان بين الشافعية و الحنفية في سنة 582 هجرية ، و ذلك أنه لما مات الملك العادل البهلوان محمد بن أيدلكر سنة 582 هجرية ، كثرت الفتن بين الشافعية و الحنفية بسبب التعصب المذهبي ، فكان على رأس الحنفية قاضي البلاد-لم يُذكر- ، و على رأس الشافعية ابن الخُجَنْدي ، فحدث بين الطائفتين من القتل ، و النهب ، و الدمار ، ما يجلب عن الوصف (3)

6- ما حدثت بين الشافعية و الحنفية بمدينة مرو ، زمن الوزير الخوارزمي مسعود بن علي المتوفى سنة 596 هجرية ، و ذلك أن هذا الوزير كان متعصبا للشافعية ، فبنى لهم جامعا بمرور مشرفا على جامع للحنفية ، فتعصبوا-أي الحنفية- و أحرقوا الجامع الجديد -الذي بناه الوزير مسعود- فاندلعت فتنة عنيفة مدمرة بين الطائفتين ، كادت ((بها الجماجم تطير عن الغلاصم)) ، فلما توقفت أغرمهم -أي الحنفية- السلطان خوارزم شاه الحنفي (ت 596هـ) أموالا مقدار ما صُرف في بناء المسجد الذي أحرقوه(4)

و قد ذكر الرحالة ياقوت الحموي (ت 626هـ) أن مدينة أصفهان في زمانه عمها الخراب بسبب كثرة الفتن و التعصب بين الشافعية الحنفية ، فكانت الحروب بينهما

¹ سبط بن الجوزي: مرآة الزمان ، ج 1 ص: 182 .

² ابن الأثير : الكامل ، ج 9 ص: 478 . و ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 249 . و الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 169 .

³ ابن الأثير : الكامل ، ج 10 ص: 141 . و الذهبي: تاريخ الإسلام ، حوادث: 581-590، ص: 14 .

⁴ ابن الأثير : نفس المصدر ، ج 7 ص: 250 . و ابن كثير : المصدر السابق ، ج 13 ص: 23 . و السبكي: المصدر السابق ، ج 7 ص: 296 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

متصلة ، فكلما ((ظهرت طائفة نهبت الأخرى ، و أحرقتها ، و خرّبتها ، لا يأخذها في ذلك إلا و لا ذمة))(1)

و نفس الأمر حكاه عن مدينة الري ببلاد فارس ، فذكر-أي ياقوت الحموي- أن هذه المدينة كان أكثرها خرابا في زمانه ، بسبب التعصب للمذاهب ، فكانت الحروب بين الشافعية و الحنفية قائمة ، انتهت بانتصار الشافعية ، و لم يبق من الحنفية إلا من يُخفي مذهبه(2)

و أشير هنا إلى أن الفتن التي ذكرناه -بين الطوائف السنية- كان سببها في الغالب الاختلاف في المذاهب الفقهية و التعصب لها. و أما الفتن التي حدثت بينها بسبب الاختلاف في العقائد -أصول الدين- فهو مما أعجب منه الإنسان لأن هؤلاء الأئمة (أبو حنيفة، مالك، الشافعي وأحمد) كانوا على عقيدة واحدة فكيف يختلفون أتباع هذه المذاهب في العقيدة!!! فالظهار أن كثيرا منهم لم يكونوا متبعين لهؤلاء الأئمة بل متبعون لأهوائهم وأبائهم ورؤسائهم.

فتبين أن التعصب المذهبي بين الطوائف السنية أوصلها إلى المصادمات الدامية و الفتن الشنيعة ، بسبب الخلافات الفقهية والعقدية القائمة على التعصب المذموم . فعبرت تلك الفتن بوضوح على ما كانت تُكنه كل طائفة للأخرى من حقد و كراهية و حسد و تعصب . كما أنها دلّت على أنها لم تكن حوادث شاذة معزولة ، و إنما كانت حوادث جماعية كثيرة ، من ورائها جماعات مُنظمة و موجهة ذات أهداف محددة .

أثر التعصب المذهبي في الحياة المسلمين من كل جانب و خاصة الجانب العلمي نجد تأثيرا كبيرا طيلة العصر الإسلامي ، فتجلّى ذلك في مختلف مظاهر النشاطات العلمية على مستوى المؤسسات ، و الإنتاج العلمي ، و مجالات العلم ، و القضايا المذهبية على مستوى أصول الدين و فروعها.

¹ معجم البلدان ، ج 1 ص: 209 .

² نفسه المصدر ، ج 3 ص: 117 .

الفصل الخامس

التفاضل بالأئمة والمذاهب

اتصف الأئمة الأربعة بصفات حميدة كثيرة ، فأحبهم الناس و تمذهبوا لهم لأجلها ، لكنهم-أي الناس- بالغوا في التفضيل و التعظيم ، و المدح و الافتخار ، و أصبحت كل طائفة تزعم أن إمامها هو أعظم الأئمة و أولى بالاتباع ، و قال بعضهم بوجوب اتباعه و الالتزام بمذهبه ، تعصبا للإمام و مذهبه.

فالحنفية كثيرا ما يُبالغون في تعظيم إمامهم و مدحه ، من ذلك إنهم كثيرا ما يلتزمون بوصف إمامهم أبي حنيفة ، بالإمام الأعظم ، و قد كررها عبد القادر القرشي (ت775هـ) في طبقات الحنفية كثيرا ، و قال في بعضها : ((الإمام الأعظم ، و الهمام الأقدم ، و تاج الأئمة و سراج الأمة أبو حنيفة النعمان))(1).

و كذلك أن الفقيه مُسعر بن كِدام (ت 155هـ) كان يقول : ((جعلتُ أبا حنيفة حجة بيني و بين الله تبارك و تعالى)) ، فقيل له : ((لقد استوثقت لنفسك))(2) . و قوله هذا فيه مبالغة شديدة، لأنه لا يُوجد لله حجة بينه و بين خلقه إلا كتابه ، و سنة رسوله-عليه الصلاة و السلام- الصحيحة ، . و أما الرجال فكل طائفة تزعم ذلك في إمامها (3)، كما أن الرجال مهما عظموا فهم بشر يُخطئون و يُصيبون ، و لم يجعلهم حجة مطلقة على خلقه ، إلا بقدر التزامهم بشرعه ، قال تعالى : {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } سورة النساء / 59

و للأسف الشديد نجد أن بعض الحنفية اختلقوا أحاديث نسبوها إلى رسول الله -صلى الله عليه وسلم- فيها مدح لإمامهم و تبشير به و ذم لغيره ، منها حديثان ، الأول يقول : ((سيأتي بعدي رجل يُقال له النعمان بن ثابت يُكنى أبا حنيفة ، ليحيين دين الله و سنتي على يديه)) . و الثاني يقول : ((يكون في أمتي رجل يُقال له محمد بن إدريس أضر

¹ الجواهر المضيئة في طبقات الحنفية ، كراتشي - مير كتب خانة ، د ت ، ج 1 ص: 451 ، 524 ، 526 .

² نفس المصدر ، ج 1 ص: 563 .

³ -وهذا مشاهد وواقع في الغرب نجد أن بعض المسلمين يقولون : "الشيخ فلان مرجع لنا وهو أعلم من غيره في هذه المسائل" ثم يحكمون على/بين الناس بمشايعهم مع أن آخرين لا يرون أن شيخهم أعلم في هذه المسألة فلا يتفقون على جعل هذا الشيخ حكما فيما اختلفوا فيه. و قد رأينا نتيجة هذا في الغرب و قد أدى إلى الترفق والاختلاف والتحزب والتعصب المذموم بين بعض المنتسبين إلى أهل السنة. فكل هذا لأنهم اكتفوا بأراء الرجال. الله المستعان.

على أمتي من إبليس ، و يكون في أمتي رجل يُقال لك : أبو حنيفة ، هو سراج أمتي)) (1)

و المالكية من بالغ في مدح إمامهم و تعظيمه ، منهم القاضي عياض فإنه رجّح مذهب مالك على مذاهب الأئمة الآخرين ، و قرر وجوب تقليده و تفضيله على غيره ، مدعياً أنه هو الأفضل ، و الأعلّم ، و أنه سكن المدينة بناء على حديث يقول : ((تضربون أكباد الإبل ، و تطلبون العلم ، فلا تجدون عالماً اعلم من عالم المدينة)) . و قال أيضاً إن مالكا أولى الأئمة بالاتباع لجمعه أدوات الإمامة ، و تحصيله وجه الاجتهاد ، و كونه أحق أهل وقته بذلك (2)

و الشافعية فيهم من بالغ في مدح الشافعي و تعظيمه ، منهم إمام الحرمين الجويني (ت478هـ) ، صنف رسالة في ترجيح مذهب الشافعي على سائر المذاهب ، و قرر فيها أنه يجب على كل مخلوق إتباع الشافعي و تقليده ما لم يكن مجتهداً (3)

و منهم الفقيه محي الدين بن شرف النووي (ت676هـ) ، قال إن الشافعي كان بارعاً في العلوم ، و لم يوجد بعده من بلغ محله في ذلك ، لذا فمذهبه أولى بالاتباع و التقليد (4) . و منهم أيضاً الفقيه تاج الدين السبكي (ت771هـ) ، وصف الشافعي بأنه ((الإمام الأعظم المطلبي ، و العالم الأقوم ابن عم النبي)) (5)

و الحنابلة فيهم من بالغ في مدح أحمد بن حنبل و فضله على سائر الأئمة ، منهم الحافظ يحيى بن منده الأصفهاني (ت511هـ) ، قال : ((إن أحمد بن حنبل إمام المسلمين ، و سيد المؤمنين ، و به نحى و به نموت ، و به نُبعث إن شاء الله تعالى ، فمن قال غير هذا فهو من الجاهلين)) . و قال أيضاً في وصفه لأحمد : ((الإمام المرضي ، و إمام الأئمة ، و كهف الأمة ، و ناصر الإسلام و السنة ، و من لم تر عين مثله علماً و زهداً ، و ديانة و إمامة ، و الإمام الذي لا يُجارى ، و الفحل الذي لا يُبارى)) (6)

و منهم الفقيه المؤرخ عبد الرحمن بن الجوزي (ت597هـ) ذكر أنه سبر سيرة السلف كلهم ليستخرج منهم من جمع بين العلم حتى صار مجتهداً ، و العمل حتى صار قدوة للعابدين ، فلم يجد أكثر من ثلاثة ، و هم : الحسن البصري ، و سفيان الثوري ، و أحمد

¹ محمد عجاج الخطيب : السنة قبل التدوين ، ط1 ، مصر مكتبة وهبة ، 1963هـ ص: 210 .

² القاضي عياض: ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 19 ، و ما بعدها . و ابن فرحون : الديباج المذهب في معرفة أعيان المذهب ، دار الكتب العلمية ، بيروت ، د ت ، ص: 13 .

³ السبكي : طبقات الشافعية الكبرى ، ج1 ص: 345 .

⁴ العلمي: المعين في أدب المفيد ، حققه محمد زيغور ، ط1 ، بيروت ، دار إقرأ ، 1986 ، ص:

188 .

⁵ السبكي: المصدر السابق ، ج 1 ص: 343 .

⁶ ابن رجب البغدادي: الذيل على طبقات الحنابلة ، ج 1 ص : 101 ، 156 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

بن حنبل ، ثم قال إنه لا ينكر على من ربّع بهؤلاء بسعيد بن المسيب(1) . فهو قد استبعد كلية أبا حنيفة و مالك و الشافعي الذين بالغ أتباعهم في تعظيمهم و مدحهم ، و جعل إمامه أحمد بن حنبل من بين الذين فضّلهم ، و استبعد هؤلاء الأئمة الثلاثة المتبوعين ، لعدم بلوغهم ما أشرطه في مقياسه .

و قال أيضا إنه-أي ابن الجوزي- فضل مذهب أحمد بن حنبل على مذهب مالك و أبي حنيفة و الشافعي اعتمادا على العلم لا على النسب ، كما أنه وجد أحمد أوفر الأئمة حظا في العلوم الشرعية ، و كان حافظا لكتاب الله ، و متفردا بعلم الحديث جرحا و تعديلا ، و عارفا بالعربية و القياس ، زاهدا ورعا في الدنيا ، صابرا في المحنة ، لم يأخذ عطاء السلطان(2)

و قد ترتب عن مبالغات هؤلاء أنها عمّت خاصة الناس و عامتهم ، و انتشر بينهم تقليد الأئمة و التعصب لهم بحق و بغير حق ، و تجاوزوا الحد في تعظيم أئمتهم و امتثال آرائهم، إلى حد لا يوصف عندهم للصحابة ، بل ولا لكلام الله تعالى و سنة رسوله —عليه الصلاة و السلام(3)

و قد ذكر المؤرخ أبو شامة المقدسي (ت 665هـ) أن المقلدين المتعصبين في زمانه بلغ بهم الأمر إلى أن أصبحت أقوال الأئمة عندهم بمنزلة الكتاب و السنة ، فصدق عليهم قوله تعالى : { اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ } سورة التوبة : 31 ؛ و لغلبة التعصب عليهم كفروا بالرسول —صلى الله عليه وسلم- عندما أخبرنا أن الله تعالى يبعث في كل مائة سنة من ينفي تحريف الغالين و انتحال المبطلين ، فحجروا على الله تعالى كاليهود بأن لا يبعث بعد أئمتهم و ليا مجتهدا ؛ و انتهى بهم التعصب إلى أن أحدهم إذا أورد عليه دليل من القرآن و السنة اجتهد في دفعه بكل سبيل من التأويلات البعيدة نصره لمذهبه . ثم انتهى بهم الأمر على إهمال علوم الكتاب و السنة ، و تفضيل ما هم عليه الذي ينبغي المواظبة عليه ، فبدلوا بالطيب خبيثا ، و بالحق باطلا ، و بالهدى ضلالا(4)

¹ ابن الجوزي :صيد الخاطر ، حققه محمد الغزالي ، الجزائر ، مكتبة رحاب ، 1988هـ ص: 57

² نفس المصدر ، ص: 496 ، 497 ، 501 ، 502 .

³ الشوكاني: القول المفيد ، حققه عبد الرحمن عبد الخالق ، ط1 ، الكويت ، دار القلم، 1396، ص:

70 .

⁴ أبو شامة : مختصر كتاب المؤمل للرد إلى الأمر الأول ، ضمن مجموع : من هدى المدرسة

السلفية ، الجزائر ، دار الشهاب ، ص: 217-218 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و من ذلك أيضا ما ذكره محمد بن الشوكاني من أنه اشتهر عن جماعة من أهل المذاهب الأربعة بأنهم قالوا : ((تعذر وجود مجتهد بعد المائة السادسة)) (1) . و ذكر الذهبي أن أحد أهل العلم المقلدين المتمذهبين المتعصبين قال : إن المقلد الذي التزم بتقليد إمامه ، هو مع إمامه كالنبي مع أمته ، لا يحل مخالفته (2)

و من ذلك أيضا ما ذكره الفقيه المعاصر محمد الحامد من أن فقهاء الحنفية قرروا أن الاجتهاد المطلق في الأحكام ممنوع بعد فوات 400 سنة عن وفاة رسول الله — عليه الصلاة والسلام- ، ليس حجرا على فضل الله ، و إنما هو لئلا يدعي الاجتهاد من ليس أهله ، فنقع في فوضى دينية واسعة ، لذلك رأى العلماء الأتقياء إشفافا على الأمة إقبال ذلك الباب أمام أدعياء الاجتهاد (3) .

و من مظاهر مبالغاتهم أيضا ما ادعاه قاضي القضاة علي بن محمد الدامغاني الحنفي (ت513هـ) ، عندما منع أن يُحكم في القضاء بغير رأي أبي حنيفة و صاحبيه محمد و أبي يوسف ، و أعلن أمام الملأ بأعلى صوته بأنه لم يبق في الأرض مجتهد . فأنكر عليه الفقيه المجتهد أبو الوفاء بن عقيل الحنبلي البغدادي (ت513هـ) ما ادعاه ، و قال إن كلامه هذا فيه فساد كبير (4).

و من ذلك أيضا ما ذهب إليه الفقيهان الشافعيان أبو عمر بن الصلاح (ت643هـ) ، و محي الدين بن شرف النووي (ت676هـ) ، فإنهما أوجبا التقليد على الناس و ضيقا على الفقيه مجال حريته ، فإذا صح الحديث فليس له أن يعمل به حتى ينظر هل له معارض أو ناسخ أو نحوهما أم لا ، وإذا حز في نفسه مخالفة الحديث ، فالمختار عندهما إن لم يكن أهلا للاجتهاد في المذهب لم يجز له العمل به ، لاحتمال أن يكون خفي عليه شيء (5) . و نص النووي على أن التقليد أصبح لازما بعد تدوين المذاهب ، و لا يحق للمقلد أن يخالف صاحب مذهبه ، و لا يفتي إلا المجتهد (6).

و آخرها — أي مظاهر المبالغة في التعظيم و التقليد- ما رواه المؤرخ المقرئ من أن فقهاء الأمصار زمن السلطان المملوكي الظاهر بيبرس (658-676هـ) أفتوا في سنة 665 هجرية بوجوب اتباع المذاهب الأربعة و تحريم ما عداها ، و منعوا تقليد غير

¹ البدر الطالع ، ج 1 ص: 2 .

² السير ، ج 8 ص: 90 .

³ محمد الحامد : مجموعة رسائل الشيخ محمد الحامد ، الجزائر ، دار الشهاب ، ص: 6 .

⁴ ابن الجوزي: المنتظم ، ج 10 ص: 210 .

⁵ العلمي: المصدر السابق ص: 175 ، 190 . والدهلوي: المرجع السابق ص: 108 . و محمد

عيد عباس : حقيقة التعيين ص: 22

⁶ العلمي : نفس المصدر ص: 190 ، 199 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الأئمة الأربعة ، و كان عددهم كبيرا من مختلف الأمصار ، لم يذكر لنا المقرئزي أي واحد منهم(1)

و تعليقا على ما ذكرناه أقول : أولا إن أقوال هؤلاء المقلدين المتمذهبيين المبالغين في تعظيم أئمتهم و الدعوة إلى تقليدهم و الالتزام بأقوالهم ، هي أقوال مبالغ فيها جدا ، سببها التقليد و التعصب المذهبيين ، و لا تقوم على أي أساس صحيح شرعا و لا عقلا .

و ثانيا إنه ما يُرد به على هؤلاء المتمذهبيين المتعصبين ، هو أنه علينا أن نتذكر أن أقوالهم المبالغ فيها تردها أقوال الطوائف الأخرى التي هي مُبالغ فيها أيضا . فالحنفية- مثلا- الذين بالغوا في تعظيم إمامهم و الدعوة إلى تقليده ، عليهم أن يعلموا أن الطوائف الأخرى قالت نفس الشيء في أئمتها ، و يمكن الرد بأقوالها على الحنفية . و نفس الأمر يمكن استخدامه للرد على باقي الطوائف .

و ثالثا إن هناك أقوالا كثيرة لعلماء آخرين يمكن استخدامها للرد على المتمذهبيين المتعصبين المبالغين في تعظيم أئمتهم ، و هي أقوال تشهد على أن هؤلاء الأئمة الأربعة- المبالغ فيهم – وُجد من العلماء من انتقدهم و فضل غيرهم عليهم . فالحنفية المقلدون لإمامهم أبي حنيفة ، و المبالغون في تعظيمه و تفضيله و التعصب له ، عليهم أن يعلموا أن كثيرا من علماء الجرح و التعديل تكلموا فيه و انتقدوه ، و ذكروه في الضعفاء(2) . و انتقده أيضا أبو حامد الغزالي(ت505هـ) ، و حطّ عليه و خطّاه في طائفة من الأحكام الفقهية ، في كتابه المنحول في تعليق الأصول(3)

و المالكية المبالغون في إمامهم-تعظيما و تعصبا- عليهم أن لا ينسوا هم أيضا ما قاله بعض العلماء في إمامهم ، فقد قال عبد الله بن المبارك : ((أبو حنيفة أفقه من مالك)) ، و قال الشافعي ((الليث بن سعد أفقه من مالك ، إلا أن أصحابه لم يقوموا به)) ، و كان الشافعي يتأسف لفوات السماع من الليث . و قال أيضا : ((كان الليث أتبع للأثر من مالك))(4) .

1 الخطط و الاعتبار ، ج 2 ص: 344 .

2 أمثلا : العقيلي: الضعفاء ، ج 4 ص: 281 و ما بعدها . و عبد الله بن أحمد بن حنبل : السنة ، ج

1 ص: 186 و ما بعدها، 204 .

3 انظر مثلا : ص : 500 و ما بعدها .

4 الذهبي: السير ، ج 6 ص: 402 . و تذكرة الحفاظ ، ج 1 ص: 224 ، 225 .

و قال الحافظ زكريا بن يحيى الساجي (ت307هـ) : ((أحمد بن حنبل أفضل عندي من مالك ، والأوزاعي ، و الثوري ، و الشافعي ، و ذلك أن لهؤلاء نظراء ، و أحمد بن حنبل فلا نظير له))(1) .

و الشافعية المبالغون في إمامهم-تعظيما و تعصبا- عليهم هم أيضا أن يتذكروا ما قاله بعض العلماء في إمامهم ، فقد انتقده الحافظ بن معين و قال إنه ليس بثقة(2) . و فضّل شيخ الحنفية أبو الحسن القدوري البغدادي (ت قرن:5هـ) أبا حامد الإسفراييني الشافعي (ت406هـ) على إمامه الشافعي ، بقوله : ((الشيخ أبو حامد عندي أفقه و أنظر من الشافعي))(3) . و فضّل الحافظ زكريا الساجي أحمد بن حنبل على طائفة من كبار العلماء ، من بينهم الإمام الشافعي . و قال الحافظ إسحاق بن راهويه : ((إن الله لا يستحي من الحق ، أبو عبيد -أي القاسم بن سلام- أعلم مني ، و من ابن حنبل ، و من الشافعي))(4) . و قال الشافعي لأحمد بن حنبل : ((انتم أعلم بالحديث و الرجال ، فإذا كان الحديث الصحيح فأعلموني ، إن شاء يكون كوفيا ، أو شاء شاميا ، حتى أذهب إليه إن كان صحيحا))(5) . فهذا اعتراف منه بأن أحمد بن حنبل أعلم منه بالحديث و الرجال .

و الحنابلة المبالغون في إمامهم-تعظيما و تعصبا- عليهم هم أيضا أن لا ينسوا ما قاله بعض العلماء في إمامهم ، فقد قال أبو داود السجستاني : ((علي بن المديني أعلم من أحمد باختلاف الحديث)) . و قال أحمد بن أبي بكر المديني: ((محمد بن إسماعيل-أي البخاري- أفقه عندنا و أبصر من ابن حنبل))(6) . و قال أحمد بن حنبل : ((ما جاوز الجسر -أي جسر بغداد- أفقه من إسحاق بن راهويه ، و لا أحفظ من أبي زرعة))(7) . فهذا اعتراف منه -و هو قد جاوز الجسر- بأن الأول أفقه منه ، و الثاني أحفظ منه . و قد ذكرنا سابقا أن إسحاق بن راهويه قال : ((إن الله لا يستحي من الحق ، أبو عبيد -أي القاسم بن سلام- أعلم مني ، و من ابن حنبل ، و من الشافعي)) .

و قد كان بعض أهل العلم يُفضّلون عبد الله بن أحمد على أبيه أحمد بن حنبل ، في كثرة الرواية و المعرفة (8) . و كان بعض الطلبة يُفضلون أستاذهم إبراهيم الحربي على

1 أبو الحسين بن أبي يعلى : طبقات الحنابلة ، ج 1 ص: 18 .

2 السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 2 ص: 22 .

3 أبو إسحاق الشيرازي: طبقات الفقهاء ، ص: 45 .

4 الخطيب البغدادي: تاريخ بغداد ، ج 12 ص: 411 . و الذهبي : السير ، ج 10 ص: 500 .

5 أبو الحسين بن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 1 ص: 6 .

6 الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج 2 ص: 428 . و ابن حجر : تهذيب التهذيب ، ط1 ، بيروت دار الفكر

، 1984، ج 9 ص: 43 .

7 أبو الحسين بن أبي يعلى : المصدر السابق ، ج 1 ص: 200 .

8 الذهبي: المصدر السابق ، ج 2 ص: 75 .

شيخه أحمد بن حنبل ، فلما أخبروه بذلك امتنع عن تدريسهم (1) . و كان الفقيه المفسر ابن جرير الطبري (ت 310هـ) ، لا يعد أحمد بن حنبل من الفقهاء ، و عندما ألف كتابه اختلاف الفقهاء لم يذكره فيه ، و عده من المحدثين ، فثار عليه الحنابلة ببغداد (2).

و يجب أن لا يغيب عنا أن الله تعالى لم يلزمنا اتباع إلا كتابه و سنة رسوله الصحيحة ، و لم يتعبدنا إلا بهما ؛ فنحن لسنا ملزمين باتباع أي إنسان كائن من كان ، فكل إنسان يُؤخذ من كلامه و يُرد إلا النبي — عليه الصلاة و السلام . و أما حكاية الأعمى و الأزهد ، و الأعبد و الأشجع ، التي ذكرها المتمذهبون المتعصبون ، فهي مقاييس لا دخل لها مطلقا في مسألة الاتباع من عدمه . و عليه فإن ما تذرّع به المتمذهبون المتعصبون في أن أئمتهم هم الأفضل و الأعمى و الأعبد ، هي ذرائع مرفوضة ، لأن الشرع أمرنا بالرد إلى الله و رسوله عند التنازع { فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا } سورة النساء : 59. و قال تعالى : { أَفَأَسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِنْ كُنْتُمْ لَا تَعْلَمُونَ } سورة النحل : 43 - فأمرنا بسؤال أهل الذكر إن كنا لا نعلم ، و لم يأمرنا بتقليدهم و التزام أقوالهم ، و التعصب لها . و قد كان أبو بكر الصديق-رضي الله عنه- أفضل الصحابة مكانة و أكثرهم علما ، و لم يقل للصحابة قلدوني و التزموا أقوالي لأنني أفضلكم ، و هم أيضا ما ادعوا فيه ذلك ، و خالفوه في مسائل كثيرة ، نجدها في كتب الفقه و التاريخ .

و إن ما قاله بعض كبار العلماء كابن الصلاح ، و النووي في وجوب التقليد و التضييق على المجتهدين ، هو قول مبالغ فيه ، فلا داعي لهذا التضييق على أهل العلم ، شرعا و لا عقلا ، لأن الشرع قد ذم التقليد و أمرنا باتباع الكتاب و السنة ، و لم يلزمنا باتباع أحد من الناس . و تقليدنا للأئمة الأربعة مخالف لمنهجهم في الاجتهاد ، و هم قد نهونا عن تقليدهم . و أية فائدة من التقليد ؟ إنه تربية على العجز و الجمود و السلبية ، و إبعاد للناس عن الكتاب و السنة ، و ربطهم بأقوال الرجال . و الشرع الحكيم قد حثنا على الاجتهاد و جعل للمصيب أجرين ، و للمخطئ أجرا واحدا ، فلماذا نحرم العباد من ذلك ، و ندفعهم إلى التقليد دفعا ؟ و لماذا نحصر و نحتاط لكي يلتزم الناس بتقليد أئمتهم ، و لا نفعل ذلك معهم للعمل بالقرآن و الحديث لتكون لهم علاقة مباشرة بهما ؟ إنه كان من الأولى أن يُفتح باب الاجتهاد على مصراعيه أمام أهل العلم ، في كل المجالات ، ليتنافس في ذلك المتنافسون ، في إطار آداب البحث و منهجيته .

و إن ما قاله الشيخ محمد الحامد في قوله بلزوم تقليد المذاهب الأربعة حسما للفوضى الدينية ، هو تبرير ضعيف جدا ، لأن التمهذب بالمذاهب الأربعة هو نفسه تكريس للتشرذم و الانقسام و الفوضى الدينية ، و ألم يؤد ذلك إلى حدوث الفتن و المصادمات ، و قد

¹ الذهبي: السير ، ج 13 ص: 364 .

² ياقوت الحموي: معجم الأدياء ، ج 18 ، ص: 57 ، 58 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 146 .

ذكرنا طرفا منها في الفصل الأول ؟ . كما أن دعوته المغلفة بثوب الحرص على الوحدة ، هي دعوة لا حقيقة لها ، لأن دعوته نفسها هي تكريس للفرقة و التمزق و التناحر . هذا فضلا على أنها تخالف النصوص الشرعية التي تحت على الاجتهاد ، و قد أعطت الشريعة للمجتهد المصيب أجرين ، و أعطت للمخطئ أجرا واحدا ، و لم تمنعه من الاجتهاد لأنه أخطأ ، لأن الخطأ طريق إلى الصواب .

و نحن إذا منعنا الاجتهاد نكون قد حكمنا على أنفسنا بالبقاء منقسمين متفرقين مختلفين تتجاذبنا أربعة مذاهب ، و نكون قد حرمنا الأمة من أن تراجع نفسها لتعود إلى وحدتها و تتخلص من انقساماتها و اختلافاتها ، و لكي يتحقق ذلك لا بد لنا من الاجتهاد العلمي النزيه الذي يجمع القلوب و يحرر المسائل العلمية المختلف فيها تحريرا علميا صحيحا .

و أن ظاهرة التفاضل بالأئمة و مذاهبهم ، كانت مظهرا من مظاهر التعصب المذهبي المذموم في كثير من جوانبها ، أوصلت المتمذهبين إلى المبالغة في تعظيم أئمتهم و التعصب لهم ، الأمر الذي فتح عليهم بابا من أبواب الفتن و الشرور . و قد أصاب الفقيه حسن صديق خان عندما قال : إن الكلام على ترجيح فقه إمام و مذهبه على فقه إمام آخر و مذهبه ، ليس من العلم في شيء ، و ((أكثر من أبغى بأمثال هذه الخرافات هم المقلدون للمذاهب و المتمذهبون)) ، و الحق عدم الترجيح ، و أصوبها و ((أشرفها ما كان موافقا للكتاب و السنة ، بعيدا عن شوائب الآراء و المظنة))(1) .

¹ القنوجي حسن خان : أبجد العلوم ، حققه عبد الجبار زكار ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1987 ، ج 3 ص: 122 .

الفصل السادس

الغلو في العقائد والمذاهب

أوصل التعصب المذهبي كثيرا من الطوائف الإسلامية إلى الغلو و التطرف ، و تجاوز الحدود الشرعية و العقلية ، بما اعتقدته من أصول و مذاهب باطلة ، و ميزاننا في تمييز ذلك و معرفته هو الاعتماد على النقل الصحيح ، و العلم الصحيح ، و العقل الصريح ؛ فمن ذلك الغلو : الغلو عند الشيعة ، فمذهبيهم كله يقوم على الغلو و التطرف ، لتعصبهم و مخالفتهم للنقل و العقل معا ، و مظاهر ذلك كثيرة جدا ، منها : سبهم للصحابه ، و تكفيرهم لصحابه رسول الله -عليه الصلاة و السلام- ، من غلوهم و تطرفهم- زعمهم أن الصحابة كتموا نص إمامة علي بن أبي طالب و خلافته(1)

من غلو الشيعة و تطرفهم- زعمهم بأن أئمتهم-الإثنى عشر- معصمون من الخطأ ، و أنهم يعلمون ما كان و ما سيكون ، و أنهم يموتون بإرادتهم ، و كلامهم شرع مقدس يجب إتباعه ، و الإيمان بهم واجب ، و من أنكر واحدا منهم فهو كافر(2)

و كذلك الخوارج كان فيهم غلو و تطرف فكرا و سلوكا ، فقد أوصلهم تعصبهم إلى أن كفروا ((عليا ، و عثمان ، و أصحاب الجمل ، و الحكمين، و من رضي بالتحكيم و صوّب الحكمين أو أحدهما)) . و قال الأزارقة منهم : إن المخالفين لهم من الأمة هم مشركون ، و استباحوا نساءهم و أطفالهم . و قالت الإباضية منهم : إن مخالفهم من هذه الأمة ليسوا بمؤمنين ، ولا مشركين ، لكنهم كفار(3) . و هذه الأفكار المتطرفة سببها الجهل بالشرع ، و التعصب للمذهب و الغلو فيه ، و إلا فإن الذي حدث في الفتنة الكبرى لا يُوصل إلى التكفير ، لأن الاقتتال الذي حدث كانت له ملابساته و ظروفه و اجتهاداته ، و رُويت فيه كثير من الأكاذيب و الأباطيل . و الله سبحانه و تعالى قد سمى المسلمين المقتتلين بالمؤمنين ، و أمر بالإصلاح بينهم في قوله سبحانه : { إِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الْأُخْرَىٰ فَجَاهِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّىٰ تَفِيءَ إِلَىٰ أَمْرِ اللَّهِ فَإِنْ فَاءَتْ فَأَصْلَحُوا بَيْنَهُمَا بِالْعَدْلِ وَأَقْسِطُوا إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ } الحجرات 9 :

و كذلك المعتزلة ، هم أيضا كان فيهم غلو ، أوصلهم إليه تطرفهم و تعصبهم لأفكارهم ، حتى أنهم نفوا عن الله تعالى صفاته الأزلية ، و قالوا : ((ليس لله عز و جل علم ، و لا قدرة ، و لا حياة ، و لا سمع ، و لا بصر ، و لا صفة أزلية)) . و قالوا : إنه لم يكن

¹ ابن تيمية: مجموع الفتاوى ، ج 3 ص: 356 . الذهبي: السير ، ج 1 ص: 140 .

² انظر : الكليني: الكافي ، ج 1 ص: 187 ، 258 ، 263 ، 397 . و ابن تيمية : المصدر السابق ،

ج 3 ص: 356 . و الذهبي: السير ، ج 12 ص: 265 .

³ عبد القاهر البغدادي : الفرق بين الفرق ، ص: 73 ، 83 ، 103 .

لله تعالى في الأزل اسم و لا صفة(1). و قولهم هذا هو خيال و هذيان ، و رجم بالغيب ، و قول على الله بلا علم ، يخالف المنقول و المعقول معا ، لأن العقل يحكم بأن لكل موجود لا بد له من صفات تليق بذاته ، لأن الذي ليس له صفات هو المعدوم ، بحكم أنه غير موجود ، و أما الموجود فلا بد له من صفات .

و من غلوهم أيضا -أي المعتزلة- أنهم قدموا عقولهم على الدين والشرع مطلقا ، و خاضوا في مسائل غيبية لا تدركها العقول ، فتكلموا في الصفات و نفوها ، و أنكروا رؤية الله تعالى يوم القيامة بلا دليل صحيح من العقل و لا من النقل . فأقحموا عقولهم في أمور غيبية يستحيل على العقل البشري إدراكها و تصوّرها على حقيقتها. و كان من الواجب عليهم أن يرجعوا إلى الوحي للأخذ منه مباشرة و الاستسلام له ، لكنهم لم يفعلوا ذلك ، و ركبوا رؤوسهم تعصبا و تطرفا ، و غرورا و تكبرا ، و تركوا الوحي من وراء ظهورهم ، فخالفوا بذلك النقل و العقل معا ، و لم يجنوا إلا الظنون و الأوهام ، و الخيالات و الشكوك .

و الصوفية هم أيضا كان فيهم غلو كبير ، أوصلهم إليه تعصبهم لمذهبهم و طائفهم ، فمن ذلك : حرصهم على ارتداء المرقعة-الخرقة- و إصرارهم على القول بأنها موروثه عن الرسول-عليه الصلاة و السلام- ، و عن بعض صحابته2-رضي الله عنهم- . و قد ذكروا لها عدة روايات منها ثلاثة طرق أوصلوها إلى النبي-صلى الله عليه وسلم- ففي الطريق الأول يوجد فيه العبد الصالح الخضر . و الثاني فيه علي بن أبي طالب ، و عنه أخذ الحسن البصري الخرقة . و الثالث فيه علي بن أبي طالب و عنه أخذ جعفر الصادق الخرقة و عن هؤلاء أخذ الصوفية خرقتهم(3). و هناك من يذكر الطريقين الأخيرين و يوقفهما عند علي -رضي الله عنه- دون ذكر للنبي- صلى الله عليه و سلم-(4). و لهم طريق رابع مفاده أن الصوفي أبا بكر بن هوار رأى في المنام أبا بكر الصديق فألبسه خرقتين ، فلما استيقظ وجدتهما عليه ، و عنه توارثها الصوفية(5)

و لقد اتفق النقاد المحققون من المحدثين كابن الصلاح، و الذهبي و ابن حجر على أنه لم يرد في خبر صحيح ، ولا حسن ، ولا ضعيف ، أنّ الرسول - عليه الصلاة و السلام - ألبس الخرقة أحدا من أصحابه ، ولا أمر بها . وكل ما يروى في ذلك باطل ، و من الكذب المفترى القول بأن عليا ألبس الحسن البصري الخرقة ، لأن أصحاب الحديث

1 الفرق بين الفرق ، ص: 114 .

2 الشوكاني : الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة ، حققه عبد الرحمن المعلمي، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1995 ، ص: 253 .

3 ابن أبي أصيبعة : عيون الأنباء ج3 ص 409، 410 .

4 السبط ابن الجوزي : مرآة الزمان ، ج8 ص: 266 .

5 الشعراني : الطبقات الكبرى ج1 ص: 154 . و ابن الوردي : تنمة المختصر في أخبار البشر ،

ط1 بيروت ، دار المعرفة ، 1970، ج2 ص: 114 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

لم يثبتوا للحسن البصري سماعاً منه⁽¹⁾ ، فضلاً على أن يُلبسه الخرقه⁽²⁾. و أما القول بأن الخضر أخذها عن النبي -صلى الله عليه و سلم- فباطل لأنه توفي قبله بقرون مديدة زمن موسى -عليه السلام-⁽³⁾

و من غلوهم و ضلالهم الصوفية، ادعاء بعضهم لوحدة الوجود ، بمعنى أن الوجود كله واحد ، فالله تعالى هو الوجود ، و الوجود هو الله ، بمعنى إن الخالق هو المخلوق ، و المخلوق هو الخالق ، و لا فرق بينهما . و هذا الجنون و الهذيان ، و هذا الزعم الباطل المخالف للنقل و العقل معا ، قاله كبار منحرفي الصوفية ، كعمر بن الفارض المصري (ت632هـ) ، و محي الدين بن عربي الطائي الأندلسي (ت638هـ) ، و القطب بن سعيد الأشبيلي (ت669هـ) ، و العفيف التلمساني (ت690هـ)⁽⁴⁾ ، و الذي أوصل هؤلاء إلى هذا الضلال ، هو جهلهم ، و تعصبهم ، و إتباعهم لأهوائهم و ظنونهم ، و إعراضهم عن الشرع ، و عدم احتكامهم إلى العقل الصريح .

و قد وُجد في تاريخنا الإسلامي من كان يتعصب لهؤلاء الضالين و يُدافع عنهم جهلاً و تعصباً ، فعندما صنف الفقيه برهان الدين البقاعي الشافعي (ت885هـ) كتاباً سماه : تنبيه الغبي بتكفير عمر بن الفارض و ابن عربي ، انتقده كثير من أهل العلم ، و تناولوه بالألسنة ، و كثر الرد عليه ، منهم جلال الدين السيوطي (ت911هـ) ، رد عليه بكتاب : تنبيه الغبي بتبرئة ابن عربي ، و رد عليه أيضاً الشيخ إبراهيم بن محمد الحلبي (ت952هـ) ، بكتاب سماه : تسفيه الغبي في تكفير ابن عربي⁽⁵⁾.

و منهم أيضاً : القاضي الحنفي سراج الدين عمر بن إسحاق الغزنوي الهندي ثم القاهري (ت773هـ) ، كان يتعصب للصوفية الاتحادية-دعاة وحدة الوجود- ، حتى أنه عزّر رجلاً تكلم في الصوفي الاتحادي عمر بن الفارض⁽⁶⁾.

و أهل الفقه المتمذهبون المتعصبون هم أيضاً كان فيهم غلو في أئمتهم و مذاهبهم فيردون الحديث الصحيح إذا ما تعارض مع مذاهبهم ، و يأخذون باجتهادات أئمتهم و يتركون الحديث ، و هذه الظاهرة كانت منتشرة جداً زمن الفقيه المؤرخ أبي شامة المقدسي المتوفى سنة 665هـ . و قال أن المقلدين الشافعية في زمانه كانوا إذا جاءهم الحديث

¹ إذا كان ذلك باطلاً في حق الحسن البصري المتوفى سنة 110 هـ / 728 م ، فإنّ الإدعاء بأنّ جعفر الصادق (ت 158 هـ / 774 م) أخذ الخرقه عن علي فهو أولى بالبطان .

² الشوكاني : الفوائد المجموعة ص : 253 . و ابن الديبع : تمييز الطبيب من الخبيث ص : 205 .

³ ابن القيم الجوزية : المنار المنيف ص : 58 وما بعدها .

⁴ ابن تيمية : مجموع الفتاوى ، ج 2 ص : 143 .

⁵ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج 9 ص : 510 . و حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 1 ص : 404 .

⁶ ابن العماد الحنبلي : نفس المصدر ، ج 8 ص : 391 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الصحيح احتالوا في دفعه بما لا ينفعهم ، لأن الشافعي قد حثّ على ترك قوله إذ صحّ الحديث . حتى أن بعضهم كان يستجيز مخالفة قول الشافعي بقول آخر في مسألة أخرى بخلاف القول الأول ، لكنهم لا يرون مخالفته-أي الشافعي- لأجل حديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم- ، و قد حثهم إمامهم على ترك قوله و الأخذ بالحديث(1).

و ذكر أن شافعية زمانه كانوا يتعصبون لكتب أبي حامد الغزالي، و أبي إسحاق الشيرازي ، حتى و لو خالفت الحديث الصحيح الصريح . و كان أكثر متعصبة الشافعية يردون أقوال أكابر الصحابة ، كأبي بكر و عمر -رضي الله عنهما- ، و لا يردون قول الشيرازي و الغزالي ، لقلة معرفتهم و كثرة جهلهم بمراتب السلف(2)

¹ أبو شامة : مختصر كتاب المؤمل ، ص: 217، 218 ، 227 ، 230 .

² نفسه ، ص: 227، 230 ، 237 .

الفصل السابع

مما وقع بين المذهبيين المقلدين والمتعصبين بسبب الخلاف في الأصول والفروع

أثارت بعض المسائل الخلافية -الأصولية و الفروعية- كثيرا من التعصبات المذهبية بين الطوائف السنية الأربعة ، خلال عصر التقليد و التعصب المذهبيين (من قرن: 4-14 هـ) منها :

1- ما حدث بين الشافعية و الحنفية في نهاية القرن الثالث عشر الهجري ، و ذلك أن أحد شيوخ الشافعية بطرابلس الشام ذهب إلى المفتي ، و قال له : ((اقسم المساجد بيننا و بين الحنفية ، لأن فلانا من فقهاءهم يعتبرنا كأهل الذمة ، بما أذاعه في هذه الأيام من اختلاف الأحناف في : هل يجوز للحنفي أن يتزوج شافعية ؟ ! . فقال بعضهم : لا يصح لأنها تشك في إيمانها ، لأن الشافعية يُجيزون أن يقول المسلم : أنا مؤمن إن شاء الله . و هذا يدل على عدم تيقنها في إيمانها ، و الإيمان لا بد فيه من اليقين(1) . و هذا اعتراض في غير محله ، لأن الذين يستثنون في الإيمان يقصدون بذلك تعليق قبوله و تحقيقه بالمشيئة الإلهية ، و لا يقصدون الشك في الله تعالى و رسوله-عليه الصلاة و السلام . و أما مسائل الفروع-التي أثارت التعصب بينهم :

أ-مسألة الجهر بالبسملة في الصلاة ، اختلف فيها الفقهاء ، و تضاربت حولها الروايات ، فمنهم من قال بالجهر بها في الصلاة ، و منهم من قال بالسر بها في الصلاة ، فأحدث ذلك تعصبا مذهبيا بين السنيين ، من ذلك أن جماعة من الحنابلة ببغداد أحدثوا فتنة في المجتمع سنة 323هجرية ، عندما اعترضوا على كل ما يروونه مخالفا للشرع حسب مذهبهم ، كاعتراضهم على من يجهر بالبسملة في الصلاة ، الأمر استدعى تدخل الشرطة ضدهم ، فأمرت بأن لا يُصلي حنبلي بالناس إلا إذا جهر بالبسملة في صلاتي الصبح و العشاء ، فلم يرتدع الحنابلة و استمروا في عنفهم و مشاغباتهم تجاه الشافعية ، و لم يُوقفوا ذلك إلا بعدما أصدر الخليفة الراضي بالله (322-329هـ) توقيعا عنيفا زجرهم فيه ، و هددهم بالقتل و التنكيل ، و التشريد و حرق البيوت(2) .

¹ عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي، الجزائر ، قصر الكتاب ، 1990 ، ص : 166-167

² ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 182 .

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

ب- التي أثارَت التعصب- هي قراءة دعاء القنوت في صلاة الصبح ، و هي أيضا اختلف فيها الفقهاء ، فقال المالكية و الشافعية إنها سنة ، و قال الحنابلة و الحنفية أنها ليست سنة ، فأحدث ذلك تعصبا مذهبيا بين السنيين(1) .

كما أن هذا الخلاف هو الذي جعل ابن الجوزي يتهم الخطيب البغدادي بالتعصب و التعمد في استخدام الأحاديث الضعيفة في مسألة دعاء القنوت ، تأييدا لمذهبه الشافعي في هذه المسألة(2) .

ج- مسألة رفع اليدين عند الركوع و الرفع منه في الصلاة ، فقال كثير من الفقهاء بجوازه ، و قال الحنفية و غيرهم إنه مُبطل للصلاة(3) . فأحدث ذلك تعصبا مذهبيا بين السنيين ، أذكر منه ثلاثة أمثلة ، أولها إن الفقيه أصبغ بن خليل القرطبي المالكي(ت272هـ) دفعه تعصبه لمذهب مالك إلى اختلاق حديث نسبته إلى الرسول-عليه الصلاة و السلام- ، فيه ترك لرفع اليدين عند الركوع و الرفع منه في الصلاة ، تأييدا لمذهبه الذي لا يرى ذلك ، لكن أمره انكشف للناس(4) .

و ما رواه القاضي أبو بكر بن العربي(ت543هـ) فيما حدث لشيخه أبي بكر الطرطوشي الفهري المالكي(ت520هـ) عندما رآه بعض متعصبي المالكية يرفع يديه عند الركوع و الرفع منه ، فقال : ((ولقد كان شيخنا أبو بكر الفهري يرفع يديه في الركوع وعند الرفع منه وهو مذهب مالك والشافعي ويفعله الشيعة فحضر عندي يوما في محرس ابن الشواء بالثغر موضع تدريسي ثم صلاة الظهر ودخل المسجد من المحرس المذكور فتقدم إلى الصف وأنا في مؤخره قاعدا على طاقات البحر أتسم الريح من شدة الحر ومعني في صف واحد أبو ثمنة رئيس البحر و قائده مع نفر من أصحابه ينتظر الصلاة ويتطلع على مراكب تخت الميناء فلما رفع الشيخ يديه في الركوع وفي رفع الرأس منه قال أبو ثمنة وأصحابه : ألا ترون إلى هذا المشرقي كيف دخل مسجدا ، فقوموا إليه فاقتلوه وارموا به إلى البحر فلا يراكم أحد . فطار قلبي من بين جوانحي رجاء ، سبحان الله هذا الطرطوشي فقيه الوقت فقالوا لي ولم يرفع يديه فقلت كذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يفعل ، وهذا مذهب مالك في رواية أهل المدينة عنه ، وجعلت أسكنهم وأسكتهم حتى فرغ من صلاته وقمت معه إلى المسكن من المحرس ورأى تغير وجهي فأنكره وسألني فأعلمته فضحك وقال ومن أين لي أن أقتل على سنة ؟ فقلت له ولا يحل لك هذا

¹ ابن الجوزي: التحقيق في أحاديث الاختلاف ، ج 1 ص: 45، 459 . و نصب الراية ، ج 2 ص: 136 .

² ابن الجوزي: التحقيق في أحاديث الخلاف ، ط1 ، بيروت ، دار الكتب العلمية ، 1415هـ ، ج 1 ص: 462 و ما بعدها .

³ محمد السيواسي: شرح فتح القدير ، ط 2 ، بيروت ، دار الفكر ، دت ، ج 1 ص: 436 . و سيد سابق : فقه السنة ، ج 1 ص: 108 .

⁴ ابن حجر: لسان الميزان ، ج 1 ص: 458 .

فإنك بين قوم إن قمت بها قاموا عليك وربما ذهب دمك فقال دع هذا الكلام وخذ في غيره ((1)).

و أن القاضي الحنفي أمير كاتب بن عمر الأكفاني (ت 758هـ) ، صنف كتابا تناول فيه مسألة رفع اليدين عند الركوع و الرفع منه ، أدعى فيه بطلان صلاة من يفعل ذلك . و عندما رأى أحد الأمراء يصلي و يرفع يديه عند الركوع و الرفع منه ، قال له : إن صلاتك باطلة في مذهب أبي حنيفة (2) .

و الصواب في هذه المسألة هو أنه ثبت أن رسول الله -عليه الصلاة و السلام- كان يرفع يديه عند الركوع و الرفع منه ، و قد روى ذلك البخاري و مسلم و غيرهما . و الذي ذهب إليه الحنفية هو مذهب ضعيف ، و قد طعن كثير من أئمة النقد في الحديث الذي اعتمدوا عليه ، و تردده أيضا الأحاديث الصحيحة التي بلغت حد الشهرة (3) .

د-مسألة اقتداء الشافعية و الحنفية ببعضهم بعض في الصلاة ، و هي مسألة اختلف فيها فقهاء الطائفتين بين مجيز و مانع لها ، فأحدثت تعصبا غريبا مذموما بين الفريقين . فالحنفية أفتى كثير من فقهاءهم -كابن الهمام- ببطلان صلاة الحنفي خلف إمام شافعي ، و قال بعضهم : ((اقتداء الحنفي بشافعي غير جائز)) ، لأن رفع اليدين -في الصلاة- عند الركوع و الرفع منه مُفسد للصلاة . و قيد بعضهم الجواز بأن لا يكون الشافعي متعصبا ، و لا شاكا في إيمانه ، و يحتاط في موضع الخلاف (4) .

و أما الشافعية ، فهم أيضا اختلف فقهاؤهم في حكم اقتداء الشافعي بالحنفي في الصلاة ، فقالوا : إذا توضع حنفي و اقتدى به شافعي و ((الحنفي لا يعتد وجوب نية الوضوء و الشافعي يعتقدها)) ، فإن في ذلك أوجه ، أولها ((قول الأستاذ أبي إسحاق الإسفراييني ، لا يصح اقتدائه ، نوى أو لم ينو ، لأنه إن نوى فلا يراها واجبة ، فهي كالمعدومة ، فلا تصح طهارته)) . و الثاني ((و هو قول الفقهاء : يصح و إن لم ينو ، لأن كل واحد مؤاخذ بموجب اعتقاده ، و الاختلاف في الفروع رحمة)) . و الثالث ((هو قول الشيخ أبي حامد الإسفراييني : إن نوى صحّ و إلا فلا)) . و الرابع ذكره النووي ، و مفاده أنه

¹ القرطبي : تفسير القرطبي ، حققه أحمد البردوني ، ط2 ، القاهرة ، دار الشعب ، 1372هـ ، ج 19 ص: 281 .

² ابن حجر : الدرر الكامنة ، حققه محمد العيد خان ، ط2 ، الهند ، مطبعة دائرة المعارف العثمانية ، 1972 ، ج 494 .

³ السيد سابق : فقه السنة ، ج 1 ص: 108 .

⁴ محمد السيواسي : شرح فتح القدير ، ج 1 ص: 436 . و عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي ، ص: 165، 167 . و الصنهايني محمد بن إسماعيل : إرشاد النقاد إلى تيسير الاجتهاد ، حققه صلاح الدين مقبول ، ط 1 ، الكويت ، الدار السلفية ، 1396هـ ، مقدمة المحقق ، ص: 18 .

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

((يصح الاقتداء بالحنفي و نحوه ، إلا إن يتحقق إخلاله بما نشترطه و نوجبه ، و هذه الأوجه جارية في صلاة الشافعي خلف حنفي و غيره))(1) .

و نقل الفقيه المعاصر عمر سليمان الأشقر عن الشيخ النووي إنه قال : ((لو مسّ حنفي امرأة ، أو ترك الطمأنينة أو غيرها ، صحّ اقتداء الشافعي به عند الفقهاء -أحد علماء الشافعية- ، و خالفه الجمهور-أي جمهور الشافعية- ، و هو الصحيح))(2) .

و واضح مما ذكرناه أن الذي أوقع هؤلاء في الحكم ببطلان اقتداء الشافعية و الحنفية ببعضهم بعض في الصلاة ، هو التعصب المذهبي ، لأنهم أصدروا أحكامهم بالمنع انطلاقاً من خلفياتهم المذهبية الضيقة المتعصبة ، و هو حكم غريب جداً ، و مؤسف حقاً ، و غير صحيح أيضاً ، لا يتفق مبادئ الإسلام و روحه و مقاصده ، فكيف يصح في الدين و العقل أن يُقال : لا تصح صلاة المسلم الملتزم بالإسلام خلف صلاة أخيه المسلم الملتزم مثله بالإسلام ؟ ، فإذا كان هذا لا يصح ، فكذلك لا يصح أن يُقال : لا تصح صلاة المسلم الشافعي الملتزم بالإسلام خلف صلاة أخيه المسلم الحنفي الملتزم بالإسلام هو أيضاً . و لا شك أن القول بعدم جواز اقتداء الشافعية و الحنفية ببعضهم بعض في الصلاة ، هو من الأحكام التي أوصلنا إليها التعصب المذهبي ، و لا بد من التحرر منها و من أسبابها و من أمثالها ، لتجنب الأمة شرورها و ويلاتها .

ر-تتعلق بحديث ((اختلاف أمتي رحمة)) ، هذا الحديث جعله المتمذهبون المتعصبون معتمدهم فيما هم فيه من تقليد و تمذهب و تعصب(3) ، لتكريس الوضع على ما هو عليه ، و إيجاد المبررات الشرعية و الواقعية له . و قد قال الفقيه عبد الرؤوف المناوي إن ذلك الحديث هو للمقلدين ، و إن اختلاف الأمة في الفروع مغفور لمن أخطأ ، ثم ذكر أن الذين قالوا إن حديث ((اختلاف أمتي رحمة)) يُخالف القرآن ، لأن الله نهى عن الاختلاف في قوله {وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا} عمران: 103 و قال تعالى {وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ} آل عمران : 105 ، هو إن قولهم هذا هو دسياسة من بعض من في قلبه مرض . و قد رد جمع من العلماء على ذلك ، و قالوا إن الله تعالى ذم كثرة الاختلاف على الرسل ، و الله تعالى أهلك السابقين لكثرة اختلافهم على أنبيائهم ، و أما هذه الأمة ((فمعاذ الله أن يدخل فيها أحد من العلماء المختلفين))(4) .

¹ النووي: المجموع ، حققه محمود مطرحي ، ط1 ، بيروت ، دار الفكر ، 1996 ، ج1 ص: 257 .

² تاريخ الفقه الإسلامي ، ص: 169 .

³ النووي: شرح النووي على صحيح مسلم ، ط2 ، بيروت ، دار إحياء التراث العربي ، 1392هـ ،

ج 11 ص: 91 . و المناوي: فيض القدير ، مصر ، المكتبة التجارية الكبرى ، 1356 ، ج 1

ص: 210 .

⁴ المناوي: نفس المصدر ، ج 1 ص: 210 .

ويرد عليه:

أولا إن حديث ((اختلاف أمتي رحمة)) الذي استدل به هؤلاء ، هو حديث موضوع مذكوب لا أصل له (1) ؛ و عليه فلا يصح الاستدلال به أصلا . و كيف نستدل بحديث هذا حاله في أمر هام يتعلق بوحدة الأمة ؟ . و متن هذا الحديث ظاهر البطلان ، لأن الاختلاف مذموم و ليس ممدوحا ، سواء تعلّق بالأصول أو بالفروع ، و هذا هو الأصل في الاختلاف ، و هو أمر ثابت شرعا و عقلا ، تاريخا و واقعا ، و لا يُمدح الاختلاف إلا في حالات استثنائية عندما يكون اختلاف تنوّع ... و لا يصح أن يُقال "إن الاختلاف ممدوح مُطلقا في مجال الفروع-أي الفقه- لأن كثيرا من الاختلافات الفقهية أوصلت الأمة إلى كبائر الذنوب ، كاللعن و التكفير ، و الاقتتال و التدابر ، و ذلك الحديث لا يصح شرعا و لا عقلا إلا إذا جعلناه هكذا ((اختلاف أمتي شر و عذاب)) ، و أما أن يكون رحمة فلا .

و ثانيا إن النصوص الشرعية واضحة وضوح الشمس في النهي عن الاختلاف مطلقا ، فحدّرتنا منه ، و حثتنا على الوحدة و الأخوة ، و هي في ذمها للاختلاف لم تُفرّق بين الاختلاف في أصول الدين و فروعه ، و إنما نهتتنا عن الاختلاف ، و حدّرتنا منه مُطلقا (2)، كقوله تعالى { وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا } آل عمران: 103 و قوله تعالى { وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ } الأنعام: 153 و قوله تعالى { إِنَّ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا لَسَئْتُمْ مِنْهُمْ فِي شَيْءٍ إِنَّمَا أَمْرُهُمْ إِلَى اللَّهِ ثُمَّ يُنَبِّئُهُمْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ } لأنعام: 159 و قوله تعالى { وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ وَاصْبِرُوا إِنَّ اللَّهَ مَعَ الصَّابِرِينَ } الأنفال: 46- . و قال الرسول -عليه الصلاة و السلام- ((لا ترجعوا بعدي كفارا ، يضرب بعضكم رقاب بعض)) (3). و قال أيضا : ((إِنَّ الْمُؤْمِنَ لِلْمُؤْمِنِ كَالْبُنْيَانِ يَشُدُّ بَعْضُهُ بَعْضًا وَشَبَّكَ أَصَابِعُهُ)) (4) و ((إن أمتي ستفترق على اثنتين و سبعين فرقة نكلها في النار إلا واحدة ، و هي الجماعة)) (5) . و قال أيضا : ((لا تباغضوا و لا تحاسدوا و لا تدابروا ، و كونوا عباد الله إخوانا ، و لا يحل لمسلم أن

¹ أنظر : علي القارئ : الأسرار المرفوعة في الأحاديث الموضوعة ، حققه محمد الصباغ ، ط 2 ، بيروت ، المكتب الإسلامي ، 1406 ، ج 1 ص: . و الألباني: الأحاديث الضعيفة و الموضوعة ، ط 3 ، عمان المكتبة الإسلامية ، 406 ، ج 1 ص: 57 . و ضعيف الجامع الصغير ، ص: 230 . و صفة صلاة النبي ، السعودية مكتبة المعارف ، د ت ، ص: 49 . و طاهر بن علي الفتى : تذكرة الموضوعات ، ص: 59 .

² انظر فصل "ترك الاتباع يؤدي إلى التفرق و الاختلاف وتسلب الأعداء على المسلمين و ذهاب قوتهم" ص 129

³ صحيح مسلم ، ج 1 ص: 81 ، رقم الحديث: 65 .

⁴ صحيح البخاري كتاب الصلاة باب تشبيك الأصابع في المسجد وغيره رقم 481

⁵ السنة لابن أبي عاصم رقم 64 وذكره ابن بطة في الإبانة وهو صحيح

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ((1)). و هذه الشرور و المنهيات التي حدّرت منها هذه النصوص الشرعية ، كلها حدثت بين الطوائف الإسلامية ، بسبب اختلافاتهم و تعصباتهم في أصول الدين و فروعهم.

و ثالثا إن الذين اعتمدوا على حديث ((اختلاف أمتي رحمة)) ، و خصصوه بالاختلاف في الفروع قد جانبوا الصواب ، لأن الحديث — هو باطل — مدح الاختلاف مطلقا و لم يُقيده ، و الذين قيّدوه ليس لهم في ذلك دليل من الشرع و لا من العقل ، خاصة و أن الحديث لا يصح و تعارضه نصوص شرعية كثيرة ذكرنا بعضها آنفا . و هم من جهة أخرى تناسوا ما جرّه ذلك الاختلاف- الذي مدحوه — على الأمة من كبائر الذنوب ، من فرقة و فتن و اقتتال .

و ختاماً يتبين مما ذكرناه أن المسائل الخلافية — الأصولية و الفروعية- التي أوردناها كانت نماذج واضحة للتعصب المذهبي المذموم ، و لم تبق في دائرة الخلاف العلمي بين أهل العلم ، و إنما انتقل تأثيرها السلبي إلى الأتباع ، و أوصلهم إلى الفرقة و التناحر ، و المهاترات و الاقتتال .

¹ صحيح البخاري كتاب الأدب باب ما ينهى عن التحاسد والتدابير رقم 6065 .

الفصل الثامن

مؤلفات في الانتصار للمذاهب و التعصب لها

كُثرت المصنفات المذهبية بين الطوائف السنية الأربعة -خلال العصر الإسلامي- ، التي كان هدفها الأساسي الانتصار للمذهب و الرد على مخالفيه ، و كثيرا ما غلب عليها التعصب المذهبي المتمثل في الحط على المخالفين و عدم التأدب معهم ، و المبالغة في مدح المذهب -المنتصر له- و تعظيم شيوخه.

فمن ذلك ما صنفه بعض الحنفية ، و منهم القاضي أبو سعيد بن إسحاق النيسابوري (ت348هـ) ، له كتاب : الرد على الشافعي فيما خالف فيه القرآن(1) . و الكتاب الثاني له عنوانان هما : المصيب في الرد على الخطيب- أي الحافظ الخطيب البغدادي (ت463هـ) . و السهم المصيب في كبد الخطيب ، للفقهاء الحنفي عيسى بن أبي بكر الأيوبي (ت642هـ) ، صنفه ردا على الخطيب البغدادي لأنه تعصب على الحنفية على حسب رأيه(2) . و الكتاب الثالث عنوانه : الرد على أصحاب الشافعي ، للفقهاء الحنفي علي ابن موسى(3) .

و أما مؤلفات الردود المالكية فهي كثيرة(4) ، و منها كتاب : الرد على الشافعي و أهل العراق ، للفقهاء محمد بن سُحنون (ت265هـ)(5) . و الكتاب الثاني هو : الرد على الشافعي فيما خالف فيه القرآن و السنة ، للفقهاء محمد بن عبد الحكم الشافعي ثم المالكي(ت268هـ) ، و عندما صنفه أصابته محنة ، قال فيها التاج السبكي : يطول شرحها ، و لم يُفصلها(6) . و يبدو أن سبب محنته هو تحوله من المذهب الشافعي إلى المذهب المالكي ، فهو من تلاميذ الشافعي ، فلما انتقل إلى المالكية ردّ عليه ، و هذا لا يُعجب الشافعية بلا شك(7) .

و من مؤلفات المالكية- صنفه الفقهاء يوسف بن يحيى المغامي الأندلسي(ت288هـ) ن خصصه للرد على الشافعي في عشرة أجزاء ، و كان شديدا على الشافعي(8) . كتاب آخر- عنوانه : النصر لإمام دار الهجرة ، صنفه القاضي عبد الوهاب بن نصر

1 حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 2 ص: 1420 .

2 نفس المصدر ، ج 2 ص: 1010 .

3 الشيرازي : طبقات الفقهاء ، ص: 147 .

4 أنظر مثلا : ابن فرحون : الديباج المذهب ، ص: 94 ، 107 ، 135 ، 332 ، 352 .

5 القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 376 . و الذهبي: السير ، ج 13 ص: 61 .

6 السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ، ج 2 ص:

7 القاضي عياض : المصدر السابق ، ج 1 ص: 358 .

8 ابن فرحون : الديباج ، ص: 357 .

المالكي البغدادي ، و يُروى أن هذا الكتاب لما وقع بيد قاضي الشافعية بمصر غرقه في نهر النيل ، و تكررت هذه الحادثة بمصر في القرن التاسع الهجري زمن السلطان المملوكي فرج بن برقوق (1)

و أما مؤلفات الشافعية فهي كثيرة أيضا ، منها : كتاب مُغيث الخلق لإمام الحرمين أبي المعالي الجويني (ت478هـ) ، رجّح فيه مذهب الشافعي على مذهب أبي حنيفة ، و ذكر فيه كيفية الصلاة عنده-أي عند أبي حنيفة- عابه فيها(2) . و الكتاب الثاني صنّفه الفقيه محمد الطبري البغدادي (ت 504هـ) خصصه للرد على أحمد بن حنبل فيما انفرد به من اجتهادات و فتاوى ، لم يُنصفه فيه(3) .

و من ردود الشافعية- هو كتاب المنخول في تعليق الأصول ، لأبي حامد الغزالي (ت505هـ) ، أفرد فيه مبحثا نصر فيه مذهب الشافعي ، و انتقد فيه المذهبين المالكي و الحنفي ، و ركّز على الحنفي ، فحطّ عليه و ذمه بشدة ، حتى قال الحافظ الذهبي عن ذلك : ((و في أواخر المنخول للغزالي ، كلام فج في إمام ، لا أرى نقله هنا))(4) .

و كتاب نواذر مذهب أبي حنيفة التي يستشنعها أصحاب الشافعي و غيرهم ، صنّفه القاضي أبو محمد الحسن بن عقامة الشافعي اليمني (ت قرن : 6هـ) ، فلما صنّفه أصبح نادر الوجود باليمن ، لأن الحنفية اجتهدوا في تحصيله و جمعه لإتلافه(5) .

و التي تتعلق بما حدث لكتب الفقه عامة ، و كتب الفقه المالكي خاصة ، في زمن دولة الموحدين (541-668هـ) بالمغرب الإسلامي ، و ذلك أن الموحدين كانوا متعصبين على المذاهب الفقهية الأربعة ، و خاصة المذهب المالكي ، فدعوا الناس إلى تركها و أخذ الأحكام الشرعية مباشرة من الكتاب و السنة على طريقة الاجتهاد المطلق ؛ فكتب بعض ملوكهم إلى طلبة العلم بالمغرب و الأندلس بحرق كُتب الفروع (سنة 550هـ). ثم تكرر ذلك زمن السلطان الموحيدي يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن (ت595هـ) ، فأعرض عن المالكية ، و هدد كل من يشتغل بكتب الفروع-أي الفقه- و أمر بإحراقها ،

¹ المقرئ: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ، ج 2 ص: 521

² حاجي خليفة : كشف الظنون ، ج 2 ص: 1754 . و الصنعاني : إرشاد النقاد ، مقدمة المحقق ، ص : 18 .

³ الذهبي : السير ، ج 19 ص: 352 . و ابن كثير : البداية ، ج 12 ص: 172 .

⁴ الغزالي : المنخول ، ص: 496 ، و ما بعدها . و الذهبي : السير ، ج 19 ص: 344 .

⁵ العماد الكاتب الأصفهاني: خريدة القصر و جريدة العصر ، ج 3 ص: 238 ، هامش ص: 251

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

فأحرقت مؤلفات كثيرة من كتب المالكية ، منها : مدونة سُحنون بن سعيد ، و الواضحة لأبن حبيب ، و نوادر ابن أبي زيد و مختصره(1) .

أوصل التعصب المذهبي كثيرا من المتعصبين إلى التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف الأخبار ، انتصارا لمذاهبهم و تعصبا على مخالفيهم ، و قد كانت هذه الظاهرة واسعة الانتشار في تاريخنا الإسلامي و بالأخص في القرون الأربعة الأولى للهجرة ، فكان لها الأثر البالغ في تشويه تاريخنا و تحريفه . و قد كان هؤلاء الكذابون المتعصبون ينتمون إلى مختلف الطوائف الإسلامية ، غير أن أكثرهم و أخطرهم كانوا من الشيعة.

و يقول(الشيخ وصي الله عباس): إن المؤلفات و البحوث الفقهية قد اتجهت في بعض الأيام وجهة المناظرة. لذا نجد تعبيرات العلماء في مؤلفاتهم جاءت بلفظ الخصوم لمخالفهم. و أوضح مثال لهذا: كتاب "نصب الراية" للزيلعي في تخريج أحاديث الهداية, نجده يستعمل في ذكر المخالف لفظ: حديث الخصوم أو أحاديث الخصوم, و الله أعلم. و شنع إمام الحرمين الشافعي على الإمام أبي حنيفة بأشياء, ثم قال: لو غُرِضَت الصلاة التي جوزها أبو حنيفة على العامي لامتنع من قبولها, و الصلاة عماد الدين, فناهيك من فساد اعتقاده في الصلاة وضوحاً على بطلان مذهبه هذا.(2) و له أمثلة كثيرة في تناحر المذاهب بعضها ببعض.

¹ الذهبي : السير ، ج 21 ص: 314 . و الناصري السلاوي : الاستقصا ، ج 1 ص: 125 ، 197 ، 200 .

² -مغيث الخلق ص59 و انظر قبله و بعده بل اقرأ الكتاب كله لتستفيد منه, و يظهر لك كيف يتعصب الإنسان لرأي و يهدر آراء الآخرين.

الفصل التاسع

تأسيس وتخصيص المدارس والمساجد لكل مذهب

وتُعتبر المدارس و المساجد الطائفية من المظاهر المادية للتعصب المذهبي الذي كان سائدا بين المذاهب الأربعة ، فهي مؤسسات ظاهرة للعيان ، و شاهدة على مدى تأثير التعصب المذهبي في تلك الطوائف ، حتى أوصلها إلى اختصاص كل منها بمدارسها و مساجدها ، تكريسا للفرقة ، و انتصارا للمذهب ، و تعصبا على المخالف . و الشواهد على ذلك كثيرة جدا .

فبخصوص الحنفية ، فقد كانت لهم مدارس كثيرة خاصة بهم ، ببغداد و دمشق و مصر (1) و غيرها من أمصار المشرق الإسلامي ، منها المدرسة الخاتونية ، و المدرسة الإقبالية بدمشق ، و كان لهم بها أكثر من 50 مدرسة (2) . و منها أيضا مدرسة مشهد أبي حنيفة ، و مدرسة باب الطاق ببغداد (3) . و كانت لهم مدرسة بمدينة سنجار بناها لهم الملك قطب الدين محمد (ت594هـ) ، - كان شديد التعصب للحنفية- اشترط فيها أن يكون النظر فيها للحنفية من أولاده دون الشافعية منهم ، و أن يكون البواب و الفراش على المذهب الحنفي (4) .

و أما المالكية ، فهم أيضا كانت لهم مدارس خاصة بهم ، بمصر و دمشق ، و حلب و بيت المقدس (5) ، منها : المدرسة الصمصامية ، و الصلاحية بدمشق (6) .

و أما الشافعية فقد كانت لهم مدارس كثيرة ، ببغداد و مصر ، و دمشق و بيت المقدس (7) ، و غيرها من مدن المشرق الإسلامي ، و قد زادت مدارسهم بدمشق عن 60 مدرسة ، منها : العادلية الكبرى ، و العادلية الصغرى ، و العسرونية (8) . و من

¹ عن مدارسهم بمصر انظر : المقرئزي: الخطط ، ج 2 ص: 363، 403 .

² انظر : عبد القادر النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس .

³ و لهم مدارس أخرى ببغداد، و عن مدارسهم بها أنظر : عماد عبد السلام رؤوف : مدارس بغداد في العصر العباسي ، ط 1 ، بغداد ، مطبعة العاني ، 1965 ، ص: 32 و ما بعدها .

⁴ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 2 ص: 331 .

⁵ انظر : المقرئزي: الخطط ، ج 2 ص: 363، 403 . و ابن شداد : الأعلام الخطيرة في ذكر أمراء الشام و الجزيرة ، حققه سامي الدهان ، دمشق ، المعهد الفرنسي ، 1956هـ ، 119 ، 229 ، 253 . و محمد كرد علي : خطط الشام ، ج 6 ص: 115 .

⁶ النعيمي : المصدر السابق .

⁷ انظر مثلا : ابن شداد : الأعلام الخطيرة ، ص: 119 و ما بعدها . و السوطي : حسن المحاضرة ، حققه محمد أبو الفضل إبراهيم ، ط 1 ، القاهرة ، مطبعة البابي الحلبي ، 1965 ، ج 1 . و النعيمي : الدارس ، ج 1 .

⁸ انظر : الدارس للنعيمي : المصدر السابق ، ج 1 ص: .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

مدارسهم ببغداد : المدرسة النظامية ، و مدرسة قراح ظفر(1) . و قد بنى لهم الملك غياث الدين الغوري مدرسة بمدينة هراة سنة 595 هجرية ، و قدمها للمتكلم الفخر الرازي(ت606هـ) ، فتعصب عليه الكرّامية و ألبوا عليه الناس(2) . و بنى لهم التاجر ابن رواحة(ت623هـ) مدرسة بدمشق ، و اشترط فيها شروطا صعبة ، منها : لا يدخلها يهودي ، و لا نصراني ، و لا حنبلي حشوي(3) . فسوّى - في شرطه هذا - بين اليهودي و النصراني الكافرّين و بين الحنبلي المسلم ، و هذا- بلا شك- تعصب أعمى بغض .

و أما الحنابلة فهم أيضا كانت لهم مدارس خاصة بهم ، ببغداد و دمشق و حلب و غيرها من مدن المشرق الإسلامي(4) ، منها المدرسة العمرية ، و الجوزية ، و الضيائية ، و العالمية بدمشق(5) . و من مدارسهم ببغداد : مدرسة المخرمي ، و مدرسة الأبرادي ، و مدرسة الوزير ابن هبيرة ، و مدرسة السيدة بنفش(6) .

و رغم أنه وُجدت مدارس مشتركة بين الطوائف السنية ببغداد و القاهرة و دمشق ، كالمدرستين المستنصرية و البشيرية ببغداد ، و المدرستين الصالحية و المنصورية بالقاهرة (7) ؛ فإنها لم تكن مشتركة إلا في البناية و المرافق و الجرايات ، و كانت كل طائفة مستقلة بجهتها و قاعاتها ، و طلابها و أساتذتها ، و مذهبها و برامجها(8) . فهي و إن خففت نوعا ما من التعصب والنزاع ، فإنها من جهة أخرى قد كرّست الفرقة و التمثيل و التعصب في بناية واحدة .

و أما المساجد الطائفية فهي أيضا كانت كثيرة ، بسبب الانقسام الطائفي و المذهبي بين الفرق الإسلامية ، فقد كانت مساجد دمشق مقسمة بين الطوائف السنية ، فمعظم مساجدها - داخل السور- كانت للشافعية ، ثم للحنفية ، ثم للمالكية ، ثم للحنابلة ؛ و كانت

¹ عماد عبد السلام : المرجع السابق ، ص: 76 و ما بعدها .

² ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 18 .

³ النعيمي: المصدر السابق ج 1 ص: 200 ، 201 .

⁴ أنظر مثلا : النعيمي : الدارس ، ج 2 . و كرد علي : خطط الشام ، ج 6 ص: 115 . و عماد عبد السلام : مدارس بغداد .

⁵ أنظر : النعيمي : نفس المصدر ، ج 2 .

⁶ ابن الجوزي : المنتظم ، ج 10 ص: 258 . و ابن رجب : النيل على طبقات الحنابلة ، ج 1 ص: 286 ، 359 .

⁷ الذهبي : السير ، ج 23 ص: 156 ، 159 . و ابن القوّطي : الحوادث الجامعة ، بيروت ، دار الفكر الحديث ، 1987 ، ص: 149 . و الصفدي: نكت الهميان ، حققه أحمد زكي باشا ، مصر ، المطبعة الجمالية ، 1911 ، ص: 100 . و السيوطي: حسن المحاضرة ، ج 2 ص: 263 ، 264 . و المقرئزي : الخطط ، ج 2 ص: 374 .

⁸ أنظر مثلا : السيوطي: نفسه ، ج 2 ص: 263 . و ناجي معروف : تاريخ علماء المستنصرية ، ط 2 ، بغداد ، مطبعة العاني ، 1965 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

معظم مساجد الصالحية-خارج سور دمشق- للحنابلة ، و الباقي للشافعية و الحنفية ، و كان هذا الوضع سائدا بدمشق زمن الفقيه يوسف بن عبد الهادي الحنبلي المتوفى سنة 909 هجرية(1) .

و نفس الظاهرة كانت بمدينة مرو الشاهجان -ببلاد خراسان- ، فوجد بها مسجداً يفصلهما سور ، واحد للشافعية و الآخر للحنفية . وكذلك الحال بمدينتي بغداد و حرّان ، فقد وجدت بهما مساجد طائفية تابعة للاتباع المذاهب الأربعة(2) .

و الأغرب من ذلك أنه وجدت محاريب متعددة داخل المسجد الواحد حسب الطوائف المذهبية ، فتصلي كل جماعة في محرابها ، و لا تصلي في المحاريب الأخرى ؛ ففي الحرم المكي كانت فيه خمسة مقامات-محاريب- للصلاة حسب الطوائف المكونة للمجتمع المكي ، و هي : الشافعية ، و الحنفية ، و المالكية ، و الحنبلية ، و الشيعة (الزيدية) ، فكان لكل منها مقامها الذي تصلي فيه ، و في صلاة المغرب كانت كل الطوائف تصلي في وقت واحد لضيق الوقت ، فيحدث تشويش و خلط في الركوع و السجود و التسليم ، و قد كانت هذه الظاهرة موجودة بالحرم المكي في القرن السادس الهجري و ما بعده (3) .

و المسجد الأقصى هو أيضا كان مقسماً بين المذاهب الأربعة ، فكان لكل منها محرابها الذي تصلي فيه ، و تعقد فيه حلقاتها العلمية . و نفس الظاهرة كانت بمسجد مدينة الخليل ، فقد كان مقسماً على المذاهب ، ما عدا الحنابلة الذين لم يكن لهم فيه إمام(4) .

و كذلك الجامع الأموي بدمشق ، فقد كانت بداخله أربعة محاريب حسب المذاهب الأربعة ، لكل منها محرابها تصلي فيه ، و تعقد فيه أيضا حلقاتها العلمية(5) . و هذه المحاريب ما تزال موجودة بالجامع الأموي إلى يومنا هذا ، كشواهد تاريخية ، لكنها معطلة ، إلا واحد منها يصلي فيه كل الناس .

¹ يوسف بن عبد الهادي: ثمار المقاصد في ذكر المساجد ، ص: 145، 159 .

² انظر : ياقوت الحموي : معجم البلدان ، ج 5 ص: 114 . و ابن الجوزي : المنتظم ، ج 9 ص: 176 ، ج 10 ص: 103 . و ابن رجب : الذيل ، ج 1 : 119 ، 214 ، 215 ، ج 2 ص: 202 ، 203 .

³ انظر فصل "مما وقع في تاريخ المسلمين بسبب تقليد المذاهب و التعصب المذموم" ص 140 . وللمزيد انظر ابن جبير : رحلة ابن جبير ، الجزائر ، موفم للنشر ، 1988 ، ص: 71 . و التجيبي : مستفاد الرحلة و الاغتراب ، حققه عبد الحفيظ منصور ، ليبيا ، الدار العربية للكتاب ، ص : 296 ، 297 . وقد خصصنا فصلاً في الحديث عن هذا سيأتي

⁴ أبو اليمن مجير الدين : الأنس الجليل بتاريخ القدس و الخليل ، النجف ، المطبعة الحيدرية و

مكتبتها ، 1968 ، ج 2 ص: 32 .

⁵ النعيمي: الدارس ، ج 2 ص: 217 ، 394 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 339 .

قال الشيخ علي الطنطاوي في كتابه " الجامع الأموي في دمشق " :
في سنة 617 نُصب محراب الحنابلة بالرواق الثالث الغربي (قرب البئر) أي وراء الصف الثالث من الأعمدة، وقد عارض في نصبه بعضُ الناس، ولكن ركن الدين المعظمي قام بنصرة الحنابلة، وصلى فيه الموفق ابن قدامة المقدسي، ثم رفع في حدود سنة 730، وعوّضوا عنه بالمحراب الغربي عند باب الزيادة، وهو باقٍ إلى اليوم. وعمل محراب الشافعي الآن سنة 728 بأمر تنكز، وخص بالحنفية، وصارت المحاريب أربعة: محراب الخطيب، ومحراب الحنفي (وهو الشافعي الآن)، والمالكي، والحنبلي.

وكانوا قبل سنة 694 يصلون في وقت واحد، ثم رُسم للحنابلة أن يصلوا قبل الإمام الكبير، وفي سنة 819 انتقل الإمام الأول من محراب المالكية إلى محراب الحنفية (وهو الشافعي الآن). ثم استقرت الحال على أن أول من يصلي إمام الكلاسة، ثم إمام مشهد الحسين، ثم الشافعي، ثم المالكي، ثم الحنبلي، ثم إمام مشهد أبي بكر، ثم إمام مشهد عروة، ثم إمام مشهد عثمان. ثم اقتصر الأمر على أئمة المسجد الأربعة. والعمل على ذلك إلى الآن بهذا الترتيب، أي الشافعي فالحنفي فالمالكي فالحنبلي " اهـ

قال المقرئ في (845هـ) في "المواعظ والاعتبار" (167/4): «فلما كانت سلطنة الظاهر بيبرس البندقداري، ولّى بمصر أربعة قضاة، وهم شافعي ومالكي وحنفي وحنبلي. فاستمر ذلك من سنة 665هـ، حتى لم يبق في مجموع أمصار الإسلام مذهب يُعرف من مذاهب الإسلام سوى هذه المذاهب الأربعة. وعُمِلَتْ لأهلها مدارس والخوانك والزوايا والربط في سائر ممالك الإسلام. وعُودِي مَنْ تَمَذَّبَ بِغَيْرِهَا، وأُنْكَرَ عَلَيْهِ. ولم يَوْْلَ قَاضٍ وَلَا قُبِلَتْ شَهَادَةُ أَحَدٍ، وَلَا قُدِّمَ لِلخُطَابَةِ والإِمَامَةِ مَنْ لَمْ يَكُنْ مَقْلَدًا لأحد هذه المذاهب. وأفتى فقهاء الأمصار في طول هذه المدة بوجوب اتباع هذه المذاهب وتحريم ما عداها».

بقي العمل بالمذاهب المتعددة عند أهل السنة، الأربعة وغيرها، إلى أن جعل الخلفاء المدارس وقصروا التدريس في هذه المذاهب. كما أن مناصب القضاء حُصرت أيضاً في القضاة الذين يقضون بفتاوى الأئمة الأربعة. واستمر الحال على ذلك، إلى أن أمر السلطان الظاهر بيبرس –الذي كان له النفوذ والسلطان على مصر والشام وغيرهما من بلاد الإسلام– بجعل قضاة أربعة في مصر: لكل مذهب قاض خاص، وكان ذلك في سنة 663هـ. ثم جعل بعد ذلك بعام في بلاد الشام قضاة أربعة أيضاً. وعلى ذلك استمر الحال. فانحصرت المذاهب عند أهل السنة في هذه الأربعة، منذ ذلك الوقت إلى زماننا الحاضر.

قال ابن كثير في "البداية والنهاية" (260/13): «ثم دخلت سنة أربع وستين وستمئة (664هـ)، استهلّت والخليفة: الحاكم العباسي، والسلطان: الملك الظاهر، وقضاة مصر أربعة، فيها جعل بدمشق أربعة قضاة من كل مذهب قاض كما فعل بمصر عام أول...

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

وقد كان هذا الصنيع الذي لم يُسبق إلى مثله، قد فُعلَ في العام الأول بمصر كما تقدم، واستقرت الأحوال على هذا المنوال»(1).

و يتبين مما ذكرناه أن ظاهرة تعدد المدارس و المساجد بين المذاهب الأربعة ، كانت منتشرة بكثرة ، و أظهرت مدى عمق الخلاف المذهبي بينهم من جهة ، و عمقته و كرسّته من جهة ثانية ، بسبب غلبة التعصب المذهبي عليهم ، و عدم قيام علمائهم و حكامهم بواجبهم الديني لجمع شمل أمتهم .

إتماما لما ذكرناه عن التعصب بين العلماء و إثراء له ، أذكر هنا جماعة أخرى من أهل العلم كانوا شديدي التعصب لمذاهبهم :

1- القاضي الحسن بن علي التنوخي البغدادي(ت 372هـ) ، كان حنفيا متعصبا شديدا التعصب على الإمام الشافعي ، و يطلق لسانه فيه(2) .

2- المتكلم المعتزلي الوزير عميد الملك الكندري(ت456هـ) ، كان شديدا التعصب على الشافعية ، كثير الوقعة في الشافعي ، حتى أنه طلب من السلطان السلجوقي ألب أرسلان أن يسمح له بلعن الرافضة فأذن له ، فأضاف إليهم الأشاعرة ، و هم شافعية في معظمهم(3) .

3-الفقيه الحنفي أبو عبد الله محمد البلاساغوني التركي(ت 506هـ) ، كان غالبا في التعصب للمذهب الحنفي ، و كثير الوقعة في المذهب الشافعي ، و كان يقول : لو كان لي ولاية لأخذت الجزية من الشافعية(4) ، فجعلهم بمرتبة أهل الذمة من اليهود و النصارى و المجوس !! .

4-أبو الحجاج يوسف بن دوناس القندلاوي المالكي المغربي (ت543هـ) ، كان شديدا التعصب للمذهب الأشعري ، و صاحب تحرق على الحنابلة(5) .

5- الفقيه الشافعي أبو المظفر محمد بن محمد البروي (ت 567هـ) ، كان شديدا التعصب على الحنابلة و التحامل عليهم ، حتى أنه كان يقول : ((لو أن لي أمر لوضعتُ على الحنابلة الجزية)) ، فجعلهم بمنزلة أهل الذمة !! و بسبب شدة تعصبه عليهم رُوي أن أحدهم دس إليه بعض جهلة الحنابلة من أهدى له شيئا فمات(6) .

1 -انظر أيضا: "العبر في خبر من غبر" للذهبي (307/3) في حوادث سنة 663هـ، وابن العماد الحنبلي في "شذرات الذهب" (312/5)، وتغري بردي في "النجوم الزاهرة" (121/7) وغيرهم.

² ابن الأثير : الكامل ، ج 7 ص: 400 .

³ ابن خلكان : وفيات الأعيان ، ج 5 ص: 138 . و ابن الجوزي: المنتظم ، ج 6 ص: 333 . و السبكي: طبقات الشافعية ، ج 3 ص: 376 .

⁴ معجم البلدان ، ج 1 ص: 476 .

⁵ ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب ، ج 6 ص: 222 .

⁶ ابن كثير : طبقات فقهاء الشافعيين ، ج 2 ص: 671 .

6- القاضي أمير كاتب بن عمر الحنفي (ت758هـ) ، كان شديد التعصب للحنفية مُعجبا بنفسه ، متعصبا على مخالفيه عامة و الشافعية خاصة ، و قد سعى لدى رجال الدولة بمصر و الشام إلى إتلافهم-أي الشافعية- فما أفلح في مسعاه(1) .

7- الحنفي محب الدين محمد بن محمد الدمقراني الهندي(ت 789هـ) ، كان شديد التعصب للمذهب الحنفي ، و يتكلم في الإمام الشافعي و يقع فيه ، و يرى أن طعنه فيه هو عبادة(2) !! .

و بذلك يتبين أن التعصب المذهبي كان متغلغلا بين مختلف طوائف العلماء المسلمين -على اختلاف مذاهبهم و تخصصاتهم - فأوصلهم إلى التنازع و التناحر ، و التنافر و التناحر ، و أوصل كثيرا منهم إلى الانحرافات الفكرية و السلوكية ، الأمر الذي أدى إلى تكريس التعصب المذهبي في المجتمعات الإسلامية ، و نقله إلى عامة الناس و خاصتهم .

¹ ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج 1 ص: 495 .

² ابن العماد الحنبلي: شذرات ، ج 8 ص: 531 .

الفصل العاشر

المحن التي أصابت بعض العلماء على أيدي المتعصبين للمذاهب والفرق

للأسف نجد أن كتب التاريخ مشحونة بذكر مثل هذه المحن و مظاهر الإحن على من يدعو إلى اتباع الكتاب و السنة بفهم السلف الصالح و إلى إبطال التقليد والتعصب المذموم فتأذى من هذه الأخبار لكن عملا بقوله تعالى (وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَ تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ) الذاريات:55 لعلنا نتأمل هذه الأخبار ونعتبر ونتعظ بها لأن لا نقع في مثلها و لأن لا نعامل إخواننا من المسلمين بهذه الطريقة.

كما قال الشاعر: عرفت الشر لا للشر -لكن لتوقيه-ومن لا يعرف الخير -من الشر يقع فيه

1-محنة الفقيه أبي محمد بن حزم الأندلسي (ت 456هـ) ، لما اختلف مع فقهاء المالكية بالأندلس تعصبوا عليه و أجمعوا على تضليله ، و شنعوا عليه و حذروا أكابرهم منه ، و نهوا عوامهم من الاقتراب منه ،و استعانوا عليه بأمرأء البلد ، و آذوه و مقتوه ، و طردوه و شردوه من وطنه ،و أحرقوا كتبه و مزقوها علانية بإشبيلية ، و جرت له معهم مصائب أخرى(1) .

و لما أصابته تلك المحنة تعرّض بعض أصحابه أيضا للمطارادات و المضايقات ، منهم : المحدث أبو عبد الله الحميدي الميورقي(ت 488هـ) ، فإنه كان من المتعصبين لابن حزم ، فلما اشتد عليه الحال تعرّض هو أيضا لمحنة جعلته يترك بلاده و يلتحق بالمشرق هروبا من ذلك(2) .

و بسبب مطاردة هؤلاء لابن حزم لم يُقبل أهل العلم -بالمغرب و الأندلس- على مصنفاته ، فأهملوها و أغفلوها و ازدروها و حاصروها ، حتى أصبح بيعها ممنوعا في الأسواق(3) . و أما لماذا حدث ذلك كله بينه و بين فقهاء المالكية ؟ ، فيبدو أن ذلك يعود إلى سببين رئيسيين ، الأول هو أن ابن حزم كان مخالفا لهم في المذهب ، فهو كان ظاهريا مجتهدا لا يُقلد أحدا ، و هم كانوا مالكية مقلدين مذهبيين(4) . و الثاني هو طول لسانه-أي ابن حزم- و كثرة اعتداده بنفسه ،و استخفافه بكبار العلماء ، و وقوعه في أئمة الاجتهاد بعبارات لا تليق بعالم ولا متعلم.

¹ الذهبي: تذكرة الحفاظ ، ج 3 ص: 1145 . و ابن حجر : اللسان ، ج 4 ص: 200 .

² الذهبي: نفس المصدر ، ج 4 ص: 1220 .

³ ابن خلدون : المقدمة ، ص: 354 . و ابن حجر: نفسه ، ج 4 ص : 200 .

⁴ ابن خلدون : نفسه ، ص: 354 .

2- محن الحافظ عبد الغني المقدسي الحنبلي (ت 600هـ) ، فإنه تعرّض لعدة محن ، منها إنه عندما قرأ يوما شيئا من أحاديث الصفات بالجامع الأموي بدمشق ، تعصّب عليه جماعة من الأشاعرة و اتهموه بالتجسيم ، و رفعوا أمره إلى والي دمشق ، و في حضرته حاكموه ، فأفتوا بكفره و قتله ، و إخراجهم من دمشق طريدا(1) .

و المحنة الثانية أصابته بأصفهان ، و ذلك أنه عندما دخلها و رد على الحافظ أبي نُعيم الأصفهاني(ت 430هـ) في بعض ما كتبه ، و انتقده في 290 موضعا ، تعصّب عليه رئيس البلد أبو بكر الخُجندي الأشعري(590هـ)- انتصارا لأبي نُعيم- و طلبه ليقتله ، فاختفى الحافظ و أخرج أصحابه من أصفهان خُفية(2) .

و المحنة الثالثة أصابته بمدينة الموصل ، و ذلك أنه لما حل بها و سمع كتاب الضعفاء للحافظ العُقيلي ، تعصّب عليه الحنفية لأن إمامهم أبا حنيفة مذكور في الكتاب من بين الضعفاء ، و سجنوه و أرادوا قتله ، ثم فحصوا الكتاب فلم يجدوا إمامهم مذكورا فيه ، لأن زميله كان قد أخفى القسم الذي فيه اسم أبي حنيفة ، فأطلقوا صراحه لذلك(3) .

3- محنة الفقيه المالكي محمد بن زرقون (ت 622هـ) ، و ذلك أنه لما أمر السلطان الموحيدي يوسف بن يعقوب بعدم قراءة كُتب الفروع عامة و المالكية خاصة ، استمر ابن زرقون في تدريس الفقه المالكي متحديا لأمر السلطان ، فلما ظُفر به يُدرّس الفقه أخذ للقتل صبرا (نحو سنة 591هـ) ، ثم سُجن و لم يُقتل ، فطال سجنه و أحرقت كتبه(4) .

4- محنة شيخ الإسلام تقي الدين بن تيمية(ت 728هـ) ، فإنه لما أظهر مذهب السلف في الصفات ، و أفتى مجتهدا في مسائل فقهية كثيرة ، و أظهر انتقاده الشديد للصوفية الاتحادية المنحرفين ، تعصّب عليه جماعة من الأشاعرة و الفقهاء و الصوفية ، و رفعوا أمره إلى السلطان ، و أفتي بعضهم بضلاله و كفره ، و أدخلوه السجن عدة مرات ، كان آخرها سنة 726 هجرية ، فبقي مسجونا نحو عامين ، و لم يتركوا -أي خُصومه- له دواة و لا قلما و لا ورقة ، فبقي بعد ذلك شهرا مُقبلا على العبادة حتى تُوفي في سجنه رحمه الله تعالى(5)

¹ الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 286 . و السير ، ج 21 ص: 455 ، 459 ، 463 ، 464 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 21 .

² الذهبي: السير ، ج 21 ص: 458 ، 459 . و ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 39 . و محمد بن عبد الهادي: طبقات علماء الحديث ، حققه أكرم البوشي ، ط2 ، بيروت ، مؤسسة الرسالة ، 1996 ج 4 ص: 154 .

³ ابن عبد الهادي: نفسه ، ج 4 ص: 154 .

⁴ الذهبي : السير ، ج 22 ص: 311 .

⁵ ابن حجر: الدرر الكامنة ، ج 1 ص: 169 ، 170 . و ابن شاکر الكتبي : فوات الوفيات ، ج 1 ص: 75 . و الشوكاني: البدر الطالع ، ج 3 ص: 67 .

5-محنة الفقيه المجتهد محمد بن إسماعيل العلوي الصنعاني (ت 1182هـ)، فإنه لما كان مجتهدا حرا لا يتقيد بأي مذهب ، و يرد على المتمذهبيين ،و يحب أهل الحديث ،و يهتم بتدريس كُتب الحديث السنية ، اتهمه خُصومه -الشيعَة- بالنصب -أي معاداة أهل البيت في زعمهم- رغم أنه علوي ، و ألّبوا عليه العوام ،و اتهموه بمخالفة آل البيت -في زعمهم- و إهمال مذهبهم ، فجرّ عليه ذلك محن و خُطوب مع هؤلاء المتعصبين عليه ، لم يذكر الشوكاني تفاصيلها(1).

فيتبين جليا أن التعصب المذهبي كانت مظاهره في الحياة العلمية كثيرة و عميقة - خلال العصر الإسلامي- أوصلت الطوائف الإسلامية إلى المبالغة و الغلو في أئمتهم و مذهبهم و عقائدهم ، و التعمد في رواية الأكاذيب و تحريف الأخبار ، و التضيق على كثير من العلماء و إيدائهم ، انتصارا لطوائفهم و مذهبهم ،و تعصبا على مُخالفهم ، فأصبح التعصب المذهبي الأرضية الأساسية التي قامت عليها الحياة العلمية بمؤسساتها و طلابها ، و علمائها و تراثها الفكري .

لما تمذهبت الدول الإسلامية-خلال العصر الإسلامي- بمذاهب أصولية و فروعية مختلفة ، و تعصّبت لها ، ظهر أثر ذلك جليا في كثير من سلوكيات رجالها ،و في بعض مؤسساتها ، كما أنه مكن الطوائف المذهبية - المتنفّذة في تلك الدول- من خدمة مذهبها و التعصب لها على حساب مخالفيها

¹ البدر الطالع ، ج 2 ص: 133 و ما بعدها .

الفصل الحادي عشر

تمذهب الدول الإسلامية و تعصبها لمذاهبها

كانت معظم الدول الإسلامية - التي شهدها العصر الإسلامي- متمذهبة متعصبة للمذاهب التي تبنتها ، مع اختلاف درجة التعصب من دولة لأخرى ، فالدولة العباسية اتخذت الفقه المذهب الحنفي مذهباً رسمياً لها و انتصرت له ، لكنها في أصول الدين لم تتبن مذهباً معيناً لها ، و إنما كانت تنتصر للمذهب الذي يتبناه خليفة الوقت ، ففي زمن الخليفة المأمون و المعتصم و الواثق (198-232هـ) ، كانت -أي الدولة العباسية- متعصبة لمذهب المعتزلة تعصباً سافراً ، اضطهدت من أجله معارضيها بلا شفقة(1) . و في عهد الخليفين القادر بالله (381-422هـ) و ابنه القائم بأمر الله (422-567هـ) ، كانت -أي الدولة العباسية- على مذهب الحنابلة و أهل الحديث في الأصول ، (وكان على الحق) و ضيّقت على معارضيها(2) .

و أما الدولة العبّيدية الفاطمية -بالمغرب و مصر و الشام- فكانت شيعية إسماعيلية المذهب ، شديدة الانتصار له و التعصب على أهل السنة ، فارتكبت في حقهم جرائم بشعة ، و منعتهم من رواية السنة النبوية ، و سبّت الصحابة علانية ، و أحييت الرفض و أماتت السنة ، فكان ظاهرها الرفض -أي التشيع- و باطنها الضلال و الانحلال ، و فيها قال الحافظ شمس الدين الذهبي : ((قَبَّحَ اللهُ دولة أماتت السنة و رواية الآثار النبوية ، و أحييت الرفض و الضلال ، و بثت دعائتها في النواحي تغوي الناس و يدعونهم إلى نحلة الإسماعيلية ، فبهم ضلّت جبلية الشام و تعتروا))(3) .

و كذلك دولة القرامطة بالبحرين و ما جاورها ، فقد كانت إسماعيلية المذهب ظاهرها الرفض و باطنها الزندقة و الإلحاد ، شديدة التعصب على أهل السنة ، حتى أنها قتلت منهم آلاف الأبرياء داخل الحرم المكي بلا ذنب ارتكبه إلا أنهم من أهل السنة (4) . و أما الدولة البويهية (334-447هـ) ، فقد كانت شيعية زيدية المذهب ، و تعصبت للاعتزال و الرفض ، و أظهرتهما علانية و دعمتهما ، و وقفت بجانب الشيعة في صراعهم مع أهل السنة ، و شجّعت سب الصحابة و تكفيرهم(5) .

و منها أيضاً الدولة الأيوبية بمصر و الشام و اليمن (569-648هـ) ، تمذهبت في الأصول بالمذهب الأشعري ، و في الفروع بالمذهب الشافعي ، و تعصبت لهما

¹ سيأتي ذلك قريباً إن شاء الله تعالى .

² سبق ذكر بعض ذلك في الفصلين الأول و الثاني ، و سنكر شواهد أخرى قريباً .

³ الذهبي : السير ، ج 15 ص: 196 ، ج 16 ص: 468 ، ج 18 ص: 497 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 233 .

⁴ الذهبي: نفس المصدر ، ج 13 ص: 470 ، ج 14 ص: 539 ، ج 15 ص: 152 .

⁵ نفس المصدر ، ج 15 ص: 364 ، ج 16 ، ص: 250 ج 17 ص: 650 . و ابن كثير : البداية ، ج 11 ص: 233 .

علانية ، و مكّنت لهما في الدولة ، و ضيّقت على مخالفيها من الحنابلة و أهل الحديث(1)

و كذلك الدولة المملوكية بمصر و الشام (648-923هـ) ، فقد سارت على نهج الدولة الأيوبية ، في التمهّد بالأشعرية ، و تعصبت لها تعصبا شديدا ، حتى أنه كان من يجرؤ على مخالفتها علانية- زمن المؤرخ المقرئزي(ت 855هـ)- يكون مصيره القتل(2) .

و أما دول المغرب الإسلامي ، فمنها الدولتان الخارجيتان : المدرارية و الرستمية ، تمهّدت الأولى بالمهّد الصُفري ، و الثانية بالمهّد الإباضي ، و كل منهما تعصّب لمهّده(3) . و منها الدولة الزييرية ، فإنها تمهّدت بالمهّد المالكي عندما انفصلت عن الدولة العبيدية الفاطمية نحو سنة 434هـ ، و انتصرت له انتصارا كبيرا ، و فرضته على رعيتها ، و تعصّبت على غيره من المذاهب(4) .

و منها أيضا الدولة المرابطية (453-541هـ) ، تمهّدت في الفروع بالمهّد المالكي ، و تمهّدت في الأصول بمهّد السلف و أهل الحديث ، و انتصرت لهما انتصارا كبيرا ، و تعصبت في الحق على من يُخالفهما من المتكلمين ، و الفلاسفة ، و الصوفية(5) . و منها الدولة الموحّدية (441-668هـ) ، تمهّدت بالأشعرية في الأصول ، و انتصرت لها انتصارا كبيرا ، و تعصّبت على المالكية تعصبا زائدة ، و حاربت التمهّد عامة ، و اشتدت في التعصّب على خصومهم المرابطين ، فكفّرتهم و استباححت دماءهم و أعراضهم(6) .

و يتبين مما سلف أن تمهّد تلك الدول و تعصّبها لمذاهبها ، كان هو الأرضية التي قام عليها التعصّب المذهبي في الحياة السياسية أولا ، و هي -أي الدول- التي غذته و رعته و شجّعته ثانيا .

1 أنظر : أبو شامة : كتاب الروضتين ، ج 4 ص: 382 . و ابن كثير : نفس المصدر ، ج 13 ص: 18 . و المقرئزي : الخطط ، ج 2 ص: 343 ، 358 .

2 الخطط المقرئزية ، ج 2 ص: 343 .

3 أنظر : عبد لعزیز سالم : تاريخ المغرب في العصر الإسلامي ، مؤسسة شباب الجامعة ، مصر ، د ت ، 447 و ما بعدها .

4 الناصري السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ، ج 1 ص: 194 .

5 الذهبي: العبر ، ج 4 ص: 60 . و الناصري ، نفس المرجع ، ج 1 ص: 74 ، 75 .

6 الذهبي : السير ، ج 21 ص: 314 . و ابن خلدون : المقدمة ، ص: 290 . و الناصري : المرجع السابق ، ج 1 ص: 125 ، 200 .

الفصل الثاني عشر

تعصب الخلفاء والملوك وأعوانهم لمذاهبهم

انتشر التعصب المذهبي بين الخلفاء والملوك ورجالهم انتشارا واسعا -خلال العصر الإسلامي- فكانوا فيه طرفا فاعلا مؤثرا في رعايته و دعمه ، و تكريسه في المجتمع ، أذكر منهم ما يأتي :

فبخصوص الخلفاء العباسيين فمنهم المأمون (198-218هـ) ، و هو أول خليفة عباسي معتزلي متشيع ، انتصر للمعتزلة و الشيعة في دولته ، و تعصب على أهل السنة تعصبا مفرطا ، و فرض عليهم القول بخلق القرآن بالقوة ، و هدد من يخالفه بالقتل و السجن و الحرمان. و عندما حضرته الوفاة وصى أخاه المعتصم (218-227هـ) بمواصله نهجه في مسألة خلق القرآن ، فسار على ذلك المنهاج في امتحان رعيته بالقول بخلق القرآن ،و التمكين للمعتزلة في دولته ، و على نهجه سار خليفته أبو جعفر هارون الواثق (227-232هـ)(1) .

ومن الخلفاء العباسيين- هو الناصر لدين الله (575-622هـ)، كان متشيعا لمذهب الشيعة الاثنى عشرية ، فمكن لهم في دولته ، و سبوا الصحابة علانية تحت حمايته ، و في المقابل ضيق على أهل السنة .و في زمانه تمكن وزيره الشيعي ابن القصاب من إلحاق الأذى بابن الجوزي و نفيه إلى مدينة واسط(2) .

و فيما يخص الملوك و السلاطين المتعصبين ، فمنهم الملك محمود بن سبكتكين (ت 421هـ) ، كان حنفيا ثم تحوّل إلى المذهب الشافعي ، فأحدث بذلك تعصبا بين الحنفية و الشافعية . كما أنه كان في الأصول على مذهب أهل الحديث محبا لأهله و منتصرا له ، سيرا على طريقة الخليفة العباسي القادر بالله في انتصاره للسنة و قمعه لمخالفها، ففي سنة 409 هجرية لعنت الرافضة و القرامطة ،و المشبهة و المعتزلة ، و الجهمية على المنابر و هددهم بالقتل(3) .

و السلطان صلاح الدين الأيوبي(ت 589هـ) ، فقد كان شافعي الفروع أشعري الأصول ، و انتصر لهذين المذهبين انتصارا كبيرا علانية و تعصب لهما على حساب مذاهب الطوائف الأخرى ، فأعطى القضاء للشافعية في دولته ، و مكّن للأشعرية في مملكته ،

¹ ابن كثير : البداية و النهاية ، ج 10 ص: 267 ، 33 ، 337 .

² الذهبي : العبر ، ج 4 ص: 241 . ابن كثير : البداية ، ج 13 ص: 19 . و ابن رجب : النيل ، ج

1 ص: 304 ، 426 . و ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 7 ص: 173 .

³ نفس المضدر ، ج 15 ص: 135 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و على نهجه سار أولاده من بعده في التمكين للأشعرية التي حرص على تربيتهم عليها(1) .

و السلطان العزيز بن صلاح الدين الأيوبي (ت 595هـ) ، كان على طريقة والده في الانتصار للشافعية و الأشعرية ، و لما سمع بما حدث من خلاف بين جماعة من الأشاعرة و الحافظ عبد الغني الحنبلي المقدسي (ت 600هـ) في مسألة صفات الله تعالى قال إنه إذا رجع من سفرته هذه -خرج للصيد- فإنه سيُخرج الحنابلة و من قال بمقاتلتهم ، من مصر و الشام ، لكن الموت لم يُمهله ليعود إلى القاهرة ، فقد قتله فرسه عندما رماه و وقع عليه و خسف صدره(2) .

لما كانت الدول الإسلامية متمذهبة و متعصبة لمذاهبها -خلال العصر الإسلامي- استغلت الطوائف المذهبية ذلك الوضع لخدمة مذاهبها و التعصب على معارضيتها ، فكانت كل طائفة - في الغالب- تصل إلى السلطة ، أو لها فيها نفوذ قوي ، إلا و سعت إلى تحقيق مكاسب مذهبية على حساب معارضيتها من الطوائف الأخرى .

فبالنسبة للمعتزلة ، فقد استغلوا وجودهم في السلطة لخدمة مذهبهم و التعصب على مخالفيتهم ، من ذلك ما فعله الخليفة المعتزلي المأمون بن هارون الرشيد (198-218هـ) ، فإنه مكّن للمعتزلة في دولته ، و فرض رأيهم على الناس في القول بخلق القرآن ، مستخدماً في ذلك الترغيب و التهيب معاً ، و جعل من لم يقل برأيهم كافراً ملحداً ، و هدد جماعة من العلماء بالقتل إن هم لم يقولوا بخلق القرآن(3) .

و منهم أيضاً الخليفة المعتزلي المعتصم (218-227هـ) ، سار على نهج أخيه المأمون -كان قد أوصاه بذلك - فانتصر للمعتزلة ، و واصل امتحان أهل السنة بالقول بخلق القرآن ، و أرسل إلى واليه بمصر يأمره بامتحان أهلها بذلك ، فنالت علماء مصر محنة عظيمة ، و ضرب كثير منهم بالسياط ، كمحمد بن عبد الحكم ، و أبي إسحاق الفريقي ، و أبي جعفر الإيلي(4) .

و كذلك الخليفة الواثق (227-232هـ) ، فقد كان على رأي المعتزلة في مسألة خلق القرآن ، و سار على نهج سابقه في ذلك ، فامتنح رعيته ببغداد ، و أرسل إلى ولاته يأمرهم بذلك ، و كان قاضيه على مصر : أبو بكر الأصم ، قد اشتد في امتحان الناس

¹ أبو شامة : كتاب الروصتين ، ج 4 ص: 382 . و المقرئزي : الخطط ، ج 2 ص: 343 ، 358 .

² الذهبي: السير ، ج 29 ص: 292 . و ابن كثير: البداية ، ج 13 ص: 18 .

³ السيوطي : تاريخ الخلفاء ، حققه محمد محي الدين عبد الحميد ، ط 1 ، مصر ، مطبعة السعادة ، 1952 ، ص: 308 .

⁴ القاضي عياض : ترتيب المدارك ، ج 1 ص: 269 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

بالقول بخلق القرآن ، و ملأ السجون من المعارضين له ، و أمر بكتابة : القرآن مخلوق ، على أبواب المساجد(1) .

وكذلك شيخ المعتزلة قاضي القضاة أحمد بن أبي دؤاد البغدادي(ت 240هـ) ، هو رأس الاعتزال في زمانه ، و كان له نفوذ قوي على المأمون و المعتصم و الواثق ، تولى قضاء القضاة زمن هذين الأخيرين ، و هو الذي حرّض هؤلاء الخلفاء على امتحان رعيّتهم بالقول بخلق القرآن ، و أن الله تعالى لا يرى يوم القيامة ، و هو الذي شغّب على الإمام أحمد بن حنبل و أفتى بقتله . و هو الذي قال في أحمد بن نصر —عندما عارض الواثق- : ((هو كافر يُستتاب ، لعل به عاهة ، أو نقص عقل يا أمير المؤمنين)) ، فنهض الواثق و طعن ابن نصر بالسيف و جرّ رأسه ، و أمر بتعليقه بالجانب الشرقي من بغداد(2) .

و منهم الأمير عضد الدولة البويهّي (ت 372هـ) ، جمع بين الاعتزال و التشيع ، و أظهرهما في دولته و شجعهما ، فكانا طافحين في زمانه خاصة ، و في عهد بني بويه عامة(3) .

فذكرنا كثيرا من مظاهر التعصب المذهبي على مستوى الحياة الاجتماعية و العلمية و السياسية ، التي هي من جهة أخرى تُعد من آثاره أيضا ، و تحمل في ذاتها أسبابها و دوافعها و خلفياتها ، التي إن نحن اكتشفناها و شخصناها سهّل علينا علاجها ، إن توقّرت فينا طائفة من الشروط.

¹ نفس المصدر ، ج 1 ص: 359 . و ابن العماد الحنبلي : شذرات ، ج 3 ص : 140 .

² ابن كثير : البداية ، ج 10 ص: 305 . و ابن العماد ، نفس المصدر ، ج 3 ص: 179 ، 180 .

³ الذهبي: السير ، ج 17 ص: 650 .

الفصل الثالث عشر

ما وقع في مكة المكرمة بسبب تقليد المذاهب والتعصب لها

و نتج عن مثل هذا الاختلاف و الشقاق أن اقتسموا المسجد الحرام إلى أربعة مقامات و محاريب، بل كان في بعض السنين-كما ذكر ابن جبير الأندلسي في رحلته التي قام بها من سنة 578هـ-محراب خامس للزيدية، كل هذه المذاهب لها أئمة و مقيمون، فإذا فرغ إمام مقلد لإمام واحد قام الإمام المقلد لإمام آخر، الله أكبر ما كان أشنع و أسمع هذا المنظر الذي كان يقرأ أعين الأعداء.

وذكر الحافظ السلفي (576 هـ): " (أن الإمام الشافعي كان إمام مقام إبراهيم وأول من يصلي من أئمة الحرم) ويصلي خلف مقام إبراهيم، ثم المالكي ويصلي قبالة الركن اليماني، ثم الحنفي ويصلي قبالة الميزاب، ثم الحنبلي - وصلاته مع المالكي في حين واحد - وموضع صلاته يقابل ما بين الحجر الأسود والركن اليماني. وقال : " إلا صلاة المغرب فإن الأربعة الأئمة يصلونها في وقت واحد مجتمعين لضيق وقتها، يبدأ مؤذن الشافعي بالإقامة، ثم يقيم مؤذنو سائر الأئمة، وربما دخل في هذه الصلاة على المصلين سهو وغفلة لاجتماع التكبير فيها من كل جهة، فربما ركع المالكي بركوع الشافعي أو الحنفي، أو سلم أحدهم بغير سلام إمامه، فترى كل أذن مصيخة لصوت إمامها أو صوت مؤذنه مخافة السهو، ومع هذا فيحدث السهو على كثير من الناس " (1). اهـ.

و ذكر العلامة ابن أبي العز الحنفي (792هـ) المقامات قائلا: " وزاد تمكن الافتراق أيضا بتولية إمام راتب من كل مذهب عند البيت الحرام وبالجامع الأموي ولازم كل إمام الصلاة على صفة لا يتعدها وإئما شرعت صلاة الخوف مع الفعل المنافي للصلاة لتكون الجماعة وكفى بمشروعية صلاة الخوف دليلا على إبطال ترتيب أكثر من إمام واحد في كل مسجد والمسجد الحرام وغيره.. " (2)

و قال الصنعاني: " هذا حرّم الله الذي هو أفضل بقاع الدنيا بالاتفاق وإجماع العلماء، أحدث فيه بعض ملوك الشراكسة الجهلة الضلال هذه المقامات الأربعة، التي فرقت عبادات العباد، واشتملت على ما لا يحصيه إلا الله عز وجل من الفساد، وفرقت عبادات

1 - معجم السفر ص 141

2 - الاتباع للقاضي ابن أبي عز الحنفي ص 92

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

المسلمين، وصيّرتهم كالمَلَل المختلفة في الدِّين، بدعةٌ قرَّت بها عينُ إبليس اللعين، وصيّرت المسلمين ضحكةً الشياطين..."(1)

و قال الشوكاني: عمارة المقامات في مكة المكرمة بدعة بإجماع المسلمين أحدثها أشر ملوك الجراكسة (فرج بن برقوق) في أوائل المائة التاسعة الهجرية، و أنكر ذلك أهل العلم في ذلك العصر، ووضعوا فيه مؤلفات. و قد بنيت في غير هذا الموضع. و يا لله العجب من بدعة يحدثها من هو شر ملوك المسلمين في خير بقاع الأرض، كيف لم يغضب لها من جاء بعده من الملوك المائلين إلى الخير، لا سيما و قد صارت هذه المقامات سببا من أسباب تفريق الجماعات، و قد كان الصادق المصدوق ينهى عن الاختلاف و الفرقة، و يرشد إلى الاجتماع و الألفة، كما في الأحاديث الصحيحة.

بل نهى عن تفريق الجماعات في الصلوات، و أن من أعظمها خطرا و أشدها على الإسلام و المسلمين، ما وقع الآن في الحرم الشريف، من تفريق الجماعات و وقوف كل طائفة في مقام من هذه المقامات، كأنهم أديان، و شرائع مختلفة، فإننا لله و إنا إليه راجعون."(2)

قال أحمد بن محمد الأسدي المكي (ت 1060 هـ) : كانوا يصلّون مرتّبين في غير المغرب : الشافعي فالحنفي فالمالكي فالحنبلي، لكن تقدّم الحنفي على المالكي إنما كان بعد التسعين – بتقديم التاء – وسبع مئة، قال الفاسي : ولم أعرف متى كان ابتداء صلاتهم على هذه الكيفية . ثم نقل ما يدل على أن غير الحنبلي كان سنة سبع وتسعين وأربع مئة، وكان إمام الزيدية، ثم قال : ووجدت ما يدلّ على أن الحنبلي كان في عشر الأربعين وخمس مئة . انتهى.

وأما وقتنا فالأربعة يصلّون الصبح فقط مرتّبين : الشافعي فالمالكي فالحنبلي فالحنفي، وغير الصبح لا يصلّيه إلا الشافعي فالحنفي فقط، نعم في أيام الموسم يصلّيه المالكي أيضاً.

وأما المغرب فكانوا قديماً يصلّونها في وقت واحد جميعاً، فيحصل بذلك التباس على المصلّين، فرُفع ذلك لولي الأمر حينئذ؛ وهو الناصر فرج بن برقوق، فأمر في موسم سنة إحدى عشرة وثمان مئة بأن الشافعي وحده يصلّي المغرب، واستمر كذلك إلى أن تولّى الملك المؤيد شيخ صاحب مصر، فرد الأمر كما كان . فابتدأ في ذلك ليلة سادس ذي الحجة سنة عشرة وثمان مئة، واستمر ذلك مدة، ثم اقتصر على الشافعي والحنفي، فصارا يصلّيان معاً، حتى أمر السلطان سليمان خان في حدود سنة إحدى وثلاثين وتسع مئة بإزالة المعية والنظر في ذلك، فاجتمع القضاة وغيرهم بالحطيم، واقتضى رأيهم تقديم الحنفي، واستمر ذلك إلى وقتنا هذا" 1 هـ

1 -تطهير الاعتقاد عن أدران الإلحاد ص78

2 -إرشاد السائل إلى دلائل المسائل ص90 ضمن الرسائل المنيرية

وذكر الدكتور صالح معتوق في كتابه "علم الحديث في مكة المكرمة" (ص 25-26) (:ولم تُعرف السنة التي أُحدثت فيها هذه المقامات، وتعددت فيها الجماعات بعد أن كان الناس يصلّون جماعة واحدة وراء إمام واحد، والذي ظهر لصاحب تاريخ عمارة المسجد الحرام حسين باسلامة بعد البحث والتنقيب أنها أُحدثت في القرن الرابع أو القرن الخامس، لأن ابن عبد ربه - صاحب العقد الفريد المتوفى سنة 328 هـ - لم يذكر هذه المقامات عندما وصف المسجد الحرام، وذكرها ابن جبير في رحلته سنة 578 هـ، وقد وافقه على ذلك الأستاذ أحمد السباعي رحمه الله في "تاريخ مكة" . اهـ. ورجّح الدكتور صالح أن بداية حدوث هذه المقامات كانت بين سنة 442 و 497 هـ، لأن ناصر خسرو عندما حج سنة 442 هـ لم يذكر هذه المقامات، وذكر الفاسي في شفاء الغرام أن مقامات الحنفية والمالكية والزيدية كانت موجودة في سنة 497 هـ.

و قد بحث شيخنا الشيخ وصي الله عباس حفظه الله في كتابه "المسجد الحرام تاريخه و أحكامه" في هذه المسألة (نشأة المقامات) و قد أجاد و أفاد و ذكر فيه أن أول سنة وجد فيها ذكر المقام الخاص بإمام من الأئمة سنة (488هـ) و ذكر أن مفهومه أن المقامات أقيمت قبل هذا.(1)

أمّا عن الحرم المدني، فينقل الشيخ عطية سالم رحمه الله (ت 1420 هـ) في كتابه "التراويح؛ أكثر من ألف عام في مسجد النبي صلى الله عليه وسلّم" (ص 74-) عند كلامه على القرن الثاني عشر الهجري - من رحلة الشيخ النابلسي قوله : "لحرم الشريف خمسة عشر إماماً منهم الحنفيون ومنهم الشافعيون، وله واحد وعشرون خطيباً، منهم اثنا عشر خطيباً حنفيون، وثمانية خطباء شافعيون، وخطيب واحد مالكي، فالأئمة يصلّون بالنوبة في كل يوم إمام واحد من الحنفيّة وإمام من الشافعية، فيبتدئون من الظهر إلى الصبح، والإمام الشافعي يصلّي أولاً، ثم الإمام الحنفي، إلّا في المغرب، فيتقدّم الحنفي لكرامة تأخير المغرب عنده، ويصلّي الإمام الحنفي يوماً في محراب النبي صلى الله عليه وسلّم الذي في الروضة الشريفة، فيصلّي الإمام الشافعي ذلك اليوم في المحراب الذي هو خلف المنبر، ثم في ثاني يوم يصلّي الإمام الشافعي كذلك، ويصلّي الحنفي مثل ما صلّى هو أول يوم " . اهـ.

وقال الشيخ عطية (ص 88) : "وقد زال هذا التعدّد بوجود العهد السعودي، وأمّا وجوده فكان طارئاً على المدينة، لم يحدث إلّا بعد القرن السابع، وكانت المدينة طيلة سبعة قرون تصلّي الصلوات كلّها بإمام واحد ولا تتعدّد فيها الجماعة لفريضة واحدة، بل إن مالكا رحمه الله - وهو إمام دار الهجرة - ممن يكره تعدّد الجماعة في المسجد الواحد للفريضة الواحدة (ثم تعددت الأئمة في الصلوات الخمس، ثم جاء العهد

السعودي فتوحّدت فيه الجماعة في المسجد النبوي وفي المسجد الحرام للصلوات الخمس وللتراويح، وعادت فيه حالة الإمامة إلى أصلها موحّدة منتظمة . اهـ

و قال الشيخ أحمد شاكّر في تعليقه على " سنن الترمذي " (1 / 431): "فشّت بدعة منكّرة في الجوامع العامة، مثل الجامع الأزهر والمسجد المنسوب للحسين رضي الله عنه وغيرهما بمصر، ومثل غيرهما في بلاد أخرى، فجعلوا في المسجد الواحد إمامين راتبين أو أكثر، ففي الجامع الأزهر - مثلاً - إمام للقبلة القديمة، وآخر للقبلة الجديدة، ونحو ذلك في مسجد الحسين، وقد رأينا فيه أن الشافعية لهم إمام يصليّ بهم الفجر في الغلس، والحنفيّون لهم إمام يصليّ الفجر بإسفار، ورأينا كثيراً من الحنفيين - من علماء وطلّاب وغيرهم - ينتظرون إمامهم ليصليّ بهم الفجر، ولا يصلّون مع إمام الشافعيين، والصلاة قائمة، والجماعة حاضرة، ورأينا فيهما وفي غيرهما جماعاتٍ تُقام متعدّدة في وقتٍ واحدٍ، وكلّهم آثمون، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاَ !!! بل قد بلغنا أن هذا المنكر كان في الحرم المكي، وأنه كان يصلي فيه أربعة أئمة، يزعمونهم للمذاهب الأربعة، لكننا لم نَرَ ذلك، إذ أننا لم ندرك هذا العهد بتمامه، وإنما حججنا في عهد الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود حفظه الله، وسمعنا أنه أبطل هذه البدعة، وجمع الناس في الحرم على إمام واحد راتب، ونرجو أن يوفّق الله علماء الإسلام لإبطال هذه البدعة في جميع المساجد في البلدان، بفضل الله وعونه، إنه سميع الدعاء. "اهـ(1)

وجاء العصر السعودي الزاهر على مكة المكرمة وما جاورها من بلاد الحجاز وجزيرة العرب بقيادة الملك عبد العزيز بن عبد الرحمن آل سعود يرحمه الله ومشاعر الوحدة تملأ قلبه وروحه ثم خطا خطوة هامة للوحدة الدينية بتوحيد صلاة الجماعة في المسجد الحرام بإمام واحد ، حيث جرت العادة أن يقام لصلاة الجماعة الأولى يوم الناس فيها إمام الشافعية ثم صلاة الجماعة الثانية لنفس الغرض يوم الناس إمام الحنفية ثم المالكي ثم الحنبلي.

وفي شهر ربيع الثاني 1345هـ اجتمع فريق من العلماء الحجازيين والنجديين وقرروا أن تكون صلاة الجماعة التي تقام في المسجد الحرام جماعة واحدة ، وانتخبا من كل مذهب ثلاثة أئمة ، من الحنابلة وإمامان يتناوبان في أوقات الصلوات الخمس فكان من الحنابلة الشيخ عبدالظاهر أبو السمح والشيخ حمد الخطيب ، ومن الشافعية الشيخ عبد الرحمن الزواري والشيخ محمد علي خوير ، والشيخ عمر فعي ومن الحنفية الشيخ عباس عبد الجبار والشيخ عبد الله بن ميرداد ومن المالكية الشيخ أمين فوده والشيخ عبد الله حمدوه والشيخ عباس مالكي. وقد وافق جلالة الملك عبد العزيز على هذا الترتيب وجرى العمل بموجبه وأصبحت الجماعة واحدة في المسجد الحرام.

و قال الشيخ وصي الله عباس حفظه الله: "و قد حصل بفضل الله و منه توحيد صفوف المسلمين على إمام واحد في بيت الله, و محو المقامات و المحاريب الأربعة, لما تولى الإمام عبقرى الإسلام, مجدد دين الله عبد العزيز بن عبد الرحمن آل فيصل, عرش الجزيرة, و بنى دولته على أساس الكتاب و السنة... و أما المسجد الأموي بدمشق فالمحاريب الأربعة لا زالت و لم تزل إلى الآن, كما أخبرنا ناس من أهلها-أزالها الله." (1)

قال الإمام الألباني في "أصل صفة الصلاة" (٢ / ٦٢٢):
"لقد كانت هذه المسألة وأمثالها مثار فتن عظيمة بين الحنفية والشافعية، حتى لقد دفعتهم إلى وضع القاعدة المشهورة عند الفريقين : (وتكره الصلاة وراء المخالف في المذهب)! وهي كراهة تحريم عند علمائنا (يقصد الشيخ الأحناف), ولا تزال آثار هذه القاعدة بادية في مساجدنا ! ففيها المحاريب الأربعة، وترى فيها ناسا يصلون مع الإمام، وآخرين ينتظرون إمام مذهبهم! حتى لقد قلت مرة لبعض هؤلاء : حي على الصلاة؛ فإنها أقيمت . فكان جوابه أن قال : " إنها لم تقم لنا؛ إنها للشافعية !!!" اهـ.

الفصل الرابع عشر

أقوال أهل العلم في التقليد والتعصب المذموم والحزبية

أنه بدعة محدثة في الدين:

قال ابن حزم رحمه الله: "وليعلم من قرأ كتابنا أن هذه البدعة العظيمة نعني التقليد إنما حدثت في الناس وابتدأ بها بعد الأربعين ومائة من تاريخ الهجرة وبعد أزيد من مائة عام وثلاثين عاما بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنه لم يكن قط في الإسلام قبل الوقت الذي ذكرنا مسلم واحد فصاعدا على هذه البدعة ولا وجد فيهم رجل يقلد عالما بعينه فيتبع أقواله في الفتيا فيأخذ بها ولا يخالف شيئا منها ثم ابتدأت هذه البدعة من حين ذكرنا في العصر الرابع في القرن المذموم ثم لم تزل تزيد حتى عمت بعد المائتين من الهجرة عموما طبق الأرض إلا من عصم الله عز وجل وتمسك بالأمر الأول الذي كان عليه الصحابة والتابعون وتابعو التابعين بلا خلاف من أحد منهم نسال الله تعالى أن يثبتنا عليه وألا يعدل بنا عنه وأن يتوب على من تورط في هذه الكبيرة من إخواننا المسلمين وأن يفيء بهم إلى منهاج سلفهم الصالح." (1)

قال السيد سابق في فقه السنة (10/1): «وبالتقليد والتعصب للمذاهب فقدت الأمة الهداية بالكتاب والسنة، وحدث القول بانسداد باب الاجتهاد، وصارت الشريعة هي أقوال الفقهاء، وأقوال الفقهاء هي الشريعة، واعتبر كل من يخرج عن أقوال الفقهاء مبتدعا لا يوثق بأقواله، ولا يُعتد بفتاويه. وكان مما ساعد على انتشار هذه الروح الرجعية ما قام به الحكام والأغنياء من إنشاء المدارس، وقصر التدريس فيها على مذهب أو مذاهب معينة، فكان ذلك من أسباب الإقبال على تلك المذاهب، والانصراف عن الاجتهاد، محافظة على الأرزاق التي رُتبت لهم!». (2)

و ذكر الشاه ولي الله الدهلوي في رسالته "الإنصاف" ص 68: "اعلم أن الناس كانوا في المائة الأولى والثانية غير مُجمعين على التقليد لمذهب واحد بعينه قال أبو طالب المكي في قوت القلوب إن الكتب والمجموعات محدثة والقول بمقالات الناس والفتيا بمذهب الواحد من الناس واتخاذ قوله والحكاية له في كل شيء والتفقه على مذهبه لم يكن الناس قديما على ذلك في القرنين الأول والثاني. أقول وبعد القرنين حدث فيهم شيء من التخريج غير أن أهل المئة الرابعة لم يكونوا مُجمعين على التقليد الخالص على مذهب واحد والتفقه له والحكاية لقوله كما يظهر من تتبع بل كان الناس على درجتين العلماء العامة وكان من خبر العامة أنهم كانوا في المسائل الإجماعية التي لا اختلاف فيها بين المسلمين أو بين جمهور المجتهدين لا يقلدون إلا صاحب الشرع وكانوا يتعلمون صفة

1 - في الإحكام في أصول الأحكام 146/1

2 - مستفادة من (www.ibnamin.com)

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الوضوء والغسل وأحكام الصلاة والزكاة ونحو ذلك من آباؤهم أو علماء بلدانهم فيمشون على ذلك وإذا وقعت لهم واقعة نادرة استفتوا فيها أي مفت وجدوا من غير تعيين مذهب قال ابن الهمام في آخر التحرير كانوا يستفتون مرةً واحدةً ومرةً غير ملتزمين مفتياً واحداً. انتهى " اهـ

وقال الشيخ صالح الفلاني في "إيقاظ الهمم أولي الأبصار ص74: "أما التقليد فهو قبول قول الغير من غير حجة فمن أين يحصل به علم وليس له مستند إلى قطع وهو أيضا في نفسه بدعة محدثة لأننا نعلم بالقطع أن الصحابة رضوان الله عليهم لم يكن في زمانهم وعصرهم مذهب لرجل معين يدرس ويقلد وإنما كانوا يرجعون في التوازل إلى الكتاب والسنة وإلى ما يتمحض بينهم من النظر عند فقد الدليل إلى القول وكذلك تابعوهم أيضا كانوا يرجعون في التوازل إلى الكتاب والسنة فإن لم يجدوا نظروا إلى ما أجمع عليه الصحابة فإن لم يجدوا اجتهدوا واختار بعضهم قول صحابي فرأه الأقوى في دين الله تعالى ثم كان القرن الثالث وفيه أبو حنيفة ومالك والشافعي وابن حنبل فإن مالكا توفي سنة تسع وسبعين ومائة وتوفي أبو حنيفة سنة خمسين ومائة وفي هذه السنة ولد الإمام الشافعي وولد ابن حنبل سنة أربع وستين ومائة وكانوا على منهاج من مضى لم يكن في عصرهم مذهب رجل معين يتدارسونه وعلى قريب منهم كان أتباعهم فكم من قولة لمالك ولنظرائه خالفه فيها أصحابه ولو نقلنا ذلك لخرجنا من مقصود هذا الكتاب ما ذاك إلا لجمعهم آلات الاجتهاد وقدرتهم على ضروب الاستنباطات ولقد صدق الله تعالى نبيه ' في قوله: ((خير الناس قرني ثم الذين يلونهم ثم الذين يلونهم)) ذكر بعد قرنه قرنين أو ثلاثة والحديث في صحيح البخاري فالعجب لأهل التقليد كيف يقولون هذا هو الأمر القديم وعليه أدركنا الشيوخ وهو إنما أحدث بعد مائتي سنة من الهجرة وبعد فناء القرون التي أثنى عليهم الرسول صلى الله عليه وسلم ولو قلت لأحدهم مالك رحمه الله مذهبه مذهب من لم يحز جوابا... " اهـ(1)

و ذكر الشاه ولي الله الدهلوي في كتابه "حجة الله البالغة 153/1-155 كلاما عن ابن حزم: "فما ذهب إليه ابن حزم حيث قال: التقليد حرام لا يحل لأحد أن يأخذ قول أحد غير رسول الله صلى الله عليه وسلم بلا برهان لقوله تعالى: {وَاتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِنْ دُونِهِ أَوْلِيَاءَ} الأعراف:3

وقوله تعالى: {وَإِذَا قِيلَ لَهُم اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا} البقرة:170

1 -انظر كذلك ما ذكره الإمام العز بن عبد السلام في "قواعد الأحكام في مصالح الانام" 134/2-

وَقَالَ مَادِحًا لِمَنْ لَمْ يُقَلَّدْ: {فَبَشِّرْ عِبَادِي الَّذِينَ يَسْتَمِعُونَ الْقَوْلَ فَيَتَّبِعُونَ أَحْسَنَهُ أُولَئِكَ الَّذِينَ هَدَاهُمُ اللَّهُ وَأُولَئِكَ هُمْ أُولُوا الْأَلْبَابِ} الزمر: 18

وَقَالَ تَعَالَى: {فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِنْ كُنْتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ} النساء: 59.

فَلَمْ يَبِحِ اللَّهُ تَعَالَى الرَّدَّ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى أَحَدٍ دُونَ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَحَرَّمَ بِذَلِكَ الرَّدَّ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَى قَوْلِ قَائِلٍ لِأَنَّهُ غَيْرُ الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ، وَقَدْ صَحَّ إِجْمَاعُ الصَّحَابَةِ كُلِّهِمْ أَوَّلَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ وَإِجْمَاعُ التَّابِعِينَ أَوَّلَهُمْ عَنْ آخِرِهِمْ عَلَى الْإِمْتِنَاعِ وَالْمَنْعِ مِنْ أَنْ يَقْصِدَ مِنْهُمْ أَحَدٌ إِلَى قَوْلِ إِنْسَانٍ مِنْهُمْ أَوْ مِنْ قَبْلِهِمْ، فَيَأْخُذُهُ كُلُّهُمْ، فَلْيَعْلَمْ مَنْ أَخَذَ بِجَمِيعِ أَقْوَالِ أَبِي حَنِيفَةَ، أَوْ جَمِيعِ أَقْوَالِ مَالِكٍ، أَوْ جَمِيعِ أَقْوَالِ الشَّافِعِيِّ، أَوْ جَمِيعِ أَقْوَالِ أَحْمَدَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَلَمْ يَتْرِكْ قَوْلَ مَنْ اتَّبَعَ مِنْهُمْ أَوْ مَنْ غَيْرَهُمْ إِلَى قَوْلِ غَيْرِهِ، وَلَمْ يَعْتَمِدْ عَلَى مَا جَاءَ فِي الْقُرْآنِ وَالسُّنَّةِ غَيْرَ صَارِفٍ ذَلِكَ إِلَى قَوْلِ إِنْسَانٍ بَعْضُهُ - أَنَّهُ قَدْ خَالَفَ إِجْمَاعَ الْأُمَّةِ كُلِّهَا أَوَّلَهَا عَنْ آخِرِهَا بِبَيِّنٍ لَا إِشْكَالَ فِيهِ وَأَنَّهُ لَا يَجِدُ لِنَفْسِهِ سَلَفًا، وَلَا إِنْسَانًا فِي جَمِيعِ الْأَعْصَارِ الْمَحْمُودَةِ الثَّلَاثَةِ، فَقَدْ اتَّبَعَ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ هَذِهِ الْمَنْزِلَةِ.

وَأَيْضًا فَإِنْ هُوَ لَا الْفُقَهَاءُ كُلُّهُمْ قَدْ نَهَوْا عَنْ تَقْلِيدِ غَيْرِهِمْ، فَقَدْ خَالَفَهُمْ مَنْ قَلَدَهُمْ..."(1)

و ذكر المعصومي عقب هذا الكلام: "و العجب من هؤلاء المقلدين لهذه المذاهب المبتدعة الشائعة و المتعصبين لها، فإن أحدهم يتبع ما نُسب إلى مذهبه مع بُعد عن الدليل، و يعتقد كأنه نبي مرسل، و هذا نأى عن الحق و بعد عن الصواب، و قد شاهدنا و جربنا أن هؤلاء المقلدين يعتقدون أن إمامهم يمتنع على مثله الخطأ، و ان ما قاله هو الصواب البتة، و أضمر في قلبه أنه لا يترك تقليده و إن ظهر الدليل على خلافه، و هذا هو طبق ما رواه الترمذي و غيره ((عَنْ عَدِيِّ بْنِ حَاتِمٍ، قَالَ: وَسَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقْرَأُ: {اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ}، فَقُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ إِنَّهُمْ مَا كَانُوا يَعْبُدُونَهُمْ، فَقَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: إِنَّهُمْ إِذَا أَحَلُّوا لَهُمْ شَيْئًا اسْتَحَلُّوهُ، وَإِذَا حَرَّمُوا عَلَيْهِمْ شَيْئًا حَرَّمُوهُ فَذَلِكَ عِبَادَتُهُمْ)) (2)

1 -نقلا عن "هدية السلطان إلى مسلمي بلاد اليابان للمعصومي ص70-71 و ذكر الدهلوي في "حجة الله البالغة: بعد هذا الكلام: " وَأَيْضًا فَمَا الَّذِي جَعَلَ رَجُلًا مِنْ هَؤُلَاءِ أَوْ مِنْ غَيْرِهِمْ أَوَّلَى أَنْ يُقَلَّدَ مِنْ عَمْرِ بْنِ الْخَطَّابِ أَوْ عَلِيِّ بْنِ أَبِي طَالِبٍ أَوْ ابْنِ مَسْعُودٍ أَوْ ابْنِ عَمْرِو أَوْ ابْنِ عَبَّاسٍ أَوْ عَائِشَةَ أُمِّ الْمُؤْمِنِينَ رَضِيَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُمْ، فَلَوْ سَاعَ التَّقْلِيدَ لَكَانَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْ هَؤُلَاءِ أَحَقَّ بِأَنْ يَتَّبَعَ مِنْ غَيْرِهِ" اهـ

2 -أخرجه الترمذي 129/5 برقم 3095 و ابن جرير في جامع البيان 81/10 و البيهقي في السنن الكبرى 117/10 و في إسناده ضعف لأجل غطيف لكن له شاهد من حديث حذيفة عند الطبري في جامع البيان 81/10 و عند ابن عبد البر في جامع بين العلم و فضله 109/2 و البيهقي 116/10 و

و قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: " قَالُوا جِبُّ عَلَى كُلِّ مُؤْمِنٍ أَنْ يُحِبَّ مَا أَحَبَّ اللَّهُ وَرَسُولُهُ: وَأَنْ يُبْغِضَ مَا أَبْغَضَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ مِمَّا دَلَّ عَلَيْهِ فِي كِتَابِهِ فَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَجْعَلَ الْأَصْلَ فِي الدِّينِ لِشَخْصٍ إِلَّا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يَقُولَ إِلَّا لِكِتَابِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ. وَمَنْ نَصَّبَ شَخْصًا كَائِنًا مَنْ كَانَ فَوَالِي وَعَادَى عَلَى مُوَافَقَتِهِ فِي الْقَوْلِ وَالْفِعْلِ فَهُوَ {مِنَ الَّذِينَ فَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيَعًا} الْآيَةَ وَإِذَا تَفَقَّهَ الرَّجُلُ وَتَأَدَّبَ بِطَرِيقَةِ قَوْمٍ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ مِثْلُ: اتِّبَاعِ: الْأَئِمَّةِ وَالْمَشَايخِ؛ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ يَجْعَلَ قُدُوتَهُ وَأَصْحَابَهُ هُمْ الْعِيَارُ فَيُؤَالِي مَنْ وَافَقَهُمْ وَيُعَادِي مَنْ خَالَفَهُمْ فَيَنْبَغِي لِلْإِنْسَانِ أَنْ يُعَوِّدَ نَفْسَهُ التَّفَقُّهَ الْبَاطِنَ فِي قَلْبِهِ وَالْعَمَلَ بِهِ فَهَذَا زَاجِرٌ. وَكَمَائِنُ الْقُلُوبِ تَظْهَرُ عِنْدَ الْمَحَنِّ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يَدْعُو إِلَى مَقَالَةٍ أَوْ يَعْتَقِدَهَا لِكُونِهَا قَوْلَ أَصْحَابِهِ وَلَا يُنَاجِرَ عَلَيْهَا بَلْ لِأَجْلِ أَنَّهَا مِمَّا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛... (1)

و قال أيضا: " وَلَا يَجُوزُ لِأَحَدٍ أَنْ يَرْجَحَ قَوْلًا عَلَى قَوْلٍ بِغَيْرِ دَلِيلٍ وَلَا يَتَعَصَّبُ لِقَوْلٍ عَلَى قَوْلٍ وَلَا قَائِلٍ عَلَى قَائِلٍ بِغَيْرِ حُجَّةٍ؛ بَلْ مَنْ كَانَ مُقَلِّدًا لَزِمَ حُكْمَ التَّقْلِيدِ؛ فَلَمْ يُرْجَحْ؛ وَلَمْ يُزَيَّفْ؛ وَلَمْ يُصَوَّبْ؛ وَلَمْ يُخْطِئْ: وَمَنْ كَانَ عِنْدَهُ مِنَ الْعِلْمِ وَالْبَيَانِ مَا يَقُولُهُ سَمِعَ ذَلِكَ مِنْهُ فَقَبِلَ مَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ حَقٌّ وَرَدَّ مَا تَبَيَّنَ أَنَّهُ بَاطِلٌ وَوَقَفَ مَا لَمْ يَتَبَيَّنْ فِيهِ أَحَدُ الْأَمْرَيْنِ. وَاللَّهُ تَعَالَى قَدْ فَاءَتْ بَيْنَ النَّاسِ فِي قُوَى الْأَذْهَانِ كَمَا فَاءَتْ بَيْنَهُمْ فِي قُوَى الْأَبْدَانِ... (2)

و قال ابن أبي العز الحنفي: " وَلَيْسَ فِي الطَّبَعِ السَّلِيمِ مَا يَقْتَضِي التَّعَصُّبَ لِهَذَا الْعَالَمِ دُونَ هَذَا الْعَالَمِ وَإِنَّمَا يَأْتِي ذَلِكَ غَالِبًا مِنْ هَوَى النَّفْسِ فَيَكُونُ حِينَئِذٍ قَدْ جَبَلَ عَلَى خَلْقٍ ذَمِيمٍ وَلَوْ ادَّعَى أَنَّهُ جَبَلَ عَلَى اتِّبَاعِ الْحَقِّ وَقَوْلِ هَذَا الْإِمَامِ الْمَعِينِ هُوَ الْحَقُّ لَكَانَتْ الْمُقَدِّمَةُ الْأُولَى مُسَلِّمَةً وَالثَّانِيَّةُ مَحَلَّ النِّزَاعِ فَإِنْ كُلُّ مَوْلُودٍ يُولَدُ عَلَى الْفِطْرَةِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى {فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا} الْآيَةَ الرَّومَ 30 فَبِالْفِطْرِ مَرْكُوزُ مَعْرِفَةِ حَسَنِ اتِّبَاعِ الْحَقِّ لَا أَنْ اتِّبَاعَ هَذَا الْعَالَمِ مُتَعَيِّنٌ دُونَ هَذَا الْعَالَمِ إِلَّا أَنْ يَدْعِيَ أَنْ هَذَا الْعَالَمُ مَعْصُومٌ عَنِ الْخَطَا فِي اجْتِهَادِهِ دُونَ غَيْرِهِ وَلَا يَدْعِي هَذَا عَاقِلٌ فَإِنَّهُ يَكُونُ قَدْ أَنْزَلَهُ مِنْزَلَةَ الرَّسُولِ صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ وَسَلَامُهُ فَإِنَّ الْعُصْبَ وَالتَّعَصُّبَ لَوَاحِدٌ مَعِينٌ مِنَ الْأَئِمَّةِ وَصِفَ مَذْمُومٌ مِنْ جِنْسِ فِعْلِ الرَّافِضَةِ وَهُوَ مِنْ أَفْعَالِ الْجَاهِلِيَّةِ كَمَا فِي صَحِيحِ مُسْلِمٍ وَسَنَنِ النَّسَائِيِّ عَنْ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ

هو موقوف لكن مرفوع حكما، فالحديث حسن كما ذكره الشيخ الإسلام ابن تيمية في " اقتضاء الصراط المستقيم ص9 و حسنه في كتاب الإيمان ص64، و حسنه الالباني في تخريجه "المصطلحات الأربعة في القرآن" للمودودي ص18-20.

1 -مجموع الفتاوى 9-8/20 ط مجمع الملك فهد

2 -مجموع الفتاوى 233/35

قَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ (مَنْ قَتَلَ تَحْتَ رَايَةٍ عَمِيَّةٍ يَدْعُو عَصَبِيَّةً وَيَنْصُرُ عَصَبِيَّةً فَقَتَلْتَهُ جَاهِلِيَّةً) (1)

وروى أَبُو دَاوُدَ عَنْ جُبَيْرِ بْنِ مُطْعَمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ قَالَ (لَيْسَ مِنَّا مَنْ دَعَا إِلَى عَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ قَالَ بِعَصَبِيَّةٍ وَلَيْسَ مِنَّا مَنْ مَاتَ عَلَى عَصَبِيَّةٍ) (2)

وَفِي الصَّحِيحَيْنِ مِنْ حَدِيثِ جَابِرِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ جِئْنَا قَالَ الْأَنْصَارُ يَا لِلْأَنْصَارِ وَقَالَ بِالْمُهَاجِرِينَ فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَقَالَ مَا بَالُ دَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَفِي رَوَايَةٍ "مُنْتَنَةً" الْحَدِيثُ (3)

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: "التعصب على نَوْعَيْنِ فَمَنْ تَعَصَّبَ لَوَاحِدٍ مَعِينٍ غَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَا لَكَ وَأَبِي حَنِيفَةَ وَالشَّافِعِيَّ وَأَحْمَدَ وَرَأَى أَنْ قَوْلَ هَذَا هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ دُونَ قَوْلِ الْأَئِمَّةِ الْبَاقِينَ فَهُوَ جَاهِلٌ ضَالٌّ وَإِنْ اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُهُ دُونَ غَيْرِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَئِمَّةِ فَانْهَى يَحْشَى عَلَيْهِ فَإِنَّ الْأُمَّةَ قَدْ اجْتَمَعَتْ عَلَى أَنَّهُ لَا يَجِبُ طَاعَةُ أَحَدٍ فِي كُلِّ شَيْءٍ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ بَلْ غَايَةُ مَا يُقَالُ إِنَّهُ يَسُوعُ أَوْ يَنْبَغِي أَوْ يَجِبُ عَلَى الْعَامِيِّ أَنْ يَقُولَ وَاحِدًا مِنَ الْأَئِمَّةِ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينَ زَيْدٍ أَوْ عَمْرٍو وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْأُمَّةِ تَقْلِيدَ فَلَانٍ دُونَ غَيْرِهِ فَهَذَا هُوَ الْمَحْدُورُ فَمَنْ تَعَصَّبَ لَوَاحِدٍ مِنَ الْأَئِمَّةِ دُونَ الْبَاقِينَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تَعَصَّبَ لَوَاحِدٍ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ الْبَاقِينَ كَالرَّافِضِيِّ الَّذِي تَعَصَّبَ لِعَلِيِّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ دُونَ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ فَهَذِهِ طَرُقُ أَهْلِ الْهَوَى نَسَأَلُ اللَّهَ السَّلَامَةَ وَالْعَافِيَةَ وَهَذَا رَفْضٌ وَتَشْنِيعٌ لَكِنَّا تَشْنِيعٌ فِي بَعْضِ الطَّوَائِفِ وَالْعُلَمَاءِ لَا فِي تَفْضِيلِ بَعْضِ الصَّحَابَةِ.

وَالْوَاجِبُ عَلَى كُلِّ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَأَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ اللَّهِ أَنْ يَكُونَ أَصْلَ قَصْدِهِ تَوْجِيدَ اللَّهِ بِعِبَادَتِهِ وَطَاعَةَ رَسُولِهِ وَيَعْلَمُ أَنَّ أَفْضَلَ النَّاسِ بَعْدَ الرَّسُولِ هُمُ الصَّحَابَةُ فَلَا يَنْتَصِرُ لِشَخْصٍ انْتَصَارًا عَامًا مُطْلَقًا إِلَّا لِرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا لَطَائِفِهِ انْتَصَارًا عَامًا مُطْلَقًا إِلَّا لِلصَّحَابَةِ فَإِنَّ الْهَدْيَ يَدُورُ مَعَ الرَّسُولِ وَمَعَ أَصْحَابِهِ دُونَ أَصْحَابٍ غَيْرِهِ فَإِذَا اجْمَعُوا لَمْ يَجْمَعُوا عَلَى خَطَا فَإِنَّ الدِّينَ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ لَيْسَ

1 مسلم في كتاب الإمارة باب الأمر بلزوم الجماعة، رقم 1850

2 سنن أبي داود كتاب الأدب، باب في العصبية برقم 5123 قَالَ الْمُنْذِرِيُّ . قَالَ أَبُو دَاوُدَ فِي رَوَايَةٍ ابْنُ الْعَبْدِ هَذَا مُرْسَلٌ ، عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَبِي سُلَيْمَانَ لَمْ يَسْمَعْ مِنْ جُبَيْرٍ . هَذَا آخِرُ كَلَامِهِ . وَفِي إِسْنَادِهِ مُحَمَّدُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ الْمَكِّيِّ وَقِيلَ فِيهِ الْعَكِّيُّ . قَالَ أَبُو حَاتِمٍ الرَّازِيُّ : هُوَ مَجْهُولٌ ، وَقَدْ أَخْرَجَ مُسْلِمٌ فِي صَحِيحِهِ وَالنَّسَائِيُّ فِي سُنَنِهِ مِنْ حَدِيثِ أَبِي هُرَيْرَةَ بِمَعْنَاهُ أَتَمَّ مِنْهُ ، وَمِنْ حَدِيثِ جُنْدُبِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ الْبَجَلِيِّ مُخْتَصَرًا .

مُسْلِمًا إِلَى عَالَمٍ وَاحِدٍ وَأَصْحَابِهِ وَلَوْ كَانَ كَذَلِكَ لَكَانَ ذَلِكَ الشَّخْصَ نَظِيرًا لِرَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَهُوَ شَبِيهِ بِقَوْلِ الرَّافِضَةِ... (1)

و قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "فَأَيُّمَةُ الدِّينِ هُمْ عَلَى مِنْهَاجِ الصَّحَابَةِ رِضْوَانُ اللَّهِ عَلَيْهِمْ أَجْمَعِينَ وَالصَّحَابَةُ كَانُوا مُؤْتَلِفِينَ مُتَّفِقِينَ وَإِنْ تَنَازَعُوا فِي بَعْضِ فُرُوعِ الشَّرِيعَةِ فِي الطَّهَارَةِ أَوْ الصَّلَاةِ أَوْ الْحَجِّ أَوْ الطَّلَاقِ أَوْ الْفَرَائِضِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ فَاجْمَعُهُمْ حُجَّةً قَاطِعَةً. وَمَنْ تَعَصَّبَ لِوَاحِدٍ بَعْضِهِ مِنَ الْأَيُّمَةِ دُونَ الْبَاقِينَ فَهُوَ بِمَنْزِلَةِ مَنْ تَعَصَّبَ لِوَاحِدٍ بَعْضِهِ مِنَ الصَّحَابَةِ دُونَ الْبَاقِينَ. كَالرَّافِضِيِّ الَّذِي يَتَعَصَّبُ لِعَلِيِّ دُونَ الْخُلَفَاءِ الثَّلَاثَةِ وَجُمْهُورِ الصَّحَابَةِ. وَكَالْخَارِجِيِّ الَّذِي يَقْدَحُ فِي عُثْمَانَ وَعَلِيٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا. فَهَذِهِ طَرُقُ أَهْلِ الْبِدْعِ وَالْأَهْوَاءِ الَّذِينَ ثَبَتَ بِالْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْإِجْمَاعِ أَنَّهُمْ مَذْمُومُونَ خَارِجُونَ عَنِ الشَّرِيعَةِ وَالْمِنْهَاجِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ رَسُولَهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ. فَمَنْ تَعَصَّبَ لِوَاحِدٍ مِنَ الْأَيُّمَةِ بَعْضِهِ فِيهِ شَبَهٌ مِنْ هَؤُلَاءِ سِوَاءِ تَعَصَّبَ لِمَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَبِي حَنِيفَةَ أَوْ أَحْمَدَ أَوْ غَيْرِهِمْ... (2)

و قال رحمه الله: "وَإِذَا كَانَ الرَّجُلُ مُتَّبِعًا لِأَبِي حَنِيفَةَ أَوْ مَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَدَ: وَرَأَى فِي بَعْضِ الْمَسَائِلِ أَنَّ مَذْهَبَ غَيْرِهِ أَقْوَى فَاتَّبَعَهُ كَانَ قَدْ أَحْسَنَ فِي ذَلِكَ وَلَمْ يَقْدَحْ ذَلِكَ فِي دِينِهِ. وَلَا عَدَالَتِهِ بِلَا نِزَاعٍ؛ بَلْ هَذَا أَوْلَى بِالْحَقِّ وَأَحَبُّ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِمَّنْ يَتَعَصَّبُ لِوَاحِدٍ مُعَيَّنٍ غَيْرِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ كَمَنْ يَتَعَصَّبُ لِمَالِكٍ أَوْ الشَّافِعِيِّ أَوْ أَحْمَدَ أَوْ أَبِي حَنِيفَةَ وَيَرَى أَنَّ قَوْلَ هَذَا الْمُعَيَّنِ هُوَ الصَّوَابُ الَّذِي يَنْبَغِي اتِّبَاعُهُ دُونَ قَوْلِ الْإِمَامِ الَّذِي خَالَفَهُ.

فَمَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ جَاهِلًا ضَالًّا؛ بَلْ قَدْ يَكُونُ كَافِرًا؛ فَإِنَّهُ مَتَى اعْتَقَدَ أَنَّهُ يَجِبُ عَلَى النَّاسِ اتِّبَاعُ وَاحِدٍ بَعْضِهِ مِنْ هَؤُلَاءِ الْأَيُّمَةِ دُونَ الْإِمَامِ الْآخِرِ فَإِنَّهُ يَجِبُ أَنْ يُسْتَنَابَ فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قُتِلَ. بَلْ غَايَةُ مَا يُقَالُ: إِنَّهُ يَسُوءُ أَوْ يَنْبَغِي أَوْ يَجِبُ عَلَى الْعَامِيِّ أَنْ يَقْلَدَ وَاحِدًا لَا بَعْضَهُ مِنْ غَيْرِ تَعْيِينَ زَيْدٍ وَلَا عَمْرٍو. وَأَمَّا أَنْ يَقُولَ قَائِلٌ: إِنَّهُ يَجِبُ عَلَى الْعَامَّةِ تَقْلِيدُ فُلَانٍ أَوْ فُلَانٍ فَهَذَا لَا يَقُولُهُ مُسْلِمٌ... (3)

و قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "فَدِينُ الْمُسْلِمِينَ مَبْنِيٌّ عَلَى اتِّبَاعِ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ وَمَا اتَّفَقَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ فَهَذِهِ الثَّلَاثَةُ هِيَ أَصُولُ مَعْصُومَةٍ وَمَا تَنَازَعَتْ فِيهِ الْأُمَّةُ رَدُّهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ. وَلَيْسَ لِأَحَدٍ أَنْ يُنْصَبَ لِلْأُمَّةِ شَخْصًا يَدْعُو إِلَى طَرِيقَتِهِ وَيُوَالِي وَيُعَادِي عَلَيْهَا غَيْرَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ وَلَا يُنْصَبَ لَهُمْ كَلَامًا يُوَالِي عَلَيْهِ وَيُعَادِي غَيْرَ كَلَامِ اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَمَا اجْتَمَعَتْ عَلَيْهِ الْأُمَّةُ بَلْ هَذَا مِنْ فِعْلِ أَهْلِ الْبِدْعِ الَّذِينَ يُنْصَبُونَ لَهُمْ شَخْصًا أَوْ كَلَامًا يُفَرِّقُونَ بِهِ بَيْنَ الْأُمَّةِ يُوَالُونَ بِهِ عَلَى ذَلِكَ الْكَلَامِ أَوْ تِلْكَ النِّسْبَةِ وَيُعَادُونَ. وَالْخَوَارِجُ إِنَّمَا تَأَوَّلُوا آيَاتِ مِنَ الْقُرْآنِ عَلَى مَا اعْتَقَدُوهُ وَجَعَلُوا مَنْ خَالَفَ ذَلِكَ

1 - الاتباع ص 79-80

2 - مجموع الفتاوى 252/22

3 - مجموع الفتاوى 245-249

كَافِرًا؛ لَا عِتْقَادَ لَهُمْ أَنَّهُ خَالَفَ الْقُرْآنَ فَمَنْ ابْتَدَعَ أَقْوَالًا لَيْسَ لَهَا أَصْلٌ فِي الْقُرْآنِ وَجَعَلَ مَنْ خَالَفَهَا كَافِرًا كَانَ قَوْلُهُ شَرًّا مِنْ قَوْلِ الْخَوَارِجِ... (1)

وقال رحمه الله: "وَكثِيرٌ مِنَ الْعُلَاةِ فِي الْمَشَايخِ يَعْتَقِدُ أَحَدُهُمْ فِي شَيْخِهِ نَحْوَ ذَلِكَ. وَيَقُولُونَ: الشَّيْخُ مَحْفُوظٌ، وَيَأْمُرُونَ بِاتِّبَاعِ الشَّيْخِ فِي كُلِّ مَا يَفْعَلُ، لَا يُخَالَفُ فِي شَيْءٍ أَصْلًا. وَهَذَا مِنْ جِنْسِ غُلُوِّ الرَّافِضَةِ وَالنَّصَارَى وَالْإِسْمَاعِيلِيَّةِ: تَدَّعَى فِي أُمَمَتِهَا أَنَّهُمْ كَانُوا مَعْصُومِينَ.

وَأَصْحَابُ ابْنِ ثَوَمَرْتِ الَّذِي ادَّعَى أَنَّهُ الْمَهْدِيُّ يَقُولُونَ: إِنَّهُ مَعْصُومٌ، وَيَقُولُونَ فِي خُطْبَةِ الْجُمُعَةِ: الْإِمَامُ الْمَعْصُومُ وَالْمَهْدِيُّ الْمَعْلُومُ، وَيَقَالُ: إِنَّهُمْ قَتَلُوا بَعْضَ مَنْ أَنْكَرَ أَنْ يَكُونَ مَعْصُومًا.

وَمَعْلُومٌ أَنَّ كُلَّ هَذِهِ الْأَقْوَالِ مُخَالَفَةٌ لِدِينِ الْإِسْلَامِ: لِلْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَإِجْمَاعِ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأُمَمَتِهَا. فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَقُولُ: {أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنْكُمْ فَإِنْ تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ} الْآيَةُ [سُورَةُ النِّسَاءِ: 59] ، فَلَمْ يَأْمُرْنَا بِالرَّدِّ عِنْدَ التَّنَازُعِ إِلَّا إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ ، فَمَنْ أَتَبَتَ شَخْصًا مَعْصُومًا غَيْرَ الرَّسُولِ أَوْ جَبَّ رَدَّ مَا تَنَازَعُوا فِيهِ إِلَيْهِ؛ لِأَنَّهُ لَا يَقُولُ عِنْدَهُ إِلَّا الْحَقُّ كَالرَّسُولِ. وَهَذَا خِلَافُ الْقُرْآنِ.

وَأَيْضًا فَإِنَّ الْمَعْصُومَ تَجِبُ طَاعَتُهُ مُطْلَقًا بِلا قَيْدٍ، وَمُخَالَفَتُهُ يَسْتَحِقُّ الْعَوِيدَ. وَالْقُرْآنُ إِنَّمَا أَتَبَتَ هَذَا فِي حَقِّ الرَّسُولِ خَاصَّةً. قَالَ تَعَالَى: {وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرَّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا} [سُورَةُ النِّسَاءِ: 69] . وَقَالَ: {وَمَنْ يَعِصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ لَهُ نَارَ جَهَنَّمَ خَالِدًا فِيهَا أَبَدًا} [سُورَةُ الْجِنِّ: 23] . فَدَلَّ الْقُرْآنُ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ عَلَى أَنَّ مَنْ أَطَاعَ الرَّسُولَ كَانَ مِنْ أَهْلِ السَّعَادَةِ، وَلَمْ يَشْتَرَطْ فِي ذَلِكَ طَاعَةَ مَعْصُومٍ آخَرَ.

وَمَنْ عَصَى الرَّسُولَ كَانَ مِنْ أَهْلِ الْعَوِيدِ، وَإِنْ قُدِرَ أَنَّهُ أَطَاعَ مَنْ ظَنَّ أَنَّهُ مَعْصُومٌ، فَالرَّسُولُ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - هُوَ الَّذِي فَرَّقَ اللَّهُ بِهِ بَيْنَ أَهْلِ الْجَنَّةِ وَأَهْلِ النَّارِ، وَبَيْنَ الْأَبْرَارِ وَالْفَجَّارِ، وَبَيْنَ الْحَقِّ وَالْبَاطِلِ، وَبَيْنَ الْعَيِّ وَالرَّشَادِ، وَالْهُدَى وَالضَّلَالِ، وَجَعَلَهُ الْقَسِيمَ الَّذِي قَسَمَ اللَّهُ بِهِ عِبَادَهُ إِلَى شَقِيٍّ وَسَعِيدٍ، فَمَنْ اتَّبَعَهُ فَهُوَ السَّعِيدُ، وَمَنْ خَالَفَهُ فَهُوَ الشَّقِيُّ. وَلَيْسَتْ هَذِهِ الْمَرْتَبَةُ لِغَيْرِهِ.

وَلِهَذَا اتَّفَقَ أَهْلُ الْعِلْمِ - أَهْلُ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ - عَلَى أَنَّ كُلَّ شَخْصٍ سِوَى الرَّسُولِ فَإِنَّهُ يُؤْخَذُ مِنْ قَوْلِهِ وَيُتْرَكُ، إِلَّا رَسُولَ اللَّهِ - صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ - فَإِنَّهُ يَجِبُ تَصَدِيقُهُ فِي كُلِّ مَا أَخْبَرَ، وَطَاعَتُهُ فِي كُلِّ مَا أَمَرَ، فَإِنَّهُ الْمَعْصُومُ الَّذِي لَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى، إِنْ هُوَ إِلَّا

وَحْيِي بُوحَى، وَهُوَ الَّذِي يُسْأَلُ النَّاسُ عَنْهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَمَا قَالَ تَعَالَى: {فَلَنَسْأَلَنَّ الَّذِينَ أُرْسِلَ إِلَيْهِمْ وَلَنَسْأَلَنَّ الْمُرْسَلِينَ} [سُورَةُ الْأَعْرَافِ: 6] .

وَهُوَ الَّذِي يُمْتَحَنُ بِهِ النَّاسُ فِي قُبُورِهِمْ، فَيَقَالُ لِأَحَدِهِمْ: مَنْ رَبُّكَ؟ وَمَا دِينُكَ؟ وَمَنْ نَبِيُّكَ؟ وَيَقَالُ: مَا تَقُولُ فِي هَذَا الرَّجُلِ الَّذِي بُعِثَ فِيكُمْ؟ فَيَنْتَبِثُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا بِالْقَوْلِ الثَّابِتِ، فَيَقُولُ: هُوَ عَبْدُ اللَّهِ وَرَسُولُهُ، جَاءَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَى فَأَمَنَّا بِهِ وَاتَّبَعْنَاهُ. وَلَوْ ذَكَرَ بَدَلُ الرَّسُولِ مَنْ ذَكَرَهُ مِنَ الصَّحَابَةِ وَالْأَئِمَّةِ وَالتَّابِعِينَ وَالْعُلَمَاءِ لَمْ يَنْفَعُهُ ذَلِكَ، وَلَا يُمْتَحَنُ فِي قَبْرِهِ بِشَخْصٍ غَيْرِ الرَّسُولِ. (1)

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: "فَإِذَا كَانَ الْمُعَلِّمُ أَوْ الْأُسْتَاذُ قَدْ أَمَرَ بِهَجْرِ شَخْصٍ؛ أَوْ بِإِهْدَارِهِ وَإِسْقَاطِهِ وَإِبْعَادِهِ وَنَحْوِ ذَلِكَ: نُظِرَ فِيهِ فَإِنْ كَانَ قَدْ فَعَلَ ذَنْبًا شَرْعِيًّا غُوقِبَ بِقَدْرِ ذَنْبِهِ بِلاَ زِيَادَةٍ وَإِنْ لَمْ يَكُنْ أَذْنَبَ ذَنْبًا شَرْعِيًّا لَمْ يَجْزُ أَنْ يُعَاقَبَ بِشَيْءٍ لِأَجْلِ غَرَضِ الْمُعَلِّمِ أَوْ غَيْرِهِ. وَلَيْسَ لِلْمُعَلِّمِينَ أَنْ يَحْزِبُوا النَّاسَ وَيَفْعَلُوا مَا يُلْقِي بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ بَلْ يَكُونُونَ مِثْلَ الْإِخْوَةِ الْمُتَعَاوِنِينَ عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى كَمَا قَالَ تَعَالَى: {وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَى وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ} المائدة: 2.

وَلَيْسَ لِأَحَدٍ مِنْهُمْ أَنْ يَأْخُذَ عَلَى أَحَدٍ عَهْدًا بِمُوافَقَتِهِ عَلَى كُلِّ مَا يُرِيدُهُ؛ وَمُوَالاتِهِ مَنْ يُؤَالِيهِ؛ وَمُعَادَاةِ مَنْ يُعَادِيهِ بَلْ مَنْ فَعَلَ هَذَا كَانَ مِنْ جَنْسِ جَنْكِيَزْ خَانَ وَأَمْثَالِهِ الَّذِينَ يَجْعَلُونَ مَنْ وَافَقَهُمْ صَدِيقًا مُوَالِيًا وَمَنْ خَالَفَهُمْ عَدُوًّا بَاغِيًّا؛ بَلْ عَلَيْهِمْ وَعَلَى اتِّبَاعِهِمْ عَهْدُ اللَّهِ وَرَسُولِهِ بِأَنْ يُطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ؛ وَيَفْعَلُوا مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ وَرَسُولُهُ؛ وَيَحْرَمُوا مَا حَرَّمَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ؛ وَيَرْعَوْا حُقُوقَ الْمُعَلِّمِينَ كَمَا أَمَرَ اللَّهُ وَرَسُولُهُ... (2)

وقال رحمه الله: "لَيْسَ لِأَحَدٍ مِنَ النَّاسِ أَنْ يُلْزِمَ النَّاسَ وَيُوجِبَ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا أَوْجَبَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ وَلَا يَحْظُرُ عَلَيْهِمْ إِلَّا مَا حَظَرَهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَمَنْ وَجَبَ مَا لَمْ يُوجِبْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، وَحَرَّمَ مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ وَرَسُولُهُ، فَقَدْ شَرَعَ مِنَ الدِّينِ مَا لَمْ يَأْذَنْ بِهِ اللَّهُ، وَهُوَ مُضَاهٍ لِمَا دَمَّهُ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ مِنْ حَالِ الْمُشْرِكِينَ، وَأَهْلِ الْكِتَابِ الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينًا لَمْ يَأْمُرْهُمُ اللَّهُ بِهِ، وَحَرَّمُوا مَا لَمْ يُحَرِّمْهُ اللَّهُ عَلَيْهِمْ، وَقَدْ بَيَّنَّ ذَلِكَ فِي سُورَةِ الْأَنْعَامِ وَالْأَعْرَافِ وَبَرَاءَةِ وَغَيْرِهِنَّ مِنَ السُّورِ، وَلِهَذَا كَانَ مِنْ شِعَارِ أَهْلِ الْبِدْعِ، إِحْدَاثُ قَوْلٍ أَوْ فِعْلٍ، وَالْزَامُ النَّاسَ بِهِ وَإِكْرَاهُهُمْ عَلَيْهِ، وَالْمُوَالاتَةُ عَلَيْهِ وَالْمُعَادَاةُ عَلَى تَرْكِهِ، كَمَا ابْتَدَعَتْ الْخَوَارِجُ رَأْيَهَا، وَالزَّيْمَةُ النَّاسَ بِهِ وَوَالَتْ وَعَادَتْ عَلَيْهِ." (3)

1 -منهاج السنة النبوية 189/6-191

2 -مجموع الفتاوى 16/28

3 الفتاوى الكبرى لابن تيمية، من كتاب في الردِّ عَلَى الطَّوَائِفِ الْمُلْحِدَةِ وَالزَّانِقَةِ حَوْلَ مَسْأَلَةِ "الحاكمية" 338/6-339

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

وقال الشيخ محمد حياة السندي حنفي الأصل: "أما ما أحدثه أهل زماننا من التزام مذاهب مخصوصة لا يرى ولا يجوز كل منهم الانتقال من مذهب الى مذهب فجهل وبدعة وتعسف وقد رأيناهم يتركون الأحاديث الصحاح غير المنسوخة ويتعلقون بمذاهبهم من غير سند إنا لله وإنا اليه راجعون..." (1)

فمن قبائح التعصب المذهبي: التفرق و التحزب، كل يوالي ويعادي لحزبه. وقد أمر الله بالتآلف والوحد، و عدم التفرق قال تعالى: (وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا...) آل عمران: 103

و النظرة الحزبية الضيقة ، تجعل من الحزبي أداة صماء للتنفيذ، ما لم تحصل يقظة بأداة النقد الذاتي

فإن الفرد في الحزب يقوم بدور : النقل ، أو التبرير. وعلى هذا فهو يحاول نشر الأفكار التي درسها بحماس ، أكثر من ميله لمراجعتها ، وتقويمها ، ومقارنتها بالأفكار الأخرى ، مما يؤدي بالنتيجة إلى ظاهرة التبرير للأفكار التي تصدر من الجماعة التي ينتسب إليها الحزبي. وبهذه الكيفية يتحول الحزبي إلى فرد أعمى ، قد أطبقت عليه ظاهرة العمى من كل جانب ، حتى يصل إلى درجة يرى فيها داخل جماعته طهرا كاملا ، وخارجها دنسا كاملا ، وجماعته هي فقط جزيرة الخلاص من طوفان الجاهلية ، ولا جزر أخرى في المحيط! وهذه الظاهرة الطاغية = إنسانية قبل أي شيء ، تكرر نفسها لدى كل جماعة ، ولا تخص جماعة بعينها. (2)

و من أسوء ما حصل نتيجة للتفرق، أن لا يجيز بعض المذهبيين نكاح المخالف مع المخالفة لمذهبه، و بالعكس. و أجازه بعضهم تنزيلا للمرأة منزلة الكتابية. و أن لا يجيز بعضهم الصلاة وراء المخالف في المذهب.

قال ابن همام: "فَقَالَ أَبُو الْيُسْرِ اقْتِدَاءُ الْحَنَفِيِّ بِشَافِعِيٍّ غَيْرُ جَائِزٍ، لِمَا رَوَى مَكْحُولُ النَّسْفِيُّ فِي كِتَابٍ لَهُ سَمَّاهُ الشُّعَاعَ أَنَّ رَفَعَ الْيَدَيْنِ فِي الصَّلَاةِ عِنْدَ الرُّكُوعِ وَالرَّفْعِ مِنْهُ مُفْسِدٌ بِنَاءً عَلَى أَنَّهُ عَمَلٌ كَثِيرٌ... وَمِنْهُمْ مَنْ قَيَّدَ جَوَازَ الْاِقْتِدَاءِ بِهِمْ كَقَاضِي خَانَ بِأَنَّهُ لَا يَكُونُ مُتَعَصِّبًا وَلَا شَاكَاً فِي إِيْمَانِهِ، وَيُحْتَاطُ فِي مَوْضِعِ الْخِلَافِ..." (3)

قال ابن القيم إنه قال صلى الله عليه وسلم في نفس هذا الحديث: «فَإِنَّهُ مَنْ يَعِشْ مِنْكُمْ بَعْدِي فَسَيَرَى اخْتِلَافًا كَثِيرًا» وَ هَذَا دَمٌّ لِلْمُخْتَلِفِينَ، وَتَحْذِيرٌ مِنْ سُلُوكِ سَبِيلِهِمْ، وَإِنَّمَا كَثُرَ الْاِخْتِلَافُ وَتَفَاقَمَ أَمْرُهُ بِسَبَبِ التَّقْلِيدِ وَأَهْلِهِ، وَهُمْ الَّذِينَ فَرَّقُوا الدِّينَ وَصَيَّرُوا أَهْلَهُ شِيَعًا،

1 -نقلا عن "إيقاظ الهمم أولى الأبصار" ص 70

2 - مقالة لخالص جلبي ، في النقد الذاتي ، مؤسسة الرسالة ، بيروت ، 1984م ، (242 - 244) باختصار وترتيب

3 -فتح القدير لابن همام 436/1 باختصار

كُلُّ فِرْقَةٍ تَنْصُرُ مَتَّبِعِيهَا، وَتَدْعُو إِلَيْهِ، وَتَدْعُو مَنْ خَالَفَهَا، وَلَا يَرَوْنَ الْعَمَلَ بِقَوْلِهِمْ حَتَّى كَانَتْهُمْ مِلَّةٌ أُخْرَى سِوَاهُمْ، يَذَابُونَ وَيَكْدَحُونَ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ، وَيَقُولُونَ: كُتُبُنَا، وَكُتُبُنَا وَإِمَّتُهُمْ وَإِيمَتُنَا، وَمَذْهَبُهُمْ وَمَذْهَبُنَا.

هَذَا وَالنَّبِيُّ وَاحِدٌ وَالْقُرْآنُ وَاحِدٌ وَالِدَيْنِ وَاحِدٌ وَالرَّبُّ وَاحِدٌ؛ فَالْوَاجِبُ عَلَى الْجَمِيعِ أَنْ يَنْقَادُوا إِلَى كَلِمَةِ سِوَاءِ بَيْنَهُمْ كُلِّهِمْ، وَأَنْ لَا يُطِيعُوا إِلَّا الرَّسُولَ، وَلَا يَجْعَلُوا مَعَهُ مَنْ يَكُونُ أَقْوَالُهُ كَنُصُوصِهِ، وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا أَرْبَابًا مِنْ دُونِ اللَّهِ؛ فَلَوْ اتَّفَقَتْ كَلِمَتُهُمْ عَلَى ذَلِكَ وَانْقَادَ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمْ لِمَنْ دَعَاهُ إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتَحَاكَمُوا كُلُّهُمْ إِلَى السُّنَّةِ وَآثَارِ الصَّحَابَةِ لَقَلَّ الْاِخْتِلَافُ وَإِنْ لَمْ يَعْدَمْ مِنَ الْأَرْضِ... (1)

قال الشيخ الألباني رحمه الله:

"أما ما أسمعنا الآن من هذا السؤال في أن يفصل المسلم عن الجماعة والجماعة السلفية !! لمجرد أنه أخطأ في مسألة أو في أخرى فما أراه إلا من عدوى الأحزاب الأخرى، هذا الفصل هو نظام بعض الأحزاب الإسلامية التي لا تتبنى المنهج السلفي منها في الفقه والفهم للإسلام، وإنما هو حزب يغلب عليه ما يغلب على الأحزاب الأخرى من التكتل والتجمع على أساس الدولة المصغرة من خرج عن طاعة رئيسها أنذر أولا وثانيا وثالثا-ربما-، ثم حكم بفصله، مثل هذا لا يجوز أن يتبناه جماعة ينتمون بحق إلى كتاب الله وإلى سنة رسول الله وعلى منهج السلف الصالح". ثم ختم الجواب بقوله «: هذا ابتداء في الدين ما أنزل الله به من سلطان" (2) وقال في شريط آخر: "فنحن نعلم جميعا أن سلفنا الصالح وعلى رأسهم أصحاب محمد' وقد كانوا مختلفين في بعض المسائل ولم يكن مثل هذا الاختلاف أولا سببا لإيجاد شيء من الفرقة بينهم، خلافا لاختلاف الخلف فقد صاروا بسبب اختلافهم مذاهب شتى وطرائق قديدا". (3)

وقال الشيخ محمد بن صالح العثيمين رحمه الله: "فيجب على طالب العلم أن يتخلى عن الطائفية والحزبية بحيث يعقد الولاء والبراء على طائفة معينة، أو على حزب معين، فهذا لا شك خلاف منهج السلف، فالسلف الصالح ليسوا أحزابا، بل هم حزب واحد، ينضون تحت قول الله عز وجل: (هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ) الحج: 78

فلا حزبية، ولا تعدد، ولا موالات، ولا معاداة إلا على حسب ما جاء في الكتاب والسنة، فمن الناس مثلاً من يتحزب إلى طائفة معينة، ثم يقرر منهجاً ويستدل عليه بالأدلة التي قد تكون دليلاً عليه، ويحامي دونها، ويضلل من سواه، حتى وإن كانوا أقرب إلى الحق منها، ويأخذ مبدأ: من ليس معي. فهو علي، وهذا مبدأ خبيث؛ لأن هناك وسطاً بين أن يكون لك أو عليك، وإذا كان عليك بالحق، فليكن عليك وهو في الحقيقة معك؛ لأن النبي

1 -إعلام الموقعين 173/2

2 -فتاوى جدة شريط 13 الوجه الثاني

3 -فتاوى جدة شريط 32

- صلى الله عليه وسلم - قال: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا" (1) ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم، فلا حزبية في الإسلام، ولهذا لما ظهرت الأحزاب في المسلمين، وتنوعت الطرق، وتفرقت الأمة، وصار بعضهم يضلل بعضًا، ويكل لحم أخيه ميتًا، لحقهم الفشل كما قال الله تعالى: (وَلَا تَنَازَعُوا فَتَفْشَلُوا وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ) الأنفال:46 لذلك نجد بعض طلاب العلم يكون عند شيخ من المشايخ، ينتصر لهذا الشيخ بالحق والباطل ويعادي من سواه، ويضلله ويبدعه، ويرى أن شيخه هو العالم المصلح، ومن سواه إما جاهل أو مفسد، وهذا غلط كبير، بل يجب أخذ قول من وافق قوله الكتاب والسنة، وقول أصحاب رسول الله'. (2)

¹ - رواه البخاري كتاب المظالم باب أعن أخاك ظالمًا أو مظلومًا، برقم (2443)

² -مجموع فتاوى ورسائل للشيخ العثيمين رحمه الله 239/26-240

الفصل الخامس عشر

الآثار السيئة لتعصب المذهبي

كان لانتشار التعصب المذهبي بين المسلمين -خلال العصر الإسلامي- آثار وخيمة كثيرة جدا ، مست مختلف جوانب الحياة . فخصُوص الجانب الاجتماعي ، فمن آثاره:

1- تفكك البناء الداخلي للمجتمع الإسلامي ، و دخول طوائفه في نزاعات و صراعات مذهبية عنيفة، تخللها السب و الطعن ، و التشهير و الازدراء ، و التناحر و التنافر ، و التباغض و التداير ، و التكفير و التضليل ، و التبديع و التفسيق .

2- حدوث فتن دامية كثيرة ، بين مختلف الطوائف و المذاهب الإسلامية ، قُتل فيها خلق كثير ، و عمّ خلالها خراب كبير ، كما حدث في مدينتي الري و أصفهان(1) .

3- كثرة الغلو و التعصب المذهبيين ، و انتشارهما في مختلف الأمصار الإسلامية بالمغرب و المشرق ، بين المذاهب فيما بينها .

4- ضعف رباط الأخوة الإسلامية القائم على الدين ، و حلول التعصب المذهبي محله ، كرباط يجمع أبناء الطائفة الواحدة ، و يُباعد بينهم و بين أبناء الطوائف الأخرى ، فأدى ذلك إلى تكريس التعصب و الشقاق ، و التنافر و التناحر ، و اختصاص كل طائفة بمساجدها ، و مدارسها ، و طلابها ، و أساتذتها ، و أحيائها السكنية .

5- انقسام أتباع المذاهب على أنفسهم-فيما يخص أصول الدين- إلى طوائف وطرق متنازعين فيما بينهم ، فنجد أن كثيرا من المنتسبين إلى نفس المذاهب مختلفين في العقيدة والمنهج أو "الطريقة" فنجد مثلا رجل حنفي في الفقه لكن أشعري في العقيدة ونقشبندية في طريقة ورجل آخر حنفي في الفقه لكن معتزلي في العقيدة و برويلية في الطريقة والسلوك ، أو حنبلي في الفقه و سلفي في العقيدة والطريقة بينما آخر حنبلي في الفقه لكن خارجي أو مرجئة في العقيدة و السلوك أو مالكي أو شافعي في الفقه وأشاعرة في الاعتقاد وصوفية في الطريقة والسلوك وهكذا.

و أما بالنسبة للجانب العلمي فهو أيضا ترك فيه التعصب المذهبي آثارا سلبية كثيرة و عميقة ، منها إنه صبغ الحياة العلمية بطابع التعصب المذهبي في أصول الدين و فروعه ، و أدى إلى اشتداد النزاع و التنافر بين مختلف طوائف أهل العلم ، فكثُر فيهم الغلاة و المتعصبون من مختلف الطوائف المذهبية دون استثناء .

1- إنه أدى إلى كثرة الكذب في الأحاديث النبوية ، و الروايات التاريخية ، انتصارا للمذاهب و ردا على خصومها ، فانتشرت الأحاديث الضعيفة و الموضوعة بين الناس ،

¹ ابن بطوطة : رحلة ابن بطوطة ، ج 1 ص: 220 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

و انتشرت بينهم الأخبار المكذوبة ، التي شوّهت جانباً كبيراً من تاريخنا الإسلامي ، و أفسدت نظرة كثير من الناس إليه ، و قامت عليها دول منحرفة ، و مذاهب باطلة ما أنزل الله بها من سلطان .

2- أنه -أي التعصب -أوصل الطوائف المذهبية إلى اختصاص كل منها بمصادر مذهبية مغايرة لمصادر الطوائف الأخرى ، فكل طائفة تستقي أصولها و فروعها من مصادرها ، فللمعتزلة مصنفاتهم ، و للشيعة كتبهم ، و للإباضية مؤلفاتهم ، و للطوائف السنة مصنفاتها ، الأمر الذي أدى إلى ظهور مذاهب فكرية ، و مدارس مذهبية ، متميزة بعقائدها و فروعها ، و بأساتذتها و طلابها ، و بمناهجها و تراثها .

3- إنه أوصل الغلاة المتعصبين إلى الانحراف في فهم القرآن الكريم ، بإتباع الظن و الهوى في فهمه ، و الاحتكام إلى الأفكار المذهبية المسبقة في تفسيره

4- إنه -أي التعصب- أدخل غالبية أهل العلم -خلال عصر التقليد و التعصب المذهبيين- في قوقعة الفقه المذهبي و كبّلهم (قيدهم) به ، و صرفهم عن الاطلاع على ما عند الطوائف الأخرى من علم صحيح ، و حرّمهم من الانتفاع به .

5- إنه أبعد معظم أهل العلم - خلال عهد التقليد و التعصب- عن التعامل المباشر مع القرآن الكريم و السنة النبوية ، و عن فقه السلف الأول ، ففوّت عليهم الانتفاع الصحيح و الكامل من علوم الكتاب و السنة ، و فقه الصحابة و تابعيهم ، و أغرقهم في الفقه المذهبي المتعصب الضيق الأفق ، و أصبحت الشريعة عندهم هي أقوال الفقهاء ، و أقوالهم-أي الفقهاء- هي الشريعة(1) . و آراء أئمتهم أسبق من كلام الله و رسوله-عليه الصلاة و السلام - .

6- إنه -أي التعصب المذهبي- أخذ من أهل العلم -على اختلاف طوائفهم- أوقاتاً عزيزة كثيرة ، و جهوداً مضنية عظيمة ، أمضوها في خدمة الفقه المذهبي المتعصب ، انتصاراً له و رداً على مخالفيه ، فأغرقهم في جزئياته ، و فوّت عليهم الاهتمام بإقامة كليات الدين و مقاصده السامية الكبرى ، كالأخوة ، و العدل ، و اجتماع الكلمة (على تحقيق الشهادتين) ، و التعاون على البر و التقوى ، و نشر الإسلام بين غير المسلمين .

7- إنه أفسد العقل الطبيعي الفطري الذي مدحه القرآن الكريم ، و أثنى على أصحابه في آيات كثيرة جداً ، و هم أولوا الأبواب و النُهي ، و أصحاب الفطر السليمة ، فأفسد ذلك التعصب المذهبي هذا العقل الفطري و مسخه ، و أبعد عن نور الهداية الربانية ، و قذف به في أحضان الأهواء و الظنون و الشهوات ، حتى انتهى به الأمر إلى إنكار ثوابت شرعية معروفة من دين الإسلام بالضرورة ، فأنكر ذلك العقل صفات الله تعالى ، و قال بقدم الكون ، و نفى السببية و طبائع الأشياء و خصائصها ، و سبّ الصحابة و كفّروهم ،

¹ السيد سابق : فقه السنة ، ج 1 ص: 10 .

و قال بتحريف القرآن الكريم ، هذه المزاعم-وغيرها- كلها باطلة ، لا دليل عليها من النقل الصحيح ، و لا من العقل الصريح ، و لا من العلم الصحيح ، و إنما هي مزاعم باطلة أوصل إليها العصب المذهبي الذي أفسد عقول قائلها . (1)

8- إنه-أي التعصب - أورث في المتمذهبين المتعصبين الجراءة على تخطئة أئمة المخالفين لهم من جهة ، و أورث فيهم الضعف و السلبية تجاه أئمتهم من جهة أخرى ، فهم في الغالب الأعم لا ينتقدون أئمتهم ، ولا يردون عليهم ، و يُبالغون في تعظيمهم و تقديسهم و الاعتذار لهم ، و البحث لهم عن المخارج حتى و إن كانت آراؤهم ضعيفة مرجوحة ، مع الإغراق في الجدل و الخلاف ، و إهمال التحقيق العلمي النزيه القائم على الكتاب و السنة و الفقه المتحرر من القيود المذهبية .

9- إنه أورث في المسلمين نزاعا و تعصبا مذهبيين ما يزالان قائمين إلى يومنا هذا ، و لم يجدا حلا صحيحا ناجعا ، و ذلك واضح جدا في أدبيات الجماعات و الطوائف الإسلامية المعاصرة ، و في مقرراتها و مؤسساتها التعليمية . كما أنه واضح أيضا في الأنترنت ، فهي مليئة بالمواقع ذات الطابع المذهبي المتعصب الصريح و الخفي ، بعضها تابع للطوائف السنية ، و بعضها تابع للطوائف الشيعية ، و بعضها الآخر تابع للخوارج الإباضية ؛ و كلها في نزاع و صراع ، و سباب و شتم ، و تشنيع و تبديع ، و تهويل و تنافس ، انتصارا للمذهب و تعصبا على مخالفيه ، و كسبا للمواقع و النفوذ .

و أما الجانب السياسي فهو أيضا تأثر كثيرا بالتعصب المذهبي الذي ترك فيه آثارا كثيرة و عميقة ، منها:

1- إن معظم الدول الإسلامية المتمذهبة -خلال عصر التقليد و التمدب- لم تكن عادلة في تعاملها مع الطوائف المخالفة لها ، فكانت الواحدة منها إذا تمذهبت بمذهب طائفة ما ، تعصبت لها و مكّنت لها في دولتها ، و ضيّقت على الطوائف الأخرى ، و قد تضطهدّها ، فأثر هذا سلبا -بلا شك- في البناء الداخلي لتلك الدول .

2- إن تمذهب تلك الدول و مشاركتها في نشر التعصب المذهبي و تعميقه ، أخذ منها أوقاتا و جهودا كثيرة في خدمة التعصب المذهبي كان من الأولى صرفها في مجالات أخرى بناءة نافعة . كما أن ذلك السلوك أضعف من ولاء الطوائف الأخرى لتلك الدول المتمذهبة المتعصبة .

3- إن تعصب تلك الدول جعلها تفشل في تعاملها مع مسألة التعصب المذهبي بين الطوائف الإسلامية ، فلا هي وحدت بينها ، و لا هي قضت على التعصب المذهبي فيما

¹ قد ذكرنا آيات من القرآن تدل على هذا راجع مقدمة البحث

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

بينها ، و لا هي تحكّمت فيه ، فكان الذي قامت به هو تكريس للتعصب المذهبي ، و تعميق له ، و تشجيع عليه ، و مشاركة فيه .

و قد يقول بعض الناس : نعم كانت للتعصب المذهبي آثار كثيرة مدمرة للفرد و المجتمع ، ألم تكن له إيجابيات على المجتمع الإسلامي ؟ .

نعم كانت للتعصب المذهبي إيجابيات ، لكنها قليلة جدا بالمقارنة إلى سلبياته الكثيرة ، و إلى آثاره الخطيرة المدمرة للبلاد و العباد . فمن إيجابياته إنه دفع أتباعه إلى الجد و الاجتهاد لخدمة مذاهبهم ، فأنشئوا المؤسسات العلمية الكثيرة ، و أنتجوا ثروة علمية كبيرة في أصول الدين و فروعه ، حتى أصبح لكل طائفة ثروة هائلة من المصنفات ، و كتب الطبقات و التراجم شاهدة على ذلك . غير أنه يُعاب على تلك المدارس أنها كانت-في معظمها- ذات صبغة طائفية مذهبية متعصبة . و يُعاب على تلك الثروة العلمية غلبة التعصب المذهبي عليها ، مع كثرة الشروح و المختصرات و قلة الإبداع و التجديد فيها(1) .

و من إيجابياته أيضا إن انتشاره و هيمنته على الحياة العلمية أدى إلى ظهور حركة اجتهادية مقاومة له ، و هي و إن كانت ضعيفة و رجالها قلة ، فإنها قد تصدت له بحزم و شجاعة ، و ضربت أمثلة رائعة في الاجتهاد المتحرر من قيود التعصب المذهبي و أغلاله ، و ترك لنا بعض رجالها مصنفات قيمة في ممارسة الاجتهاد و ذم التقليد و التعصب المذهبيين ، منهم : أبو محمد القاسم البياني الأندلسي (ت 276هـ) ، و ابن حزم الأندلسي (ت 456هـ) ، و أبو الوفاء بن عقيل البغدادى (ت 513هـ) ، و أبو شامة المقدسي (ت 654هـ) ، و تقي الدين بن تيمية (ت 728هـ) ، و ابن قيم الجوزية (ت 751هـ) ، و صالح بن مهدي المقبل اليماني (ت 1108هـ) ، و محمد بن علي الشوكاني (ت 1250هـ) (2) .

و زيادة على ما ذكرناه أشير هنا إلى ثلاثة ملاحظات هامة ، أولها إن التعصب المذهبي ضيّع على المسلمين -خلال العصر الإسلامي- كثيرا من المقاصد الشرعية التي هي من أساسيات المجتمع المسلم ، كالتآخي و الاعتصام بالجماعة ، و التعاون على البر و التقوى .

و ثانيها إن التعصب المذهبي -الذي ذكرناه- قام به و حمله ثلاثي عجيب ، هو : العوام المقلدون الجاهلون ، و العلماء المذهبيون المتعصبون ، و الخلفاء و الملوك و

¹ عمر سليمان الأشقر : تاريخ الفقه الإسلامي ، ص: 146 ، 147 .

² انظر مثلا : الذهبي : تذكرة الحفاظ ، ج 2 ص: 648 . و ابن رجب : الذيل ، ج 1 ص: 190 . و الشوكاني : البدر الطالع ، ج 1 ص: 289 ، 290 ، ج 2 ص: 84 ، 90 .

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الأمراء المتعصبون ، هؤلاء هم الذين دعوا إلى التعصب المذهبي ، و نشروه و رعوه ، فأحرقوا به أنفسهم و مجتمعهم .

و ثالثها إنه توجد علاقة وطيدة بين التقليد و التمذهب و التعصب ، فكثيرا ما كان التقليد المذهبي هو الموصل إلى التعصب و النزاعات و المواجهات العنيفة بين مختلف الطوائف المذهبية . لأن التقليد في الأصول و الفروع كثيرا أوصل أصحابه إلى التمذهب الذي هو بدوره دفعهم إلى التعصب لمذاهبهم و الانتصار لها بحق و بغير حق . لكنه لا توجد علاقة حتمية بين التقليد و التمذهب و التعصب ، فقد يكون الإنسان مُقلدا بلا تمذهب و لا تعصب ، و قد يكون متعصبا بلا تقليد و لا تمذهب ، و قد يكون متمذبا بلا تعصب و لا تقليد .

و يتبين مما ذكرناه أن التعصب المذهبي —خلال العصر الإسلامي- أثر كثيرا في المجتمع الإسلامي ، و صبغه بصبغته المذهبية المتعصبة ، اجتماعيا و علميا و سياسيا ، فكانت سلبياته كثيرة مضرّة ، و إيجابياته قليلة جدا نافعة .

الفصل السادس عشر

أسباب التعصب المذهبي

قال الشوكاني في "أدب الطلب و منتهى الأرب" ص40:

وَاعْلَمْ أَنَّ سَبَبَ الْخُرُوجِ عَنْ دَائِرَةِ الْإِنْصَافِ وَالْوُقُوعِ فِي مَوْبَقَاتِ التَّعَصُّبِ كَثِيرَةٌ جِدًا فَمِنْهَا:

1-النشوء في بلد متمذهب بمذهب معين:
وَهُوَ أَكْثَرُهَا وَقُوعًا وَأَشَدُّهَا بَلَاءً أَنْ يَنْشَأَ طَالِبُ الْعِلْمِ فِي بَلَدٍ مِنَ الْبُلْدَانِ الَّتِي قَدْ تَمَذَّهَبَ أَهْلُهَا بِمَذْهَبٍ مَعِينٍ وَاقْتَدَوْا بِعَالَمٍ مَخْصُوصٍ وَهَذَا الدَّاءُ قَدْ طَبِقَ فِي بِلَادِ الْإِسْلَامِ وَعَمَّ أَهْلَهَا وَلَمْ يَخْرُجْ عَنْهُ إِلَّا أَفْرَادٌ قَدْ يُوجَدُ الْوَاحِدُ مِنْهُمْ فِي الْمَدِينَةِ الْكَبِيرَةِ وَقَدْ لَا يُوجَدُ لِأَنَّ هَؤُلَاءِ الَّذِينَ أَلْفَوْا هَذِهِ الْمَذَاهِبَ قَدْ صَارُوا يَعْتَقِدُونَ أَنَّهَا هِيَ الشَّرِيعَةُ وَأَنَّ مَا خَرَجَ عَنْهَا خَارِجٌ عَنِ الدِّينِ مَبَايِنٌ لِسَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ (كل حزب بما لديهم فرحون) فَأَهْلُ هَذَا الْمَذْهَبِ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْحَقَّ بِأَيْدِيهِمْ وَأَنَّ غَيْرَهُمْ عَلَى الْخَطَا وَالضَّلَالِ وَالْبِدْعَةِ وَأَهْلُ الْمَذْهَبِ الْآخَرِ يَقَابِلُونَهُمْ بِمِثْلِ ذَلِكَ...

2-حب الشرف والمال ومداراة أهل الوجاهة والسلطان والتماس ما عندهم فيقوي ما يناسبهم ولا ينصف.

3-الخوض في الجدل والمراء مع أهل العلم والتعرض للمناظرات وطلب الظهور والغلبة فيقوي تعصبه لما أيده ولا ينصف.

4-الميل لمذهب الأقرباء والبحث عن الحجج المؤيدة له للمباهاة بغلم أقربائه فيتعصب حتى لخطئهم ولا ينصف

5-الحرص من الناس في الرجوع عن فتوى قالها أو قول أيده واشتهر عنه ثم تبين بطلانه فيتعصب دفعا للحرص ولا ينصف

6-الزلة في المناظرة مع من هو أصغر سنا أو أقل علما شهرة تجعله يتعصب للخطأ ولا ينصف

7-التعلق بقواعد معينة يصح ما وافقها ويخطئ ما خالفها وهي نفسها غير مسلمة على الإطلاق فيتعصب بالبناء عليها ولا ينصف

8-اعتماد أدلة الأحكام من كتب المذاهب لأنه سيجد ما يؤيد المذهب باستبعاد دليل المخالف فيتعصب ولا ينصف

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

9-الاعتماد في الجرح والتعديل على كتب المتعصبين إذ يعدّلون الموافق ويجرّحون المخالف فمن بنى على كتبهم يتعصب و لا ينصف

10-التنافس بين المتقاربين في الفضيلة أو المنزلة قد يدفع أحدهما لتخطئة صواب الآخر تعصبا ومجانبة للإنصاف

11-الاعتماد على الآراء والأقوال من علم الرأي-المخلوطة بعلوم الاجتهاد كأصول الفقه، مما يترتب عليه التعصب للرأي وخروج عن الإنصاف." انتهى ملخصا (1)

ويمكننا تقسيم أسباب التعصب المذهبي –الذي ساد في العصر الإسلامي-إلى أسباب أساسية ، و أخرى ثانوية ، فالأساسية نركّزها في ثلاثة أسباب رئيسية:

أولها عدم الالتزام الصحيح و الكامل بدين الإسلام على مستوى المشاعر و الأفكار و السلوكيات ، لأن ديننا الحنيف يقوم على العدل و المساواة ، و التوازن و الاعتدال ، و لا يقوم على التطرف و الغلو و التعصب للباطل ، فالطوائف التي وقعت في التعصب المذهبي المذموم انحرفت عن الشرع الحكيم ، و لم تلتزم به .

و ثانيها هو طبيعة العقائد و المقالات المكونة للمذاهب الفكرية الطائفية ، فبعضها لها أصول صحيحة معتدلة ، لا تبعت على التعصب الأعمى ، و هذا ينطبق على المذهب السني فقط ، و بعضها الآخر معظم أصولها باطلة متطرفة ، تبعت على الغلو و التطرف و التعصب الأعمى ، كمذاهب المعتزلة و الشيعة و الخوارج.

و السبب الرئيسي الثالث يتمثل في ردود أفعال الاتباع المتمذهبين في تفاعلهم مع مذاهبهم –المعتدلة منها و المتطرفة- ، فمن الطبيعي أنها تولّد فيهم الرغبة للانتصار لها و الدفاع عنها . لكن ردود الأفعال هذه تختلف حسب دوافعها العقيدية ، و طبيعة نفوسهم ، و قدراتهم و ظروفهم الاجتماعية المحيطة بهم ، فمن كانت ردود أفعالهم سليمة خيرة قائمة على مبادئ صحيحة ، فهي أفعال شرعية تهدف –في الغالب الأعم- إلى الانتصار للحق . و من كانت ردود أفعالهم شريرة قائمة على مبادئ منحرفة باطلة ، فهي أفعال غير شرعية تهدف –في الغالب الأعم- إلى الانتصار للباطل و التعصب المذموم .

و أما الأسباب الثانوية ، فهي بمثابة عوامل مساعدة تولّدت عن الأسباب الرئيسية ، و بعضها الآخر أفرزته تفاعلات الظواهر الاجتماعية فيما بينها ؛ فساهمت كلها في انتشار التعصب المذهبي و اشتداد قوته ، و اتساع دائرته :

1 -أدب الطلب ومنتهى الأرب ص40-119 مختصرا

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

1- الدور السلبي الذي قام به العلماء المتعصبون ، فهم الذين دعوا إلى التعصب المذهبي ونشروه ، و شجّعوا عليه و شاركوا فيه ، فكانت أفعالهم هذه مشاركة سلبية أوجب التعصب و لم تحد منه .

2- الموقف السلبي لكثير من الخلفاء و الملوك و أعوانهم في التعامل مع ظاهرة التعصب المذهبي ، فلم يسعوا إلى التخلّص منها ، و لم يُحسنوا التعامل معها ، فاتخذوا لأنفسهم مذاهب و تعصّبوا لها ، و نصرّوها -على حساب المذاهب الأخرى- بالأقوال و الأفعال ، فكانت أفعالهم هذه مشاركة سلبية كرّست التعصب المذهبي و أجبته .

3- الأعمال السلبية التي قام بها الوعاظ المتعصبون ، إنهم استغلوا وظيفتهم لنشر التعصب المذهبي و التشجيع على الفتن و المصادمات بين مختلف الطوائف الإسلامية ، و الشواهد على ذلك كثيرة جدا (1) .

4- هو تمذهب عوام الناس ، فإنهم لما تمذهبوا تعصبوا لمذاهبهم عن جهل و طيش ، و عصبية عمياء ، بتحريض من علمائهم و أعيانهم و حكامهم المتعصبين مثلهم ، فكان هؤلاء العوام وقودا للفتن المذهبية الدامية التي حدثت بين الطوائف المذهبية ، خلال العصر

5 - من الأسباب الثانوية- هو رواج أحاديث ضعيفة و موضوعة بين المتمذهبين المتعصبين ، فيها إقرار لهم على ما هم فيه من اختلاف و تدابر و تنافر ، كحديث : ((اختلاف أمتي رحمة)) ، فهذا الحديث غير صحيح ، استغله هؤلاء المتعصبون استغلالا فاحشا لدعم ما هم فيه ، و اتخذوه سنداً لهم لتكريس الانقسامات المذهبية و التعصبات الطائفية .

6- بقاء كثير من المسائل -الأصولية و الفقهية- المُختلف فيها بين المذاهب ، على ما هي عليه ، من دون تحقيق علمي نزيه يرفع عنها الخلاف ، لأن المتعصبين سعوا جاهدين إلى الاحتفاظ بمذاهبهم و الاحتجاج لها ، و الدفاع عنها ، حتى و إن كانت أدلتهم ضعيفة ، فأدى ذلك إلى تكريس العصبية المذهبية و التشجيع عليها ، و الدفاع عنها ، و إبقاء مسائل الخلاف قائمة.

¹ انظر للأمثلة: ابن حجر: لسان الميزان ، ج 1 ص: 304 ،¹ ابن الجوزي: المنتظم ، ج 9 ص: 131 .

ابن عساكر: تاريخ دمشق، ج 41 ص: 339 . و اليافعي المكي: مرآة الجنان ، بيروت، منشورات الأعلمي، 1970 ، ج 3 ص: 388 .

الذهبي: السير ، ج 19 ص: 612 . و ابن الجوزي: المنتظم ، ج 10 ص: 22 . الذهبي : السير ، ج 20 ص: 45 . الذهبي السير ، ج 20 ص: 140 . و ابن الجوزي ، المصدر السابق ، ج 10 ص: 110 .

7- مخالفة الاتباع المتمذهبين المتعصبين لأقوال الأئمة الأربعة، و هم : أبو حنيفة ، و مالك ، و الشافعي ، و أحمد -رضي الله عنهم- ، في النهي عن تقليدهم و التعصب لأرائهم من غير دليل (1). فهؤلاء المتمذهبون المتعصبون متناقضون مع أنفسهم في موقفهم من أئمتهم ، فقلدوهم و تعصّبوا لهم بحق و بغير حق ، رغم أن أئمتهم قد نهوهم عن تقليدهم و التعصب لهم ، و هم سيتبرؤون منهم يوم يقوم الناس لرب العالمين(2) .

8- تميز كل طائفة عن الطوائف الأخرى ، بمدارسها ، و شيوخها ، و طلابها ، و تراثها ، و مساجدها ، و أحيائها السكنية ، فهذا الوضع الغريب كرّس الطائفية و العصبية المذهبية و عمقهما ، و جعلهما أمرا واقعا معترف به سلطة و مجتمعا .

9- الدور السلبي لجهاز القضاء -خلال العصر الإسلامي- في تعامله مع المذاهب الفقهية و التعصب لها ، فعندما كان القضاء أحادي المذهب ، كان يحكم بالمذهب الذي تتبناه الدولة ، و على المذاهب الأخرى الخضوع لمذهب الدولة و الأخذ به أحبت أم كرهت . فولّد فيها ذلك الوضع التعصب لمذهبها حماية له من الانقراض ، و التعصب على مذهب الدولة المفروض عليها . كما أن مذهب الدولة الرسمي مكّن لأتباعه من استخدام نفوذهم في الدولة لنشره و تقويته، و التعصب على مخالفه ؛ فأوجدت هذه الوضعية تعصبا من كل الطوائف . و عندما أصبح القضاء متعددًا ، فإن الوضع لم يتغير من حيث التعصب المذهبي ، فإنه كرّس الفرقة و العصبية ، و فتح المجال للقضاة المتعصبين من المذاهب الأربعة لاستغلال نفوذهم في خدمة مذاهبهم و التعصب على مخالفيهم .

و بذلك يتبين مما ذكرناه أن تلك الأسباب -الأساسية و الثانوية- ممتزجة و متفاعلة ، هي التي كانت وراء ظاهرة التعصب المذهبي التي تناولنا مظاهرها و آثارها فيما تقدم من كتابنا هذا ، فهل من سبيل إلى التخلص منها في وقتنا الحاضر ؟ .

¹ أنظر مثلا : ولي الله الدهلوي : الإنصاف في بيان أسباب الاختلاف ، ص: 104 .

² انظر "فصل نهى أصحاب المذاهب عن تقليدهم و التعصب لهم"

الفصل السابع عشر

علاج ظاهرة التعصب المذهبي

لم تجد ظاهرة التعصب المذهبي-خلال العصر الإسلامي- الحل العملي الصحيح لعلاجها ، رغم ما جرّته على الأمة من ويلات و مأس و أخطار ، ما نزال نعاني منها إلى يومنا هذا ، فهل لعلاجها من سبيل ؟

سنقترح لعلاجها جملة من الحلول في أربع مجموعات، الأولى تتضمن مجموعة الحلول العامة ، و تضم ستة حلول:

1- إخلاص النية الصادقة لله تعالى في طلب الحق وترك الباطل ، والابتعاد الكلي عن التعصب الأعمى للمذاهب و الأشخاص .

2- الخضوع التام لأحكام الشرع الحكيم ، و التسليم المطلق له في كل ما يقرره ، انطلاقاً من الفهم الصحيح له ، بلا تأويل و لا تحريف ، و لا إفراط ولا تفريط ، و بلا خلفيات مذهبية مُسبقة متعصبة للباطل ، مع رد متشابهه إلى محكمه ، و تفسير القرآن بالقرآن أولاً ، و بالسنة النبوية الصحيحة ثانياً ، و بما كان عليه الصحابة و السلف الصالح رابعاً ، و بالحقائق العقلية و الاجتماعية و الطبيعية الصحيحة الثابتة خامساً

3- أن يكون مرجعنا في أفعالنا وأقوالنا ، وأحكامنا وخلافاتنا الشرع الحكيم المتمثل في كتاب الله تعالى و سنة رسوله الصحيحة ، -عليه الصلاة و السلام – لأن الله تعالى لم يتعبدنا باتّباع غيرهما ، و إنما تعبدنا باتّباع كتابه و سنة نبيه-عليه الصلاة و السلام- على فهم السلف الصالح ، فإذا تعارضت أقوال البشر و أفعالهم مع الشرع رُفضت مهما كان قائلها .

4- التعامل الإيجابي مع تراثنا الإسلامي ، - على اختلافه و تنوّعه- بأن ننظر إليه نظرة شمولية متوازنة نافعة ، بلا إقصاء و لا إغماط ، و بلا تقزيم و لا مبالغة ، و بلا تعصب أعمى ، فنستفيد من إيجابياته – و ما أكثرها – فنأخذ بها ، و نعتبر بسلبياته – و ما أكثرها أيضاً- فنتعلم منها و نتجنبها ، بلا مخاصمات و لا مزايدات .

5- الحرص و السعي الجاد لإيجاد إرادة تغيير لدى السياسيين و العلماء و الجماهير الإسلامية لتقبل مشروع مقاومة التعصب المذهبي ، على مستوى الأفكار و المشاعر و الأفعال ، و يتم ذلك بناء على اتفاق مُسبق بين كل الأطراف المعنية .

6- إبعاد العوام عن التمذهب مطلقاً ، -أصولاً و فروعاً- ، لأن تمذهبهم يضر بهم و بالمجتمع ، و لا يقدم نفعاً للأمة ، و قد ذكرنا على ذلك شواهد تاريخية كثيرة ، كان فيها العوام هم وقود الفتنة الدامية التي حدثت بين الطوائف الإسلامية . فمن مصلحة الأمة

تحقيق الاتباع لنبيينا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

إبعاد هؤلاء عن التمذهب ، لأن العامي-كما قال بعض العلماء- : لا مذهب له ، لأنه يفتقد القدرة على الاختيار، فكيف يستطيع أن يختار لنفسه مذهباً ؟ ! ، فعلى العوام أن يسألوا أهل العلم بلا تمذهب و لا تعصب ، و هكذا كان حالهم زمن الصحابة و السلف الأول .

و أما المجموعة الثانية -من الحلول- فتتعلق بحلول فقه الطوائف السنية الأربعة ، و تتضمن أربعة حلول ، أولها السعي الجاد لإيجاد فقه عام مُيسر خال من التعصب المذهبي للمذاهب و الأشخاص ، يقوم أساساً على أخذ الأحكام من الكتاب و السنة الصحيحة مباشرة ، مع الاستعانة بفقه الصحابة و السلف الأول ، و كبار علماء الأئمة خلال العصر الإسلامي عند الحاجة إليه ، على أن يكون الحكم في كل ذلك للدليل العلمي وحده .

و ثانيها جمع المسائل الفقهية المختلف فيها بين العلماء و المذاهب ، و تحريرها تحريراً علمياً موضوعياً نزيهاً صحيحاً ، بلا تعصب للمذاهب و الأشخاص ، مع الحرص على تضيق فجوة الخلاف ما أمكن ، (وترجيح الراجح بين الأقوال) و عدم إقرار الأحكام المتناقضة مع روح الشريعة و مقاصدها ، كالتى وقع فيها كثير من الشافعية و الحنفية عندما أبطلوا صلاة الشافعي و الحنفي خلف بعضهما بعض .

و الحل الثالث هو العمل لإحياء منهج الأئمة الأربعة في الاجتهاد الفقهي القائم على الدليل، لا على التقليد و التمذهب و التعصب ، و تبليغ ذلك لأتباعهم المتعصبين لهم ، بأن أئمتهم ما دعوا إلى تقليدهم و لا التعصب لهم ، و إن الاتباع الصحيح لهم هو إحياء منهاجهم الاجتهادي فهما و ممارسة ، و ليس هو تقليدهم في فتاويهم و التعصب لها .

و الحل الأخير -أي الرابع- الحرص على تربية أهل العلم على الاجتهاد الحر و حثهم عليه ، و التأكيد على أن التقليد هو عجز و سلبية ، و أن باب الاجتهاد مفتوح لا يصح غلقه و لا يستطيع أحد غلقه-بعدما فتحه الشرع و حث عليه- ، على أن يطرقه من هو أهلاً له ، وفق منهج علمي صحيح ، و بذلك نساعدهم-أي أهل العلم- على التخلص من عقدة التقليد المذهبي ، الذي هو من الأبواب الموصلة إلى التعصب المذهبي المذموم .

و أما المجموعة الثالثة ، فحلولها تتعلق ببعض مسائل أصول الدين المُختلف فيها ، منها قضية صفات الله تعالى ، فهي قضية أحدثت فتناً كثيرة بين الطوائف الإسلامية ، و أخذت من العلماء أوقاتاً و جهوداً كثيرة ، و أول حلولها : إثبات كل الصفات المذكورة في القرآن الكريم و السنة النبوية الصحيحة ، بلا تأويل و لا تحريف ، و لا تشبيه و لا تعطيل ، مع فهمها و النظر إليها انطلاقاً من قوله سبحانه تعالى : ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) - سورة الشورى : 11- ، و ((وَلَمْ يَكُنْ لَهُ كُفُوًا أَحَدٌ)) سورة الإخلاص : 4 - . فهو سبحانه لا يُشبهه شيء في ذاته و لا في صفاته ، و إثباتنا لصفاته هو إثبات وجود لا إثبات كيفية .

و ثانيها التخلي نهائيا عن التأويل الكلامي الذي يُصرف المعنى الظاهر الراجح للآيات إلى معنى آخر مرجوح ، كتأويل الاستواء بالإستلاء ، و اليد بالنعمة أو القدرة ، و هذه الطريقة في تأويل النص لا تصح نقلا و لا عقلا ، و لا مبرر لها و لا فائدة منها ، فهي تُعطل النصوص و لا تُقدم حولا صحيحة . فلو كان التأويل الكلامي مطلوبا شرعا لأمرنا الله تعالى به ، و قال لنا إن المقصود من صفة الرحمة ، و اليد ، و العين ، و الاستواء ، هو كذا و كذا ، و بما إنه لم يقل لنا ذلك و لا أمرنا به ، دل ذلك على أن التأويل غير مشروع .

و يجب أن يترسخ في عقولنا و قلوبنا إن إثبات الصفات كما أنه لا يستلزم تأويلا فإنه أيضا لا يقتضي تشبيهها و لا تجسيما ، و لا يؤدي إليهما إلا إذا قلنا إن صفاته تعالى تُشبه صفات مخلوقاته ، و أما إذا أثبتناها و نفينا عنها مشابقتها لصفات المخلوقين ، فهذا ليس تشبيها ، و لا يستدعي تأولا ، و إنما هو إثبات و تنزيه مصداقا لقوله تعالى: ((لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ)) - سورة الشورى : 11

كما أنه -أي التأويل- هو بحد ذاته مشكلة و ليس حلا ، لأنه غير مشروع شرعا ، و يُحَرِّف نصوص الكتاب و السنة ، و لا يُقَدِّم حلا في تأويله للصفات ، فنحن إذا ما قلنا مثلا إن إثبات الاستواء و اليد لله تعالى يُوهمان التشبيه ، و لابد من تأويلهما ، فأولنا الاستواء بالاستيلاء ، و اليد بالنعمة و القدرة ، فإن الإشكال لا يزول ، و يبقى السؤال مطروحا ، و هو : هل ذلك الاستيلاء كاستيلاء الإنسان ؟ ، و هل النعمة و القدرة ، كالنعمة و القدرة عند الإنسان ؟ فإن قيل : نعم ، فهذا تشبيه صريح ، و إن قيل : لا ، فلا حاجة لنا إذن للتأويل أصلا ، و نقول : إن استواء الله تعالى ليس كاستواء البشر ، و إن يده ليست كيد الإنسان ، و إن نزوله ليس كنزول مخلوقاته ، و إن رحمته ليست كرحمة البشر ... و هكذا مع كل الصفات الثابتة لله تعالى ، و بذلك يكون التأويل لم يقدم لنا حلا ، بل أدخلنا في متاهة لا مخرج منها ، إلا بالتخلي عنه و إتباع القاعدة الشرعية ، التي تنص على إثبات الصفات مع التنزيه و عدم التشبيه .

و لأنه أيضا لا فائدة منه ، لنفيه ما أثبتته الله تعالى لنفسه وتعطله النصوص الشرعية و تحريفها ، و زجه بالعقل في مسائل غيبية لا يدركها ، و لا يعلمها إلا الله تعالى . و لأنه أيضا اعتداء على النصوص ، و اتهام للدين بالنقصان ، و يؤدي إلى اختراع صفات لله تعالى لم يصف بها نفسه ، و تشبيهه بالجمادات و المعدومات و المنقوصات .

و أما المجموعة الأخيرة -أي الرابعة- فحلولها تتعلق بانقسام أمة الإسلام- قديما و حديثا- إلى فرق و مذاهب متصارعة ، و متنافرة و مُكَفِّرة لبعضها بعض ، كالسنة و الخوارج و الشيعة ، و أول حلولها -لعلاج التعصب المذهبي- هو توحيد مصدر التلقي بين تلك الفرق ، لأن لكل منها مصادر دينية -إلى جانب القرآن- تنفرد بها و ترجع إليها ، و تستقي منها أصولها و فروعها ، و من خلالها تنظر في القرآن و تُفسِّره . فالخوارج

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الإباضية لهم مصدر يأخذون منه الأحاديث النبوية ، هو كتاب مُسند الربيع بن حبيب . و للشيعَة الاثنى عشرية كتاب في الحديث الكافي في الأصول و الفروع ، لأبي جعفر محمد بن يعقوب الكليني . و للأهل السنة مصنفاتهم في الحديث النبوي ، منها كتب الصحاح و السنن و المسانيد . و بما أن لكل طائفة مصادرها و لا تعترف بمصادر الطوائف الأخرى ، فلم يبق أمامها إلا القرآن الكريم الذي يجمعها ، فمن أنكره فقد كفر ، فهو مصدر التلقي الوحيد الذي يجب عليها أن تحتكم إليه ، و عنده تتوقف و تترك مصادرها الأخرى جانباً .

و ثانيها –أي الحلول- عرض مبادئ كل طائفة على القرآن الكريم والسنة الصحيحة بطريقة علمية صحيحة ، بلا تأويل و لا تحريف ، فما وافق القرآن والسنة قبلناه و ما خالفه رفضناه و تركناه ، و مثال ذلك مبادئ الشيعة الاثنى عشرية ، فمنها اعتقادهم بوجود اثني عشر إماماً –بعد النبي- معصوماً من الخطأ ، كلامهم شرع مقدس يجب العمل به ، و من كفر بهم أو بواحد منهم فهو كافر . و منها زعمهم بتحريف القرآن و تكفيرهم للصحابة(1) . و مبادئهم هذه يرفضها القرآن الكريم والسنة النبوية جملة و تفصيلاً ، و ينكرها بشدة ، لأنها تتناقض معه تناقضاً تاماً ، و هذا واضح وضوح الشمس ، لا ينكره إلا متعصب مُعانِد ركب رأسه و اتبع هواه و شيطانه ؛ لأن القرآن الكريم لا وجود فيه لحكاية الأئمة المعصومين أصلاً ، و لم يُذكر فيه و لا واحد منهم .

و الحل الثالث هو عرض الكتب الحديثية – التي عند الفرق الإسلامية – على القرآن الكريم وفق منهج علمي صحيح فالتّي وافقته و لم تتناقضه ، و صحت أسانيدُها و متونها ، قبلناها و التي لم تتفق معه ، و لا صحت أسانيدُها و متونها ، رفضناها و حكمنا عليها بالضعف و الوضع من دون تعصب لكتاب أو لآخر . و واضح لكل إنسان صادق موضوعي نزيه أن كتب الصحاح السنية هي التي تتفق تماماً مع ما في القرآن الكريم ، و من أنكر ذلك فعليه أن يتجرد من العصبية و يتحقق بنفسه . و أما كتب الطوائف الأخرى فلا تتفق تماماً مع القرآن الكريم ، فبعضها قد يتفق معه بنسبة 60 في المائة ، و بعضها الآخر قد يتفق معه بنسبة 40 في المائة ، و بعضها قد يتفق معه بنحو 2 في المائة فقط .

و الحل الرابع عرض رواياتنا التاريخية المتعلقة بالمذاهب و رجالها ، على منهج علمي صارم صحيح لتمييز صحيح تلك الروايات من سقيمها ، فنعرضها على القرآن الكريم أولاً ، ثم على السنة النبوية الصحيحة ثانياً ، و على الثوابت و المتواترات التاريخية ثالثاً ، و على بدائه العقول و حقائق الطبيعة و العمران البشري رابعاً ، على أن ينصب نقدنا على الأسانيد و المتون معاً ، فما صحّ منها أخذناه و ما لم يصح تركناه ، من دون تعصب لأي مذهب .

¹ سبق ذلك في الفصلين الأول و الثاني .

و الحل الأخير — أي الخامس- هو أنه على أتباع المذاهب الإسلامية أن يُوطّنوا أنفسهم و يُهيئوها لتقبل الحقيقة التي سيخرج بها التحقيق العلمي للمذاهب و الأحاديث و الروايات التاريخية . و عليهم أيضا أن يستعدوا لترك أفكارهم و مذاهبهم و أحاديثهم و أخبارهم إذا ما أثبت التحقيق العلمي بطلانها ؛ فليفتحوا قلوبهم و عقولهم لتقبل الحقيقة حتى و إن كانت مرة . و بدون هذا الاستعداد لا يمكن الوصول إلى كلمة الحق التي تجمع المسلمين على كتاب ربهم و سنة نبيهم الصحيحة ، و منهاج سلفهم الصالح ، هذا الطريق هو الذي يُعدهم عن التعصب المذهبي المذموم ، و يجمعهم على كلمة الحق بإذن الله تعالى .

و ختاماً لهذا الفصل — هو الأخير- يتبين لنا أن العصب المذهبي — خلال العصر الإسلامي- كان راسخاً في المجتمع الإسلامي ، ترك فيه آثاراً سلبية كثيرة على مختلف مظاهر الحياة الاجتماعية و السياسية و العلمية ، لأسباب كثيرة ، بعضها أسباب رئيسية عميقة ، و أخرى أسباب ثانوية مساعدة ، امتزجت كلها و تفاعلت فيما بينها ، فأدت إلى انتشار التعصب المذهبي و تعميقه بين المسلمين ، الأمر الذي استدعى حلولاً جذرية لا ترقيعية لعلاجها ، فذكرنا منها طائفة في أربع مجموعات ، إن أخذنا بها ستخلّصنا — بإذن الله تعالى- من التعصب المذهبي البغيض الذي أفسد المشاعر و الأفكار و السلوكيات.(1)

¹ الباب الثالث مأخوذ من كتاب "التعصب المذهبي في التاريخ الإسلامي-خلال العصر الإسلامي- مظهره ، آثاره ، أسبابه ، علاجه" بتصريف و اختصار، للدكتور خالد كبير علّال وقد أجاد وأفاد في هذه الرسالة و قمتُ (أبو عبد الرحمن) بإعادة الترتيب و الاختصار

الخاتمة

وأخيرا أود أن أوجه نصيحة للمسلمين في كل مكان وزمان الذين قد وقعوا في التقليد الأعمى والتعصب المذموم للمذاهب وللأشخاص و التي قد تسببت التفرق والاختلاف والتحزب بين كثير من المسلمين وبخاصة الذين ينتسبون إلى أهل السنة والجماعة-. أقول: احرصوا أيها الإخوة على ما ينفعكم من تعلم ما يوصلكم إلى معرفة ربكم ودينكم ونبييكم'

وللأسف وجدت بعض المسلمين في أمريكا يخرجون الناس من الإسلام أو السلفية بسبب أنه خالف رأي أو اجتهاد شيخه، وهذه بعض النقولات لأهل العلم في هذه المسألة نذكر بها إخواننا:

قال الشيخ العلامة محمد ناصر الدين الألباني رحمه الله: "فهذا المنتمي إلى السلف الصالح على نسبة قربه وبعده في تحقيق انتسابه إلى السلف الصالح يقال فيه إنه مع السلف الصالح ، ولذلك فلا يصح أن يطلق القول بإخراج من كان يعلن ولو بلسانه على الأقل (ما لم ينقض بفعله ما يقوله بلسانه) لا يصح أن نقول أنه ليس سلفيا ما دام يدعو إلى منهج السلف الصالح، ما دام يدعو إلى إتباع الكتاب والسنة وعدم التعصب لإمام من الأئمة، فضلا عن أن يتعصب لطريق من الطرق فضلا عن أن يتعصب لحزب من الأحزاب ، لكن له آراء يشذ فيها في بعض المسائل الاجتهادية ، وهذا لا بد منه... لكن (يعني ينظر إلى) القاعدة هل هو مؤمن بها ؟ هل هو داع إليها ؟" (1)

وقال الشيخ الألباني رحمه الله : "إذا كان هذا المخالف يخالف نصا أولا لا يجوز إتباعه ، وثانيا لا نبدع القائل بخلاف النص وإن كنا نقول إن قوله بدعة ، وأنا أفرق بين أن تقول فلان وقع في الكفر وفلان كفر وكذلك فلان وقع في البدعة وفلان مبتدع ... ، فأقول فلان مبتدع مش معناه وقع في بدعة، وهو من شأنه أنه يبتدع ، لأن مبتدع اسم فاعل، هذا كما إذا قلنا فلان عادل ليس لأنه عدل مرة في حياته ، فأخذ هذا اسم الفاعل ، القصد أن المجتهد قد يقع في البدعة لكن لا إثم بها ولا أطلق عليه اسم مبتدع ، هذا إذا خالف نصا" يعني و كانت المسألة اجتهادية . (2)

وقال رحمه الله " : لا غرابة في أن يكون يخطئ من كان إماما في دعوة الحق ، فإذا أخطأ في مسألة أو أخرى في مسألتين أو ثلاث أو أكثر فذلك لا يخرج عن دعوة الحق إذا تبناها ، الحافظ ابن حجر والإمام النووي وغيره ممن أخطئوا في بعض المسائل العقدية كما يقولون اليوم فذلك لا يخرجهم من كونهم من أهل السنة والجماعة، لأن

1 - (سلسلة الهدى والنور (848) الوجه الأول وهو الشريط الأول من مسائل أبي الحسن الدعوية .
2 - (سلسلة الهدى والنور (850) الوجه الثاني وهو الشريط الثالث من مسائل أبي الحسن الدعوية وراجع الكلام نفسه مطولا مع المثال في فتاوى المدينة

الشريط الرابع الوجه الأول)

العبرة بما يغلب على الإنسان من فكر صحيح أو عمل صالح ، متى يكون المسلم صالحاً ؟ هل يشترط لكي يكون صالحاً أن لا يقع منه أي ذنب أو معصية ؟ الجواب لا ، بل من طبيعة الإنسان أن يقع منه الذنب والمعصية مراراً وتكراراً ، فمتى يكون العبد صالحاً إذا غلب خيره شره وصلاحه ضلاله ، وهكذا تماماً كذلك يقال عن المسائل العلمية مسائل عقدية أو فقهية ، فإذا كان هذا العالم يغلب عليه العلم الصحيح فهو الناجي ، وأما أنه له زلة أو زلات في الفقه أو في العقيدة فهذا لا يخرجها عما غلب عليه من العقيدة . فابن حجر مع ما ذكره مما له من تلك الزلات فلا يعني ذلك أنه لا ينبغي أن نستفيد من كتابه وأن لا نترحم عليه وأن لا نحشره في زمرة المسلمين المتمسكين بالكتاب والسنة." (1)

وقال الشيخ الألباني رحمه الله بعد أن قرر أصل العذر في العقيدة والفقه بلا فرق وأن المجتهد المخطئ مأجور بكل حال قال: "إن كان ابتغى وجه الحق والصواب فأخطأه فلا يجوز أن يقال إنه ليس من أهل السنة بمجرد أنه وقع في خطأ أو وقع في بدعة." وبعد أن سئل عن قضية إقامة الحجة: "فإن عاند وأصر فيبدع ، أما إذا قال لم يظهر لي وجه الصواب فيما تقولون ، بل هو يعكس ذلك عليهم وهو يخطئهم بدوره فتبقى المسألة مسألة خلافية بينهم وبينه" (2)

فأقول: فعليكم بالنصيحة أيها الإخوة الكرام- إن رأيت أحداً من المسلمين قد وقع في خطأ يخالف الكتاب والسنة تنصحونه -سراً أولاً- بالعلم والأدب وبأسلوب وألفاظ الشرع ثم احرص على مراسلته وزيارته ومجالسته حتى يرجع إلى الحق ثم اصبر عليه وادعوا الله له بالهداية والرشد و لا تستعجلوا في تشهير أخطائه والكلام فيه إلا بعد التثبت منه لعله قال أو فعل شيئاً ثم تراجع عنه و أنت ما تعرفه فتكون كلمت فيه بعد أن قد تاب و تراجع عن قوله أو فعله. و لا تستعجلوا في الحكم على الناس إلا بعد مشاورة العلماء والطلبة العلم الكبار و النظر في المصالح والمفاسد في طريقة التعامل مع المخطئ: هل يستحق أن ينصح، أو يحذر منه أو يبدع أو يقاتل أو يحبس أو يهجر و إن هجرته فأذكركم بكلام الشيخ الإسلام:

قال الشيخ الإسلام ابن تيمية: "وَهَذَا الْهَجْرُ يَخْتَلِفُ بِاخْتِلَافِ الْهَاجِرِينَ فِي قُوتِهِمْ وَضَعْفِهِمْ وَقِلَّتِهِمْ وَكَثْرَتِهِمْ فَإِنَّ الْمَفْصُودَ بِهِ زَجْرُ الْمَهْجُورِ وَتَأْدِيبُهُ وَرُجُوعُ الْعَامَّةِ عَنْ مِثْلِ حَالِهِ . فَإِنْ كَانَتْ الْمَصْلَحَةُ فِي ذَلِكَ رَاجِحَةً بِحَيْثُ يُفْضَى هَجْرُهُ إِلَى ضَعْفِ الشَّرِّ وَخَفِيفَتِهِ كَانَ مَشْرُوعًا . وَإِنْ كَانَ لَا الْمَهْجُورُ وَلَا غَيْرُهُ يَرْتَدُّ بِذَلِكَ بَلْ يُزِيدُ الشَّرَّ

1 - (سلسلة الهدى والنور (728) الوجه الثاني)

2 - (سلسلة الهدى والنور (734) الوجه الأول .)

وَالْهَاجِرُ ضَعِيفٌ بِحَيْثُ يَكُونُ مَفْسَدَةٌ ذَلِكَ رَاجِحَةٌ عَلَى مَصْلَحَتِهِ لَمْ يَشْرَعْ الْهَجْرُ ؛ بَلْ يَكُونُ التَّأْلِيفُ لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْفَعٌ مِنَ الْهَجْرِ . وَالْهَجْرُ لِبَعْضِ النَّاسِ أَنْفَعٌ مِنَ التَّأْلِيفِ" (1)

أيها الإخوة: لا بد أن نتساءل إن رأينا أحدا يخطئ: هل خطؤه بدعة أو مجرد خطأ مبني على عدم تصوره للمسألة؟ هل يدعو إلى هذا القول أو الفعل أو الاعتقاد؟ هل قصّد الحق واجتهد ولم يصب؟ أو قصد الباطل و صرح به ونشره بين الناس؟ لا بد من هذه التساؤلات.

قال الشيخ محمد بن سعيد الرسلان حفظه الله في "ضوابط التبديع" ص 45: "و من أجل خطورة البدع واشتباه أمر كثير منها على كثير من الناس وضع العلماء قواعد التعامل مع أهل البدع لأن البدعة ليست على درجة واحدة في الإفساد في الدين و كذلك المبتدعة منهم المشتهر ببدعته و منهم دون ذلك, و منهم الداعي إلى بدعته و منهم من ليس كذلك, و منهم المستظهر بالاتباع, و منهم القائم بها وحده, و منهم الخارج عن الناس و منهم الملازم لهم, و منهم العامل بالبدعة على جهة الجهل و منهم من أضله الله على علم. و كل قسم من هذه الاقسام له اجتهاد يخصه إذ لم يأت في الشرع في البدعة حد لا يزداد عليه و لا ينقص منه كما جاء في كثير من المعاصي كالسرقة و الحراية و القتل و القذف و الجراح و الزنا و غير ذلك." انتهى كلامه

أقول: كل بدعة ضلالة ولكل نوع من البدعة و الخطأ اجتهاد يخصه في طريقة التعامل معه, فالمجتهدون تفاوتوا في تعاملهم مع أهل البدعة و المخطئين. و إلى هذا أشار شيخنا الشيخ العلامة محمد بن علي بن آدم حفظه الله في ألفيته (ألفية التوحيد ص83):

فَأَهْلُ سُنَّةٍ تَفَاوَتُوا لَدَى مُعَامَلَاتِهِمْ لِمَنْ قَدْ اعْتَدَى
بِبِدْعٍ فَتَارَةً قَدْ بَيَّنُّوا-وَبَذَلُوا النُّصْحَ لَهُ وَأَعْلَنُوا
وَتَارَةً دَارَوْهُمْ بِالْأُلْفَةِ-وَاللُّطْفِ وَالرَّفْقِ طَرِيقَ الْحِكْمَةِ
وَتَارَةً بِالْهَجْرِ وَالْمُقَاطَعَةِ-وَبِالْمُجَافَةِ بِلا مُصَانَعَةٍ
وَكُلُّ ذَا يُبْنَى عَلَى تَفَاوُتِ-مَرَاتِبِ الْبِدْعِ فِي التَّهَافُتِ
وَبِاخْتِلَافِ حَالِ أَهْلِهَا كَذَا-وَفَقَّ الصَّلَاحِ وَالْفَسَادِ يُحْتَدَى
وَفِي الزَّمَانِ وَالْمَكَانِ يَخْتَلِفُ-وَكُلُّهَا حَسَبَ السِّيَاسَةِ عُرِفَ
فَأَوَّلُ الْأَمْرِ لِمَنْ قَدْ خَالَفا-يُدْعَى بِحِكْمَةٍ وَلُطْفٍ لَا جَفَا

يُفْبِلُ حَقُّهُ يُرَدُّ الْبَاطِلُ-وَأِنَّمَا يَفْعَلُ هَذَا الْكَامِلُ
مِمَّنْ لَهُ فَهْمٌ وَذَوْقٌ فِي السُّنَنِ-وَعِلْمٌ تَفْسِيرِ الْكِتَابِ الْمُؤْتَمَنُ
أَمَّا الْمُقَصِّرُ فَلَيْسَ لَهُ أَنْ-يُنَظِرُ الضُّلَّالَ كَيْ لَا يُفْتَتَنَ
إِذْ شُبُّهُائِهِمْ قَوِيَّةٌ فَلَا-يُؤْمَنُ خَدْعُهُمْ لَهُ فَيُخَذَّلَا

فأيها الإخوة: قد نرى و نسمع بعض الناس يرددون كلاما مثل "أن شيخ يبدع فلانا" و لا يبدعه بعض المشايخ الآخرين.

فأقول: ما دام أن المجتهدين اختلفوا في تعاملهم مع أهل البدعة و المخطئين و المخالفين فليس لأحد أن يلزم غيره بطريقة معينة في التعامل مع من وقع في البدعة و المبتدعة و المخطئين إلا من كان مقلدا وإن كان كذلك فالمقلد يلزم التقليد و ليس له أن يجبر أو يلزم آخرين برأي شيخه ثم يحذر منه لأنه خالف رأي شيخه في فلان أو فلان. (1)

مثال على ذلك قد يكون هذا المخطئ من أقرب الناس إليك و يحترمك و يستمع إليك و أسلوبك و عبارتك تؤثر فيه, و لك من العلم ما يكفيك أن تزيل شبهه, و مقالاته الخاطئة لا تؤثر فيك, فعليك أن تجادله بالتتي هي أحسن و ترشده و تنصحه لتقنعه ليتراجع عما قال أو فعل و يرجع إلى الحق. ففعل الأفضل لك هو بذل النصيحة و التوجيه.

لكن بعض الناس يرفضون هذا و يقولون: "يا فلان لا بد أن تبدعه لأن الشيخ فلان بدعه, و قد رأيناه معك و صاحبته, وهذا يدل على أنك توافقه (في بدعته أو خطئه) و تحبه فإما أن تبدعه أو نبدعك و نحذر الناس منك!!!" وقد سمعت و رأيت مثلا هذا كثير في أمريكا. (2)

وقد يكون الشخص ضعيف في معرفة أدلة الكتاب و السنة و لا يعرف طرق التعامل مع المخطئين و ليس له قدرة على مجادلة بالتتي هي أحسن و يتأثر بمقالات الخاطئة ففعل الأحسن له أن لا يجالس ذلك المخطئ و لا يقربه. فهل (العاقل) أن يقال له: "لا بد أن تنصحه و تجلس معه." لا أبدا!!!.

¹ مع أنه ينبغي لمن له القدرة أن يحذر ويبين من أخطاء المخطئين والمبتدعين بالأدلة و الأدب وهذا نصيحة له وللمسلمين

² -ذكر الشيخ عبيد الجابري حفظه الله في هذه المناسبة في شريط له "أصول وقواعد في المنهج السلفي": "النصيحة لها حد محدود, فالشخص المتبدع إذا رأيت أن قربك يؤثر فيه, ويكسر حدته في البدعة ويقربه إلى السلفية: فعليك به, كن معه. لكن إذا لم يكن نصحك نافعا له ولا مفيدا فانفض يدك منه, ثم بعد ذلك عامله بما يستحق: قد يهجر وقد لا يهجر, ولكنه يحذر من أفكاره. هذا امر راجح إلى قاعدة: "النظر في المفسد والمصالح" المترتبة على ذلك." انتهى كلامه حفظه الله.

وقد رأيت في الغرب من بعض طلبة العلم الصغار الذين ينتسبون إلى السلفية يتسرعون و يستعجلون في تبديع الناس وإسقاطهم وإخراجهم من أهل السنة لأي خطأ كبيراً أو صغيراً . و هم لا يفقهون أن ليس كل من وقع في البدعة يبدع كما ذكر العلماء ومنهم الشيخ العلامة ربيع بن هادي المدخلي حفظه الله: "وكذلك كل من وقع في بدعة لا يبدع لأن لو أخذنا بهذه القاعدة لبدعنا أكثر أئمة الإسلام. فيقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله إنه كثير من أئمة السلف والخلف وقع في بدعة من حيث لا يشعر إما لأنه اعتمد حديثاً ضعيفاً أو فهم من النص غير مراد الله ومراد رسوله أو الاجتهاد. الآن عندنا أئمة مجتهدين وقد يؤدي اجتهاده (إلى خطأ أو بدعة فإذا) عرفنا سلامة المنهج وسلامة القصد و البعد عن الهوى و تحري الحق إذا عُرف هذا عنه ثم وقع في بدعة لا يبدع لكن إذا عرفنا منه الهوى وعرفنا منه سوء القصد وعرفنا منه أشياء تدل على أنه يريد البدعة هذا يبدع. لهذا تجدهم حكموا على كثير من الناس بأنهم مبتدعة وكثير من الناس وقعوا في أخطاء ما سموهم مبتدعة لأنهم عرفوا سلامة قصدهم وحسن نواياهم وتحريمهم للحق وسلامة المنهج... (1)

وقد أفنى الشيخ العلامة أحمد النجمي رحمه الله لما سئل: هل كل من وقع في البدعة فهو مبتدع؟ ومتى يحكم على الشخص بأنه مبتدع؟ أجاب الشيخ العلامة أحمد النجمي -رحمه الله ونصر به دينه:-
"من وقع في بدعة من البدع، متفق عليها ومعروف بأنها بدعة، يجب أن ينصح، يجب أن ينصح وتكرر عليه النصيحة، ولا ينبغي أن يسارع بالحكم عليه بالبدعة بل هذا خطأ، نعم، فإننا إذا فعلنا ذلك يكاد أن يسقط بعضنا بعضاً، ويكون أهل المنهج السلفي - أصحاب المنهج السلفي- مع قلتهم يكادون يتساقطون واحداً واحداً²، بل الذي ينبغي إذا حصل من إنسان شيء من ذلك يجب أن ---- وأن لا نتسرع بالحكم عليه بالبدعة والتحذير منه والأمر بهجره، بل نكرر عليه النصيحة من عدة أشخاص ثم بعد ذلك إذا أصر وأبى عند ذلك نقول فلان مبتدع، احذروه. أما أن نتسرع ونحكم عليه بالبدعة فهذا لا ينبغي، وليس هذا في صالح الدعوة السلفية، بل يجب التأني وعدم التسرع في ذلك". (3)

فلأسف الشديد وجدنا في الغرب ممن ينتسبون إلى أهل السنة و يقولون "نحن على منهج الشيخ فلاني أو نحن اتفقنا على أن الشيخ فلان مرجع لنا" !!
وكمثل هذه الأقوال يؤسفنا جداً "ألسنا متعبدون لله باتباع منهج النبي وأصحابه؟؟؟" و هل يقول العاقل: "أنه يلزم جميع المسلمين أن يتفقوا على أن يتبعوا شيخاً معيناً كمرجع لهم في معرفة أمور دينهم؟؟؟" لا أبداً!!! فبعض المسلمين يرون أن الشيخ فلان أعلم من

¹ -شريط "جلسة في الخرج"

² وهذا الحاصل و المشاهد الآن

³ -انظر (http://up.9q9q.net/up/index.php?f=461c97dfc)

تحقيق الاتباع لنبيّنا المعصوم وإبطال التحزب والتقليد الأعمى والتعصب المذموم

الشيخ فلان واختاروه ليستشيروه في أمور دينهم وآخرون اختاروا شيخا آخر (من أهل السنة) فهل يلزم الجميع أن يتفقوا على شيخ معين في حل مشاكلهم ؟ لا أبدا. بل اجعلوا جميع مشايخ أهل السنة ممن تستشيرونهم في أمور دينكم وخذوا منهم كل ما وافق القرآن والسنة وفهم السلف واتركوا ما خالف. الحذر الحذر يا إخواني في الله في الغرب أنتم تعيشون بين ظهرائي المشركين والكفار و غير المسلمين فاحرصوا على تحقيق الشهادتين في أقوالكم وأعمالكم وادعوا إلى سبيل ربكم بالحكمة و الموعظة الحسنة و جادلوا و عاملوا الناس -المسلم وغير المسلم-بالتي هي أحسن وعلّموا إخوانكم من المسلمين دينهم الصحيح واصبروا على العوام والجهال وابدلوا النصح والتوجيه والإرشاد للمخطئين واعتصموا بحبل الله جميعا ولا تفرقوا وحافظوا على وسائل الوحدة و التمكين (الاجتماع على كلمة لا إله إلا الله عقيدة و عملا) مع بيان أخطاء المخطئين بالعلم و الأدب و الأسلوب العلمي لأن لا تشوشوا صورة الإسلام لمن يريد أن يدخل فيه. اجتمعوا على التوحيد الخالص و الاتباع الحقيقي للنبي' و ستجدون أن الناس سيدخلون في دين الله أفواجا وسيزيدكم الله قوة وتمكينا.

هذا نصيحتي لنفسي وللمسلمين جميعا في كل مكان وزمان وبخاصة إخواننا في الغرب. وكل ما قلته وهو موافق للقرآن والسنة وفهم السلف فهو من الله وحده لا شريك و إن ذكرت شيئا غير مراد الله ورسوله فأني استغفر الله تعالى منه الآن وبعد مماتي. أسأل الله أن يتقبل مني هذا العمل ويجعله خالصا لوجهه الكريم وأصلي وأسلم على نبيينا محمد سيد الانبياء و المرسلين.

جمعه: أبو عبدالرحمن فاروق بوست الأمريكي

صبيح يوم الأربعاء 1434/6/7

مكة المباركة

ثم راجعه 1442/3/25

فهرس الموضوعات

الموضوع

الصفحة

المقدمة

2

13 الباب الأول: الاتباع والمتبعون

14 الفصل الأول: تعريف الاتباع

16 الفصل الثاني: أقسام الاتباع

19 الفصل الثالث: الاتباع منهج الأنبياء والرسل والمؤمنين جميعا

26 الفصل الرابع: أمر الله تعالى باتباع النبي

33 الفصل الخامس: من أحق الناس بالاتباع بعد نبيينا محمد

36 الفصل السادس: منهج العلماء من الصحابة ومن تبعهم بإحسان في فهم الوحيين

53 الفصل السابع: نماذج تبين منهج الصحابة في اتباع النبي في حياته

56 الفصل الثامن: منهج الصحابة في عهد النبي عند حصول الاختلاف بينهم

65 الفصل التاسع: منهج الخلفاء الراشدين والصحابة في اتباع سنة النبي بعد وفاته

73 الفصل العاشر: أهمية الاتباع وفوائده و آثاره الطيبة على الفرد والمجتمع

84 الفصل الحادي عشر: ظهور من ترك الاتباع الحقيقي للنبي

88 الفصل الثاني عشر: الآثار السيئة المترتبة على ترك الاتباع

96 الفصل الثالث عشر: ترك الاتباع يؤدي إلى التفرق و الاختلاف وتسلط الأعداء على المسلمين و ذهاب قوتهم

100 الفصل الرابع عشر: ما ينبغي للمسلم أن يفعله لتحقيق الاتباع الحقيقي للنبي

101 الفصل الخامس عشر: ملخص لفوائد الاتباع وبعض المفاسد لترك الاتباع

102 الباب الثاني: ظهور المذاهب

103 الفصل الأول: خير القرون و ونشأة المذاهب

108	الفصل الثاني : لماذا وكيف انتشر المذاهب
112	الفصل الثالث: من يجوز له التقليد
121	الفصل الرابع: نهى أصحاب المذاهب عن تقليدهم والتعصب إليهم
125	الباب الثالث: تاريخ التقليد والتعصب المذموم
126	الفصل الأول: التعصب والحزبية
129	الفصل الثاني: من أعظم عوائق الاتباع التعصب المذهبي والتقليد الأعمى والحزبية
131	الفصل الثالث: بدايات ظهور التعصب المذهبي عند المسلمين
140	الفصل الرابع: الفتن المذهبية بين الطوائف السنية
143	الفصل الخامس: التفاضل بالأئمة و المذاهب
151	الفصل السادس: الغلو في العقائد و المذاهب
155	الفصل السابع: مما وقع بين المذهبيين بسبب الخلاف في الأصول والفروع
160	الفصل الثامن: مؤلفات في الانتصار للمذاهب و التعصب لها
164	الفصل التاسع: تأسيس وتخصيص المدارس والمساجد لكل مذهب
170	الفصل العاشر: المحن التي أصابت بعض العلماء على أيدي المتعصبين
173	الفصل الحادي عشر: تمذهب الدول الإسلامية و تعصبها لمذاهبها
175	الفصل الثاني عشر: تعصب الخلفاء و الملوك و أعوانهم لمذاهبهم
178	الفصل الثالث عشر: ما وقع في مكة المكرمة بسبب تقليد المذاهب و التعصب لها
183	الفصل الرابع عشر: أقوال أهل العلم في التقليد والتعصب المذموم والحزبية
194	الفصل الخامس عشر: الآثار السيئة لتعصب المذهبي
199	الفصل السادس عشر: أسباب التعصب المذهبي
203	الفصل السابع عشر: علاج ظاهرة التعصب المذهبي
208	الخاتمة